الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة الجزائر

معهد اللغة والأدب العربي

الموضوع

الشعر الاصلاحي الجزائري الحديث

قضاياه المعنوية و الفنية (1925-1962)

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

في الأدب العربي

اعداد الطالب :

محمد كناي

اشراف الاستاذ :

د. عبد الله الركيبي

السنة الجامعية: 93-94

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أولا - الدوافع : من الصعب على الباحث تحديد أسباب معينة أثرت في اختيار موضوع ما ميدانا لدراسته، ذلك أن هذا الإختيار يخضع لعوامل متعددة، قد تكون الرغبة في إماطة اللثام عن جانب معين من الموضوع هي الهاجس الأساسي، وقد تكون عوامل أخرى.

وقد كان هذا البحث صدى للأحساس بالحاجة إلى جمع المادة الشعرية المتناثرة في شتى الصحف والمجلات الإصلاحية وتوضيح معالمها. ورسم صورة صحيحة قدر الإمكان لقضايا الشعر الإصلاحي الجزائري الحديث. والرد على بعض الافتراءات التي تتحامل عليه، وتجرده من كل قيمة فنية، من دون دراسة موضوعية تميز بين جوانبه الإيجابية والسلبية.

ثانيا - هيكل البحث وخطته : في البداية تم تحديد الإطار الزمني الذي يغطيه البحث، بالفترة الممتدة من عام 1925 إلى عام 1962، فبداية البحث بعام 1925، تعود إلى عدة عوامل واعتبارات منها :

- أن هذه الفترة تمثل مرحلة حاسمة في النهضة الجزائرية بصفة عامة، والأدبية بصفة خاصة، حيث قامت في أعقاب الحرب العالمية الأولى نهضة فكرية وأدبية، تجلت خاصة في بروز جريدة المنتقد، ثم الشهاب، مع إنشاء «نادي الترقي»، وبناء بعض المدارس.

- أن عددا من الدارسين يؤرخون لهذه النهضة الإصلاحية بهذه الفترة، فالشيخ ابن باديس يقول في هذا الإطار : «الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم برزت جريدة «المنتقد» المعطلة بقرار وزيري، فمن ذلك اليوم عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل» (1).

وتكاد الفكرة نفسها يكررها بعد ذلك حين يقول : «كانت أول دعوة للإصلاح

1 - الشهاب، ج1، مج6، فيفري 1930.

ثالثا - منهج البحث : حاولنا رصد القضايا والظواهر وتحليلها، ودراستها دراسة موضوعية على هدي من المنهج التاريخي حيث يتم مراعاة التسلسل التاريخي لصدور القصائد حتى يمكن تتبع تطور هذا الشعر، ومقارنة المعالجة بين الشعراء، وحيث يصير العمل الأدبي واقعة اجتماعية وتاريخية تبرز تفاعل الشاعر بالبيئة.

كما اعتمدنا على المنهج الفني حيث يكون للعمل الأدبي قيمة فنية.

وكنت أمهد لكل فصل حتى أضع القضية في إطارها التاريخي، وحتى ألقي الضوء على بعض جوانبه، ثم أشرع في عملية العرض والتحليل والمناقشة للنماذج الشعرية. ونظرا لكثرة النصوص الشعرية في هذا الاتجاه، فقد كنت أتخير أقواها وأصدقها تعبيرا عن عواطف الشعراء، وانفعالاتهم بجوانب القضية، ووضوح مواقفهم، وأشير إلى غيرها بتثبيتها في الهوامش.

وكنت أختار قصيدة معينة لشاعر معين إذا كثر عدد القصائد عنده التي تتناول الموضوع نفسه وأشير إلى غيرها في الهامش.

وأعمد دائما إلى إنهاء المبحث بالنتائج التي توصلت إليها.

رابعا - المصادر والمراجع : إن هذا البحث محاولة من محاولات عدة أسهمت في البحث عن كنوزنا الأدبية وبخاصة تلك المرتبطة بفترة هذا القرن، وهناك دراسات عديدة عدنا إليها لارتباطها بموضوعنا ارتباطا مباشرا، أو غير مباشر، ويمكن اجمالا تصنيفها على النحو التالي :

- مجموعات شعرية ودواوين مطبوعة للشعراء الإصلاحيين.
- دوريات متضمنة أشعارا إصلاحية ترتبط بالفترة المحددة في الدراسة.
- مؤلفات وبحوث تعنى بدراسة الشعر الجزائري بصفة عامة، وشعر جمعية العلماء بصفة خاصة، وأشعار بعض الشعراء الإصلاحيين بصفة أخص.
- كتب نقدية عامة تناولت قضايا ترتبط ارتباطا غير مباشر بموضوع دراستنا.

وصحيفة، وكتابا ... ودعوتهم إلى تعليم الناشئة وتربيتها تربية تقوم على أسس الدين والأخلاق.

ـ وعرضنا في الفصل الثالث للقضايا الاجتماعية، وبخاصة تلك المتعلقة بالموقف من البؤس، والمفاسد الاجتماعية، وعالجنا قضية المرأة وما يرتبط بها من سفور وحجاب، ومن تربية تؤهلها للقيام بمهامها النبيلة.

- وتناولنا في الفصل الرابع : القضايا السياسية، سواء أكانت داخلية أم خارجية. حيث ركزنا في دراستنا للسياسة الداخلية على تحليل مواقف الشعراء من السياسة الاستعمارية، ومن الأحداث السياسة المختلفة مثل المؤتمر الإسلامي الجزائري، وحوادث الثامن من شهر ماي 1945، والتمثيل النيابي وما يرتبط به من انتخابات ونواب.

وتناولنا في السياسة الخارجية موقف الشعراء الإصلاحيين من الوحدة المغربية، ومن قضايا العالم العربي والإسلامي، ومن قضية فلسطين التي رصد الشعراء تطوراتها المختلفة.

- وخصصنا الفصل الخامس للقضايا الفنية، فركزنا في محوره الأول على بنية القصيدة الإصلاحية من حيث وحدتها الموضوعية، والعضوية، وكذا النبرة الخطابية.

- وتناولنا في المحور الثاني اللغة الشعرية : من حيث خصائص اللغة الشعرية التقليدية، ومميزاتها، ومصادرها، كما عالجنا اللغة الشعرية الوجدانية وركزنا على تطورها وخصائصها. وعرضنا في المحور الثالث للصورة الشعرية، تتبعنا فيه تطورها من تقليدية إلى وجدانية مركزين على خصائص كل نوع، ومصادره.

- أما المحور الرابع فخصصناه للتشكيل الموسيقي، فركزنا في البداية على الموسيقى الخارجية للقصيدة بدراستنا للقافية، وبحور الشعر الإصلاحي، لنصل إلى دراسة الموسيقى الداخلية للقصيدة الإصلاحية.

- وأنهينا البحث بخاتمة عرضنا فيها ملخصا له ولأهم نتائجه، وذيلناه بفهارس للمصادر والمراجع، والأعلام، والموضوعات.

الإسلامي أعلنت في هذا الشمال الإفريقي على لسان الصحافة هي دعوتنا منذ بضع عشرة سنة في جريدة «المنتقد» الشهيدة، وفي خلفها «الشهاب» (1).

ويرى مالك بن نبي - الذي يعتبر شاهد القرن - أن ظهور الفكرة الإصلاحية كان بارزا عام 1925، حيث يقول في هذا الصدد: «حتى إذا ظهرت الفكرة الاصلاحية حوالي سنة 1925، تحركت المشكلة الجزائرية، وقد أوتيت لسانا ينطق، وفكرة تنير لها الطريق. (2)..

وينتهي البحث في حدود 1962، وهي الفترة التي استعادت فيها الجزائر استقلالها، وانطلق الشعر بعدها في أجواء من الحرية لم تكن متوفرة له من قبل.

وعلى الرغم من أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد توقفت عن النشاط في حدود 1956، إلا أن الشعراء الإصلاحيين استمروا ينشرون قصائد إصلاحية ذات طابع ثوري في مجملها، لم نستطع إهمالها، مما حدا بنا إلى تحديد عام 1962 نهاية للبحث.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن نقسمه إلى مقدمة، ومدخل، وخمسة فصول، وخاتمة.

حاولنا في المدخل الإشارة إلى حالة الشعر قبل الفترة الإصلاحية، وما كان يعتوره من ضعف في الأغراض والمعاني والأساليب، ثم بروز الشعر الإصلاحي، انطلاقا من مؤثرات وعوامل أسهمت كلها في تشكيله وتوجيهه الوجهة الإصلاحية بجوانبها المختلفة.

- وخصصنا الفصل الأول للقضايا الدينية التي عالجها الشعر الاصلاحي، فتتبعنا أساليب الدعوة إلى التمسك بالإسلام، ومهاجمة الانحراف الديني بأساليب لينة أحيانا، وقاسية أحيانا أخرى. كما تطرقنا إلى توظيف المناسبات الدينية المختلفة في هذا الشعر كالعام الهجري، والمولد النبوي الشريف، وشهر رمضان المعظم، والعيدين، وموسم الحج .. الخ

- أما الفصل الثاني فعالجنا فيه القضايا الثقافية والتربوية، حيث كان تأكيد الشعراء على أهمية العلم، وربطه بالدين والأخلاق، ودفاعهم عن اللغة العربية، وتغنيهم بالوسائل الثقافية مهما كان نوعها : مدرسة، وناديا، وكُتّابا، وجمعية، ومطبعة،

1 - الشهاب، ج1، مج12، جانفي 1937.

2 - شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط 3، 1969، ص 28.

رعاية، وأفادني بتوجيهات قيمة كان لها أثرها في بروز هذا البحث على هذه الصورة، فله جزيل الشكر. كما أشكر أساتذتي الكرام الذين تكبدوا مشاق قراءة هذه الرسالة وقبلوا مناقشتها ومن ثم إفادتي بآرائهم السديدة، ونصائحهم المخلصة التي ستكون عونا لي في بحوثي القادمة.

كما أسجل شكري لمعهد اللغة العربية وآدابها الذي أتاح لي فضل الانتماء إليه والإستفادة من أساتذته ومكتبته.

وأملي أن أكون قد أسهمت في إلقاء بعض الضوء على فترة متميزة من حركتنا الشعرية الحديثة

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق

- دوريات عربية.

- مراجع باللغة الفرنسية تعرضت لدراسة الشعر الجزائري.

خامسا – الصعوبات : عانت الدراسة جملة من الصعوبات لا يخلو منها أي بحث في بلادنا لاعتبارات معروفة ومن هذه الصعوبات :

- ما تعلق منها بالإشراف على البحث، حيث أن المشرف الأول الدكتور محمد ناصر، قد انتقل إلى إحدى الجامعات العربية والبحث لم يصل إلى نهايته، ولولا قبول الأستاذ الدكتور عبد الله الركيبي مواصلة الإشراف لما كان البحث على هذه الصورة.

- ما ارتبط بجمع المادة الشعرية المتناثرة في عشرات الصحف الأمر الذي يجعل جمعها كلها أو معظمها في غاية من العسر.

- وهناك صعوبة في دراسة قصائد الشعر الإصلاحي حيث يظهر تداخل الاتجاهات بين التقليدي المحافظ والوجداني الرومانسي عند شاعر بعينه وتداخل القضايا وتنوعها في القصيدة الواحدة مما يصعب ادراجها في اطار معين ... إلخ.

وبعد : فإني لست أزعم أني قد إطلعت على كل الشعر الإصلاحي، أو تعرضت إلى جميع قضاياه وظواهره لأنها من الكثرة بالدرجة التي يستعصي معها الإحصاء على الدارس مهما تبلغ به المحاولة الجادة المخلصة، والرغبة في الاحاطة الشاملة.

ولذلك لا أدعي أن هذا البحث قد انتهى إلى أبعد غاياته كما رسمتها له في البداية، أو وصل إلى ما أنشده له من النضج الذي كنت أتطلع إليه، وإني متيقن أن هناك ثغرات كثيرة فيه، لا يمكن لعمل فردي أن يسدها مهما بذل من جهد وعناية، وأن الباب ما يزال مفتوحا للباحثين لتناول جوانب أخرى في الحركة الإصلاحية، خاصة وأن هناك شعرا كثيرا لم يخضع للدراسة والبحث، وبعضه ما يزال مخطوطا في المكتبات الخاصة.

وفي الأخير فإني في هذا البحث لم انتفع بجهودي وحدها، ولكني انتفعت بتوجيهات استاذي المشرف الأول الدكتور محمد ناصر، ومن ارشادات استاذي الدكتور عبد الله الركيبي الذي تقبل عن طواعية مواصلة الإشراف، ورعى هذا البحث أحسن

فهرس المصطلحات الواردة في البحث

ج : جزء

مج : مجلد

س : سنة

سل : سلسلة

ط : طبعة

ع : عدد

ب.ت : بدون تاريخ

م. س : مصدر (أو مرجع) سابق

م. ن : مصدر (أو مرجع) نفسه

هـ : هجري

م : ميلادي

ر1 : ربيع الأول

ر2 : ربيع الثاني

ج1 : جمادي الأولى

ج2 : جمادي الثانية

ذ ق : ذو القعدة

ذ ح : ذو الحجة

م. و. ك : المؤسسة الوطنية للكتاب

ش. و. ن. ت : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

مدخل إلى الشعر الاصلاحي الجزائري الحديث

قبل أن نلج عالم الشعر الاصلاحي بقضاياه المختلفة، وظواهره الفنية، يجدر بنا الاشارة إلى أن هذا الشعر لم ينبت هكذا فجأة في الفترة التي حددناها في المقدمة، بل أنه يشكل امتدادا في بعض جوانبه للشعر الذي سبقه، وظهرت عليه تطورات أملتها عوامل كثيرة، وظروف معينة أسهمت في تشكيله وتوجيهه الوجهة الاصلاحية.

لقد كان الشعر السابق للفترة الاصلاحية «محصورا في دائرة العواطف الضيقة التي لا تتسع أكثر من تغني الشاعر سرورا عند فوزه بمرغوب ذاتي أو بكائه لفواته، أو ابتهاجه بمنظر طبيعي أو شغفه بمحبوب ... ولم يعد حدود هذه الاحساسات العرضية إلا إلى البيئة ولاخظ للوسط فيه.» (1)

وقد اعتبر الشيخ البشير الابراهيمي هذا النوع من الشعر «توافه من لغو الحديث» (2) فهي ليست من الشعر في شيء كما يقول، «وقد اطلعنا على أكثرها فإذا هي من لون واحد وإذا هي مصروفة في الغالب إلى مدح المشائخ والكبراء، وإذا هي أخت الأشعار الملحونة الرائحة في السوق لأنها منقطعة الصلة بالشعر في أعاريضه وأضربه، ومنقطعة الصلة بالعربية في ألفاظها ومعانيها، منقطعة الصلة بالخيال في تصرفه وانتزاعه.» (3)

لقد كان الشعر وقتئذ مطبوعا بطابع الضعف من حيث الأغراض والمعاني والأساليب، وهو ما عبر عنه سعد الدين بن أبي شنب في معرض حديثه عن كتاب «تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب» (4) حين وصف الشعر بالنحول والضعف في أغراضه ومعانيه وأساليبه؛ «فكانت أغراضه أغراضا تافهة لايضطرب لها القلب ولا يطير محلقا في السماء سماء الخيال والشعور.

وكانت المعاني في غالب الأحيان مبتذلة ركيكة منحطة تزحف مثل السلحفاة، والأساليب معقدة مثقلة بجميع أنواع البلاغة، فلم يزل الشعر الجزائري متخلفا عن نمط الاجادة إلا أنه قد يوجد فيه من آن إلى آخر بيت جميل أو قطعة بديعة.» (5)

ويبدو أن هذا الضعف مرده إلى الوسط الثقافي الذي كان ينهل منه الشعراء، وهو وسط لا يخرج عن دائرة الزوايا، والمساجد، وبعض المدارس التقليدية حيث يظهر التمسك بالقديم، وتقليد القدماء في أغراضهم ومعانيهم.

1 – محمد بن العابد الجلالي، تقويم الأخلاق، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، قسنطينة ، يناير 1927، ص 85.
2. 3 – الشهاب ، ج 9 ، مج 10 ، جمادي الأولى 1353هـ ، 1934/8/12 ، ص 390.
4 – ألفه محمد بن أبي شنب ، وطبع بمطبعة فونطانة بالجزائر سنة 1906. وأعيد طبعه بعد ذلك سنة 1928.
5 – النهضة العربية بالجزائر ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الجزائر، ع 1 ، 1964، ص 58.

إن ثقافة الشعراء وقتها محصورة في بعض دواوين الشعر العربي القديم، إلى جانب مجلدات الأصول والحديث والتفسير كما يذهب إلى ذلك الدكتور سعد الله (1). وقد ضرب أمثلة لطائفة من الأدباء الجزائريين في تلك الفترة الذين كانوا «لا يمثلون عصرهم ولكنهم كانوا يعيشون في ماضيهم الأدبي بكل ما فيه من تقليد مخجل وجمود مفرط وسلبية متناهية.» (2)

ومع نهاية الحرب الكونية الأولى أخذت تلوح في الأفق بوادر نهضة أدبية، أسهمت عوامل كثيرة في بلورتها، وتوجيهها الوجهة الاصلاحية.

فقد أسهمت المؤثرات التربوية والثقافية في تشكيل الخلفية الثقافية للشعراء؛ من كتاتيب قرآنية (3) بلورت أساليبهم وربطتها بالأثر القرآني تعبيرا وتصويرا، ومن نواد وجمعيات (4) ومدارس (5) وجهتهم نحو الاصلاح توجيها مقصودا، ومن صحافة محلية (6) وعربية (7) ربطت صلاتهم بثقافتهم العربية الاسلامية وبتياراتها الأدبية وبخاصة تيار الاحياء الذي كان التأثر به ظاهرة بارزة لدى الشعراء الاصلاحيين، نظرا لتشابه الظروف والمواقف.

وقد اعترف الشعراء أنفسهم بهذا التأثر؛ فقد أعانت دواوين فحول العصريين حمود رمضان على نظم الشعر (8)، وفتح الهادي السنوسي (9) عينيه على مدرسة اسماعيل صبري وحافظ وشوقي والعقاد والزيات، وكان السعيد الزاهري (10) على

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب ، بيروت، ط 2، 1977، ص 26.

2 - م. ن، ص 27.

3 - انظر تقارير مفصلة عن دور التعليم المكتبي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتب الجزائرية ، 1982، ص 104 - 135.

4 - ينظر في دور النوادي والجمعيات :
- د. أبو القاسم سعد الله، م. س، ص 120 وما بعدها.
- أحمد الخطيب، جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الاصلاحي في الجزائر، م. و. ك، 1985.

5 - ينظر في دور المدارس : - ابن أبي شنب، م. س.
- دبوز ، نهضة الجزائرية الحديثة ، المطبعة العربية ، الجزائر، 1971.
- د. تركي رابح ، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ، ش. و. ن. ت الجزائر، ط 2، 1981، ص 233 - 237؛

6 - مثل صحافة ابن باديس، وجمعية العلماء، وصحافة أبي اليقظان، والعقبي، والزاهري وغيرهم. ينظر في الموضوع : د. ناصر، الصحف العربية، ش. و. ن. ت الجزائر، 1980.

7 - ومن الصحف العربية التي تركت بصماتها واضحة في الشعر الاصلاحي ، نذكر العروة الوثقى، المنار ، اللواء ، المؤيد الفتح، الهلال، المقتطف، الرسالة، والصحافة التونسية بمختلف عناوينها. ينظر في الموضوع :
- محمد فريد ، من مصر إلى مصر ، رحلة سنة 1901، مطبعة الموسوعات بمصر، 1319، ص 75.
- د. سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد، الدار العربية للكتاب، م. و. ك، ط 3، 1984، ص 26.
- مجلة الرؤيا ، س 1 ، ع 2، صيف. خريف، 1982، ص 54.
- محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، الدار العربية للكتاب، 1983.
- وادي ميزاب، ع 90، 17 محرم 1347هـ ، 1928/7/6.

8 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ص 171.

9 - هنا الجزائر ، ع 26، جويلية 1954.

10 - الاسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، دار الكتب الجزائرية، 1983، ص 30.

اطلاع كامل بالحركة الأدبية المشرقية ومعاركها الفكرية.

وأسهمت الأفكار الاصلاحية المحلية والعربية في تغذية عقول الشباب، وربطهم بتراثهم الديني والأدبي في أزهى عصوره.

وكان للحرب الكونية دورها (1) في ايقاظ الوعي والتحرر من الأوهام، وتنبيه الضمير الاسلامي في نفوس الشعب، وأدت إلى «انحطاط قيمة المقدسات الوهمية في نظر كثير من الناس» (2)

وقد حملت البعثات التعليمية العائدة من تونس، ومن مصر، ومن بعض الأقطار العربية الأخرى «قبسا خافتا من الأدب العربي ولكنه كان كافيا في تحريك القرائح والأذهان، وقارن دلك أو سبقه بقليل وصول الآثار الأدبية الجديدة من شعراء المشرق الجلين، وعرفت الجزائر شعر شوقي وحافظ ومطران والرصافي. وما أن انتهت الخرب العالمية الأولى حتى كانت تلك المؤثرات المختلفة الموارد قد فعلت فعلها في نفوس الناشئة التي هي طلائع النهضة الأدبية.» (3)

فظهر أدباء نفضوا عن أنفسهم غبار تلك الأردية التي تجلبب بها الشعر طويلا، وشمروا عن ساعد الجد، "وإصبح الشعر والكتابة والخطابة أدوات تقدم ووسائل حياة لهذه الأمة، إذ لم تتصرف في الفنون السخيفة التي كانت تتصرف فيها، ولم تضطرب في الميادين الضيقة التي كانت تضطرب فيها، بل انطلقت أمام الحياة تمهد لها السبيل وتفتح لها المغالق» (4)

ولم يتخلف الشعر عن ركب النهضة التي بدأت عام 1925، وبدأ كما يقول مالك بن نبي «يصور تقدم البلاد في قصائد جدد فيها نشاطه بعد ركود طويل، كانت تلك القصائد تغني ربيع النهضة أي ربيع الفكرة لا ربيع الصنم» (5).

وقد كان للفكرة الاصلاحية - التي لم تكن قد ظهرت تعاونية بعد - أثرها في نشر البيان العربي، وفي ربط الشعب بماضيه، واحياء تراثه بمختلف الوسائل : شعرا ونثرا، وخطابة، وصحافة، «وأصبح الشعر المكتوب باللغة العربية يعبر عن أحاسيس ليست

---

1 - ينظر في أثر الحرب الكونية الأولى : - سعد الدين بن أبي شنب، م. س. ص 33.
- د. سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ش. و. ن. ت الجزائر، ج 2، ط 3، 1983، ص 303.
- محمد قنانش، المواقف السياسية بين الاصلاح والوطنية في فجر النهضة الحديثة ، ش. و. ن. ت ، الجزائر ، د. ت ، ص 100.
- شارل أندري جوليان، افريقيا الشمالية تسير، ش. و. ن. ت الجزائر، 76، ص 131.

2 - الابراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 48.

3 - الابراهيمي، تصدير كتاب سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، ص : ط، ي.

4 - الابراهيمي، الشهاب، ج 9، مج 10، م. س، ص 391 - 392.

5 - شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي ، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ط 3، 1969، ص 45.

استسلامية خضوعية، ولكنها فعلية محركة» (1)، ذلك أن الشعر لم يبق محصورا في ذلك النطاق الضيق من أغراض الفخر والتهاني والتعازي، «بل ارتبط بالمجتمع وبقضاياه وبالانسان العربي الجزائري، وعبر عن أشواقه ومطامحه.» (2)

ولما أشتد ساعد الحركة الاصلاحية بميلاد جمعية العلماء أصبح الشعراء أكثر جرأة على معالجة قضايا المجتمع في شتى جوانبها، وأصبح الشعب أكثر تأثرا بالشعر، واهتماما بما يطرحه لأنه مس حياته بشكل أو بآخر.

وهكذا تطور الشعر على يد الحركة الاصلاحية في شتى المجالات : أغراضا ومعاني، وأساليب.

وقد صور الواقع الديني والثقافي، والاجتماعي، والسياسي، وساير ركب الاصلاح منذ أن كان بذرة نامية في أفكار المصلحين إلى أن استوى جمعية تعاونية تقاوم على جبهات متعددة.

وتخلصت القصيدة من بعض الخصائص التقليدية، وبرزت فيها جوانب شعرية تجديدية؛ بنية ولغة، وصورة، وتشكيلا موسيقيا، وسيبرز لنا ذلك جليا من خلال الفصول الموالية التي نعالج فيها قضايا هذا الشعر من جوانبه الدينية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والفنية.

---

1 - Jean Déjeux, La poésie algérienne de 1830 à nos jours, 2 éme edition publi sud, Paris, 1982, P.50.

2 - د. عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ش. و.ن. ت، الجزائر، ط 1، 1981، ص 42.

الفصل الأول
القضايا الدينية

- مقدمة
- الدعوة إلى التمسك بالاسلام
- مقاومة الانحراف الديني
- توظيف المناسبات الدينية

لقد كانت الحملة الفرنسية على الجزائر صليبية في تركيبتها وأهدافها، أو لم يقل ملك فرنسا وقد تم العزم على غزو الجزائر :" إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بعناية العلي القدير لفائدة المسيحية جمعاء ". (1)

وقد أكد أحد المرشدين العسكريين هذه النظرة الصليبية حين قال :" إن مرشدي الجيش جاءوا ليفتحوا هم أيضا افريقيا هذه باسم الانجيل." (2)

وأبدى أسقف الجزائر "دوبوش" موقفا أعرب فيه أن أوربا ستستكمل مشروعها الذي بدأت في تنفيذه أثناء الحروب الصليبية. (3)

وقد توالت القرارات الجائرة من الادارة الاستعمارية (4)؛ مصادرة للأملاك الدينية، وتحويل الأوقاف إلى ملكية الدولة، والتصرف في المساجد وتحويل عدد منها إلى كنائس ومراكز طبية رادارية. (5) وقد ذكر أحد النواب أن الادارة الاستعمارية جعلت من المساجد كنائس، تنشر المسيحية وتبشر بها في قطر اسلامي، واستعملت في سبيل ذلك أموال المسلمين. (6)

وقد صور محمد فريد هذه الوضعية حين زار الجزائر، فقال عن مدينة الجزائر :"كان بهذه المدينة أربعة عشر مسجدا جامعا تقام فيها الخطبة فلم يبق منها إلا أربعة ... وهو عدد غير كاف بالنسبة لعدد السكان حيث يبلغ نحو ثلاثين ألفا من المسلمين." (7)

ويصف الوضع في قسنطينة فيذكر أنه لم يبق من جوامعها التسعة إلا ثلاثة جوامع (8)، وفي وهران لم يبق سوى جامع واحد. (9)

وتدخلت الادارة الاستعمارية بعد ذلك في الوظائف الدينية، فكانت لاتسمح بتوظيف إلا ذلك النوع الذي يسيطر عليه الجهل، والطمع، وعدم الكفاءة، والمبالغة في الخضوع والانقياد للأوامر الاستعمارية. (10)

---

1 - انظر : د. محمد طه الحاجري، جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1968، ص 83.

2 - انظر ذلك في : د. أبو عمران الشيخ، الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي الشلف، الأصالة، ع83/84، 1980، ص 55.

3- Charles-André Julien : Histoire de l'Afrique contemporaine, 2ème éd. P.U.F. Paris, 1979, page 262.

4 - مثل قرار 1830/12/7 الذي أصبحت بمقتضاه كل الأوقاف ملكا للدولة، وقرار 1907/2/27 الذي رخص للجمعيات الدينية تولي شؤون المساجد وغيرها.

5 - انظر : خديجة بقطاش، أوقاف مدينة الجزائر بعد الإحتلال، الأصالة، ع 62، مارس، أفريل 1981، ص 80.

6 - انظر : فرحات عباس، ليل الاستعمار، مطبعة فضالة، المغرب، د.ت، ص 105.

7 - من مصر إلى مصر ، مطبعة الموسوعات، مصر، 1319 هـ ، القسم الأول، ص 68.

8 - م. ن. ص 59.

9 - م. ن. القسم الثاني ، ص 119.

10 - انظر : الابراهيمي ، عيون البصائر، ش. و. ن. ت الجزائر ، 1971، ج2، ص 210.

بل أن الادارة الاستعمارية لم تتورع عن اسناد رئاسة جمعية دينية في الجزائر العاصمة إلى مسيو ميشال المسيحي (1)، وأغرب من ذلك أن يحبذ بعض الجزائريين هذا الصنيع. (2)

ونتيجة لكل ذلك كان رد الفعل الشعبي النفور من الهيئات الرسمية إلى هيئات شعبية لم تكن قد فقدت احترامها بعد، فكان الارتماء في أحضان الطرقية التي لم تنج هي الأخرى من الاحتواء الاستعماري فحول بعضها الاسلام إلى مجموعة من الطقوس والبدع.

ومن الطبيعي - في ظل هذا الوضع - أن تنتشر الأمية، ويسود الجهل، ويحاصر العلماء ويطاردون، وتغلق أبواب مراكز العلم والثقافة، ويفسح المجال واسعا للنشاط التبشيري الذي كان وسيلة استعمارية قاسية في حقيقتها ومبطنة بغشاء الرحمة المزيفة، يتوارى وراء المساعدات الانسانية لاخراج المسلم من عقيدته، أو تشكيكه فيها على الأقل حتى يخلق في فكره حيرة وترددا.

وقد اصطحب الجنرال "بورمن" معه ستة عشر قسيسا (3)، كانوا قد رافقوا الجيش، ولاشك أن وجودهم لم يكن بمحض الصدفة بل هو دلالة على اختيار أساسي، وقد أمر بتحويل الجوامع إلى كنائس والغاء شرعية الأعياد الدينية الاسلامية، وافساح المجال للنشاط التبشيري خدمة للمسيحية. (4)

وقد مر على الجزائر عدد من الأساقفة من "دوبوش" الذي أشرف على تنصير الصبيان (5)، إلى "بافي" الذي دشن عهده بمحاضرة طعن فيها الاسلام ورسوله طعنا فاحشا بذيئا (6).

ودون أن ننسى " لافيجرى" الذي كان يؤمن أن الجزائر هي نقطة الانطلاق التي تتسرب منها حركة التبشير إلى افريقيا كلها (7)، وأسس طائفة "الأباء الأبيض" التي عمت افريقيا الشمالية بمؤسساتها ومدارسها وخلاياها ومنشوراتها (8)،

---

1 - وهو الكاتب العام بادارة العمالة ، وكانت الجمعية تحت رئاسة أحمد بن صيام ، انظر البصائر : ع24 ، 36/6/19، ص 4.

2 - انظر في ذلك رأي صالح الطيب ، ورد العقبي عليه، البصائر م. س.، وكذا البصائر، ع 31، 1936/8/7، ص 4.

3 - انظر : د. عبد الجليل التميمي ، من ملامح التفكير التبشيري .. ، محاضرات الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي، تيزي وزو، 1973، وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975، مج 3، ص 996.

4 - م. ن. ص 998.

5 - انظر : المهدي البو عبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، م. ن. ص 1339.

6 - م. ن.

7 - انظرا : د. حبيب الجنحاني، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي .. م. ن. ص 1062.

8 - انظر : د. عثمان الكعاك، التبشير والتخطيط التبشيري ، م. ن. ص 1151.

مستغلا بعض المجاعات العمومية (1)، منتهزا الفرصة لتنصير الأطفال المسلمين وتمسيحهم .

لقد كانت الفكرة الأساسية التي عمل على تجسيدها ميدانيا هي ادماج الجزائر في فرنسا عن طريق المسيحية.

لقد استغل المبشرون عدة وسائل لتحقيق أغراضهم مثل المدارس لتعليم الأطفال (2)، والجمعيات، والعيادات الطبية، وتقديم المساعدات للمعوزين، ومعاملة الناس بالاحسان، وقد أثمر هذا السلوك في بعض الأحيان، مما حدا ببعض الكتاب إلى التنبيه عنه، والتحذير منه. (3)

وخصصوا مجلة سموها "في العالم الاسلامي" حتى لاتثير الظنون، وحتى تغري العرب المسلمين بالاطلاع عليها، ومهمتها "البحث في وسائل التبشير واقتناص المسلمين وتمسيحهم " (4).

وعلى الرغم من كل ذلك لم يفلح التبشير في الجزائر لتصلب الجزائري في دينه مهما بلغت به العامية والأمية والفقر، وكان من برنامج الحركة الاصلاحية "مقاومة التبشير بقدر المستطاع" (5) مستخدمة في ذلك المحاضرات العامة والصحف، وما ينشر فيها من مقالات وقصائد في الموضوع.

وإذا كان الاستعمار الفرنسي قد تبجح على لسان أحد قادته في الاحتفال بالذكرى المائوية للاحتلال بقوله مخاطبا المدعوين :" ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الاسلام بهذه الديار." (6)

فإن ظنه قد خاب لأن الشعب وقف متمسكا بأصالته، متشبثا بدينه، مدافعا عن لغته، ووقف الأدباء وفي مقدمتهم الشعراء الاصلاحيون يحثونه على الاستمساك بمقوماته، والذود عنها وعدم التفريط فيها. وسيتجلى ذلك من خلال المحاور التي تضمنها هذا الفصل الخاص بالقضايا الدينية.

---

1 - مقل المجاعات التي أعقبت زلزال البليدة وقرى متيجة في سنة 1867 ، وانتشار مرض الكوليرا (1866 - 1867) وظهور القحط والجفاف ، ينظر في الموضوع، د. يحي بوعزيز ، المجاعة في الجزائر أواخر عقد الستينات من القرن التاسع عشر. الأصالة . ع 33 . ماي 1976 ، ص 7 - 29.

2 - وقد بلغ ما لدى (جماعة الاباء البيض) حتى سنة 1930، 26 معهدا دينيا ، منها 21 في شمال افريقيا و 5 في فرنسا، و133 مركزا للتبشير يعمل فيها نحو 500 راهب وراهبة ، انظر ذلك في : كتاب أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، دار الكتاب ، الجزائر ، ط 2 ، 1963 ، ص 217.

3 - انظر مثلا : الفرقد (سليمان بن يحي بوجناح) ، مسالة التبشير والمبشرين ، وادي ميزاب ، ع 83 ، 28/5/18 ، ص 2.

4 - م. ن.

5 - الابراهيمي ، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتب، الجزائر، 1982، ص73.

6 - انظر : د. الحاجري ، م. س. ص 126.

إن القضايا الدينية التي عالجها الشعر الاصلاحي متعددة يصعب حصرها في محاور، ذلك أن هذا الشعر كان الدين الاسلامي بالنسبة إليه هو المبدأ والمنتهى، وهو الأساس الذي بني عليه مضمونه، وبذلك سنحاول التركيز على ثلاثة محاور نراها بارزة في هذا الشعر وهي :

1 - الدعوة إلى التمسك بالاسلام.

2 - مقاومة الانحراف الديني.

3 - توظيف المناسبات الدينية.

1 - الدعوة إلى التمسك بالإسلام

لقد وضعت الحركة الاصلاحية في الجزائر على عاتقها أمانة التمسك بالاسلام، ونشر فضائله، والدفاع عنه، وتنقيته من كل الشوائب التي ألصقها به المنحرفون والجامدون والمستعمرون، فاقبلت تتلمس جواهره، وانثالت عليها تتحسسها؛ ترجو منها الخير لهذه الأمة التي تهالك عليها الاستعمار، وحاول جاهدا القضاء على مقوماتها الشخصية.

وقد أكدت الحركة الاصلاحية أهمية الدين في الحياة، فقال ابن باديس في المقال الافتتاحي للعدد الأول من المنتقد : " إن الناس لا يقدرون العيش بلا دين، وأن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها." (1) وأكد في المقال نفسه أن الدين يعتبر "قواما لنا ومعينا شريفا لسلوكنا، ونظاما محكما نعمل عليه في حياتنا، وقوة معنوية نلتجئ إليها في تهذيب أخلاقنا، وقتل روح الدعارة والفساد منا واماتة الجرائم من بيننا، فلهذا لا نألوا جهدا في خدمته بنشر مبادئه الحقة العالية وتطهيره من كل ما أحدثه فيه المحدثون والدفاع عنه من أن يمس بسوء من أهله أو من غير أهله" (2)

إن الدين في نظر الحركة الاصلاحية قد كان - كما يرى حمود رمضان - أبا للفضائل، وكلمة جامعة لقوانين البشر، ومحركا وحيدا للقيام بجميع الواجبات، وقوة معنوية تكهرب المرء، وتبعث فيه روح الأمل والاقدام على الدواهي، وعدم الخوف من أي قوة كانت" (3)

---

1 - 2 ابن باديس : خطتنا مبادئنا غايتنا وشعارنا، المنتقد ، ع 1 ، 11 ذي الحجة 1343 هـ ، 1925/7/2.

3 - بذور الحياة ، تونس 1928 ، ص 14.

إن التشبث بالدين لم يكن وليد الصدفة أو موقفا اعتباطيا، بل كان ضرورة حتمية أفرزتها عدة متطلبات، فكان هذا الموقف "رد فعل للتيار الجارف الذي أخذ يتدفق من المدارس الاستعمارية، وأخذ مع مرور الأيام يشتد ويقوى حتى بات مع بداية الثلاثينيات يهدد بطوفان مسخ شامل، بل ولعله أيضا رد ضمني واحتجاج غير مباشر، وجواب عملي للاستعمار الفرنسي الذي أخذ يدعو الشعب الجزائري بشتى الوسائل والحيل لادماجه في الجنسية الفرنسية." (1)

أن الموقف الاستعماري من الدين قد دفع الجزائريين إلى مقاومته؛ تشبثا بدينهم، وتعلقا بمعتقداتهم الروحية، يستمدون منها القوة والجلد، ويقتبسون منها معاني العزة والكرامة حيث اتخذوا الدين "موئلا يئلون إليه لدى كل مكروه؛ ومنهلا عذبا يكرعون من ينبوعه بظمأ شديد" (2)

إن هذه المواقف قد صبغت الحركة الاصلاحية بالصبغة القرآنية، ذلك أن القرآن الكريم كما ورد في آيات كثيرة يهدي للتي هي أقوم، وينير دروب المتدبرين لمعانيه، والمتخلقين بأخلاقه، والمعتبرين بمواقفه، وهو بمثابة الصراط المستقيم لن يضل من تمسك به، ولن ينحرف من عض عليه بالنواجد.

ولذلك ركزت الحركة الاصلاحية اهتمامها بهذا الجانب، فصرح ابن باديس أن هذه الحركة تربي تلامذتها على القرآن وتوجه نفوسهم إلى القرآن، لتكون منهم رجالا قرآنيين تعلق الأمة عليهم الآمال (3).

وقال في موقع أخر يوضح مبادئ المصلحين :"القرآن امامنا والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا وخدمة الاسلام والمسلمين وايصال الخير لجميع سكان الجزائر غايتنا"(4). وقد أشاد الابراهيمي بهذه الصبغة القرآنية التي صبغت الحركة الاصلاحية فإذا هي "سائرة إلى غايته، داعية إليه، مرشدة به، مستدلة بآياته؛ به تصول وبه تحارب، وعليه تحامي، ودونه تنافح، وما الحركة الاصلاحية في يومنا هذا بضئيلة الأثر ولا هي قليلة الاتباع، وإن هذا لموضع الرجاء في رجوع المسلمين إلى القرآن." (5)

ويوجه خطابا صريحا إلى الجمع الحاشد من العلماء يدعوهم إلى التشبث بالقرآن فيقول : " داووا الأخلاق بالقرآن تصلح وتستقم، وأسوا العزائم بالقرآن تقو وتشتد" (6)

1 – د. ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ش. و. ن. ت الجزائر 1978، مج 1، ص 86.
2 – عبد المالك مرتاض ، المقومات العامة للأدب العربي الحديث في الجزائر، المجاهد الثقافي، ع 17، 1971، ص 41.
3 – الشهاب، ج 4، مج 14، جوان وجويلية 1938.
4 – سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، دار الكتب الجزائرية، 1982، ص 84.
5 – م. ن. ص 19.
6 – م. ن. ص 20.

وقد ظهر جليا اهتمام رواد الحركة الاصلاحية بالقرآن، سواء أظهر ذلك في مقالاتهم الصحفية (1)، أم في قصائدهم الشعرية وهي أكثر من أن تحصى، أم في عناوين صحفهم (2)، أم من خلال مواقفهم السلوكية ليثبتوا للاستعمار أن القرآن الكريم هو مصدر العزة والقوة وهو الدعامة القوية للانتصار على العدو وجبروته وطغيانه.

ولا يمكن في هذا المجال أن نغفل أثر البيئات المحافظة المصبوغة بالصبغة الدينية في هذا التوجه القرآني لرواد الحركة الاصلاحية، وذلك حسب تصريحات الشعراء أنفسهم. (3)

ولما كان الشعر سلاحاً من أسلحة الفكر الاصلاحي، وأداة لنشر مبادئه، ووسيلة للدعوة إلى النهضة الدينية المنشودة التي تقوم على أساس احترام دين الأمة : الاسلام، ولغتها العربية، فإنه قد وجه الشعراء إلى عنصر الدين يستمدون منه القوة، ويقتبسون من اشعاعه موضوعاتهم لأن الإصلاح يبدأ من (الدين)، وإليه ينتهي، والشاعر الاصلاحي "لاينسى لحظة واحدة وفي أية قصيدة أن يتحدث عن القرآن والسنة لأنهما المبدأ والمنتهى، وهما الأساس الذي بنيت عليه الفكرة الاصلاحية." (4) فيدافع عن الاسلام، وينافح عن العقيدة بالكلمة الصادقة الملتهبة بحرارة الايمان والمنغمسة في شغاف القلوب، وبالتعبير النابض الحي الذي يزيد في تمسك الجزائري برباط عقيدته بما يثيره فيه من وجدانات روحية.

وقد أدرك الشعراء في فترة العشرينيات أنهم بناة نهضة اسلامية مرتقبة، وكان عليهم أن يؤسسوا أرضية لها، أساسها القرآن، وعدتها اللغة العربية ، وسبيلها التعليم، ووسائلها المؤسسات الثقافية والتربوية.

وظهرت دعوتهم الاصلاحية صريحة؛ عناية بالقرآن الكريم، واهتماما به حفظا ودراسة وتفسيرا، مما شكل صفعة قوية لتيار الثقافات الأجنبية الدخيلة التي تزرع سمومها في الوسط الشباني.

فكان التركيز الاصلاحي على أهمية القرآن الكريم في شحذ الهمم، وتوجيه اهتمامات الشعب وتحويل مساره المعوج، وقيادة ركبه المتفرق الأهواء، خاصة وأن

---

1 – انظر : د. ناصر ، المقالة الصحفية ، الجزائر ، ش. و. ن. ت. الجزائر، م 1 ، ص 75.

2 – من مثل : لسان الدين، النور ، الشريعة ، الصراط ، الفرقان ... الخ.

3 – ينظر في ذلك : محمد الهادي السنوسي الزاهري ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، بجزءيه ، تونس 1926 و1927.

4 – د. الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث ، ش. و. ن. ت. الجزائر، ط 1 ، 1981 ، ص 576.

شعراء الاصلاح كانوا خريجي كتاتيب قرآنية؛ على القرآن تربوا، وفي أحضانه نموا، وعلى آدابه نشأوا، وبه رفعوا لواء الاصلاح، ومن خلاله استشفوا الأجوبة المقنعة لكل القضايا المصيرية المطروحة عليهم.

ومن هنا اتخذوا القرآن اماما ورائدا، وتمثلوه سلوكا في وقت علا فيه نعيق الاندماجيين، ودعاة التجنيس والتغريب، وفي وقت كانت فيه فرنسا تستعد للاحتفال بمرور قرن على الاحتلال، متوهمة أنها بذلك تحتفل بجنازة الأسلام في الجزائر.

ومن هنا كثرت في قصائد الشعراء تلك الصيغ التي تشيد بفضل كتاب الله، وتدعو إلى التمسك به، وتحارب غلاة الاستعمار وأذنابهم الذين يعملون على تشويه قدسيته.

فقد عمد مثلا أحد غلاة الاستعمار، وهو روبير آشيل (1)، إلى التحامل على الاسلام والمسلمين في جريدة "لاديباش"، والادعاء بأن القرآن مثير للحروب والفتن، فانبرى له الامام ابن باديس خلال سنتي 1925 و1926، يرد على ترهاته بمقالات متعددة "كانت على لسانه رصاصا، وفي أذنيه وقرا، أماط فيها اللثام عن نواياه السيئة، وأبان له حقيقة الاسلام التي كابر فيها أمثاله بغضا وحسدا من عند أنفسهم انهم لكاذبون" (2)

وكان للشاعر محمد العيد (3) موقفه من الموضوع، فرد على هذيان آشيل، وختم رده بتعداد مناقب القرآن الكريم، ومآثره وروائعه التي لا تضاهى، ونقض أباطيل الحقود اللدود بالأدلة الدامغة قائلا :

ماذا تقولون في آي مفصلة ... يزينها من فم الأيام ترتيل ؟
ماذا تقولون في سفر صحائفه ... هدي من الله ممض فيه جبريل ؟
آياته بهدى الاسلام ما برحت ... تهدي الممالك جيلا بعده جيل
فآية ملؤها ذكرى وتبصرة ... وآية ملؤها حكم وتفصيل

---

1 - انه معمر فرنسي كتب عدة مقالات حاقدة على الاسلام والقرآن، وقد تصدى له ابن باديس في سلسلة مقالات نشرت بالشهاب (1925 - 1926)، ينظر في ذلك : د. خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، م. و. ك. 1984، ص 48 ، ود. ناصر، م. س. ص 187.

2 - انظر : محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، المطبعة التونسية، الطبعة الأولى 1926، ج 1، هامش ص 20.

3 - (1904 - 1907) ، كان شاعر الحركة الاصلاحية وحسانها، تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر ، ج 1 ، ص 12 ، وصلاح مؤيد ، الثورة في الأدب الجزائري، مكتبة النهضة المصرية ، 1963، ص 12 وما بعدها، و د. سعد الله ، شاعر الجزائر محمد العيد ، ود. صالح خرفي، شعراء من الجزائر، معهد البحوث والدراسات العربية، 1969، ومحمد بن سمينة، محمد العيد شعره الاسلامي ، رسالة ماجستير ، مخطوطة، جامعة الجزائر ، وعلي مراد، الاصلاح الاسلامي في الجزائر (بالفرنسية)، ص 106، وغيرهم.

كلامه الصدق لامين ولا كــذب وحكمه الحق لا ميز وتفضيـــــل

فليس فيه لأعلى الناس منزلة (عدن) وفيه لأدنى النابس (سجيل)

ولا احتيال ولا غمض ولا مطل ولا اغتيـال ولا نغص وتنكيــــل. (1)

والأبيات الأخيـرة تعريض بالاستـعـمـار الفرنسي، واتهام مقصود له، قصد منه الشاعر فضح سوءات المستعمر ومدى ما يحيكه من مماطلات ومواعيد عرقوبية، ونفاق، وتمييز، وما يدبره من مؤامرات للتنكيل والاغتيال .

ورغم عاطفة الشاعر الدينية المتحمسة إلا أنه يجادل - وبخلق اسلامي - بالتي هي أحسن، فلم يفحش في قوله،، ولم يقذع، بل تجلت في رده صفات المسلم الذي يحاجج أهل الكتاب، فراح يدحض أباطيل آشيل بالحجة والاقناع المنطقي، مستعملا في البداية أسلوب الاستفهام الاستنكاري، ليقرر بمقتضاه حقائق ثابتة، صاغها في أسلوب بسيط، كان التركيز فيه على المضمون، والقيمة فيه على الأفكار والآراء لا على الأسلوب وطريقة الأداء.

وقد اتضح جليا أن مثل هذه الأفكار العدوانية لآشيل قد تؤثر في بعض الشباب ، وخاصة أولئك الذين كانت السياسة التعليمية الفرنسية قد أهلتهم ليكونوا ورقة في مهب الرياح العقائدية، تتجاذبهم الأهواء، وتلقي بهم في مهاوي الالحاد والكفر.

وقد شن محمد اللقاني بن السائح (2) هجوما من خلال قصيدته " إلى الدين الحق" (3) الى دعاة التجنيس و الفرنسة، الذين هجروا مبادئ الاسلام، مقلدين سلوك الغرب في حياته المادية والمعنوية، منسلخين من مقوماتهم الذاتية، متهمين الاسلام بالتخلف وعدم القدرة على مسايرة روح العصر.

وقد ركز الاستعمار كعادته على "جماعة النخبة"، التي تثقفت ثقافة فرنسية، وكانت مهيأة أكثر من غيرها على تقبل ما يوسوس به شيطان الاستعمار، وواضح أن خطر هذه الفئة أكثر من خطر الاستعمار نفسه، ولذلك فليس غريبا أن يتصدى الشاعر الاصلاحي الذي يحمل مبدأ وموقفا، لمثل هذه المخططات فضحا وتعرية، دفاعا عن حياض الاسلام، وردا صاعقا على أولئك الذين يتخذون من تأخر المسلمين سببا للطعن في

1 - ما بال أشيل يهذي ، جريدة الشهاب ، س 1، ع 13، 1926/2/4، ص 4، الديوان ، ش. و. ن. ت. 1979، ص 85.

2 - (1896 - 1970) تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر، ج1، ص 30، والمجاهد الثقافي، ع 16، 1970، ص 49-56.

3 - تنظر قصيدة : إلى الدين الحق ، إلى العلم الصحيح، إلى الصحافة الحرة ، شعراء الجزائر ، ج 1، ص 48.

الاسلام، متناسين أنه كان في أوج عنفوانه عاملا قويا في تقدم المسلمين وسعادتهم.

ولم يغفل الشعراء اماطة اللثام عن مثل هذه الجوانب أمام الطلاب خاصة، إذ هم عدة العربية، ورسل المستقبل، وأمل الأمة في التحرير من العدو المسيحي الصليبي، بل هم البديل الذي سيواجه المثقفين بالثقافة الاستعمارية، وينتشل الأمة من ربقة الصليبية.

ويؤكد الشاعر محمد العيد هذه الظاهرة، داعيا طلاب التعليم العربي إلى التمسك بكتاب الله والتصدي للدعوات الهدامة التي تنطلق من بعض الأفواه المرتدة :

يا معشر الطلاب هل من آخــذ	بالذكر أو متمسك بعصامــه ؟
فتشرفــوا بالأخذ من آدابـــه	وتعرفوا بحلاله وحرامـــه
ولكل شيء في الحيــاة أذيــة	وأذية القرآن من أقوامـــه
عملوا على التحذير من تفهيمه	فكأنهم عملوا على اعدامــه
هجروا مبادئه العلى وتنكبـوا	أحكامه والخير في احكامــه
زعموا بأن صوابـــه خطأ وفي	ما يزعمون زراية بكلامـــه
أسطورة إن الذي قد قالهـــا	قمن بأن يرتاب في اسلامه (1)

ولم يكن هؤلاء الأدعياء في حقيقة الأمر إلا أبواقا لضلالات استعمارية، وبيادق في أيدي رسل التبشير المسيحي، يوحون لهم بالمفتريات فيصدقونها ويروجونها.

وموقف محمد العيد منهم لم يكن وليد الصدفة، بل يندرج في اطار أشمل، وهو المنافحة عن كتاب الله، والتصدي لأعدائه الذين يسوءهم أن يقود القرآن أمة الاسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، دون أن يصيبه تحريف أو تأويل.

وقد ركز محمد العيد في هذه الفترة على أهمية القرآن الكريم، كنزا من المبادئ، ونورا من الفضائل، ودستورا للعلاقات، وشمسا من اليقين، وهدى للمتقين، فقال :

---

1 - يا معشر الطلاب : (1928)، الديوان، ص 90.

كتاب الله كنز ليس يفنى   وشمس لايغيب لها ضياء
هدى للمتقين فكن تقيـا   وسله من الهداية ما تشاء
تداو به من الأسقام تبرأ   ففيه لكل ذي سقم شفـاء (1)

فالأبيات تنطلق منطلقا اسلاميا في مفهومها للقرآن كما حدده الله سبحانه وتعالى (2)، فهو شفاء للصدور، وهدى للمتقين، وبلسم للأحزان، وملجأ في وقت الشدة والحيرة، به يعيد المسلم توازنه في خضم الاضطرابات الاستعمارية والطرقية، وفيه يحقق هدوءه.

وهو نفس الموقف الذي يقفه الشاعر في سنة 1934(3)، اشادة بالقرآن الذي أحكمت آياته وفصلت من لدن عليم خبير، وبرزت مبادئه ساطعة :

واختص بالمنح العظـام محمـدا   منهم فكان الخـاتم المختـارا
أتاه قرآنا يحـض على الهـدى   ويفصل الأحـكام والأخبـارا، (4)
وشريعة تعطي الحقوق سويـة   للناس لاميزا ولا استئثـارا
شمس من الأفق المقدس أشرقت   فارتد ليل العـالمين نهـارا
و محجة بيضاء من لم يعتصـم   بسواها ضل السلوك وحـارا
كم سـار حزب الله فيها آمنـا   يهدي العباد ويفتح الأمصارا
حتى انضوى المعمور تحت لوائه   وغدا حمى للمسلمـين ودارا

إن القرآن الكريم دستور يجمع بين خيري الدنيا والآخرة، ويسمو بالنفس الانسانية إلى مراتب الخير والفضيلة، ولذلك تغدو مهمة تربية النشئ عليه مهمة من مهمات رجال الاصلاح، لتحديد مسارهم المستقبلي، يقول محمد العيد في الجمع الحاشد في احدى حفلات مدرسة الشبيبة :

هلم بني قومي إلى الذكر نمله   ففي الذكر أخلاق سمت ومكارم
ولست أرى القرآن إلا مناجما   أتدرون ما تحوي عليه المنـاجم

---

1 – هدى وشفاء، الديوان ، ص 538.
2 – الأبيات اقتباس لقوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ». الآية (2) من سورة البقرة.
وقوله : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » الآية (82) من سورة الاسراء.
3 – هيهات يخزى المسلمون، الديوان، ص 112 – 113.
4 – اقتباس من قوله تعالى : « الر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » الآية (1) من سورة هود.

على الدين والدنيا وعلميهما معا　　　شهودا وغيبا فهو بالكل قائم

فربوا عليه الناشئين تلح لهم　　　به طرق مشروعة ومعالم (1)

إن هذا الموقف التوجيهي من محمد العيد والذي أستمر في فترتي العشرينيات والثلاثينيات قد سار متوازيا مع مواقف أخرى نهضوية تدعو إلى التعبئة واليقظة لدرء الأخطار المحدقة بالقرآن الكريم، وهي أخطار قد تجلت في أشكال متعددة :

- شكل محلي في مقالات متشككة .(2)

- شكل استعماري ظهر في الاستعداد للإحتفال بالذكرى المائوية للاحتلال.

وكان لا بد من رد فعل قوي من قبل شعراء الحركة الاصلاحية؛ استثارة للحمية في نفوس الناس، والهابا للحماسة في صدورهم، وتجلى ذلك خاصة في قصائد محمد العيد (3)، ومحمد الهادي السنوسي (4)، وحمود رمضان (5) هذا الأخير الذي ينتفض متحمسا بعد أن أحس بازورار بعض المسلمين عن قرآنهم، وتأثير المحاولات الاستعمارية في نفوسهم، داعيا إلى التشبث بالقرآن الكريم، فهو إمامنا، وروضة أرواحنا، قائلا بأسلوب مباشر :

لاتنبذوا القرآن فهو امامكم　　　فالخير كل الخير في اعظامه

هو روضة للروح فيه حياته　　　من نوره تمحى دجى أوهامه. (6)

إن الروح القرآنية تدفع النفوس إلى استصفار الطغيان، واسترهاب عقاب الله، فتتوفر للدفاع عن مقدسات الاسلام، والذود عن حياضه، ودفع شبهات الأفاكين والحاقدين، وهي كفيلة بتجميع القلوب التي فرقتها الأهواء وعصفت بها المطامع، وباعدت بينها النزاعات.

وبعد الثلاثينيات، ومع تكوين جمعية العلماء، كثرت عند الشعراء صيغ الدعوة

---

1 - قصيدة بلادي ، 1937، الديوان ، ص 137.

2 - وخاصة في بعض الصحف المتفرنسة مثل جريدة الصوت الأهلي للربيع الزناتي المتجنس .

3 - تنظر : صدى الصحراء ، شعراء الجزائر ، ج 1، ص 28، 29.

4 - (1902 - 1974)، تنظر ترجمته في شعراء الجزائر ، ج1، ص 184، والثقافة ع 24، ، جانفي 75، ورسالة عبد الحميد غنام، محمد الهادي السنوسي الزاهري حياته وشعره، دبلوم الدراسات المعمقة ، جامعة الجزائر، 1986.

5 - (1906 - 1929) تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر ، ج1، ص 169، الشهاب ج12، مج 5، جانفي 30، والاصلاح ع 12، 1930، ومحمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره ، ومحمد الهادي بوطارن، رمضان حمود وحياته الادبية، رسالة ماجستير (مخطوطة) جامعة الاسكندرية، 1988.

6 - انظر : أصلا وسهلا بالنبي محمد ، وادي ميزاب ، س 2، ع 98، 1928/8/31، ص 3.

إلى الاهتمام بالقرآن الكريم، والحث على التزود من مناهله، باعتباره سلاح الحركة الاصلاحية، به تناضل وتصول، وتتخذه عدة في الشدة، وعلى الدعوة إليه بنت مبدأها، وفي سبيله تلقت الأذى، ورميت بالعظائم.

وكان وسيلتها لتنشئة جيل القرآن من أبناء الأمة، يحسن فهمه، ويعمل به، ويتخلق بأخلاقه، ويتربى على هديه، ثم ينشر بواسطته دين الله في أرض الله (1).

ولذلك نجد في بعض القصائد أمثال هذه الأبيات التي تبدأ بمثل هذه الصيغ الخطابية المباشرة، كقول أبي اليقظان (2) :

غذوا جذور الدين بالقرآن إن   شئتم علاء في السماء وظهورا (3)

أو قول محمد الهادي السنوسي :

ولتستمدي من القرآن انظمة   وبالحديث ارفعي للعلم أركانا. (4)

أو قول أحمد سحنون (5) :

واقرأ القرآن واعرف هديه   إنه نهج فلاح وسداد (6).

أو قوله :

واهده بالعلم فالعلم سنى   ومن القرآن زوده بزاد (7)

أو هذه الأبيات التي تؤكد حقيقة هامة هي أن ما أصاب أمتنا الاسلامية لن تتخلص منه إلا بالعودة إلى قرآنها تستمد منه المنهج، وتتخذ منه الوسيلة :

دواؤنا لو رجعنا   إليه في القرآن

وفي اتحاد قوانا   قصينا والداني

وفي المفاداة منا   بالمال والأبدان (8)

---

1 – انظر الابراهيمي ، سجل مؤتمر جمعية العلماء ، ص 66.

2 – (1888 – 1973)، تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر، ج1، ص 109، والشهاب، ج10، مج 7، أكتوبر 1931، ودبوز، اعلام الاصلاح في الجزائر، مطبعة البعث، 1978. ود. ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ش. و. ن. ت. الجزائر : والثقافة ، ع 14، أفريل، ماي 73، ص 8.

3 – هذي الجزائر، الشهاب، ج9، مج 10، 1 ج1، 1356هـ 1934/8/12، ص411.

4 – ما الدين الا قوام لا كفاء له، م. ن. ص 414.

5 – من مواليد 1906، له ديوان شعري، وكتاب دراسات وتوجيهات اسلامية .

6 – إلى التلميذ، البصائر، ع 8، 11 ذ ق ، 1366، 1947/9/26، ص 06.

7 – إلى المعلم ، البصائر ، ع 7، 4 ذ ق ، 1366، 1947/9/19، ص 06.

8– ان الجزائر تشكو ، الديوان ، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1977، ص108.

ونلاحظ في هذه الأبيات السابقة ذلك الربط بين القرآن الكريم والعلم؛ فالشعراء ينطلقون من موقف اسلامي، يستحضرون فيه أول آية نزلت على الرسول (ص) تحثه على القراءة والتعلم (1).

ثم أن اعتبار القرآن الكريم نظاما ومنهجا وزادا، من شأنه أن يحقق التوازن النفسي للمسلم في خضم الصراعات القائمة، ويعوضه بعض المعاناة التي يحياها في واقعه المادي، ويعيد إلى قلبه بذرة الايمان، ويعطيه مناعة ضد الصراعات التي يحياها في ظل أساليب التنكيل والزجر والخداع.

وكان الربط منذ البداية بين القرآن الكريم دستورا سماويا منعشا لأرواح المسلمين، والدعوة إلى تطبيق الدين في الحياة، إذ لاحياة للمسلمين بغير دين ينظم أمور حياتهم، ويوجه سلوكهم ويهذب أخلاقهم، ويجنبهم الفساد.

إن التشبث بالدين والعمل على تطهيره من البدع والخرافات التي أحدثها فيه المبتدعون كان غاية الشعراء الاصلاحيين الذين أدركوا بحسهم الشفاف، وثقافتهم القرآنية دور الدين في حياة الأمة، وكيف استطاع بعد شروق شمسه أن يعيد التوازن إلى العالم، ويحقق الرحمة، وينشر لواء العدل، ويرفع المسلمين إلى أوج العز، وصروح المجد.

وقد شاع بين شعراء الاصلاح أن لا أمل في تجديد سلطان المنعة والقوة إلا بالرجوع إلى الاسلام؛ فطرة سليمة من البدع، وعنوان صحة ومتانة، ووسيلة قوة ومنعة، وشعاع هدى، ونور يقين، وفجرا مرتقبا ينير دروب السائرين في دجى الاستعمار نحو غد مشرق أصيل.

فالشاعر مفدي زكرياء (2) – وهو ما يزال يافعا – قد دفعه الحماس الاسلامي إلى أن يوفر لقصيدته "الاسلام يتكلم" (3) الوحدة الموضوعية التي سنعالجها باسهاب في حينها، وراح من خلال هذه القصيدة يعدد مآثر الاسلام ليخلص إلى المغزى من كل ذلك، فيدعو إلى العودة من جديد لاحتضان اللواء الاسلامي، مع تحقيق بعض الفعاليات التي تعيد مجده المندثر، فيقول على لسان الاسلام بأسلوب استعطافي كله رجاء وأمل في النهضة الشبانية المرتقبة :

1 – الآية الأولى من سورة العلق.

2 – (1913 – 1977) تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر، ج1، ص 150، والثقافة ع 23 ، اكتوبر ، نوفمبر، 74 . وكتاب محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة ، المطبعة العربية غرداية، 1984.

3 – شعراء الجزائر ، ج 1، ص 153.

بني فهلا اليوم نظرة راحم | لوالدكم من بعد ذلة أهمال ؟
بني لقد آن الكفاح فجددوا | عزائم أحرار وأنفاس أقيال
وحلوا رحاب العلم دوما فهذه | مدارس عصر فاض فيكم بسلسال
وكونوا رجالا لايبالون أن يروا | صدوف الرزايا دون تحقيق آمال
ودونكم جو السعادة انما | بلوغ أمانيكم بتحطيم أغلال
وإلا على الشرف العفاء ورحمة | لقوم رضوا بالذل مع راحة البال (1)

فالاسلام كما يقول أبو اليقظان " في حاجة أكيدة إلى اسعافه بالأدوية الناجعة، إلى العدة اللازمة، والقوة العتيدة، من المال والعلم، والثقافة الاسلامية ". (2)

وقد ذهب محمد العيد إلى مثل ذلك حين راح في قصيدته "نور الاسلام" يؤكد انتشار الاسلام كالضوء في شتى بقاع الأرض، حتى اهتدت به كل القارات، ولذلك فهو متيقن من قدرة هذا الدين على التصدي لكل الأخطار، خاصة وأنه محفوظ عند الله (3)، فيقول :

لست أخشى عليه كيد الأعادي | بعد ايغاله وراء البحور
فله من الهه خير واق | وعليه من قومه خير سور (4)

فالشاعر في هذه الفترة العصيبة - بداية الثلاثينيات - وما اصطرع فيها من أفكار، لم يكن متشائما من نهضة اسلامية، بعد أن ألان إليه الصدور للاسلام، فوجدت راحتها فيه، واعتبرته رائدا لها واماما، ويخاطب الشاعر أولئك المتشائمين، غارسا فيهم روح الأمل والتفاؤل :

قل لمن ظل في الجزائر يبكي | عصرها المستنير بين العصور
لاتكن ذاهبًا إلى اليأس منها | كل ميت مفاجأ بالنشور
جد حد الاسلام في كل أرض | وانجلى عن بنيه داء الفتور (5)

---

1 - م. س.
2 - وادي ميزاب، ع 17، 18 رجب 1345 هـ ، 27/1/21.
3 - مصداقا لقوله تعالى : « أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » الآية 9 من سورة الحجر.
4 - الشهاب ، ج 1 ، مج 7، رمضان 1349هـ ، فيفري 1931، ص 27 وأيضا الديوان ، ص 105 - 106.
5- م. س.

وقد أبدى أبو اليقظان مخاوفه، وهو يبصر العلل تتفاقم على الجزائر، لكنها مخاوف يمكن أن يتجاوزها المسلم إذا عرف كيف يجابه الواقع المتردي، فيعمل على تطهير الجزائر مما أصابها من رجس ومن وضر، اعتمادا على الايمان الصادق، وعلى شجرة الدين التي ترتوي من منابع القرآن الكريم، ذلك أن الظلام لايزيحه الظلام، وإنما تبيده الأنوار، والنفوس المظلمة لايغسلها إلا يقين الحق الاسلامي، وأخلاقه الفاضلة، ولغته الصافية، وحكمه العادل البعيد عن جور الطغاة، وظلم الاستبداد، فيقول بأسلوب يكاد يكون نثريا :

إن شئتم أن تسعفوها فاغسلوا	منها القلوب وطهروا تطهيرا
في رقة الايمان أسباب الشقا	وبها صلى كل الجناة سعيرا
في قوة الايمان أسباب الهنا	تعليك حيث تزيدها توفيرا
الدين أضخم دوحة لكنه	ما مدّ في غير القلوب جذورا
غذوا جذورا الدين بالقرآن إن	شئتم علاء في السماء وظهورا
واسقوا به الايمان وارووا حوضه	من فيض أحمد كي يعيش نضيرا (1)

فالقصيدة من حصاد الاجتماع السنوي لجمعية العلماء سنة 1934، فإذا الصلة قوية بين المناسبة والاستراتيجية الاصلاحية للجمعية؛ وهي تقوم أساسا على الدين والايمان والقرآن.

فكان التأكيد في الأبيات واضحا على أهمية الدين باعتباره جانبا روحيا، ولا حياة للأمة إلا بروحها، ولا وجود لها إلا في ايمانها بدينها، ولا رائد لها إلا قرآنها، ولذلك نلمس تكرار هذا الثلاثي في مضمون القصائد : الدين، القرآن، الايمان. فهي جوانب متكاملة ومتداخلة لايمكن الفصل بينها ، رغم أن بعض الأدعياء المنتسبين للاسلام، قد يقرأون القرآن، لكن قلوبهم خالية من الايمان، عامرة بالولاء للشيطان.

وهذه النظرة إلى الدين في حقيقتها نظرة سلفية، تنطلق من القرآن، ومن مآثر المجد الاسلامي، ولذلك نجد شاعرا مثل مفدي زكرياء يقول في منتصف الثلاثينيات داعيا قومه إلى التشبث بالدين، في صيغ طلبية مبررة بمبررات عقلية منطقية :

1 – هذي الجزائر ، الشهاب ، ج 9 ، مج 10 ، جمادي الأولى 1356هـ ، 1934/8/12، ص 411.

سيروا على سنن الجدود وشيدوا　　فوق المجرة للخلود بنـــاء

ربّوا نفوسكم على خلق الهـدى　　إن شئتم حريـــة وعـــلاء

والـديـن إن الـديـن أعـظـم عـدة　　فبدونه تغدو الشعوب هبـاء (1)

وإن كان الشعراء يركزون على أهميـة الدين ويوجهون كامل عنايتهم إلى هذه القضية فلأن الدين كان "يواجه أضدادا أشداء ما بين مستعمر صليبي حقود، وطرقي متعصب، وشباب متفرنج منحل وأذناب من الموظفين الدينيين." (2)

فالمستعمر الصليبي الحاقد، كان في هذه الفترة - وبعد فشل احتفالاته بالذكرى المائوية للاحتلال - يعمد إلى مختلف وسائله الجهنمية للقضاء على الاسلام؛ ضغطا وتنكيلا بالمصلحين ومساعدة للطرقيين، واصدارا للقرارات الجائرة التي توسوس لضعاف النفوس بالتنصل من دينهم، والتجنس بالجنسية الفرنسية، وما يستتبعها من تجرد من المقومات الشخصية التي تحمل سمات الطابع العربي الاسلامي.

وفي اطار محاربة دعاة التجنيس، والتنصل من مقومات الأمة، راح الشعراء الاصلاحيون يدعون إلى التشبث بالدين، والاعتداد بالمقومات الشخصية، والاعتزاز بأصالة الاسلام، والوقوف سدا منيعا ضد المخططات الاجرامية للمستعمر التي تصاعدت ضراوتها مع الاحتفال بالذكرى المائوية للاحتلال.

وعلى الرغم من كثرة الاجراءات الاستعمارية اللاهثة وراء تجنيس أكبر عدد ممكن من الجزائريين المسلمين (3)، إلا أنها باءت بالفشل، ولم يتقدم إلى طلب التجنيس في الفترة ما بين سنتي 1920 و1938 سوى (973) شخصا (4). وقد استحق هذا الصنف من المتجنسين لعنة الشعب الجزائري الذي قرر أحكاما صارمة ضدهم، فعزلوا ورموا بالزندقة والمروق عن الدين، والردة عن الاسلام، ذلك أن "من يطلب من أمتنا المسلمة أن تخرج من اسلامها وجنسها كمن يطلب منها أن تخرج من لحومها، ودمائها، وعظامها، وأمخاخها، ولن يكون ذلك أبد الدهر، وأخرى الليالي." (5)، كما قال السعيد الزاهري (6).

---

1 - أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا ، ينظر : د. ناصر ، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المطبعة العربية ، غرداية 1984 ، ص 167.

2 - د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1، ص 365.

3 - مثل قانون 1865/7/14، الذي يعد نواة لقضية التجنيس، ينظر في ذلك :

- Ali Merad, Le reformisme musulman en Algerie, P. 406 - 409.

4 - م. ن. ص 406.

5 - العربية والنواب، البرق، ع 18، 13 محرم 1346 هـ، 1927/7/11. ولأبي اليقظان آراء في التجنيس، تنظر في: وادي ميزاب ع 70 ، 25 شعبان 1346هـ ، 1928/2/17.

6 - (1897 - 1956) ، ينظر في شعراء الجزائر ج 1، ص 184، والبرق ع 19، 1927، وعلي مراد، م. س، ص 111، ومجلة الثقافة ع 42، 1977، ورسالة رابح فروجي : أدب محمد السعيد الزاهري ، ماجستير ، عين شمس، 1989.

ويمكن أن نصف الاستعمار بالغباء، وعدم الاستفادة من عبر التاريخ ذلك أننا كما يقول أحد مؤرخي النهضة في الجزائر :"لم نر في التاريخ العالمي أمة من الأمم وقع عليها الاحتلال فاندمجت بكليتها ذاتية وأخلاقا ولغة ونظاما في المحتل، وأصبحت واياه جزءا واحدا، ذلك مخالف لنواميس الطبيعة ولسنن الله في كونه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فالجزائر سواء أحرزت أو لم تحرز على الحقوق السياسية، ستبقى رغم كل شيء جزائرية عربية مسلمة لن تترقى ولن تنهض من كبوتها إلا عن طريق الجزائرية والعروبة والاسلام." (1)

وكان الشعر حارسا أمينا لعقيدة الأمة، منافحا عنها، مدافعا عن المبادئ غير هياب ولاوجل، لايخشى في الله لومة لائم، خاصة وأن التكالب على قضية التجنيس قد ارتبط بمشروع استعماري آخر هو مشروع بلوم فيوليت (2)، فما كان من الشاعر الثوري مفدي زكرياء إلا أن يؤكد بحزم انتساب أمتنا إلى الاسلام، وعدم تفريطها في دينها، ولن تسمح بادماجها في غيرها، أو تتجنس بجنسية عدوها، بل رضيت الاسلام دينا، وستكون بالمرصاد لكل أفاك زنيم من دعاة الاندماج والاحتواء، فيقول بيقين لا يخامره الشك، وبحماس ديني لا يشوبه التردد :

فلسنا نرضى الامتزاجا	ولسنا نرضى التجنيسا
ولسنا نرضى الاندماجا	ولا نرتد فرنسيسا
رضينا بالاسلام تاجا	كفى الجهال تدنيسا
فكل من يبغي اعوجاجا	رجمناه كابليسا. (3)

ونحس بعاطفة متحمسة متدفقة، انها عاطفة الإباء والعزة والكرامة تملأ جوانح الشاعر فتهتز نفسه رعشات، وتخرج الأبيات قنابل رفض، ورصاصات تحد واصرار.

بل إن الشاعر يقف من المستعمر وأذنابه موقفا ثوريا رافضا، ينطلق فيه منطلقا اسلاميا في النظرة إلى الشيطان رمزا للشر والخداع والمكر (4)، وهو ما ينطبق على دعاة الادماج والتجنيس.

1 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر دار الكتب ، الجزائر ، ط 2، 1963 ، ص 329.

2 - عرف هذا المشروع بمشروع (فيوليت) الذي رفضه البرلمان الفرنسي في سنة 1935، ثم أحياه (بلوم) من جديد، (وكان وقتها رئيسا للوزراء الفرنسيين)، أما فيوليت فكان وزير دولة مكلف بشؤون الجزائر، والمشروع في حقيقته «لا يخرج عن تنفيذ خطة دمج الجزائر في فرنسا بصورة تدريجية عن طريق النخبة، ودعاة الاندماج ..» انظر سعد الله ، الحركة الوطنية ، م. و. ك.، ط 3، 1986، ج 3، ص 29 وعلي مراد، م. س. ص 412 - 413.

3- نشيد الانطلاقة الوطنية الأولى في سنة 1936، اللهب المقدس : ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1983، ص 105.

4 - مصداقا لقوله تعالى « قال فاخرج منها فانك رجيم » الآية 34 من سورة الحجر.

ولم تكن القصيدة التي نقلنا منها الأبيات السابقة مجرد قصيدة تلقى في حفل فتثير النخوة والكرامة، بل كانت نشيدا يردده المتظاهرون في الشوارع، ومنهاجا تعتمده الحركة الاصلاحية وتتبناه الحركة الوطنية.

يواصل الشاعر مثل هذه المواقف الرافضة مؤكدا حقيقة اسلام الجزائر، وانتسابها إلى العروبة، وإلى جنس النبي (ص) في مواقع أخرى كلها تحمل طابع التحدي، فيقول مثلا من "بردة الوطنية الجزائرية" (1)

إن شعبا على العروبة والاسلام	قد شب لا يطيق فصالا
إن تربا مضمخا بدماء	من جدود لايستطيع اعتزالا
إن جنسا مقدسا عربيا	ليس يرضى أن يستحيل خيالا
حاولوا هضمه قديما فخابوا	واستعدوا له قرونا طوالا
إن جنس النبي صعب على الهضم	فيا غرب كف عنك المحالا

وهكذا يتوالى حرف (التوكيد) في مستهل الأبيات ليؤكد الانتماء الجزائري إلى الاسلام، وليلقم الاستعمار حجر الرفض والتحدي، وليتصدى بجرأة إلى برامج المسخ والتشويه، كما تصدى الأجداد في الحروب الصليبية إلي الحقد الاستعماري البغيض.

بل أن الشاعر بوصفه من دعاة الوحدة العربية يحذر الغرب الاستعماري من المس باعتصام الأمة المحمدية باسلامها، وتمسكها بدينها، وهي نظرة لاتنظر إلى موقع القدم محليا، بل تتجاوز ذلك إلى اطار اشمل وأوسع.

إن مثل هذه المواقف هي وليدة ظروف تاريخية معينة، تولدت خاصة بعد المؤتمر الاسلامي (2)، الذي كشف فيه الاندماجيون ودعاة التجنيس أنفسهم، فعلى الرغم من الطابع الاسلامي المفترض للمؤتمر، والذي شارك فيه المصلحون أيضا، إلا أن الشيوعيين اندسوا وسطه بايعاز من الاستعمار لتحقيق أغراض دنيئة، ولتفجيره من الداخل، ومنعه من تحقيق أغراضه المتعلقة بالدين، واللغة العربية، والقضاء الاسلامي، وفصل الدين عن الدولة الفرنسية.

إن الشيوعيين قد كانوا منفصلين عن الشعب الجزائري المسلم، ولم يكسبوا ود

---

1 - انظرها في : محمد قنانش ، الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين ، 1919 ، 1945، ش. و. ن. ت. الجزائر 1982. ص 165، نقلا عن جريدة الشباب التونسي، ع (37/3/5).

2 - انعقد هذا المؤتمر بالملعب البلدي في العاصمة يوم الأحد 7 يونيو 1936.
انظر ذلك مفصلا في الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، ط 3، 1986، ص 147 وما بعدها.

طبقة كبيرة من المجتمع، باستثناء بعض الذين أغروهم بالوعود المعسولة ولما أحسوا بفشل حزبهم سارعوا إلى المشاركة في التجمعات الجزائرية حيثما بدرت ايمانا منهم بأن ذلك من شأنه اضفاء شرعية جماهيرية لحزبهم، فكان لهم في المؤتمر الاسلامي صوت ظاهر (1)، ولذلك فإن ابن باديس لم يقف مكتوف الأيدي أمام هذه المواقف، فنظم نشيده القومي «شعب الجزائر مسلم » (2) الذي ارتبط بذكرى المولد النبوي الشريف، وصادف الذكرى الثانية للمؤتمر الاسلامي في الجزائر، حيث افتضحت انتهازية الشيوعيين ، وتعرت حقيقة الاندماجيين، وانكشفت دسائس الاستعماريين، فكان ارتباطا بين ذكرى دينية عزيزة، وذكرى وطنية تتجاوب أصداؤها في كفاح الحركة الوطنية الجزائرية، وتتجسد معالمها في موقف الرفض لأفكار دعاة التجنيس والفرنسية والتغريب، فيقول في اعتزاز وثقة :

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا لـه	رام المحال من الطلب (3)

فكانت قصيدته ردا مقنعا دحض به كل الأقاويل المضللة، وأكد بما لايدع مجالا للشك اسلامية الجزائر، وعروبتها، واستحالة ادماجها في كيان غريب عنها.

وقد عهد الاستعمار إلى مواصلة وعوده الكاذبة تحقيقا لأهدافه، واسكاتا لبعض الأصوات التي تهددها مثل هذه الألاعيب، لكن الشعراء ومن ورائهم الحركة الاصلاحية كانوا متيقنين من أن الوعود الاستعمارية شأنها شأن أعمال الكفار التي وصفها الله تعالى بقوله : "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا." (4) وكان من نتيجة ذلك أن برزت في القصائد الاصلاحية نغمة التأكيد على التشبث بالاسلام أكثر من قبل، فرأى محمد العيد مثلا أن كل برنامج اصلاحي لن يكون ذا جدوى ما لم ينبثق من اهتمامات المسلمين، فيعبر عن طموحاتهم، ويستمد جذوره من أصالة عقيدتهم وصلاح شريعتهم :

---

1 - لقد تبرأ حزب الشعب من الشيوعيين الذين هيمنوا على المؤتمر (ج الشعب، ع1، 30 أوت 37)، كما عاد مصالي إلى الجزائر لمحاربة الأفكار الطائشة في أوت 36، حينما كان رجال المؤتمر الجزائري المقبور باليد الحمراء يعرضون على الأمة نتيجة مؤتمرهم بعد العودة من فرنسا (م. ن، ع 2، 37/10/15).
وقد أشار عبد الرحمان العقون في كتابه : أن بعض الهيئات لم تشارك في المؤتمر لانه في نظرهم مؤتمر حزبي وتغلب عليه الشيوعية، ينظر الكفاح القومي والسياسي، م. و. ك. 1984 ج2 ، ص 10. وقدم بعض الأمثلة على هذه العلاقة المشبوهة ، (م. ن. ص 87).

2 - مجلة الشهاب ، ج4، مج 13، ربيع الثاني 1356، 1937/6/11.

3 - مجلة الشهاب ، ج4، م 13، ربيع الثاني 1356، 1937/6/11.

4 - الاية 39 من سورة النور .

وكل برنـــامج في خيــر ملتنــا　　　وجنسنا فهو مقبـول بشكران

شريعة الله أولى في الشرائع أن　　　تمتاز عنها بتفضيل ورجحـان

وكيف ننسخ أو ننسى شريعتـه　　　ونحن أمـة اسـلام وايمـان (1)

إن الأبيات تؤكد الحرص على شريعة الله، والاصرار على تطبيقها، والتحدي لكل محاولة لنسخها. (2).

وحين كان الوفد الجزائري المنبثق عن المؤتمر الاسلامي متوجها إلى فرنسا لعرض المطالب الوطنية، أحس الشاعر محمد العيد أن هذه الوفادة غير مأمونة العواقب، وأن المستعمر يترصد لها، ويدبر المكائد في طريقها، وينصب لها الشباك لتقع في حبائله، بل وقد اندس في الوفد بعض الانتهازيين المتعاملين مع فرنسا. وكان الاستعمار يطمع في أن يتنازل الوفد عن بعض المقومات الذاتية حتى تستجيب فرنسا لبعض مطالبه، فركز الشاعر في القصيدة التي ودع فيها الوفد على عدم التفريط في الدين، لأنه بمثابة السمع والبصر في حياة المسلم؛ به عزته ونصرته ، وعليه اتكاله، فقال بأسلوب خطابي مباشر، موجها نصائحه إلى الوفد :

لاترض للدين لامحوا ولاغررا　　　تنزه الدين عن محو وعن غرر

فمن يعيش بلا دين يدين بـه　　　كمن يعيش بلا سمع ولا بصـر (3)

إن مثل هذا الموقف من الدين عند محمد العيد ليس غريبا، لأن الحديث عنه قد داخل شعره كله، فإذا الدين مبثوث في القصائد السياسية، والاجتماعية، والتأملات الفلسفية، والأناشيد الشبانية، والمراثي، والاخوانيات، واللزوميات، وهلم جرا.

كما " إن ارتباط ما بين الدين والسياسة في شعر العيد لم يكن ظاهرة غريبة لا في مفهوم الدين في الحياة السياسية ولا في واقع الجزائر الذي عاشته أيام الاستعمار." (4)

لقد كانت شريعة الله أقوى ما في نفس محمد العيد، باعتبارها مقوما من مقومات الأمة ، "وكان وراء هذه العقيدة مشروع الاندماج وما يؤدي إليه هذا الاندماج من تذويب الشخصية الجزائرية .. ولهذا يرتفع العيد تحت تأثير القيمة الروحية الأصيلة فوق كل

---

1 - يا وفد سائل فرنسا، البصائر و ع 103، 8 محرم 1357، 1938/3/11، ص 08 (الديوان ص 316).

2 - انظر نهاية قصيدة محمد العيد ، تقريظ كتاب محمد عثمان باشا، 1937، الديوان ، ص 313.

3 - يا وفد سائل فرنسا، 1938، الديوان ، ص 319.

4 - د. شكري فيصل ، شاعر الجزائر محمد العيد ، المجاهد الثقافي، ع 11، 1970، ص 90.

قيمة مادية أخرى في العمل السياسي ." (1) ليقول ردا على بعض المخطئين في فهمهم لعقيدة الاسلام في نفوس الجزائريين :

قل للألى حصروا حق الرعية في　　اسعاف مرضى وفي إطعام جيعان
غذوا القلوب وداووها فقد فنيت　　مما تلاقيه من جور وعدوان
واهدوا العقول ودلوها فقد بقيت　　حيرى تهيم بلا علم وعرفان (2)

واستمرت هذه النبرة التي تركز على جانب الدين واضحة في الشعر الجزائري لأن الدين بمثابة العرين الذي تحتمي به أسود الحركة الاصلاحية، رغم كل العراقيل والمصاعب، ورغم حمى الكراسي، وجنون الأحزاب، وأساليب التفرقة والتشرذم، وهي مظاهر كان الشعر يترصدها، ويعي حقيقتها، ويدلي بموقفه منها.

بل إن شاعرا مثل العيد قد حاول تنبيه الشباب إلى فساد بعض المذاهب التي بدأت تغزو العالم، وراح يعقد مقارنة بينها وبين الاسلام ليصل إلى تفضيله عليها، وهو موقف يدل على تطور في نظرة الشاعر، وشمولية في الدعوة إلى الدين ، وحذر من الدعوات الهدامة، فيقول من قصيدة "ياشباب" :

ساءنا من شبابنا ناشئات　　طائشات تغرها الألقاب
عاكفات على مذاهب سوء　　وفساد كأنها أنصاب
نتمنى لك الثبات على الر　　شد وما أنت عندنا مستراب
نتمنى بالدين أن تتحلى　　من تحلى بدينه لا يعاب
إنما الدين لليموث عرين　　لا تغرنك بالعواء الذئاب
إنما الدين في المبادئ رأس　　المجد منها وغيره أذناب
فاشأ للمجد طائرا في مجاليه طليقا كما يطير العقاب. (3)

إن التطورات التي حدثت على الساحة السياسية والاجتماعية في الجزائر جعلت الشاعر يفزع إلى حسن الظن بالشبيبة، ويقوده خوفه على الدين إلى تأكيد مبادئ الدين في الحياة، وأهميتها في أخلاق الناس ومواقفهم.

---

1 - م.س .
2 - باوادي السان ، 1937 ، الديوان ، ص 316.
3 - انظر الديوان ، ص 260. والقصيدة قيلت في سنة 1947 .

ونلحظ أن النظرة إلى الدين قد مرت بعدة مراحل، فكان الدين في العشرينيات بحاجة إلى اسعافه بالوسائل اللازمة من علم وثقافة وايمان، وهي الوسائل التي بدأت تتوفر، فطفت نبرة تفاؤلية عند بعض الشعراء .

وكان في الثلاثينيات وسيلة لتطهير القلوب، وتغيير النفوس عند أبي اليقظان، وعدة بل تاجا عند مفدي زكرياء، وضرورة حياتية عند محمد العيد .

أما في الأربعينيات، وبعد الأحداث الجسام التي تولدت عن هزات الحرب العالمية الثانية، ومأساة الثامن ماي من سنة 1945 (1)، فقد تغيرت النظرة إليه عند كل الشعراء مهما تعددت نظراتهم الفنية، فأصبح عند محمد العيد كما رأينا عرينا لليوث، وملجأ للأشاوش، ومربطا للأبطال، وأصبح المسلم المتمسك بدينه عقابا حرا طليقا، يدفعه تمسكه بدينه إلى البحث عن الحرية وقد طال اشتياقه إليها، دون أن يحد من عزيمته ارهاب أو تضييق، فكلمات (الليوث والعرين، والعقاب، وطليقاو حراو مطلقاو ارهاب، والحمراء" كانت وليدة الأحداث التي سبق ذكرها، وهي أحداث أعطت للشعر شحنة قوية وغلفته بمضامين جديدة أكثر ثورية، وأعمق نضجا وأبعد نظرا.

إن التمسك بأهداب الدين يقتضي من المسلم - مهما كان موقعه - أن يكون قلبه عامرا بالايمان متيقنا بامكانية تحقيق النهضة الدينية، ذلك أن الايمان يحقق توازنا نفسيا عند المسلم، ويقضي على نزعات الشك في عقله، ويطرد وساوس الشيطان، ويفتح أمام عينيه أنوار اليقين .

والشاعر الاصلاحي باعتباره فنانا حساسا يتأمل الواقع ويعيه، ويدرك أن الاصلاح المنشود مجاله الدين، وأن الدين بلا ايمان شجرة غير مثمرة في حاجة إلى رعاية، فأكثر من ترديد هذا الربط بين الدين والايمان، أي الرجوع إلى القيم الروحية، واقتفاء أثر السلف الصالح الذي كون خير أمة أخرجت للناس.

وقد استمر الاهتمام بهذا الجانب خلال الثورة المسلحة، فاذا الايمان أقوى "عتاد" يتدرع به المسلم لمواجهة أعدائه ووسيلة لتحقيق أهدافه، يقول أحمد سحنون :

وليس كالايمان أقوى عتاد   يبلغنا من دهرنا ما نريد. (2)

---

1 - في هذا اليوم احتفل العالم بعقد الهدنة مع ايطاليا ، فاتخذ الجزائريون من ذلك وسيلة لاظهار عواطفهم ، بمظاهرات سلمية في الشرق الجزائري، فارتكب الاستعمار ضدهم مذبحة من أفظع المذابح الاستعمارية في العالم دامت أياما وليالي سوداء وأسفرت عن مقتل (45) الفا من المسلمين . (انظر احمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر، دار النهضة المصرية ، 1956 ، ص 117 - 178.

2 - يوم ميلاد، الديوان ، ص 83.

إنه الايمان بالدين، وبالقدرة الاسلامية، وبنصرة الله لعباده ، وبانحطاط القيم الروحية عند العدو، وبفعالية النفوس الممتلئة برهبة الله، والمتعالية عن سفاسف الأمور.

والايمان أيضا بانتصار الحق على الباطل، مهما جار الباطل وتجبر في الأرض، وبتغليب كفة القوة المؤمنة على كفة القوة الطاغية الظالمة.

فالشاعر أحمد سحنون وهو يعاني قسوة السجن خلال الثورة، وفي ذكرى نزول القرآن الكريم، تجيش في نفسه مشاعر العزة والأنفة، ويربط بين ماضي الأمة وحاضرها فيقول :

لا تقل نحن قليلون فما	تضعف القلة من جند الالاه
لا تقل ليست لنا أسلحة	وعتاد مثلما عند الطغاه
عدة الايمان أقوى عدة	كم أبادت من معدات العتاه
لك في (بدر) دليل قاطع	إذ جنى العزل من النصر جناه
فانصرالله تجده ناصرا	وابذل الخير وجانب ما عداه. (1)

وعلى الرغم من الطابع المباشر للأبيات بخطابيتها، وطغيان النثرية عليها مما يبعدها عن الفن الشعري، إلا أن الحماسة الدينية تغلفها، وتعطيها دفقة شعورية.

لقد استغل الشعراء خلال الثورة المسلحة هذه الحماسة الدينية المتأججة في صدور الناس التي وصفها أحد النقاد بقوله إنها :

" نار لا تخبو، ونور لايخسف، وعروة وثيقة بين الناس لا تنفصم، وعاطفة مشتركة بينهم يتنافسون في صيانتها واعزازها." (2)، كما أنهم لم يجدوا في هذه المرحلة الثورية "أجدى من الدين في تعبئة الشعب وتزويده بالقوى النفسية، وإذكاء حماسته الوطنية" (3) حتى يتقدم الصفوف في استبسال، معتمدا على ايمانه بقدراته الذاتية.

ومن هنا نخلص إلى القول : إن شعراء الاصلاح، قد تربوا في أحضان القرآن

1 - ذكرى بدء نزول القرآن ، (خلال الثورة)، الديوان ص 216 - 217.

2 - د. أحمد محمد الحوفي، التراث الروحي والشعر الحديث ، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ، 1965، ص 25.

3 - م. ن.

الكريم، وتشربوا مبادئه، وارتووا من مناهله، فرفعوا لواء الدفاع عنه، واستنهضوا الشعب للتمسك به، وتجسيده إلى سلوك عملي إمعانا في التصدي لمظاهر الانحراف والاحتواء والادماج واتسم موقفهم بسمتين بارزتين : سمة التوجيه والحث على التمسك بالاسلام وسمة التفنيد لادعاءات الكائدين، والرد على مفترياتهم ومطاعنهم في الاسلام.

وكان التركيز واضحا على أهمية القرآن الكريم ودراسته، باعتباره جذرا ناميا لشجرة الاسلام، ولاحياة للأمة بدونه.

كما تم الربط بين هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والظروف العصيبة التي يمر بها المجتمع، لأن القصد من تناول بعض أفكاره كان التوجيه والتربية؛ اضافة إلى الاعتبار والتأسي .

وأكد الشعراء أهمية علاج الواقع الجزائري عن طريق الدين؛ ربطا بين الدين والقرآن والايمان، واقتداء بسنة الرسول (ص) وجهاده في هذا المجال .

وقد تطور مفهوم الدين من جانبه الروحي البحت الذي يغير النفوس، إلى جانبه المادي الذي يحولها إلى ليوث، وعقبان تطارد الغربان الناعقة في سماء الجزائر لاسترجاع الحرية المفقودة، ومكافحة الارهاب الاستعماري، ودحض الأباطيل والمفتريات.

وعلى الرغم من بروز بعض اللمحات التشاؤمية إلا أن بذور الأمل كانت واضحة في قصائد الشعراء من امكانية تحقيق النهضة الدينية، خاصة وأن الاسلام متمكن في النفوس، مستحكم في القلوب. فرغم الصدأ الذي علاه فترة من الزمن إلا أن بريقه بدأ يتوهج من جديد أكثر لمعانا، وأشد قوة مع طلائع الفجر الجديد حين يزول حكم الطغاة ويولي زمان الاستبداد، وتسطع أنوار الاسلام والمسلمين .

ولم يتوقف صراع الحركة الاصلاحية مع هؤلاء الذين يعادون الدين، ويعملون على ازاحته عن ميادين الحياة، بل تعدى إلى أولئك الذين يتدثرون برداء الدين، لكنهم يشوهون قيمه، ويجمدون حركيته في أساليب كهنوتية ليست من الاسلام.

2- مقاومة الانحراف الديني

يشكل الانحراف الديني كل ما عرف من خرق لأصول الدين من بعض أهل الطرق الصوفية، وبعض الزوايا، ومن بعض العلماء الرسميين، أو من الجامدين دينيا وفكريا، الذين يسوؤهم أن تظهر حركة اصلاحية متجذرة بالاسلام وتملك حركة واقعية في الحاضر وآفاقا مشرئبة إلى المستقبل، ويحدوها العزم على ازالة ما علق بالاسلام من صدأ سنوات الاحتلال.

أن الحركة الاصلاحية لم يرفض دعوتها إلا من كان في قلبه مرض من دعاة الانحراف الديني الذين استغلهم الاستعمار لتحقيق أهدافه في امتصاص التوثب الاسلامي، وتحويله إلى ركود وجمود، قصد تخدير الشعب، وتثبيط الهمم، ونشر التواكل.

وقد بذلت الادارة الاستعمارية مختلف الجهود لمساعدة هؤلاء المنحرفين، والتمكين لهم في عقول الناس، ونشر أفكارهم المضللة «فما من أحد يطلب منها أن تأذن له في زاوية يفتحها لنشر الخرافات إلا استجابت له بكل سرعة وأذنت له، وربما أعانته بالمال، وربما منحته وساما، وربما كان ذلك وسام العلم ... جزاء ما قتل من العقول وأمات من الفكر والشعور». (1)

وهكذا نجد أن الدور الايجابي للزوايا في معظم القرن التاسع عشر، تحول مع مرور الأيام إلى عكس ذلك، وتحولت بعض الزوايا إلى " أعشاش للخيانة والتجسس على المواطنين" (2)

ولم يكن الصراع بين الطرقية والاصلاح إلا صراعا نشأ عن موقف كل منهما من الدين؛ فالفكر الاصلاحي متفتح في فهمه للدين، أما الفكر الطرقي فكان جامدا متحجرا، ينظر إلي الاسلام على أنه مجرد طقوس كهنوتية.

وكان الموقف الاصلاحي رد فعل على الموقف الطرقي (3) رفع لواء الاسلام دينا ودولة وعقيدة، فكرا وفعلا، نظرا وعملا، واستند على الكتاب والسنة، مقتفيا أثر السلف الصالح، وحارب الموقف الطرقي وما يمثله من ابتداع في الدين، وشطحات صوفية، وغلق لباب الاجتهاد.

---

1 – انظر : محمد السعيد الزاهري ، ج البرق، س 1 ، ع 12 ، 19 ذي القعدة 1345هـ ، 1927/5/23.

2 – د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1 ، ص 109.

3 – انظر ذلك بالتفصيل في : د. الركيبي ، الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 583 – 586.

ولم يكن الشعر الاصلاحي خلال هذه الفترة بمنأى عن الأحداث، لأن الشعراء كانوا دعاة اصلاح دينيا واجتماعيا، نبتوا في بيئات دين واصلاح، فكان على الشعر "أن يأخذ الانحراف أخذ عزيز مقتدر يوسعه فضحا وتعرية، وتعقيبا ومطاردة، وتمزيقا لحجب القداسة، وأستار الغموض ...وكانت تعرية أدعياء الدين وفضح سوءاتهم تمثل الانطلاقة الأولى للشعر المرابط في الواجهة المضادة للانحراف" (1)

ولما كان الانحراف الديني قد ركب شطط التطرف، وتلاعب بالدين باسم الدين، وارتكب معاصي يقشعر لها جسد الاسلام، فقد قوبل بهجوم مضاد ومتطرف أحيانا، قاده شعراء الحركة الاصلاحية الذين كان بعضهم ضحايا للطرقية في السابق؛ خبروا مراميها، وانغمسوا في معاصيها، وعرفوا سوءاتها عن كثب، ثم عتقوا أنفسهم وهاجموها فأصابوها في المفصل. فهم من جهة كانوا أسرى في يد الانحراف قبل أن ينتقلوا إلى صف الاصلاح، وبعضهم كان يعيش في جو اصلاحي واصطدم بصخرة الانحراف في الواقع الجزائري كما حدث للعقبي وحمود رمضان . (2)

وقد اعترف عدد من الشعراء بانتمائهم لطرق صوفية، فالشاعر محمد الهادي السنوسي يعترف بما أصابه من تحول جذري طرأ على تفكيره بعد اتصاله بالامام عبد الحميد بن باديس فيقول : « كنت قبل صحبتي لهذا الأستاذ ولوعا بأباطيل الخرافيين من الطرقيين، راسخ اليقين في الايمان بطواغيت الدجالين، ولقد أصبحت والحمد لله حر الضمير والعقيدة، والفكر، راسخ اليقين في أن الاسلام هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا التصوف، وما يدعيه الصوفيون، أوالمتصوفون" (3).

إن الطرقية في رأيه تكبل الفكر، وتشوه العقيدة، وتقيد الضمير، وتحول مسار اليقين إلى مسارب الأباطيل والخرافات.

ويمكن أن نتلمس وصفا لبعض ملامح هذا الانحراف في شعر شعراء كثيرين كالعقبي والزاهري ومحمد العيد، وبولحبال وغيرهم، فقد ركزوا على خطر الانحراف الديني الذي يشمل الجزائر كلها، وفضحوا تلك السلوكات الانحرافية والمظاهر التافهة مثل الاهتمام بالقشور، وادعاء العلم بالغيب، والتظاهر بالثقافة والتدين ، وارتكاب المعاصي، والاستيلاء على أموال الناس بالباطل وغيرها رغم ما يمكن أن يقال عن بعض

1 - د. صالح خرفي : الشعر والانحراف الديني ، م الثقافة ، س 2 ، ع 7، مارس 1972، ص 59.

2 - فالأول كان يعيش في الحجاز في جو اصلاحي، والثاني كان يعيش في منطقة وادي مزاب التي لم تعرف هذا النوع من الطرق والزوايا.

3 - انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص 186. ويمكن الاطلاع على اعتراف آخر للجنيد أحمد مكي حين يقول : « أما عن زياراتي للأضرحة وتقبيلها والتوسل بأحجارها وما على توابيتها من الرياش وترابها لاتسأل » ، م. ن ، ص 99.

الأدوار الايجابية التي قامت بها بعض الزوايا والطرق في نشر التعليم والمحافظة على القرآن الكريم ولغته العربية ولكن كما يقول الابراهيمي فان « زوايا الطرق في باب العلم كمدارس الحكومات؛ هذه معامل لتخريج الموظفين، وتلك معامل لتُخريج المسبحين بحمد الزوايا والمقدسين. » (1)

ولم يكن شعر الطيب العقبي (2) يخرج عن اطار فضح سوءات الطرقية، فلقد وهب نفسه لتعرية ما ترتكبه من معاص وغايته في ذلك اصلاح المجتمع الجزائري وتنقية أجوائه الموبوءة التي اصطدم بها عند عودته من الحجاز، وقد اعترف بذلك حين قال يصف ما لاقاه منهم ويتوعدهم المجابهة :«وقام دعاتهم في وجهي يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا، وإني لمواجه لكل صدماتهم ومجابهتهم وجها لوجه كيفما كانوا مادمت أعتقد أني علىْ الحق بالرغم من تجريدي من كل عدة يعدها الخصمان » (3).

فقصيدته « إلى الدين الخالص» (4) تؤرخ لهذا الصراع بين الاصلاح والطرقية؛ إنها هجاء مر يتعرض للطرقية بصراحة غير معهودة، ويعلن عليها الحرب دون هوادة، وقد نوّه الشيخ مبارك الميلي بأثر هذه القصيدة في الطرقية حين قال « فكانت تلك القصيدة أول معول مؤثر في هيكل المقدسات الطرقية. ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجرأة ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقية، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه وحالته في الجمود والتقديس لكل خرافة في الوجود » (5)

وتتكون القصيدة من سبع وستين بيتا، اختارلها الدال حرف روي، وركز فيها على وصف حالة البلاد من الناحية الدينية؛ حيث قبر العلم، وساد الجهل، وانتشرت الاعتقادات الباطلة و :

عبد الكل هواء شيخــه　　　جده، ضلوا وضل الاعتقــاد

حكموا عادتهم في دينهم　　　دون شرع الله إذعم الفساد

وقد أوضح منهجه الاصلاحي وهو يهجو معتقدات الطرقية فقال :

حجتي القرآن فيما قلته　　　ليس لي إلا على ذاك استناد.

---

1 – انظر سجل مؤتمر جمعية العلماء ، ص 56.

2 – (1880 – 1960) ، تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر ، ج1 ، ص 124، والشهاب ع 8، ديسمبر 25، و ع 34، جانفي 26. ومجلة الثقافة ع 66، نوفمبر ، ديسمبر، 1981.

3 – شعراء الجزائر ، ج 1، ص 129.

4 – المنتقد ، س 1، ع 8، 30 محرم 1343هـ 1925/8/20، ص 1.

5 – انظر كتاب رسالة الشرك ومظاهره ، مكتبة النهضة الجزائرية ، ط 2، 1966. ص284.

وانطلق في هجوم كاسح على مواقع الطرقية وضلالاتها، وسوء معتقداتها، فتبرأ منهم ومما يعتقدون، وأبرز سوء أثرهم على المجتمع وما قد ينشرونه من رذائل كالعجز والاستسلام.

إن أسلوب القصيدة أسلوب مباشر، سيطرت عليه الروح الخطابية التي عرف بها العقبي، وألفاظها معجمية الدلالة، مسطحة لا ايحاء فيها ولا رموز، وقيمتها الحقيقية تكمن في مضمونها الذي يؤرخ لهذه الفترة ويطرح قضية سيطرت على الفكر الاصلاحي.

وهذا الأسلوب الذي استعمله العقبي هو أسلوب مساير للخطابة في المساجد والنوادي والمناسبات التي عرف بها قبل أن يعرف شاعرا.

ومثل هذه القصيدة ورغم طابعها الفني البسيط إلا أنها تعتبر « سجلا للفكر الديني وللعقيدة الروحية ودعوة لهما » (1) أسهمت في ايقاظ الوعي، وفضح الأساليب الطرقية، والمنافحة عن الفكر الاصلاحي.

وقد ظهر لنا من خلال تتبع هذا النوع من القصائد الاصلاحية أنواعا من الأساليب في مهاجمة الطرقية :

1 – أسلوب اللين، والحوار الهادئ المتعقل عند محمد العيد خاصة

2 – أسلوب النفس الطويل والصراع المرير، والتعقل الحازم عند العقبي خاصة.

3 – أسلوب القسوة والجرأة والسخرية والتهكم عند الزاهري خاصة.

وينضوي تحت كل أسلوب عدد من الشعراء، يتفاوتون قوة وضعفا، وسنتطرق لهذه الأساليب شرحا وتحليلا.

أ – <u>أسلوب اللين والحوار الهادئ المتعقل :</u>

إنه أسلوب سلكه عدد من الشعراء الاصلاحيين، فرضت عليهم طبائعهم وميولهم، وأوضاعهم الاجتماعية والمهنية أن يبتعدوا عن أسلوب العنف، فلجأ وإلى هذا الأسلوب : حوار هادئ وجدال بالأدلة العقلية والنقلية.

---

1 – د. الركيبي ، الشعر الديني ، ص 629.

ولاحق شعراء هذا الأسلوب الطرقية «بسَيْل من الحقائق الشرعية التي أربكتهم وأصابتهم بالعي والحصر» (1)، إنهم يعتمدون أسلوبا يتسم بالموضوعية، ويحتكم إلى الشرع، ويتنزه عن التعريض والتهكم والبذاءة ..

وعلى الرغم من أن حدة الصراع مع الطرقية ظهرت حين حاولت هذه الأخيرة الانتقال من المجابهة القولية إلى المجابهة الفعلية بمحاولة اغتيال الشيخ ابن باديس سنة 1927 (2)، إلا أن شعراء الأسلوب الهادئ لم يندفعوا وراء التيار، ولم ينساقوا وراء أسلوب الخصم، بل تغلبوا على عواطفهم الجياشة، واحتكموا إلى عقولهم،قدوتهم في ذلك شريعة الله وسنة رسوله (ص) وما لاقاه من الأذى وما تعرض له من الهوان على يد قومه.

فنلحظ في قصيدة محمد العيد :« حمتك يد المولى » (3) سورة الغضب. لكنها لم تخرجه عن طبعه الهادئ الرصين، فلم يعمد إلى التجريح، ولم ينتقل إلى السب والشتم، بل لجأ إلى التنديد بالفعل الخسيس الذي تبنته احدى الطرق الصوفية :

ولم يلبث الأشـــرار حتى تـآمـــروا   عليـه فلم يألـــوه من شرهم خبـــلا
أرادوا بـــه الفتـــك الدريع شمـــاتة   ومـــا كان للفتـــك المراد به أهـــلا
فهل كان هذا شـأن من يدعي التقـــى ؟   وهل كان هذا شأن من يدعي الوصلا ؟
أمـــا كـان ازهاق النفـوس محـرمـــا   على القوم أم ظنوا النفوس لهم حلا .

فالشاعر رغم اعتباره لهؤلاء القوم أشرارا متآمرين أصابهم الخبل وأعمتهم الفتنة إلا أنه يحاججهم بالأدلة الشرعية، فاذا كانوا يدعون التقوى والوصل فكيف يحلون لأنفسهم قتل النفوس البريئة الداعية إلى الله بالاصلاح ؟ ألا يعلمون أن ازهاق النفوس المؤمنة محرما أم أن شيطان الغواية قد أعماهم فهم في غيّهم يتخبطون .

ويدعوهم إلى المجابهة ~~بنفس~~ نفسه بالسلاح الاصلاحي وهو الحكمة والموعظة والدليل والبرهان :

إذا كنتم يا قوم بالحق قادة   فادلوا ببرهان إليه كما أدلى.

1 - د. ناصر ، المقالة الصحفية ، ج1 ، ص 115.

2 - وهي المحاولة التي قام بها أحد مريدي الطريقة العليوية. انظر ما كتب حولها من مقالات وقصائد خاصة في الشهاب في الأعداد التالية 78، 79، 80، 81، 82، 83، 87، 88، 94 ؛ وهي أعداد صادرة في سنة 1927.

3 - الشهاب ، ع 81، 23 رجب 1345هـ ، 27/1/27. الديوان ص 123.

إن عاطفة الشاعر كانت جياشة تنضح بسورة من الغضب الاسلامي الذي يستثار عندما يتعدى على حقوق الله وحقوق عباده من غير حق. ورغم جو المناسبة إلا أن الشاعر كان هادئا وإن بدرت منه بعض الأوصاف لهؤلاء القوم مثل : الأشرار، الغرار، الزعانفة، الغفل، ذو الهمم السفلى ، في ثورة حماسه وغضبه التي دعمها باستعمال صيغ الاستفهام والنداء والأمر والطلب .

وهذا الأسلوب نفسه يظهر عند أبي اليقظان، وحمود، ومفدي زكرياء، فرمضان حمود اعتبر هؤلاء الطرقيين الذين حاولوا سفك دم الامام أنذالا، لأنهم جابهوه بالفعل الاجرامي بعد أن أصابهم العجز من مجابهته بالأدلة الشرعية :

صاروا ولم يلقوا الدليل لسعيهم   مالوا إلى التهديد وهو مجانب. (1)

فتحس من خلال القصيدة عاطفة الشاعر الجياشة الموزعة بين كراهية ومقت من جهة ومحبة ووفاء من جهة ثانية؛ كراهية لهؤلاء الذين أعمتهم الضلالات فضيعوا سبيل الحق، ومحبة لمن أوذي في سبيل الله واتسم بغيرته على دين الله، وجهاده الاصلاحي.

وفي قصيدته «الجديد والقديم» (2) يلجأ إلى الأسلوب الساخر الذي يشدد الخناق على الخصم، ولايترك له منفذا إلى الرد، ورغم الطابع النثري للقصيدة، وضعفها الفني إلا أنها تعبر عن أسلوب حمود في محاربة الانحراف الديني، والجمود الفكري.

وعلى الرغم من طابع السخرية الذي يغلف الأبيات ألا أنها تبدو خالية من العاطفة، تغلب عليها روح التكلف والتصنع. وأعتقد أن الشاعر لم يحس احساسا صادقا بخطر الطرقية، ولم يكتو بنارها، ذلك لأن المنطقة التي عاش فيها ظهر فيها الاصلاح مبكرا بجانبيه الاجتماعي والديني و «لم يكن فيها حظ لزاوية رغم احاطة الطرق بها احاطة السوار بالمعصم» (3)

إن الأسلوب الهادئ الرزين الذي ظهر عند محمد العيد بارزا أكثر من غيره كان يتنزه الفحش في القول، ويتبرأ من التهكم اللاذع، والسخرية المريرة، ورغم أن الشاعر تدفعه الغيرة الدينية والوطنية إلى الحماسة، فتغلي نفسه، وتجيش عاطفته إلا أنها تهدأ بعد فترة، فتنتج أسلوبا نزيها متعففا يصيب مفصل الشيء، ويستعرض دائما موقف

1 - شلت يد الجاني ، الشهاب ، ع 78 ، 2 رجب 1345هـ ، 1927/11/06 ، ص 13.

2 - انظر الشهاب ، ع 101، 1927/6/16.

3 - د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1 ، ص 110.

الشريعة قبل كل شيء دون أن يحتكم إلى العاطفة التي قد تجمح به إلى مهاوي السباب والشتم. (1)

وقد تزامن مع هذا الأسلوب أسلوب عرف بالقسوة والتجريح من الجانبين، مما جعل محمد العيد كشاعر مسالم أن يدعوا في منتصف الثلاثينيات إلى المسالمة في الخصومات والابتعاد عن الفجور :

أيها المسلمون لا تخفروا عهد من خفر
سالموا كل من طغى في الخصومات أو فجر. (2)

ب - أسلوب النفس الطويل والصراع المرير

إنه الأسلوب الذي شهر به الطيب العقبي الذي توفر لمجابهة الطرقية ومقاومة الانحراف الديني بكل ما يملك من جرأة، لايخشى في الله لومة لائم.

لقد قاوم الانحراف الديني خطيبا في (نادي الترقي)، وصحفيا في (الاصلاح)وواعظا في (المساجد) وكاتبا وشاعرا في الصحف.

وتحمل في سبيل رسالته الأهوال، وقارع النكبات، وتعرض للمضايقات، وقصة اغتيال المفتي كحول أشهر من أن تذكر. (3)

وقد جمع في أسلوبه بين الاعتدال والحرارة، ذلك أنه رغم حدة مزاجه الذي يدعوه إلى العنف والقسوة، إلا أن وضعيته اماما واعظا وخطيبا في نادي الترقي تفرض عليه التحلي بالوقار، والرزانة في القول، والاتزان في المواقف.

فكان هادئا مسالما في مناقشة الأمور الفقهية، ثائرا متوثبا في الرد على الطرقية وتهمها الباطلة ضده، وتجنيها عليه.

---

1 - انظر على سبيل المثال قصيدته التي يعبر عنوانها عن مبدئه وأسلوبه : « دعاة إلى الحسنى » ومما ورد فيها توضيحا لموقفه قوله :

يا من تلمس في عاداته حكمها أخطات ليس سوى القرآن من حكم . (الديوان ، ص 103)

وحين ينتقد التوسل إلى القبور والتضرع لها ودعوتها والتبرك بها لا تراه يثور، بل يكتفي بالتعجب مستنكرا الواقعة :

سمعتك تدعو الميت في القبر ضارعا فيا عجبا للحي يستصرخ الميتا. (الديوان ص 363)

2 - نحن في الخير رفقة ، البصائر ، س 1، ع 03 ، 22 شوال 1354هـ ، 36/1/17 ، ص 05.

3 - انها مؤامرة من تدبير الاستعمار ، اتهم فيها العقبي بتدبير اغتيال المفتي الشيخ محمود كحول المعروف بابن دالي وتعرض إلى السجن والمحاكمات المتتالية إلى أن برأته المحكمة بتاريخ 1939/6/28.

ولعل ما يفسر أسلوبه هذا موقفه من مراسلة الصحف، فكان يبعث إلى (البرق) الموضوعات الرعدية والصواعق الزجرية التي يرسل بها على رؤوس الشياطين كل ما يستطيعه من شهب نارية، ويبعث إلى مجلة (الشهاب) المعتدلة ما يليق بها من كل ما يتفق مع خطتها. (1)

وإذا كانت القصيدة «إلى الدين الخالص» أول معول مؤثر في هيكل المقدسات الطرقية فقد عضدها بقصائد أخرى لاتقل عنها جرأة، حين أحس أن قوة الطرقية ضارية ومعتقداتها راسخة في عقول الناس، وأن الجهود الفردية قد لا تؤثر عليها فدعا إلى تكوين جبهة دفاع قوية من ذوي العلم الصحيح تقف في وجه ذوي العقائد الزائفة لترد افك الأفاكين وتدحض حجج الدجالين المضللين. (2)

وكانت قصيدة «لحي الله أهل الغي» (3) نموذجا للهجومات الكاسحة على مواقع الطرقية، حين يقول فيها :

وقد شمرت عن ساقها الحرب نحوكم ففروا وعن ساق الهزيمة شمروا.

وينعت فيها الطرقيين بمختلف الأوصاف الذميمة فإذا هم شر البرية، وأئمة كفر، وشياطين انس، ومرتكبوا أفعال الفحش، وفراعنة، ومبتدعون :

أئمة كفر مذ قديم بأرضنا ومثلهم من بالهداية يكفر

شياطين انس خادعون بافكهم رؤوس ضلال للزهادة أظهروا. (4)

والقصيدة طويلة راح الشاعر فيها يحصر مثالب الطرقية في المكر والخداع والنفاق ويعدد صراعه معها مقارنا بين معتقده الاصلاحي ومذهبه في الدعوة، ومعتقداتهم الباطلة وأساليبهم في الاستحواذ على عقول عامة الناس.

يملك العقبي – رغم ضعف الجانب الفني في قصائده – أسلوبا عنيفا فكانت حملاته ضد الطرقية طويلة وشاقة، تجرع في سبيلها المرارة، لكنه ثابر على تتبع أضاليلهم ونقضها، ودحض افتراءاتها وتقديم البديل لها.

---

1 – انظر مقال : إلى الأمام، ج البرق، ع 7، 16 شوال 1345هـ، 1927/4/18.
2 – انظر : المنتقد، س 1، ع 15، 19 ربيع الثاني 1343هـ 1925/10/08.
3 – انظر : ج البرق، س 1، ع 12، 19 ذي القعدة 1345هـ، 1927/5/23، ص 03.
4 – م. ن.

وقد اقترب في قصائد هذه من الوحدة الموضوعية، فإذا الموضوع الواحد يستحوذ على القصيدة، وإن تعددت جوانبه، مما يعطي للأفكار وضوحا، ويترك الدارس يشعر بتوالي الأفكار، وسيطرة الشاعر على موضوع من أول بيت إلى أخره.

وربما لم تتوفر هذه الوحدة الموضوعية كما لاحظها بعض النقاد في مثل هذه الفترة، وفي الموضوع نفسه عند غيره من الشعراء، إذ نجد عندهم نتفات شعرية وأبيات متفرقة تعرج على القضية فرعا لقضايا أخرى تمس الجانب العقيدي في تلك الفترة.

ويمكن ملاحظة نزاهة اللفظ في قصائده رغم الانفعال الحاد أحيانا، ورغم محاولته أحيانا أخرى تغليف أبياته بنوع من السخرية المريرة كقوله :

جعلوا (المسابح) في الأصابع آلة   للصيد و(الدخان) في الأفواه

يا ساء ما اعتقدوا وساء صنيعهم   خانوا العباد وحكم شرع الله. (1)

فنعوته لأهل الطرق لاتسف إلى درجة الابتذال، ولا تتورع في القدح والشتم بل تركز على جانب العقيدة.

ويمكن أن نلاحظ أيضا على قصائد العقبي ذلك التأكيد على الشعور بالذات وهي خاصية في القصائد العقبية، إذ أن الشاعر يربط ربطا واضحا بين معتقده - كشخص - وبين الأباطيل الطرقية، فهو لم ينظر إلى نفسه في هذه المرحلة من العشرينيات بأنه جزء في كيان الحركة الاصلاحية المتنامية، بل كان يطغى عليه صوت «الأنا» الفرد، فنجد في قصيدة «لحى الله أهل الغي» مثل هذه التعابير : دعوت الله ربي، إذا أنا ذكرت، وإن أذكر، كلهم لي بالمراد، وما أنا في قولي، ومن مذهبي، عما أقول، فصارحتهم في مذهبي وطريقتي، وجادلتهم، فقلت (2) ... الخ.

وأخيرا فإن أسلوب العقبي متميز يعلو حينا حتى مستوى الصيحات التي ترج قلاع الطرقية، وتزلزل أركانها، ويدنو أحيانا إلى مستوى المسالمة التي عرف بها محمد العيد ونحسب أن طبيعة الشاعر المتقلبة حتى في ميوله السياسية لها دورها الواضح في أن اصطبغ أسلوبه بهذه الصبغة:

---

1 - الاصلاح ، س 3، ع 12، 8 رمضان 1348هـ ، 01 فيفري 1930، ص 04.

2 - ولعل هذا ما جعل أحمد توفيق المدني يقول عنه انه كان معجبا بنفسه ، مفرطا في عشق ذاته ، انظر : حياة كفاح ، ق 2، ص 264.

جـ - أسلوب القسوة والسخرية والتهكم

إنه أسلوب جارح في بعض الأحيان، كانت قصائده مثل مقالاته «عنيفة اللهجة في أسلوبها، قاسية التقريع في أغلبها، تتخذ أسلوب التهكم اللاذع سلاحا، وتستعمل طريقة السخرية المغيظة وسيلة، وهو ما جعلها تنزلق أحيانا إلى حماة السب والشتم.» (1)

وقد برز هذا الأسلوب بشكل جلي حين تطورت قضية الصراع بين المعتقدات الطرقية والمعتقدات الاصلاحية، من المعارك القلمية واللسانية إلى مجابهة تستعمل فيها الوسائل المادية للقتل العمد «الهراوة والموسى» بدل «القلم واللسان» وتم ذلك حين أوفدت الطريقة العليوية أحد مريديها إلى قسنطينة في محاولة منها لاجهاض الحركة الاصلاحية المنطلقة فكرة منْ قسنطينة قبل أن تستوي حركة أو جمعية، وذلك بالقضاء على زعيمها الروحي والعملي ابن باديس، فكان هذا الحادث الخطير، القطرة التي أفاضت الكأس كما يقال، فثارت الأقلام الاصلاحية التي أرسلت صواعقها على الطرقية، وبضربات موجعة أصابتها في الصميم، وكشفت عوراتها أمام الملأ بأساليب الاستهزاء والتهكم اللاذعين.

وكانت سنة 1927 التي شهدت هذه المحاولة الدموية أكثر السنوات جرأة على تحطيم "المقدسات الطرقية"، وأشدها عنفا على مواقفها ومظاهرها، وإن سبقتها قصائد تنحو هذا النحو.

وقد برز هذا الأسلوب العنيف الجارح عند كوكبة من الشعراء الشباب الذين كانوا يتقدون حماسة وتلتهب عواطفهم الجياشة بمشاعر المقت لأباطيل الطرقية ، فاستلوا سيوف المجابهة لما أيقنوا أن أسلوب المسالمة لايجدي نفعا مع قوم شوهوا الاسلام.

وكان من أشد الشعراء تحمسا الشاعر محمد السعيد الزاهري الذي أنشأ جريدة (البرق) (2) صحيفة اجتماعية أدبية انتقادية، استغلها لمجابهة الطرقية، على اعتبار أن جريدة الشهاب لم ترض هذه النفوس المندفعة إلى الكتابة بالأسلوب الساخر البذيء الذي يتخذ من الهجاء والاستهزاء وسيلته المفضلة بعيدا عن الأسلوب الهادئ الذي يعتمد المناقشة الرزينة، وفي لقب الشاعر الزاهري «تأبط شرا» دلالة واضحة على هذه

1 - د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1، ص 128.

2 - صدر العدد الأول منها في 03 رمضان 1345هـ ، الموافق لـ 7 مارس 1927. انظر لمزيد من التفصيل : د. ناصر ، الصحف العربية الجزائرية ، ش. و. ن. ش. الجزائر ، 1980، ص 84/83.

النزعة، وهي التي أشار إليها الشاعر عبابسة الأخضري (1) في قصيدته «الشعر الفحل في الرد على عصبة الباطل والجهل» (2) حين قال مهددا الطرقية بأسلوب مباشر :

سيقضي السعيد الزاهري عليهم   وينقض من فوق الشياطين كالرجم.

لقد كان الزاهري من أشد الشعراء سخطا على حادث الاعتداء الذي تعرض له الشيخ ابن باديس، فثار على مرتكبه ومدبريه، موغلا في الهجاء والسخرية اللاذعة:

قطع الطريق عليك في غلس ولم   تكن «التيوس» لتقطع الطرقات ..
شلت يد (التيس) الشقي فإنها   شجت جبين الفضل والحسنات.

وبعد هذا التشبيه الساخر وجد الفرصة سانحة للهجوم على التصوف وأصحابه:

لولا «التصوف» ما رأيت ذوي اللحى   يأتون أمرا وهو غير مواتي. (3)

لقد فتحت هذه المؤمرات الدنيئة شهية الأقلام الجريئة، فراحت تفضح المواقف، وتبحث في تاريخ الأفراد وأعراضهم، فعرت سوءاتهم، وتعرضت لكل نقيصة فيهم، وبالغت في تصوير بعض الوقائع والمواقف، وأعطتها صورا درامية مثيرة، فحين يصور الزاهري تلك العفيفة التي هتك المرابط عرضها فلم يزدها ذلك إلا فخرا وسط أترابها معتبرة ذلك أطهر القربات (4)، يحس القارئ بتلك السخرية المريرة التي تدمي القلب، وبتلك الأساليب الجاهلية التي كان المجتمع يتخبط فيها ظلمات من الجهل والجمود.

ونحس أن الزاهري يختلف عن محمد العيد، فبينما يكتفي العيد برثاء الواقع، مستصرخا الماضي تغلب عليه رنة الحسرة، وتسيطر عليه عاطفة جياشة لكنها مسالمة، نجد الزاهري «يشن حملة تفتيشية على أوكار الضلالة ... يترك (الطرقية) المنحرفة، و(التصوف) الخادع، بعدها أشلاء ممزقة، (العيد) يستصرخ و(الزاهري) يهوى بالمعاول، الأول يلتفت إلى الوراء، والثاني يدس أنفه في القتام.» (5)

لقد ركز شعراء هذا الأسلوب تركيزا كبيرا على مظاهر ارتكاب الفواحش في خلوات الطرقية من شرب للخمور، وتعاط للزنى، واستمراء للمنكرات التي لايقبلها

---

1 – كان من شعراء الاصلاح الذين وقفوا ضد الطرقية، وقد نشر ببعض القصائد في البرق، ولم نعثر على ترجمة لحياته.
2 – البرق ، ع 20، 26 محرم 1346هـ، 1927/7/24، ص 3.
3 – إلى زعيم المصلحين إلى من أوذي في الله، الشهاب ع 79، 1927/1/13، ص 15/14.
4 – م. ن.
5 – د ، صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث ، ص 80.

الدين، ولا يستسيغها ذوق مسلم، ويظهر ذلك جليا في قصائد الطاهر بن عبد السلام (1)، وإن كانت المبالغة واضحة في تضخيم بعض السلوكات الشاذة. (2)

ويحس الدارس لهذا النوع من القصائد - رغم ما يطبعها من مبالغات وتضخيم لبعض الأحداث وتعميم لبعض الظواهر - بعاطفتين متناقضتين : عاطفة الكراهية الشديدة للمنحرفين، وعاطفة الاشفاق على هذه الطبقة الجاهلة التي ضللتها الشعوذة وانحرفت بها عن سواء السبيل.

وكان من أثر ذلك أن تحولت نظرة الشعراء إلى معاني التصوف نفسها، واتسمت بطابع التطرف في النقد اللاذع، فاعتبر التصوف امتداداللتصوف الهندي بل هو شر منه، وشر من أخلاق اليهود:

قيل التصوف أصله   من بعض زهاد الهنود
قلنا تصوف عصرنا   من شر أخلاق اليهود. (3)

وكان الشاعر حسن بولحبال (4) شديد اللهجة، قاسيا في حكمه، عنيفا على الطرقية، يهوى أحيانا إلى حمأة الاقذاع، وكانت له مساجلات ونقائص مع كتاب وشعراء الطرقية وخاصة كتاب (البلاغ) (5) و(النجاح) (6)، وأكثر ما ظهرت هذه النقائض مع كاتب يدعى "رشيد" فكان بولحبال يهجوه في صفاته الشخصية، ثم يعمم هجاءه على الطريقة والقوم والاتجاه في سخرية معبرة، وتفكه مرّ بعيدا عن الأدلة المنطقية أو الحجج العقلية، يقول مقدما نفسه لخصومه في هذه الصورة الفاحشة التي وصل فيها حدا من الاقذاع يندى له الجبين :

أنا صاحب الحبل الطويل أتيتكم   شعري كحبل محكم طويـــل
مهمـا ألاقي جمعكم ينتـــابني   داء الحماس وعند ذاك أصول. (7)

ويهجو خصمه هجاء مرا مؤلما، بذيئا أحيانا، وينقده نقدا قاسيا يتدنى فيه إلى الانتقاص من الأعراض :

1 - ولد في أواخر العقد الأول من القرن الرابع عشر الهجري، تنظر ترجمته في شعراء الجزائر، ج 2، ص 49 - 63.
2 - تنظر قصائد الطاهر بن عبد السلام : الزائرات في حضرة صاحب الطريقة، شعراء الجزائر، ج 2، ص 69، شيوخ الطرق وبذخهم»، م. ن. ص 67/66، و « بين عالم وشيخ طريقة» م. ن. 71/70.
3 - الاصلاح ، س 3، ع 3، 16ر2، 1348هـ ، 1929/9/19، ص 4.
4 - (1897 - 1943) ، تنظر ترجمته في شعراء الجزائر ، ج 2، ص 73 ، كان يكتب باسم (بوحبل).
5 - صحيفة الطريقة العليوية، صدر عددها الأول في 26/12/24و تنظر : د، ناصر ، الصحف العربية الجزائرية ، ش. و. ن. ت. الجزائر 1980، ص 80.
6 - صدرت بقسنطينة في سنة 1919، كانت متذبذبة بين الاصلاح والطرقية ، انظر في : م. ن. ص 43.
7 - صدى الصحراء، س 1، ع 13، 15 رمضان 1344هـ ، 26/3/29، ص 3.

أنت من جهل اسمه فظل خفيا حضرت أمه وغاب أبوه

قد تواريت بالحجاب بجبن فلماذا على الرجال تتيه. (1)

وكان أهل الطرق يدعون بالشر على من عاداهم، وشاءت ارادة الله أن تنكسر رجل الشاعر في حادث ما، فادعى هؤلاء أن الله قد استجاب لدعواهم، واقتص منه لتجرؤه على مقدساتهم بالسب والشتم، فقال يرد على مزاعمهم، ويسفه تفكيرهم :

قالوا : كسرت، فقلت ربي جابر أو تجرأون على الفتى مع ربه ؟

فتدللوا بمروقكم من دينه وتقربوا ببعادكم من قربه

قالوا سببت تصوفا عجبا لهم قد دنسوه وأشفقوا من سبه. (2)

فالسخرية واضحة في البيت الأخير والتهكم بارز بخطل تفكير الطرقية .

واستمر هجاء الطرقية بعد الثلاثينيات حينما تقوى الاصلاح، وتكونت جمعية العلماء، واعتمدت في برنامجها على تنقية الدين من أباطيل الطرقية وانحرافاتها، وبقي أسلوب الزاهري نفسه جريئا لاذعا ويمكن تلمس ذلك خاصة في قصيدتيه :« ليتني ما قرأت حرفا »(3) و « التحية الصادقة » التي يقول فيها سابا شاتما :

هم السوائم حقا غير أنهم لم يأكلوا مثل الحلفاء والرتما

لا يسمعون ولو ناديت عن كثب فإن آذانهم قد مليئت صمما، (4)

ونفس الأسلوب الساخط وفره لقصيدته الدالية التي نشرت في سجل مؤتمر جمعية العلماء، عاطفة جياشة وحساسية مرهفة، وهجوم كاسح على الطرقية.

ونخلص إلى القول إن هذا الأسلوب قد اشتد في نهاية العشرينيات، وخفت بعد نهاية الثلاثينيات قد طغت عليه روح التهكم والتجريح، والهجاء المر، وظهرت فيه شخصية الشاعر الثائر الذي تحرر من وقاره كعالم مصلح ومعلم مرب، وواعظ رصين واستل سيفه مدافعا عن مبادئ حركته، مسفها أراء مناوئيه من أصحاب الطرق الصوفية، ساخرا منهم، مستنقصا من قيمتهم، متتبعا عوراتهم، فاضحا سوءاتهم.

---

1 – صدى الصحراء ، س 1، ع 11، 17 شعبان 1344هـ ، 1926/3/1، ص 1.

2 – الاصلاح ، س 3، ع 6، 22 جمادى الأولى 1348هـ ، 29/10/24، ص 03.

3 – الشهاب ، ج 1، مج 7، رمضان 1349هـ فيفري 1931. ص 23 وما بعدها.

4 – الشهاب ، ج 9 ، مج 10، 1 جمادى الأولى 1356هـ ، 12 أوت 1934 . ص 407 وما بعدها.

3- توظيف المناسبات الدينية

ترتبط المناسبة الدينية بحدث تاريخي أثر في تغيير مجريات الأحداث لصالح الحق على الباطل، والعدل على الجور، والايمان على الكفر، وترك بصماته واضحة في الذاكرة الاسلامية، وتوارثته الأجيال تحتفل به كلما تجدد ميقاته، وتتقرب فيه إلى الله بأنواع الطاعات، وتستحضر صور المجد الاسلامي في فجره الخالد.

ولما كانت الجزائر تعيش تحت وطأة الاحتلال، وتتعرض لمختلف العراقيل التي تعوق تأديتها لمشاعرها الدينية فإننا نلمس في الانتاج الذي تشهده هذه المناسبات الدينية «عنف الانطلاق المكبوت، وثورة التحدي الموتور، حتى تكاد تتلاشى المناسبة العابرة في النص، لتترك المجال فسيحا للمشاعر الحبيسة المختنقة مما يعطي للمناسبة الدينية والقومية صورة العلة والمبرر لانطلاق المضمون الكامن» (1)

إن الأمة التي ابتليت بالاستعمار الاستيطاني تتشبث بمثل هذه المناسبات فتستحضر تاريخها المجيد وتتزود من ماضيها الحافل بصور المجد والبطولة، الممتلئ بمواقف الأنفة والعزة، وتقارنه بحاضرها الشقي الذي تتخبط فيه بين أنياب الجهل والفقر والمرض، فإذا المناسبة فرصة للاستصراخ والاستنجاد، ووسيلة لتحفيز الهمم وبعث النخوة، وأداة لربط الأواصر مع الشعوب العربية الاسلامية .

ولم تعد المناسبة الدينية في الجزائر ظاهرة عادية تتكرر كل فترة من الزمن، وتمر باردة دون حركة، بل كانت وسيلة اصلاحية يتجند فيها المصلحون : وعاظا وكتابا وشعراء، ويقيمون لها الاحتفالات ويقدمون فيها كل ما يمكن أن يرفد الحركة الاصلاحية ويجمع الشعب حولها، وتبث الوفود العلمية إلى مختلف المناطق رسلا للحركة الاصلاحية رغم المضايقات التي يفرضها المستعمر في مثل هذه الظروف، ولم يكن الشعر غائبا عن هذه المناسبات بل نجده حاضرا في ليلة المولد النبوي الشريف وفي شهر الصوم المعظم، وفي ليلة الاسراء والمعراج، وفي العيدين : الفطر والأضحى، وفي رأس السنة الهجرية ....، عارضا حاضر الأمة على ماضيها، مستخلصا الدروس والعبر، داعيا إلى الاستلهام من المناسبة في سبيل نهضة اصلاحية تعيد الى الجزائر اعتبارها ومكانتها.

---

1 - د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 71.

لقد كان الاهتمام بليلة المولد النبوي الشريف كبيرا، فهي ليلة فاصلة في تاريخ البشرية، قوضت فيها أركان الجاهلية، وانطفأت نار كسرى، وزلزل عرش الروم، وغمرت الدنيا بأنوار الرحمة، أدرك الشعراء أن توظيف المولد الشريف، وسيرة الرسول (ص) سيؤديان دورا في معالجة الواقع الذي ابتعد عن جوهر الاسلام الصحيح؛ فكثرت الخرافات، وانتشر الدجل؛ فلجأوا إلى استنطاق هذه السيرة وتوظيفها بما يخدم تنامي الحركة الاصلاحية.

فحمود رمضان في قصيدته «أهلا وسهلا بالنبي محمد» (1) يبدؤها بمقدمة رومانسية تنطلق من أجواء الطبيعية والاشراق، والجداول والطيور المغردة، تعبيرا عن الفرحة بهذا اليوم السعيد في تاريخ البشرية، وبعد أن يترصد آثار هذه الليلة المباركة في أبيات كثيرة، ينطلق إلى الشكوى من الواقع المر الذي تتخبط فيه الجزائر من جهل تئن من آلامه البلاد، وفساد ينخر المجتمع، وفجور يقوض الأركان، مستشفعا الرسول (ص) رافعا دعاءه بطلب الرحمة والمغفرة.

ولم يترك هذه المناسبة تمر دون أن يتحول إلى واعظ يخاطب المسلمين، داعيا اياهم إلى التمسك بسنة المصطفى، فهو المنارة التي يقتدي بها المسلمون، والاسوة التي يحتذون منوالها :

ياقوم أحمد ! أنتم فخر الورى	وهداته ، فخذوا الورى بزمامه
سيروا على سنن النبي محمد	واجنوا الفضائل من سما أحكامه
لا تهملوا تاريخه، فسطوره	نور الفؤاد، وبلسم سقامه
إن الرسول مناركم، لاينطفي	في صبره نور وفي اقدامه
لاتنبذوا القرآن، فهو امامكم	فالخير كل الخير، في اعظامه.

ونلمح في هذه الأبيات ذلك الأسلوب الخطابي المباشر الذي عرف به الشعر الاصلاحي من استعمال صيغ الأمر، والنهي خاصة، فالشاعر استعمل في خمس أبيات صيغ الأمر التالية : خذوا، سيروا، اجنوا، وصيغ النهي : لاتهملوا، لاتنبذوا، وصيغة النداء : ياقوم ...الخ. ولم يكن ذلك غريبا عن فترة تتطلب أسلوب الاستنهاض وشحذ العزائم، وايقاظ الهمم، فيجد بذلك هذا الأسلوب مبرره الفني.

1 - وادي ميزاب ، س 2، ع 98، 16 ربيع الأول 1347هـ ، 28/8/31، ص 03.

ومحمد العيد في قصيدته «ذكرى المولد النبوي» (1) التي ارتبطت بمحاولات المستعمر خلق الشقاق والتنافر بين الجزائريين بعد المؤتمر الاسلامي، لم يجد بدا من ربط أحداث المولد الزاهية بحاضر الأمة الفاسد، فكانت الدعوة إلى استعادة المجد الاسلامي، والاعتصام بالاتحاد، واعداد النشئ لخير العمل، والتشبث بأركان الدين، والتظلل تحت راية الله.

فيقول : أنط يا شعب من دينك أطنابا بأوتاد

وهيء مثل ما هيأ حزب الله من زاد. (2)

وحاول الشاعر أحمد سحنون أن يغتنم فرصة المولد النبوي ليدعو قومه إلى تغيير مجرى الأحداث كما غيرها نبيهم، وأن يعودوا إلى رحاب دينهم، وينبذوا تقليد عدوهم، فيقول مخاطبا المسلمين :

كنتم جنودا له تحمون دعوته	فصرتم - بعد تقليد العدو - عدا
أضعتم ما به تعلون قدركم	وتصلحون من الأخلاق ما فسدا
فإن أردتم شفاء من شقاوتكم	فليس في غير اصلاحكم بدا. (3)

والأبيات رغم طابعها التقريري الجاف، وأسلوبها الخطابي الضعيف فنيا، إلا أنها تعبير عن موقف في فترة معينة استغلت فيها كل الأساليب للمواجهة مع الاستعمار، بل نجد الشاعر نفسه يربط في فترة متأخرة بين ميلاد النبي (ص) وميلاد الحكومة المؤقتة للجزائر سنة 1958، في قصيدته «ميلاد وميلاد» (4) فميلاد الرسول (ص) انتصار للحق على الباطل، وللنور على الظلام، وللألوهية على الشرك، وميلاد الحكومة المؤقتة انتصار لقوى الحق على قوى الظلم، بل هو شعاع انبثق ينير دروب المجاهدين نحو الاستقلال واستعادة العزة والكرامة، يقول الشاعر :

اليوم ميلاد النبي محمد	من جاء رمز هداية وصلاح
واليوم تولد للجزائر دولة	عربية من أهلها الأقحاح

---

1 - البصائر ، ع 69، 17 ربيع الأول 1356هـ 1937/5/28، الديوان ص 75.

2 - م. ن.

3 - الليلة الغراء ، الديوان ، ص 227.

4 - الديوان ، ص 89.

إن الربط بين الميلاد والأحداث الجزائرية في واقعها الحاضر ظاهرة عامة في الشعر الاصلاحي نجدها عند كل الشعراء الذين كتبوا بوحي من هذه المناسبة؛ عند محمد العيد والهادي السنوسي، وابن باديس،، وجلول البدوي (1)، والربيع بوشامة (2)، وحسن حموتن (3)، وابن رحمون (4)، وعبد الكريم العقون (5)، وطفت في هذه القصائد (6) ظاهرة الشكوى من الاضطهاد وكانت الاستغاثة بالله والتوسل برسوله، وكانت صرخات الاستنهاض بجهاد الرسول (ص) نحو تحقيق الغد المنشود.

ولم يعدم الشعراء مبعثا للأمل رغم المفارقات الكبيرة بين ميلاد النبي (ص) في حقيقة منطلقه، وبين ميلاده في سوء منحدره « بين المولد وثبة تاريخية في وجه الضلالة وبينها ذكرى مخنوقة لا يطاوعها النفس المطمئن، الشاعر الذي يرتاح لكل هذه الفروق لايعدم مبعثا للأمل، حتى في مجرد احياء الذكرى، بل لايجد في هذه الذكريات وتعاقبها إلا مظهرا لتجديد العهد وتأكيد البيعة، وتوثيق الصلة بالماضي» (7).

وتبدو من خلال ما سبق شخصية الرسول (ص) مزدوجة الانتماء، فهي منتمية إلى واقع تاريخي حافل بالأمجاد، ومستحضرة في واقع تاريخي تعيشه الأمة الاسلامية تستخلص منه العبر التي تنتفع بها في دفع الأمة نحو آفاق المجد والتطور.

لقد وجد الشعراء في شخصية الرسول (ص) حافزا يدفعهم إلى تصويرها والاشادة بها وسيلة للرد على محاولات المسخ والتشويه، ومتنفسا عما أصاب النفوس من حنق،

1 – ولد عام 1906 ، كان معلما بمدرسة الشبيبة الاسلامية ، نشر في الشهاب والبصائر، تنظر ترجمته في الشعر الجزائري المعاصر ، ج 1، نشر مجلة آمال ، ص 67.

2 – (1916 – 1959) ، كان شاعرا وجدانيا ، نشر جل قصائده في السلسلة الثانية من البصائر ، انظر الشعب ع3535، 75/4/22.

3 – كان معلما في مدارس جمعية العلماء ، وكتب قصائد عن اضطهاد العربية في البصائر ، في سلسلتها الثانية .

4 – (1921 – 1984) تنظر : جريدة الشعب ع 5265 ، 1980/10/16، النصر ع 2712، 1980/10/19، ورسالة كمال عجالي ، ديوان أبي بكر مصطفى بن رحمون، توثيق ودراسة ، جامعة باتنة 1985.

5 – (1918 – 1959) تنظر رسالة الشريف مريبعي، عبد الكريم العقون شاعرا، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ، 1988.

6 – وأهمها : قصائد محمد العيد :

– تحية المولد النبوي ، الاصلاح ، س 3، ع 2، 2ر2، 1348هـ ، 1929/9/5 ، ص 3.

– أنشودة الوليد ، البصائر، ع 151، 13 ذح 1357هـ ، 1939/2/4، وغيرها.

ولمحمد الهادي السنوسي : – فتش على نجم به عرف الهدى، النجاح ، ع 498، 1927/9/30، ص 3.

– هلال مولد محمد ، وادي ميزاب ع 102، 15ر2 ، 1347هـ ، 1928/9/28، ص 3.

– تحية المولد ، هنا الجزائر، ع 8، ر1، 1372هـ ، ديسمبر 1952، ص 5.

ولابن باديس : تحية المولد الكريم ، الشهاب ، ج 4، مج 13، ر2، 1356 هـ ، 1937/6/11، ص 200 - 202.

ولجلول البدوي : وحي الميلاد ، البصائر، سل 2، ع 22، 28ر1، 1367 هـ ، 1948/2/9 ، ص 7.

وللربيع بوشامة ، وحي الذكرى ، البصائر ، سل 2 ، ع 24، 12ر2 ، 1367هـ 1948/2/23، ص 7.

وللعقون ، في ربيع الجمال شع ربيع النور ، م. س.

ولحموتن : ذكرى الرسول الأعظم ، البصائر ، سل 2، ع 138، 14ر2، 1370هـ 51/1/15، ص 7.

ولابن رحمون : من وحي السيرة ، الديوان ، ش. و. ن. ت الجزائر 1980، ص 8.

7 – د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 52.

وأسلوبا لغرس سنته في نفوس الناشئة تلهب حماسهم وتدفعهم إلى الأخذ بما في تلك الصور من قوة وشهامة ومواقف.

ولم يكتف الشعراء في مثل هذه الظروف بشخصية الرسول (ص) بل جعلوا من الصحابة وأبطال الفتوحات الاسلامية خلفية للوحاتهم التعبيرية في مواقف الاعتبار، والاستثارة. (1)

* * * * * * * * * * * *

وكان لشهر رمضان المعظم مكانته في الشعر الجزائري؛ ابرازا لمآثره وتأكيدا لدوره في توحيد شعور المسلمين وتحقيق روح التكافل الاجتماعي بينهم في ظل ظروف عصيبة كانت تعيشها الجزائر من فقر وضنك، وبؤس اجتماعي، تتطلب مواساة الناس حتى لايبقى في هذا الشهر فقيرا يتضور جوعا، أو مسكينا ينهشه الألم ويعضه الفقر،

ولم تخل قصائد الشعر الاصلاحي - في ظل هذه المناسبة من نبرات خطابية مباشرة تدعو الناس إلى البذل والكرم، والسخاء بفضول أموالهم.

ونجد محمد العيد من أكثر الشعراء اهتماما بهذا الشهر المعظم (2) وتوظيفا لمناسبته في سبيل نهضة اجتماعية يتكافل فيها المسلمون، وتسود بينهم الرحمة. لذلك نراه يكثر من الصيغ التي تدعو إلى الكرم والبذل والسخاء :

تعالوا للندى قومي تعالوا — تنالوا بالندى أقصى المرام

تعالوا نأس مطرحا جريحا — لعل لجرحه وشك التئام

تلافوا بالندى حيا كميت — كأن محله بعض الرجام

أخا الاسلام قد آخيت دينا — صيامك فيه رابعة الدعام ... (3)

ولم يترك محمد العيد هذه الفرصة دون أن يستغلها في الاشارة إلى الواقع المتردي للأمة الاسلامية التي لم يستطع هذا الشهر توحيد صيامها وافطارها فكان

---

1 - انظر في ذلك قصائد مفدي زكرياء التي يرد فيها ذكر : خالد بن الوليد ، سعد بن أبي وقاص ، عقبة بن نافع ، طارق بن زياد ، صلاح الدين الايوبي .
وأيضا : محمد العيد : الترحيب بالحجاج ، الديوان ، ص 195.
وأحمد سحنون ، ذكريات المجد ، الديوان ، ص 200.

2 - انظر على سبيل المثال : - شهر الصيام ، الصديق ، ع 36 ، 22 رمضان 1339هـ ، 1921/5/30، ص 03.
- شهر الصوم ، البصائر، ع 44، 5 رمضان 1355هـ ، 1936/11/20، ص 01.
- في وداع رمضان ، البصائر ، ع 47، 26 رمضان 1355هـ ، 1936/12/11، ص 07.

3 - تحية شهر الله رمضان المعظم ، البصائر ، ع 87، 15 رمضان 1356هـ 1937/11/19، ص 7/6، الديوان ص151 وما بعدها.

الاختلاف وكان الجدال، وهو واقع ما زالت الأمة الاسلامية عرضة له في وقتنا الحاضر يتكرر مع المناسبة كل عام. يقول محمد العيد مستنكرا هذا الواقع مقارنا بينه وبين واقع أمجاد الأمة في ماضيها الحافل بمواقف الاتحاد والاتفاق :

وكان صيامهم سبب اتحـاد فصار بخلفهم سبب انقسام

فرهط صام يوما قبل رهط وظلوا في جدال واحتـدام. (1)

وأغلب القصائد الأخرى لاتخرج عن هذا الاطار، إذ تستغل المناسبة العابرة لتعمل على توثيق أواصر المحبة بين النفوس، وتغرس روح التعاون والايثار بين أفراد المجتمع، لتتضافر الجهود وتتحد المواقف ويتماسك أفراد المجتمع لبناء نهضة شاملة.

وأغلب القصائد التي قيلت في هذه المناسبة سواء عند العيد أو غيره (2)، تتعدد موضوعاتها، وتسهب في ذكر المواقف، وتنتقل من غرض إلى غيره حسبما تمليه طبيعة الحشد المجتمع في هذه المناسبة الذي يقف مستمعا للشاعر، وتستهويه هذه الموضوعات الدينية، وتسمو به إلى عالم أمثل من الطهارة والصفاء مما يكون له أثره على الشاعر الذي لم يعد يستهويه التجويد الفني بقدر ما يهتم بتعدد الموضوعات الهادفة إلى اثارة مشاعر الجماهير والاستيلاء على انتباهها.

وربما نجد مقطوعتي محمد العيد (3) وسحنون (4) حول هذا الشهر قد طغى عليهما احساس واحد أو لحظة شعورية واحدة لونت العمل الفني كله، وحققتا نوعا من الانسجام والانسياب الشعوري رغم الفارق بينهما، ونحسب أن ذلك مرده أنهما لم تقدما للقاء أمام الجمهور، ولم يحشد لهما الشاعران ما يتناسب مع طابع المناسبة من طابع خطابي حماسي، بل كانتا وليدتي تجربة شعورية.

وخص الشعراء بعض ليالي شهر رمضان بمواقف خاصة اعتبارا لأهمية الليلة في تاريخ الاسلام، فاعتبروا ليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المعظم ليلة ترمز إلى استمرارية الجهاد الاسلامي، ومقاومة الطغيان والكفر في سبيل نشر ألوية الحق والعدل.

لقد نصر الله في تلك الليلة الفئة المؤمنة على الفئة الباغية، وجندل الحق الباطل، وارتفع لواؤه عاليا، واشتد ساعد المسلمين، وأدخل الله الرعب في قلوب المشركين.

1 - م. س.

2 - انظر مثلا : شاعر الليالي ، رمضان في الجزائر، ج الليالي ، ع 15، 1937/1/10، ص 02.

أحمد سحنون ، ليلة الشك ، الديوان ، ص 209.

3 - في وداع رمضان ، سبقت الاشارة اليها .

4 - رمضان ، الديوان ، ص 149.

وقد وظف الشعراء هذه المناسبة في ومضات ذكية عبرت عن امكانية تحقيق النصر على أعداء الله في الحاضر، إذا وفرت الأسباب، وتم الاعداد ليوم اللقاء.

فالشاعر محمد الهادي السنوسي يستحضر التاريخ في قصيدته (في غزوة بدر)(1)، ويعتصر منها التجربة، ويأخذ الاعتبار ويتفاءل بامكانية انتصار الحق على الباطل رغم كل العراقيل والمثبطات :

باطل ظل زمانا ظاهرا هكذا الباطل بالحق يبيد.

ونلمح من خلال القصيدة ذلك الأحراج الذي يعانيه الشاعر في نقل تجربته، وذلك التركيز على الجانب الديني البحت من المناسبة، وتوظيفها توظيفا هامسا خافتا، ومرد ذلك في رأينا إلى أن القصيدة نشرت في جريدة تابعة للادارة الاستعمارية وفي فترة كان الرصاص يلعلع في أعالي الجبال، منطلقا شواظ نار من فوهات بنادق المجاهدين نحو صدور الأعداء.

وكانت ليلة القدر المباركة محطة توقف عندها الشعراء وتأملوا أثرها على مسيرة البشرية، وعادت صور الماضي تدق بعنف على أبواب الحاضر التعيس .

إنها الليلة التي انبثق فيها نور الحق، وسطع يقين الايمان، وزلزل الكفر والشرك، واهتزت عروش الطغاة، يقول عنها أحمد سحنون :

ولد الاسلام فيها مثلما يولد الحب باعلان الشفاه

نزل القرآن فيها مثلما ينزل الغيث على الأرض الفلاه

ليلة السابع والعشرين لم تك غير النور في ليل الحياه. (2)

استغل الشعراء فرصة هذه الليلة ليعرجوا على واقع الاسلام في الجزائر، وما يعانيه من ظلم وجبروت. (3) إلا أن هذه النبرة التشاؤمية لم يفارقها الأمل، ولم يبتعد عنها التفاؤل والايمان بالنصر، خاصة بعد اندلاع لهيب الثورة المسلحة، مما حدا ببعض الشعراء إلى الربط بين ليلة القدر وليلة أول نوفمبر الخالدة، فالأولى كانت سلاما على

1 - هنا الجزائر ، ع 36 ، شوال 1314 هـ ، جوان 1955 ، ص 15.
2 - ذكرى نزول القرآن ، الديوان ، ص 216 ، وانظر له أيضا على سبيل المثال : يا لها من ليلة ، الديوان ، ص 218.
3 - انظر مثلا محمد العيد ، شهر الصيام ، الديوان ، ص 153.

المسلمين وشواظا على الكفار، والثانية كانت سلاما على الجزائريين أصلوا فيها المستعمرين نيران غضبهم وثورتهم.

لقد تغير مجرى التاريخ في كلتا الليلتين، فكان الانتصار على قوى الكفر والطغيان، يقول مفدي زكرياء معبرا عن ذلك :

دعا التاريخ ليلك فاستجابا   (نوفمبر) هل وفيت لنا النصابا ؟
وهل سمع المجيب نداء شعب   فكانت ليلة القدر الجوابا ؟
تبارك ليلك الميمون نجما   وجل جلاله، هتك الحجابا !
زكت وثباته عن ألف شهر   قضاها الشعب يلتحق السرابا. (1)

* * * * * * * * * * *

وكان العيد مناسبة ارتبطت هي الأخرى بأحداث ومواقف، تتعلق بمعاني البهجة والسرور وبوادر الأمل والانشراح، ومظاهر السعادة التي تدغدغ النفوس فتحيل عبوسها انشراحا، وتشاؤمها بذور أمل، يقول الشاعر محمد الأخضر السائحي (2) :

والعيد. ما العيد إلا أنه فرح   هز القلوب له بر واحسان
أشاع في كل قلب من مسرته   مغنى فلم يبق بين الناس غضبان
مشى الفقير وفي كفيه لقمته   إن الفقير - غداة العيد - انسان. (3)

وكان توظيف هذه المناسبة مقتصرا عند الشعراء : أحمد سحنون والسائحي، بوشوشي(4) ، والهادي السنوسي على الدعوة إلى مواساة الفقراء ومساعدتهم (5) من دون أن يرقى إلى مستوى استشراف آفاق المستقبل، والتنبؤ باقتراب العيد الأكبر الذي يزيل فيه الشعب الجزائري رداء الاستعمار الحالك، ويتدثر برداء الاستقلال الزاهي. ولم يتخلص بعض الشعراء من العموميات في هذا المجال، ولم نلحظ في

---

1 - وقال الله ، اللهب المقدس ، ص 30.
2 - من مواليد 1918، ومن خريجي جامع الزيتونة ، انظر مجلة الثقافة ، ع 24، ديسمبر ، جانفي 1975 ، ص 36 (الملحق) ومجلة امال ع 37، 1977 ، ص 143 وما بعدها .
3 - عيد الفطر ، هنا الجزائر ، ع 54، مارس أفريل 1957، ص 9.
4 - من مواليد 1916 ، كان مدرسا في مدرسة الشبيبة الاسلامية نشر في الشهاب والبصائر ، تنظر ترجمته في : كتاب د. ناصر ، الشعر الجزائري الحديث ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ط 1، 1985، ص 672.
5 - ينظر : أحمد سحنون ، يا عيد ، الديوان ، ص 172، والسائحي ، قدوم العيد ، هنا الجزائر، ع 47، جوان 56 ، ص 6، والطاهر بوشوشي : في موكب العيد ، هنا الجزائر ، ع 5، سبتمبر 1952، ص 5، والهادي السنوسي، تحية عيد الأضحى لعام 1377هـ نقلا عن رسالة غنام ، م. س، الملحق الشعري ، ص 137/136.

أشعارهم أي توظيف فني أو فكري لهذه المناسبة كما نلمح ذلك في الأبيات السابقة التى تركز على مظاهر التضامن الاجتماعي دون أن تغوص في أعماق المناسبة وتربطها بحاضر الأمة.

وربما نجد الشاعر ابن رحمون يخرج عن هذه القاعدة في قصيدته «في أفياء عيد الأضحى» (1) إذ يوظف قصة الفداء والتضحية في اشارات عابرة تأخذ من المناسبة العبرة، لتبني في أجوائها ما يفيد المجتمع في واقعه المعاصر، فلنستمع إليه وهو يقول في عزة وأنفة تنمان عن توعد للمستعمر :

إن مسنا ضعف العبيد فاننا   في قوة الايمان غير ضعاف

أو عضنا ذل الأسيرُ فإننا   نسل الغزاة وأمة الأسياف.

ويعبر عن موقفه صراحة دون مواربة حين يقول :

خير الضحايا ما تقدم أمةٌ   لترد حقا من ذوي اجحاف.

* * * * * * * *

وكان الاهتمام بارزا بموسم الحج، رغم العراقيل التي كان الاستعمار يضعها لمضايقة الراغبين في أداء هذه الفريضة، ولم يثن ذلك الجزائريين المتشوقين إلى البقاع المقدسة عن أداء هذا الركن، ويتحملون في ذلك الأهوال، والمشقات.

وكان الشعر حاضرا في توديع قوافل الحجاج، واستقبالهم عند عودتهم من البقاع المقدسة بحج مبرور وذنب مغفور، وكان التأكيد واضحا في هذه القصائد (الحجية) على أهمية الفريضة في التوحيد بين المسلمين، وبلورة المواقف الاسلامية، وتبادل الخبرات، ونشر اللغة العربية. وتعود الوفود الحاجة رسلا للاصلاح ومنارات للهدى، وقد تحمل معها فكرة اصلاحية تساهم بها في النهضة الجزائرية، أو زادا ثقافيا في شكل مجلة أو جريدة أو كتاب، أو انطباع معين تجمع من خلال الاتصال مع الاخوة في الدين واللغة والتاريخ والحضارة.

والحجيات «قصائد تنبض حنينا إلى الأمجاد، وتنتفض حقدا على الحاضر التعس، وتطفح أملا في الغد المشرق، فهي لا تستعرض (الفريضة) إلا استعراض الذكرى والعبرة الموحية، ثم تخلص إلى المغزى من التجمع الديني ». (2)

1 – الديوان ، ص 114.

2 – د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 59.

فالشاعر محمد العيد مثلا في قصيدته « وداع الحجاج » (1) يربط بين الماضي والحاضر، حاضر سنة 1938، ورغم أن العالم مقبل على حرب مدمرة إلا أن الشاعر لايفارقه الأمل في القضاء على مظاهر الشقاء والبؤس إذا توفرت عناصُر الارادة والعزيمة :

بالأمس كنا ظاهرين على العدى ومرغمين أنوفهم ترغيما

واليوم نسعى بعد فقد فخارنا أن نستعيد فخارنا ونديما

وإذا رغبت إلى جسيم في المنى فاركب إليه من الأمور جسيما

حث الخطى للعز وأسلك نهجه ولو أن نهج العز كان جحيما.

ولا ينظر إلى الحج مجرّد شعائر تؤدى، وأيام تقضى، بل يراه أسمى من ذلك :

الحج عنوان الأخاء مكبرا الحج منهاج الولاء قويما

الحج مدرسة التعارف شادها رب الورى وأدارها تعليما (2)

ويستحضر الشاعر محمد الأخضر السائحي في قصيدته «أيها الوفد» بطولات المسلمين، فيتحسر على ذلتهم اليوم، ويقرأ من خلال مواقع الحج كتاب العصور العربية الذهبية، ويتذكر أولئك الذين عمروا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، وأقاموا ملكا لايضاهيه أي ملك. وخلص إلى توظيف هذه المناسبة توظيفا دقيقا حين أكد أن الدنيا جهاد ولاتؤخذ إلا غلابا وهي دعوة صريحة في رأينا إلى الثورة قبل اندلاعها بعام واحد، يقول الشاعر :

انما الدنيا جهاد تؤخذ الدنيا غلابا. (3)

* * * * * * * * * * *

ولم ينس الشعراء رأس السنة الهجرية (4) ميلادا جديدا للدعوة الاسلامية، ورمزا إلى بداية الكفاح الفعلي ضد الطغيان والظلم، فأشادوا بها موظفين عدة صور، ومتخذين من بعض المواقف منارات للاقتداء، ونماذج للأسوة، وترددت في قصائدهم مواقف

1، 2 – الديوان ، ص 164، وانظر له أيضا على سبيل المثال : وداع الحجاج، البصائر ، ع 53، 1948/10/18، ص06، الديوان ، ص 192، واستقبال الحجيج، البصائر، ع 94، 49/11/7، ص 7، الديوان، ص 194.

3 – هنا الجزائر ، ع 16 ، ذو القعدة 1372هـ ، أوت 1953 ، ص 11.

4 – انظر مثلا : – ابن رحمون ، من وحي السيرة ، الديوان ، ص 20 – 21.

– أحمد سحنون ، تحية العام الهجري، البصائر، سل 2، ع 14، 3 محرم 1367هـ 1947/11/17 ، ص 11.

– أحمد سحنون ، محرم ، م. ن.

– محمد الهادي السنوسي، رأس العام الهجري الجديد ، هنا الجزائر، ع 79، محرم 1379هـ ، أوت 1959، ص 06.

الأنصار وايثارهم، ومواقف المهاجرين وايمانهم، وتكريس الاسلام في طيبة رغم كيد المنافقين واليهود.

* * * * * * * * * * *

كما لم ينسوا ليلة الاسراء والمعراج (1)، فنوهوا بخصائلها وأبرزوا أثرها في توثيق قواعد الاسلام، واعتبروها ميعاد نصر وفتح :

إنها ليلة الهدى خلدتها   في لياليه سائر الأنغام

سوف يبقى مدى الدهور سناها   مشرقا ساطعا على الأيام. (2)

ونخلص إلى القول إن الشعر الاصلاحي قد ربط بين ماضي الأمجاد الاسلامية في تاريخها المشرق وحاضر الأحفاد في صورته التي شوهها الاستعمار، فوظف المناسبات الدينية كالمواسم والأعياد، فنجد الشعراء «يتغنون بالسنة الهجرية التي ترمز إلى بداية الكفاح العملي ضد الظلم والجبروت، ويمجدون ذكرى غزوة بدر التي تعد نقطة التحول من الكتمان إلى الظهور، ومن الضعف إلى القوة، وهكذا راحوا يهتمون بعيد النحر .. وعيد الفطر ،، ورمضان المعظم والمولد النبوي مستمدين منها جميعا معاني الفداء والتضحية والصمود والثبات» (3) رغم ما طبع هذه القصائد بطابع المباشرة والوضوح، فطغت عليها الخطابية والتقريرية التي قللت من جانبها الفني.

وفي خاتمة هذا الفصل يجدر بنا أن نذكر أن المحاور التي تتصل بالقضايا الدينية قيل فيها شعر كثير، وأكثر مما قيل في أية قضية أخرى لارتباط الشعر الاصلاحي بالدين الاسلامي وتناوله لشتى جوانبه.

ويمكن أن تشكل هذه القصائد المختلفة بحثا مستقلا قائما بذاته، ولذلك اضطررنا في ثنايا هذا الفصل للانتقاء والتمثيل اعتبارا للمنهج الذي اعتمدناه، وانارة للقضية لا حصرا لما قيل فيها من شعر يختلف قوة وضعفا، جدة وأصالة، تقليدا أو تجديدا.

1 - أنظر مثلا : أحمد سحنون ، ذكرى الإسراء والمعراج ، الديوان ، ص 206.

2- م. الأخضر السائحي ، في ليلة المعراج ، هنا الجزائر ، ع 45، شعبان 1375هـ ، افريل 1956، ص 11.

3- د. ناصر ، الأصالة في شعر ثورة نوفمبر ، م الأصالة ، س 10، ع 89/90، جانفي ، فيفري 1981، ص 129.

الفصل الثاني
القضايا التربوية والثقافية

- الحث على طلب العلم
- الإشادة بالجهود العلمية
- الموقف من اللغة العربية
- الإشادة بوسائل التربية والثقافة
- الدعوة إلى تعليم الناشئة وتربيتها

يلاحظ الدارس تشعب هذه القضايا الثقافية والتربوية، التي عالجها الشعر الاصلاحي، ذلك أن أغلب القصائد الاصلاحية لاتخلو من دعوة إلى اكتساب العلوم، واشادة بوسائلها، وافتخار برجالها المخلصين.

و يمكن – تسهيلا للدراسة – تقسيم هذا الفصل إلى العناصر التالية :

1 – الحث على طلب العلم

2 – الاشادة بالجهود العلمية

3 – الموقف من اللغة العربية

4 – الاشادة بوسائل التربية والثقافة

5 – الدعوة إلى تعليم الناشئة وتربيتها

1 - الحث على طلب العلم

أبرزت سياسة التعليم التي طبقها الاستعمار في الجزائر جملة من الانعكاسات السلبية على المجتمع فانتشر الجهل، وحرم الشعب من مقومات العلم، وضاقت مجالات المعرفة، وتفشى الجمود الديني والفكري، وحوربت اللغة العربية، وأصبحت دراستها فعلا اجراميا يوقع صاحبه تحت طائلة القانون. (1)

وقد تدارك الله هذه الوضعية بأن قيض لهذه الأمة رجالا قادوا حركة اصلاحية متميزة، بذورها الايمان، ورائدها العلم، ومنهجها الاصلاح ، وعدتها : المدرسة والمسجد، والنادي، والصحيفة، والكتاب ... وقد تيقن رجال الاصلاح أن أية نهضة في التاريخ لاتقوم إلا على دعامة العلم؛"فهو سلاحها الأساسي في تهيئة النفوس، وتثقيف الشعب، وهو الذي «يهبها السطوة والنفوذ والقوة، ويملأ قلوب الناهضين بها بالايمان الراسخ والوعي اليقظ» (2)

ولذلك قلما نجد قصيدة في الشعر الاصلاحي تخلو من دعوة حارة إلى طلب العلم، والجهاد في سبيله، وارتياد مراكزه، والهجرة إليه، والاشادة بالمدارس التي كانت بمثابة منارات تهدي هذه القوافل الضالة من الشعب الأمي، والاهتمام بدور العلم في بناء الأمم، والربط بين الدين والأخلاق والعلم، حتى لا يتحول العلم إلى سلاح خطير ضد البشرية، ما لم يكبح جماحه دين، أو خلق يهدي صاحبه سواء السبيل. وكان التركيز من جهة ثانية على التحذير من خطر الجهل، وتوضيح أثره السيء في المجتمع.

انطلق الشعراء في مواقفهم هذه من القرآن الكريم، ودعوته الأولى إلى القراءة والعلم في أول آية نزلت على الرسول (ص) (3) وسلكوا في ذلك عدة مراحل سعيا إلى تحقيق غاياتهم، مدركين منذ البداية أن الدعوة إلى العلم لن يكون لها مفعولها ما لم تحدث هناك هزة في المجتمع تبصره بحاله، وتدعوه إلى التغيير ، وتقنعه بكل ذلك.

إن محاولة انتقاد الواقع العلمي في الجزائر بعد الحرب الكونية الأولى من شأنه أن يوجه العقول إلى التفكير في حال البلاد والشعور بخطر وضعها، والنزوع إلى محاولة

---

1 -ينظر في ذلك على سبيل المثال :
- أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص 140 وما بعدها
- أحمد توفيق ، كتاب الجزائر، ط 2، 1963، ص 273 وما بعدها
- جوليان، افريقيا الشمالية تسير، مترجم، الدار التونسية للنشر، ش. و. ن. ت الجزائر، 1976.
- د/ تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ش. و. ن. ت الجزائر، ط 2 ، 1981.
- على مراد ، م. س ، ص 337 - 351.

2 - د/ناصر ، رمضان حمود ، حياته وآثاره، ص 33.

3 - تنظر الآية الأولى من سورة العلق .

تغيير واقعها، سالكة السبل المؤدية إلى ذلك، مصداقا لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (1).

ومن أوائل القصائد التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال قصيدة «هبوبا أيها الوطني» (2) للشاعر محمدالصالح خبشاش (3)، التي نلمس من خلال عنوانها دعوتها إلى النهضة واليقظة، وفيها يحدد الشاعر أهمية العلم في بناء المجتمع، ويعطي صورة واضحة عن وضعية الجزائر الشقية، ويردها إلى تفشي الجهل، وانتشار الأمية، وغياب أنوار العلم، وهي صورة تدخل ضمن ما يسمى «النقد البناء»، أي أن الشاعر لايقدم هذه الصورة السوداوية إلا من أجل أن تحدث رد فعل عند الناس نحو النهضة والتطور، ولذلك يعقبها بالدعوة الحارة إلى ارتياد منابع العلم، يقول الشاعر، بأسلوب يقترب من النثرية :

(جزائرنا) أراك في انحطاط   وخفض ضرم الأحساء لذعا

وضغط كل يوم واكتئاب   يسيل من الجفون دما ودمعا

وهذانا شئ عن أن أصبت   بفقد العلم وهو أشد وقعا

فهبي من سباتك ثم سيري   لنيل العلم واتخذيه شرعا

ويبدو أن النغمة التشاؤمية عند خبشاش لم تكن حادة، وأسلوبه يميل إلى الرقة، ويتخذ المنطق وسيلته إلى القلوب، إلا أن هذا الموقف يقابله موقف يتخذ أسلوبا حادا، ويمتزج بسورة من الغضب والتشاؤم عند السعيد الزاهري وخاصة في قصيدته «ليت قومي يعلمون» (4) التي تقطر أسى وتزيدها القافية الممدودة توجعا وحسرة، ونحس من خلالها مدى الشعور الطاغي على نفوس الطبقة المثقفة ، والأسى الجريح الذي يعانونه وهم يعيشون جوا موبوءا بالجهل والجمود.

إن هذا الوضع قد جعل الشاعر يندب ويتأوه، ويستنهض الهمم المتقاعسة ويعطيها الأمثلة للاعتبار، فيقول :

---

1 - الآية 11 من سورة الرعد

2 - الصديق ، ع 37 ، 29 رمضان 1339 هـ 6/6 /1921، ص 3.

3 - (1904 - 1945) ، تنظر ترجمته في شعراء اللجزائر، ج 2 ، ص 79 وما بعدها.

4 - شعراء الجزائر، ج 1 ، ص 81.

وأندب حظا لـ (لجزائر) ضائعا | به طارت العنقاء علي ألقاه
واستنهض الأحرار لا متأوه | فماذا عسى يجدي (الجزائر) أواه ؟
ولم يجدها إلا العلوم وهكذا | أخو العلم يحظى بالذي يترجاه
فهل شيد فيها للمعارف معهد ؟ | وكل وليد في (الجزائر) يغشاه
ولو كان شعبي يقدر العلم قدره | لأصبح من فوق السماكين مثواه
ولكنه اختار الجهالة موطنا | فبات بدار الهوان والضيم سكناه ...
ألا فاجعلوا العلم الصحيح وسيلة | فلم يرق إلا جاعل العلم مرقاه. (1)

إن الشاعر متيقن أن الخلاص من الوضع الراهن لن تجديه تأوهات أو تحسرات، وإنما يؤثر فيه العمل الفعال الذي يغير الواقع، ويحوله إلى واقع جديد.

وقد طغت النبرة التشاؤمية في نهاية العشرينيات وأملتها عدة ظروف أهمها أن فرنسا قد أحكمت سيطرتها على الجزائر، وهي تستعد للاحتفال بمرور قرن على الاحتلال، وثانيها أن هذا الوضع الآسن لم يدفع بالأمة إلى الكد في سبيل تحصيل العلوم، وإن تحقق بعض من ذلك فلم يكن في واقعه طابعا عاما.

وأحس بعض الشعراء بنوع من الغبن، وعدم نفاذ صيحاتهم المدوية إلى القلوب الجامدة، التي تتمرغ في أوحال الجهل وتدعي العلم، وترتمي في أحضان الطرقية وتدعي الدين، فرأى شاعر مثل رمضان حمود أن الدهر وويلاته ستقرع هذا الواقع، وتنبه هؤلاء القوم النيام، فتحس الأمة بوزر ما ارتكبت :

فتستغفر الله من ذنبها | وتبكي على المجد مر البكاء
وتعرف أن البناء الذي | يقام على الجهل ليس بناء (2)

وينقطع حبل الأمل لدى بعض الشعراء، في قيام نهضة علمية وسط شعب، رضي

1 - م . س ، ص 81، 82.
2 - البرق ، ع 23 ، 17 صفر 46 . 27/8/15، ص 03.

الجهل، وركب شطط الطرقية، واستساغ الجمود، وأصابه الصمم عن سماع صوت الاصلاح والحق، ويعقد الشاعر السعيد الزاهري مقارنة بين العالم والجاهل في ظل هذه الظروف، ولسان حاله يردد بيت المتنبي المشهور :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ونلحظ في قصيدة الزاهري حدة قاسية. وهجوما كاسحا على القوم الذين لا يعبأون بالعلوم بقدر انغماسهم في الملذات والأضاليل، ويتدنىّ الشاعر في فورة غضبه إلى مرتبة السب والشتم، والنعت بالأوصاف القبيحة، وتطغى نبرة اليأس من الاصلاح على نهاية القصيدة (1).

كما نلاحظ في هذه القصيدة ربطا قويا بين الجهل وسيطرة الطرقية، ذلك لأن الحركة الاصلاحية كانت تعمل على جبهتين : جبهة الهدم وجبهة البناء؛ هدم أسوار الطرقية المرتبطة بالجهل والغشاوة. وبناء منارات للعلم والمعرفة تبدد حجب الجهل، وتكشف خطر الانحراف، وتكون الجيل القرآني الذي يعيد للمجتمع ملامح العزة والكرامة، ويقضي على أوكار الانحراف والفساد.

وقد قلّ مثل هذا الانتقاد بعد فترة العشرينيات، بعد فشل الاستعمار في احتفالاته بالذكرى المائوية للاحتلال، وبعد قيام جمعية العلماء، وخطتها في رفع مستوى التعليم وبناء المدارس والتي ساندتها نهضة شعبية، والتفاف جماهيري حولها تأييدا ومؤازرة لمواقفها، ومقاطعة للخطط الاستعمارية، وبعد ظهور عدة بوادر علمية في شتى المجالات

وقد تزامن هذا الوضع مع قيام الشعراء بعقد مقارنات بين الجهل والعلم، محاولة منهم في تنفير الناس من الأول، وترغيبهم في الثاني، مستندين إلى أدلة من القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح.

ففي قصيدة :"شهر الصيام" لمحمد العيد، مقابلات واضحة بين العلم والجهل، وابراز لأهمية الأول في احياء المجتمعات واستعادة وعيها، وحملة على الثاني باعتبار ضرره الذي يفضي إلى الأكدار والأتعاب، ويورد صاحبه موارد الهلاك، فهو داء عضال، وحنظل مر، وسم زعاف يقول الشاعر :

1 - انظرها كاملة في الشهاب ، ج 1 ، مج 7 ، رمضان 1349هـ ، فيفري 1931 ، ص 24.

العلم يحي القلـــوب وهي ميـتـة ... والجهل يفضي إلى الاكدار والنصب
بالعلم فليفتخر من نشاء جـــازله ... فالفخر بالعلم لا بالمـــال والحسـب
بالعلم ثوبك طهر وارق واسـع وكن ... بالكد والجد والالحــاح في الطلـــب
واعرض عن الجهل إن الجهل صاحبه ... عبد ولو كان منه النـاس في رهب
فالجـــهل داء عضـــال لا دواء لـه ... والعلم أفضل موهـــوب ومكتسب. (1)

والقصيدة رغم سطحيتها ومباشرتها، وأسلوبها النثري باعتبارها من بدايات الشاعر، إلا أنها تؤرخ لهذه الفترة، ومجمل الارهاصات التي كانت تتجاذبها في سبيل توجه علمي، يعيد إلى الجزائر نضارتها.

وكان الجهل عند الشعراء بمثابة النكبة التي تقضي على عقول القوم، فاذاهم في ذهول من أمورهم :

إن الشعوب إذا بالجهل قد نكبت ... نام الرئيس فعاش القوم في ذهل
وهذه أمتي في الجهل حائرة ... وإنها في عذاب غير محتمل . (2)

إن هذا الوضع أصبح غير محتمل، وما من شك في أن الشعراء ينتظرون رياح التغيير التي تقضي على النفوس الجامدة، وتحول العقول الجاهلة إلى متعلمة ، لأن حياة العز لاسبيل لها إلا سبيل العلم الثمين - كما يقول حمود - (3)، ولا دواء في نظره إلا دواء العلم، فيقول بأسلوب خطابي مباشر :

لا تتركوا الجهل فيكم ... له المكان الرحيب
بل فاقتلوه بجد ... فالجهل داء عصيب
وعانقوا العلم دوما ... فالعلم هو الطبيب. (4)

---

1 - الصديق ، ع 36 ، 22 رمضان 1339هـ ، 1921/5/30م ص 03.
2 -حمود رمضان ، إليك أيا الرجل العظيم ... وادي ميزاب ، ع 9 ، 20 ج 1، 1345هـ ، 1926/11/26، ص 03.
3 - حمود رمضان ، فحياة العز بالعلم الثمين ، واد ميزاب ، ع 36، 16 ذح 1345هـ 1927/6/18 ، ص 03.
4 - حمود رمضان ، هل نهضة بالقومي ، تنظر في : محمد بن العابد الجلالي ، تقويم الأخلاق ، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، 1927 ، ص 96.

وابرز الشعراء دور العلم في النهضة، إذ لاقيام بدون علم متطور، وتفكير حر مستقيم، فأشادوا بهذا الدور المتعاظم للعلم، فهو عند أبي اليقظان منعش للأجسام والأرواح، ومرشد عدل نصوح :

هو العلم للأرواح كالماء منعش	لأشباحنا كل لدى الكل سيان
فلا روح إذ لا علم ينعشه ولا	يرى شبح لا روح فيه كانسان
هو المرشد العدل النصوح لأمة	إذا مسها في النفس طائف شيطان

بل إن الشاعر يجرؤ في مثل هذه الفترة المبكرة - بداية العشرينيات - ليبين وبكل وضوح أن العلم هو العدّة الكبرى، بل هو السلاح الذي تعده الشعوب لاسترجاع حقوقها.

هو العدة الكبرى هو القوة التي	يهينها الأبطال في كل ميدان
وأي سلاح للشعوب إذا خلت	من العلم بل تضحى فريسة عقبان (1)

ثم صار العلم عند الشعراء في نهاية العشرينيات هاديا ومرشدا، وضرورة ملحة للأمة التي تبغي النهوض، باعتباره وسيلة من وسائل النهضة المأمولة. (2)

وفي بداية الثلاثينيات لاحظنا أن الشعراء يؤكدون أن العلم هو الحياة، ولا تقدم إلا بالعلم، فهو الحضارة وهو الرقي، وهو سبيل النهضة المأمولة التي بلغ فيها غيرنا شأوا بعيدا. (3)

وفي منتصف الثلاثينيات كان العلم (مفتاح الحياة) ولا حياة بدونه، فهو السبيل إلى البقاء والقوة، يقول مفدي زكرياء :

العلم مفتاح الحياة فمن يحد	عن سبله فلقد أراد فناء
لو لم يكن للعلم أعظم حرمة	ما كان علم أدم الأسماء (4)

1 - أبو اليقظان ، شمس العلوم ، الديوان ، المطبعة العربية ، ط 1 ، 1350هـ ، ص 89 ، مع ملاحظة أننا نشير إلى هذا المصدر بالديوان ، مع أنه قد طبع للشاعر الجزء الثاني من الديوان بغرداية 1989 .

2 - انظر قصيدة لمحمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر ، ج 2، ص 174.

3 - انظر مفدي زكرياء ، نهوضا بني افريقيا من سباتكم ، النور ع 48، 27 ربيع الثاني 1351، 32/8/30 ، ص 03.

4 - مفدي زكرياء ، أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا ، نقلا عن د. ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 167 .

وبعد أحداث 8 ماي الرهيبة تغيرت نظرة الشعراء إلى دور العلم، فلم يعد منعشا أو مرشدا أو نورا هاديا، أو مفتاحا للحياة، بل أصبح سلاحا في يد الشعب الراسف والموثق بأغلال الطغيان :

والعلم نهج السعادة أول وسلاح شعب في الوثاق رهين (1)

أصبح رمزا للخلاص، وكسرا للقيد، ووسيلة لاسترجاع الحق المهدور، من براثن الطغاة المتجبرين. (2)

إن التركيز على أهمية دور العلم في النهضة يؤدي إلى حث الناس على طلب العلم، استنهاضا للهمم، وتحفيزًا للارادات.

وكانت صيحة خبشاش تتردد في أذهان الناس من خلال قصيدته (هبوبا أيها الوطني) (3) والتي أكثر فيها من أفعال الاستنهاض : هلم، هبوبا، قم، بادر، اقرع، هبي، سيري، اتخذي ... الخ والتي ختمها بدعوة ملحة إلى أمته كي تستفيق من سباتها العميق تحت جحافل ظلام الجهل :

فهبي من سباتك ثم سيري لنيل العلم واتخذيه شرعا.

فالعلم شريعة الله لعباده، وفريضة على كل مسلم، ولكن أمة الشاعر ضيعت الشرع والفريضة واستسهلت الجهل والأمية، فوقعت فريسة للاستعمار، والطرقية.

وكانت نفس الدعوة والالحاح أكثر حدة عند الزاهري في «ليت قومي يعلمون» حين طالب في نهاية القصيدة باعتبار العلم وسيلة للرقي المادي والمعنوي :

ألا فاجعلوا العلم الصحيح وسيلة فلم يرق إلا جاعل العلم مرقاه (4)

ونجد في بداية الثلاثينيات شاعرا كمحمد الهادي السنوسي ينفطر أسى، وهو يستعطف الشعب إلى الاهتمام بأبنائه، وتزويدهم بنور العلم والمعرفة، ونحس بمرارة استفهاماته المطروحة، واستنكاراته المتوالية، فنفس الشاعر الحساسة تحس بالكمد

1 – احمد سحنون ، اعظم بها سيرة ، البصائر ، ع 26 ، 26 ربيع الثاني 1367هـ ، 48/3/8، ص 7.
2 – انظر عمر شكيري ، وداع الطفولة ، البصائر ع 49 ، 10 ذي القعدة 1367هـ ، 48/9/13 ، ص 6.
3 – سبقت الاشارة إليها في هذا المحور .
4 – سبقت الاشارة إليها

والحرج، وبضيق الوضع وخطورته، فيقول في استنكار :

متى ترفعون النشئ للعلم رفعة	نراه بهـا نحو الحيـاة مشمـرا
وتستهلون الصعب في كل غايـة	إذا ما بلغناها حمدنا لها السرى ..
فهلا جمعتم من بينكم عصـابة	وأوفدتموا منهم إلى العلم معشرا
أيهدأ بـال الوالديـن وقد رأوا	بنوتهم تصلي من الجهل مجمـرا ؟
وتغمض عين قد تحدى رنوهـا	إلى المجد من كان بالمقت أجـدرا (1)

كما ربط الشعراء بين الدعوة إلى تعليم البنين والدعوة إلى تعليم البنات، ذلك لأن فريضة العلم شرعا لم تفرض على الرجال وحدهم دون النساء، بل أن صيغة الأمر في قوله تعالى «اقرأ» شاملة للصنفين، ومن غير المعقول أن يحرم نصف المجتمع من نعمة العلم، ويحتكره نصف واحد فقط.

وقد ظهر الاهتمام بهذه القضية قبل قيام جمعية العلماء، ثم صارت بندا من منهجها الاصلاحي بعد ذلك، فأعطتها العناية اللازمة، وأدرجتها ضمن اهتماماتها الكبرى، فلا غرْو إذن أن يركز عليها الشعراء حتى تكون الدعوة شاملة، والحث واضح من كل الأطراف. (2)

وسنعرض لهذا الموضوع في محله من البحث.

وارتبط الحث على العلم والتعليم بالدعوة إلى تأسيس المدارس، باعتبارها وسيلة للثقافة، ومعقلا للشبان، وحصونا للمعرفة، ففيها تتكون قوافل الفجر الطالع، ومنها تنطلق كتائب الجهاد، وإليها يعود الفضل في اعادة اليقظة لهذه الأمة المسكونة بداء الجهل والتمزق والخوف.

وقد وجدنا في نهاية العشرينيات ظاهرة الحسرة والأسى على ندرة المدارس، وقحط الميدان التعليمي، مما حدا بالشاعر محمد بن بسكر (3) مثلا أن يدق ناقوس الخطر، فيخاطب رجال نادي الترقي قائلا :

---

1 - الشهاب، ج 11، مج 6، رجب 1349هـ، ديسمبر 1930، ص 686.

2 - ومن الشعراء الذين ركزوا على هذه القضية نذكر : حمود رمضان، محمد العيد، عمر البسكري، بولبينة وغيرهم.

3 - (1880 - ؟) كان من مؤسسي الجمعية، ونشر قصائد في الشهاب والاصلاح، تنظر ترجمته في الثقافة، ع 63، يونيو 1981، ص 65.

تبكي (الجزائر) حظها وتنادي ... باللفضيحة يا رجال (النادي)

كل المدائن زينَت بمدارس ... عربية وأنا إلام أنادي ؟ (1)

إنها صرخة استنكارية، تتطلب التعبئة الشاملة من توعية للشعب بأهمية المدارس، واستدرار لماله حتى يساهم في بناء هذه القلاع العلمية.

وقد انتشرت الدعوة إلى بناء المدارس مع قيام جمعية العلماء في سنة 1931، والتي كان من بين أهدافها نشر العلم والمعرفة، وبناء المدارس العربية في ربوع الوطن. فإذا المدرسة صارت عند الشعراء شمسا للعلوم، ووسائل للاصلاح، وذواء للقضاء على داء الجهل (2)، وحصنا لتربية الجيل، وتكوين قوافل الغد المنشود، وكثرت لدى الشعراء مثل هذه الدعوات الاستنهاضية (3) :

فابنوا المدارس في البلاد وهيئوا ... لغد رجالا قادة أكفاء

سيروا على سنن الجدود وشيدُوا ... فوق المجرة للخلود بناء

ربوا نفوسكم على خلق الهدى ... إن شئتم حرية وعلاء

والدين إن الدين أعظم عدة ... فبدونه تغدو الشعوب هباء

وتنطلق هذه المواقف من نظرة سلفية لا تخرج عن اطار الحضارة العربية الاسلامية.

فدعوة زكرياء السابقة هي نفسها تلك الدعوة التي وردت بعد ذلك على لسان محمد العيد في سنة 1937 (4) إلا أن مهمة المدرسة عند (مفدي) ليست هي المهمة التي يتوخاها (محمد العيد)، فمهمتها عند الأول تهيئة الرجال الأكفاء للغد المنشود، وهي مهمة ذات طابع ثوري أملتها طبيعة التفكير عند الشاعر، وانغماسه في النزعة الوطنية كما هي عند حزب الشعب، ومهمتها عند الثاني : محو الجهل، ونشر نور المعرفة وهي مهمة ذات طابع اصلاحي.

1 – الاصلاح ، س 3، ع 10، 2 شوال 1348هـ ، 1930/1/2، ص 4.

2 – انظر قصيدة لأحمد بن الحاج يحي ، النور ع 29 ، 5 ذح 1350هـ ، 1932/4/12.

3 – انظر د. ناصر ، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة ، ص 167 نقلا عن الأمة ع 43 ، 35/9/24.

4 – محمد العيد ، استوح شعرك ، الديوان ، ص 145.

ثم تغيرت النظرة إلى المدارس بعد الأربعينيات فإذا هي حصون وقلاع ومعاقل، وأعلام قائمة، وهو ما سنتناوله في المبحث الخاص بالاشادة بوسائل الثقافة في هذا الفصل .

وإذا كان الشعراء قد حثوا على طلب العلم، وبناء المدارس، والاستعداد ليوم المواجهة مع العدو، فانهم كانوا يدركون أن رسالتهم اصلاحية، تستمد من الكتاب والسنة أسسها، ومن الاسلام عمادها، ومن الأخلاق تاجها، فاقترنت كل دعواتهم بالربط بين العلم والدين والأخلاق.

فالعلم كنتاج للعقل البشري الذي وهبه الله الانسان ليفكر به، ويصل إلى أسرار الله في كونه، قد يجمح عند بعض النفوس عن طريق الحق والخير، ويضل سواء السبيل، ما لم يلجم بلجام الدين والأخلاق، حتى يوجه الوجهة الصحيحة.

والاسلام في واقع أمره يحث على العلم المرتبط بالدين، المتوج بالأخلاق الفاضلة التي تدرأ عن صاحبها نار الفتنة والفساد.

وأدرك الشعراء أن العلم بلا دين يسدد خطاه هو أقرب إلى الجهل منه إلى العلم، فكانت النظرة السائدة عندهم في بداية العشرينيات هي قول الشاعر أحمد الغزالي(1):

والدين بالجهل قد يصير مسخرة   والدين والعلم ما أحلى إذا اجتمعا (2)

ويندد بأولئك الجامدين الذين يعملون على الفصل بين العلم وأمور الدنيا، ويربطون العلم بمسائل دينية بحتة، فاذا علم الطبيعة عندهم كفر، وإذا ميادين العلم حكر على الغربيين دون سواهم.

ويربط حمود كعادته بين الدين والعلم، فحين يحث على اعتبار الدين اماما، يربط ذلك بالدعوة إلى انفاق الوقت في طلب العلم ، فيقول من قصيدة «أقسام الناس»

واجعلوا الدين اماما وانفقوا   وقتكم للعلم دوما تهتدوا (3)

---

1 - (1873 - ؟) ، تنظر ترجمته في : شعراء الجزائر ، ج 1، ص 160 وما بعدها.
2 - النجاح ، س 5 ، ع 170 ، 14 محرم 1342هـ ، 24/8/15 ، ص 03 ، وانظر أيضا قصيدة لمحمد العلمي ، في النجاح ، ع 299 ، 8 ذ ق 1344هـ ، 26/5/21، ص .03
3 - الشهاب ، ع 53 ، 29 صفر 1345هـ ، 1926/9/6 ، ص 03.

إن العلم والايمان شيئان متلا زمان، حتى إذا تعلم المسلم كان علمه دليل عقيدته الصحيحة، إذ العلم يبسط الحماية على العقيدة، ويحرس صاحبها من الزيغ، ويكرمه بالقوة العقلية.

يقول محمد العيد في نبرة خطابية مباشرة :

أيها الشعب خذ من العلم حظا   لم يشبه زيغ ولا الحاد
واجعل الدين للبنين دليلا   يسهل الطبع منهم والقياد (1)

لقد أدرك هؤلاء الشعراء أن للعلم حدين، فقد يوجه الوجهة النافعة، وقد يدمر الانسان به نفسه، ولما كان الاسلام يوجه الناس نحو الحق والخير، ويرسم لهم أسس تكوين المجتمع على هذا المنوال، فإن الشعراء نظروا إلى العلم نظرة ايجابية متفائلة، كنور الله في أرضه، من شأنه أن يهدي الناس، وينصفهم، ويحتكم الناس إلى قوانينه، ويكتشفون به قوانين الله في أرضه، وعجائب مخلوقاته، ويتدبرون به الكون، ويقودهم إلى الايمان بقدرة الله، وعظمته.

وقد استنكر الشعراء بعض المظاهر السلبية للعلم حينما ينحرف عن مقاصده الشرعية (2)، أو حين تفضح معجزة العلم من كان بالجهل عليما، كما حدث في هيروشيما :

فتلاشت سعادة الناس فيما ابـــتكر العلم من سلاح مبيد
وتلاشت سعادة آمال كل ولود   في هنـاء نرجوه بالمولود
هل من العلم أن يعيش بنو الإنـــسان في غمرة العداء الشديد
من حروب مبيدة أو وعيد   دونه في الدوي قصف الرعود
نافع العلم ما يسود به السلـــم ويرعى به حرام الحدود
ويسوي بين الأنـــام فلا ميـــز ولا سائد ولا من مسود (3)

وهذا يؤكد أن مفهومهم للعلم كان شاملا للتربية والتعليم.

---

1 – محمد العيد ، في أذن الشرق (1935) ، الديوان ، ص 121.
2 – تنظر قصيدة ، محمد العيد ، خطر العلم علي البشرية ، الديوان ، ص 337.
3 – م. هـ . السنوسي ، على عتبة العام الجديد ، هنا الجزائر ، ع 9 ، ربيع الثاني 1372هـ ، جانفي 53 ، ص 8.

وحتى يكون لدعوات الشعراء مفعولها في نفوس الناس، راحوا يعقدون المقارنات تلو الأخرى في سبيل تجذير النهضة العلمية، وأحداث هزة في المشاعر، ورد فعل لدى الشعب الجاهل. والمقارنة باعتبارها أسلوبا منطقيا عقليا تكتسي أهمية خاصة في هذا المجال، تنبيها للغفل، وايقاظا للمتقاعسين، ووخزا للضمائر، وحثا للنفوس الجامدة، وقد اكتسبت صبغتين :

- مقارنة بين عهدين، عهد الأسلاف النير، وعهد الأحفاد المظلم.

- مقارنة بين وضعيتين : وضعية الغرب المتطورة، ووضعيتنا الجامدة.

أ - <u>مقارنة بين عهدين</u> :

إن حالتنا الراهنة في ظل الجهل والأمية حينما تقارن بعصر الأنوار التي عمت أرجاء العالم الاسلامي ﷺ منذ صدر الاسلام إلى سقوط الخلافة العباسية من شأنها تكوين رد فعل لدى الشباب خاصة، ذلك أن ظاهرة الالتفات إلى ماضي التاريخ الاسلامي في عصوره المشرقة من شأنه اثارة حماس الناس، وشحذ عزائمهم، واعادة الثقة إلى نفوسهم وفي قدراتهم الذاتية، والعمل على تغيير نفوسهم لتغيير واقعهم، فتكثر في بعض القصائد الأبيات التي يتكرر فيها فعل (كانوا) الممتزج بالحسرة والأسى على ماض اندثر، ولم تبق سوى معالمه، ونبرات الأسى المترددة من أفواه الشعراء. (1)

ويبدو لي أن هذا النوع من القصائد كثير، ولذلك يصعب اختيار نموذج منه، وتكفي الاشارة إلى أن المضمون فيها لايخرج عن اطار التحسر على اندثار هذا الماضي الذي كان العرب بفضله قادة للشعوب، ومنارات للاهتداء، وغالبا ما يلجأ الشاعر إلى الربط بين ذلك الحلم، والواقع الأليم الذي يحياه يوميا في ظل الظروف الاستثنائية، وتحت القهر، والظلم، والجهل والأمية.

ب - <u>مقارنة بين قومين</u>

وتتخذ المقارنة في بعض الأحيان طابعا آخر، فتعقد بين المسلم من جهة، والغربي من جهة ثانية، وأثر هذه المقارنة أوجع من أثر الأولى، ذلك أن المسلم يعتز بدينه، وينظر

---

1 - هناك قصائد كثيرة في هذا المجال لأبي اليقظان ، محمد العيد ، أحمد الغزال ، محمد بن بسكر ، أحمد سحنون.

إلى أمته على أنها خير أمة أخرجت للناس، ولذلك سيحس بنوع من وخز الضمير وهو يرى أمته في قاع الحضارة، وحضيض الرقي العلمي، فيعمل -إن كانت فيه بقية من دين- على انتشالها من الوهدة التي تتخبط فيها.

وفي هذا الصدد تحدث الشعراء عن أهمية العلم في رقي الانسان، وأثار الجهل في ترسيخ الجمود، وتثبيت الكسل في النفوس، وضياع المكارم والأخلاق، وانحطاط قيمة أهل العلم في نظرة الناس، وارتفاع شأن الأذناب والمشعوذين.

وكثيرا ما كان الشعراء يعقدون مقارنة بين الغربيين وما بلغوه من رقي علمي، والمسلمين وما وصلوا إليه من انحطاط في شتى المجالات.

ويقف اللقاني بن السائح موقف المتعجب من هذا الوضع، فيقول بأسلوب يمتزج برائحة السخرية المريرة :

الناس بالعلم شقوا الأرض واخترقوا	وشيدوا وبنوا عزا وتمكينـا
الناس في الجو طاروا وحلقوا وعلـوا	ونحن نحسبهم جهلا شياطينا (1)

ويؤكد الشاعر حمود رمضان هذه الفكرة، ليعطي صورة على تفوق الغربي علميا مما أهله لامتلاك الأرض والبحر والجو، يقول وفي أسلوب تقريري مؤكدا هذه الحقيقة :

انظروا الغرب، بعلم ما بنـى	من قصور شامخات للعلاء
عاش في الأرض كليث باسـل	ينظر الناس بهزء وازدراء
طار في الجو كنسر، وطمـا	فوق لج البحر يبدو كبناء
ملك الدنيا وما يتبعهـا	من تراب ومياه وهواء (2)

ويبدو أن هذه الحقيقة حولت النظرة إلى العلم، من نظرة سطحية إلى نظرة نفعية، تربط بين العلم والتقدم في الميدان الحياتي، وبالتالي الدفاع عن النفس، وصيانة العقيدة، والذود عن الوطن.

---

1 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2 ، ص 37 ، انظر قصيدة في نفس المعنى للشاعر موسى الأحمدي ، أطلب العلم لترقى، البصائر، ع 40 ، 13 شعبان 1367هـ 48/6/21، ص 7.

2 - حمود رمضان ، اطلبوا العز وعيشوا كرماء ، وادي ميزاب ، ع 92 ، 1 صفر 47هـ ، 28/7/21 ، ص 03.

فبالعلم الشامل تقضي الأمة الاسلامية على الجمود الذي يسيطر على بنيها، وتفك قيد عقولهم الراسفات في أغلال الجهل والتبعية، وتجعلهم يقفون الند للند مع الغربيين، لأن العلم ملك للجميع، وما من أمة بقادرة على احتكاره لنفسها.

ونخلص إلى القول إن البناء يسبقه الهدم غالبا، وأن الحث على العلم يبدأ بانتقاد الواقع المتخلف الذي تحياه الأمة، لتبصير ذوي الألباب بأحوالهم، واعطائهم دفعا قويا لتغييره، ثم تصل مرحلة توضيح الفروق الشاسعة بين العلم نورا للمعرفة والادراك، والجهل كغراب ماله من منزل غير الخراب البلقع كما يقول محمد العيد، ثم التأكيد على أهمية العلم منعشا للأجسام والأرواح ومفتاحا ضروريا للحياة، وسلاحا تعده الشعوب لاسترجاع كرامتها، ووسيلة لاستعادة الحق المهدور.

وترددت على ألسنة الشعراء صيحات الحث والدعوة والاستنهاض لتعليم البنين والبنات، تكوينا لجيل متعلم، يتولى أمانة المستقبل، وارتبط ذلك بالدعوة إلى تأسيس المدارس؛ شمسا للعلوم، ووسائل للاصلاح، ودواء للقضاء على داء الجهل.

واتضح أن الشعراء يربطون العلم بالدين والأخلاق، حتى لايجمح العلم عن سواء السبيل، ويضل طريق الهدى، ويطغى على البشرية.

وكان أسلوب المقارنة وسيلة لتوضيح المنطلق، وشرح وجهة النظر لاستنهاض الهمم، واثارة النخوة، والدعوة إلى التغيير.

ومختلف المضامين السابقة وردت في أبيات متناثرة، وفي قصائد لا تتوفر على الوحدة الموضوعية غالبا، لأن الشاعر يطوف بالمستمعين كالنحلة بين عدد من الأزهار في حديقة الاصلاح ليجمع رحيق قصيدته الشعرية.

2 - الإشادة بالجهود العلمية

لقد كان من الطبيعي أمام تعطش الجزائريين إلى العلم، ودعواتهم المكثفة إلى طلبه،والحث عليه، أن يشيد الشعراء بكل جهد علمي، حمل على عاتقه عبء نشر الرسالة العلمية في الأوساط الأمية، وساهم في ايقاظ الوعي، ونشر المعرفة ، ودفع عجلة النهضة الثقافية المباركة قدما إلى الأمام.

ومن خلال القصائد التي بين أيدينا ارتأينا تقسيم المبحث إلى :

أ - الاشادة بالجهود الجماعية.

ب - الاشادة بالجهود الفردية.

أ - الاشادة بالجهود الجماعية

لقد أشاد الشعراء ببوادر النهضة العلمية التي بدأت تتضح معالمها، وتتبلور يوما بعد يوم مع جهود بعض رجال الحركة الاصلاحية التي لم تكن قد نظمت صفوفها بعد، وفي هذا الشأن يقول محمد العيد، وبنبرة لاتخلو من التفاؤل بنهضة علمية مرتقبة :

فقد صح أن الخير مازال جاريـــا	على أرضه منهم ولو أنه نزر
وقامت عليه اليوم للعلم دعـــوة	تطوف بها للنشر طـائفة غر
تسير على القرآن فهو لهـا هـدى	وتعتز بالايمان فهو لهـا ذخر (1)

ونلمس من خلال الأبيات مهام الحركة الاصلاحية في نشر العلم، والذود عن حياضه، وهي مهام لاتنطلق من فراغ عقيدي، بل أنها تستوحي من القرآن هداها، وتعتز بالايمان ذخرا لها في مسيرتها.

ثم كانت الاشادة بالجهود الجماعية المنظمة، وخاصة بجمعية العلماء المسلمين

1 - محمد العيد ، وقفة على بحر الجزائر ، م الشهاب ، ج 7 ، مج 6 ، ربيع الأول 1349هـ أوث 1930 ، ص 432 (الديوان ، ص 18).

الجزائريين التي تأسست في 1931/5/5 باعتبارها جمعية ذات طابع علمي ثقافي، تعتمد الاسلام منهجالها في عملها، وتعطيه طابع الفعالية والاتقان، لاخراج الجزائر من ظلمات الجهل إلى أنوار العلم، ومن عبادة الشعوذة إلى عبادة الله.

وقد حيا الشاعر محمد بن بسكر تأسيس الجمعية واعتبر يوم الخامس من ماي يوم عيد علمي للجزائر، لأن الجمعية قد خيبت ظن الاستعمار الذي احتفل مزهوا بمرور مائة عام على الاحتلال، فأعلنت انتماءها العربي الاسلامي، وقامت تدحض الباطل، وتزهق الكفر متخذة من الدين والأخلاق نبراسا ودليلا :

جمعية نشرت للعلم رايته	وجانبت كل مذموم ومردود
قامت تؤيد دين الله رافعة	مناره أيما رفع وتأييد
قامت تنور أفكارا تسير بنا	نحو العلى سير تمكين وتسديد
قامت تكون أخلاقا تقومنا	وتنشل النشئ من رجس وتشريد (1)

ورغم الطابع النثري للأبيات، وأسلوبها المباشر الخالي من اللمحات الايحائية، إلا أن الشاعر يؤرخ لهذه الجمعية، ويؤكد طابعها الاصلاحي، من نشر للعلم، وذود عن حياض الشريعة، وتنوير لأفكار الشعب، وتنقية للعقيدة من الشوائب والخرافات، وتقويم لأخلاق الناس، وانتشال للشباب من مهاوي الجهل والتشرد والأثام، والسّمو به إلى رحاب العلم والأخلاق . (2)

واعتبر الشعراء جمعية العلماء بمثابة المرهم الناجع الذي وضع على الجراح الثخينة التي أصابت جسم أمتنا، فكان الشفاء على يديها رغم كل الدسائس والعراقيل التي جوبهت بها (3)، وهي عراقيل مشهورة سواء من الاستعمار الفرنسي الذي لم يكن يرضيه هذا النشاط (المريب) على حد زعمه، أو من أذنابه المماليين له، كجمعية علماء السنة التي تكونت سنة 1932 كخصم عنيد لجمعية العلماء، أو جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية، وغيرها.

ورغم كل ذلك فلم تكن الجمعية تخرج في عملها عن اطار العروبة والاسلام، لأنها

---

1 - نقلا عن علي مرحوم ، جمعية العلماء ... مجلة الثقافة ، س 11 ، ع 66 ، محرم / صفر 1402هـ ، نوفمبر/ ديسمبر 81 ، ص 13.

2 - انظر مثلا : محمد العيد ، لؤلؤة لامعة في مفرق جمعية العلماء ، النور، س 1، ع 35، 24 محرم 51هـ (32/5/31) ص 3.

3 - انظر مثلا : أبو اليقظان ، هذي الجزائر ، الشهاب ، ج 9 ، مج 10 ، جمادي الأولى 1353هـ (34/8/12) ص 413.

قامت على الإخلاص لهذا الدين، وخدمة البلاد علميا وثقافيا :

حي العروبة في جمعية العلما ... وحي ويحك فيها الدين والشيما
جمعية أخلصت لله نيتها ... وللبلاد فكم ذا تبذل الخدما
جمعية لاتزال الدهر ماضية ... من يوم نشأتها إلى العلا قدما
تدعو إلى الله عن علم وبينه ... لا كالذين إلى جهل دعوا وعمى
جمعية جمعت بني الجزائر من ... تعشقوا المجد والعليا والشمما (1)

ولقد حققت الجمعية كثيرا من مخططاتها التعليمية، ونشرت أفكارها في كامل ربوع الوطن، وتحدّت القيود والعراقيل، وقاومت القرارات الجائرة، وتعرضت إلى المضايقات، ولكنها كانت عازمة على التصدي وتحقيق الأهداف المرسومة، سلاحها في ذلك هو سلاح المعرفة، ورايتها دين الحق، وجنودها العلماء المخلصون، فقال محمد بن بسكر بعد خمس سنوات من نضالها :

نضال بغير سلاح ولكن ... بحد البيان جدعنا أنوفا
غنمنا وراء البحار رجالا ... تجيز الحقوق وترعى الضعيفا
فأكرم بجمعية العلماء ... بها قد جعلنا اليراع سيوفا
زها غرسها ونما بنت خمس ... فأثمر للمجتنين صفوفا (2)

وعادت الجمعية بعد الحرب الكونية إلى نشاطها من جديد، وتغيرت نظرة الشعراء إلى دورها، فبعد أن كان تثقيفيا اصلاحيا، صار أميل إلى الثورية منه إلى الاصلاح؛ خاصة وأن الشعراء كانوا يئنون تحت ثقل وطأة الأحداث الجسام التي رزئ فيها الجزائريون في شهر ماي المشؤوم. (3)

فنجد على سبيل المثال في قصيدة لعبد الكريم العقون ظهور مفردات جديدة، فاذا الجمعية جمعية للصناديد، وإذا هي (صيحة الحق) في الشعب، و(عرش شموس) رغم الطغاة، وإذا الأمل يتراءى بين السطور في استشراف ضياء مشرق، وصبح جديد،

1 – محمد السعيد الزاهري ، التحية الصادقة ، ن. م. ن، 407.
2 – الشهاب ، ج 10، مج 12، شوال 1355هـ ، جانفي 1937 ، ص 437/436.
3 – ونقصد به حوادث (8 ماي 1945) التي ذهب ضحيتها أكثر من (45) ألفا من الجزائريين في مدن الشرق الجزائري خاصة واضمحلت قرى بكاملها ، وخربت جهات فسيحة .. انظر مثلا : أ. ت. المدني ، هذه هي الجزائر، ص 178/177.

- واسترجاع لمجد تليد :

إيـه جمعية الصناديـد مرحـى	ياشعـار الفدا ورمز الخلود
إنما أنت صيحة الحـق في الشعب	المفدي في وجـه كل مـريد
عشت للعلم والهدى والمعالـي	فلقد سـرت للعلا بجهـود
أنـت رغـم الطغاة عـرش شمـوس	غمرت ربعنـا بنور سعيد
فعلى الشعب من سناك ضيـاء	مشرق بـاسم كصبح جـديد (1)

وفي هذه الفترة نفسها وأمام يأس الشعب من وعود فرنسا، وأمام تكالب الأحزاب السياسية على الكراسي في حمى مهوسة (2)، لم يجد الشاعر (مفدي) – رغم انتسابه الحزبي – سوى الجمعية، رمزا للخلاص، ومنقذا للخروج من هذا المازق، فهي الكفيلة بتكوين الشعب وتعبئته لليوم الموعود :

جمعية العلماء المسلمين ، ومـن	للمسلمين سواك اليوم منشود؟
خاب الرجا في سواك اليوم فاضطلعي	بالعبء، مذفرّ دجـال ورعديد
سيروا، ولا تهنوا، فالشعب يـرقبكم	وجاهدوا، فلواء النصر معقود
أمانة الشعب، قد شدت بعـاتقكم	فما لغيركم، تلقى المقـاليد
فابنوا المدارس في عرض البلاد، فمـا	غير المدارس، للتحريـر، تمهيد (3)

إن النهضة المنشودة، والتغيير الثوري المطلوب، والجهاد المعقود لواء نصره، لاوصول إليها إلا بالعلم، وبناء المدارس، وارسال البعثات التعليمية، واحياء المجد الاسلامي. (4)

وأشاد الشعراء بجهود العلماء، كجهود جماعية ولكنها غير منظمة في جمعية أو حزب، باعتبار العلماء أنوارا ساطعة في دياجير الظلام، وفوانيس داحرة لفلول الجهل،

---

1 – البصائر ، ع 55، 29 ذي الحجة 1368هـ 1948/11/01، ص 7.

2 – مثل حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، الحزب الشيوعي، حركة انتصار الحريات الديمقراطية والتي كان لجناحها الثوري الدور الاساسي في قيام الثورة. وقد ألهى الاستعمار هذه الأحزاب حينا من الزمن بما عرف بـ (الدستور الجزائري) و(المجلس الجزائري) ... الخ انظر تفاصيل عن ذلك في كتاب فرحات عباس ، ليل الاستعمار.

3 – من يشتري الخلد إن الله بائعه، البصائر ، ع 250 ، 53/12/11 ، (اللهب المقدس) ، ص 268.

4 – انظر مثلا محمد العيد ، بشرى للجزائر ، الديوان ، ص 212.

وأقباسا منيرة لدروب الحيارى، وهم ورثة الأنبياء، يهدون الناس ويرشدونهم إلى سواء السبيل.

وكانت الاشادة بهم دون تحديد لهوياتهم، وهي اشادة لاتنبع من موقف المدح أو التعصب، بل من موقف ديني بحت، اعتبارا لمنافحتهم عن الدين الذي يستمدون منه المنهج والدليل.

فمحمد العيد حين يحي الوفد العلمي القسنطيني الذي كان يمثل وجها من وجوه الحركة الاصلاحية بالجزائر، إنما يحيي فيه العلم والهدى، والتمسك بكتاب الله :

قم حي أهل العلم بالأشعار		هذا لعمرك مخبي الأفكار
قم حي أنصار الهدى قم حي من		دحضوا الضلال باسهم الأنكار
أهلا بأنصار الكتاب ومرحبا		أعزز بكم للذكر من أنصار
هاتوا لنا الاصلاح واحموا ديننا		من هذه الآفات والأخطار
واجعلوا هدى الدين القويم لنا فقد		نسجت عليه عناكب الأستار (1)

إن دور قادة الفكر والعلماء دور خطير في يقظة الشعوب، وزلزلة المعتقدات الخاطئة، وتوجيه الأمة وجهة الثورة على الوضع الآسن نحو مستقبل أفضل.

إن قادة الفكر نواميس تدق في عالم الغفلة، فتهز الخاملين، وترج الجامدين، وتقضي على أسباب اليأس والفشل، وتفتح بابا للمجد، وطريقا إلى التقدم (2).

ونحسب أن فترة العشرينيات هذه كانت فترة جس النبض، وتأكيد بعض القضايا، وتكرار بعضها لترسخ في نفوس الشعب، إنها عملية فضح للواقع المتردي وتنديد به، ودعوة إلى تجاوزه بفعل ملموس، كما كانت بالمقابل تثبيتا لبعض المفاهيم، والأصول لترسيخها في النفوس، حتى يقتدي بها الشعب في ظلماته التي يتخبط فيها.

وبعد اشتداد ساعد الحركة الاصلاحية، كان من الطبيعي ألا يقف معها كل الناس

1 – صدى الصحراء ، س 1، ع 11، شعبان 1344هـ فيفري 1926 ، ص 03.
2 – تنظر مثلا ، محمد الهادي السنوسي ، اهداء الكتاب ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2 ، ص 12.

تأييدا ومؤازرة فظهرت العراقيل الاستعمارية، وظهر أدعياء الجمود والمتشبثون بالسلطة الواهية، أولئك الذين لايملكون في أوطابهم إلا الأوهام، ولا هم لهم في الدنيا إلا بطونهم، مما انعكس أثره السيء على الأمة، فشوهوا مثلها، ودينها، وأساءوا إلى معتقداتها.

واحتدم الصراع في الثلاثينيات بين قادة الفكر، ورجال الاصلاح من جهة، وقادة الدجل والخرافات ورجال الجمود من جهة ثانية، وكان صراعا مريرا على أعمدة الصحف، وعلى مستوى نسج خيوط المؤامرات (1).

وكان من الطبيعي أن ينتصر الشعراء لرجال الحركة الاصلاحية، ويوسعوا أعداءهم فضحا وتعرية، وهو ما أشرنا إلى بعضه في المبحث الخاص بمحاربة الانحراف الديني.

ورغم الحدة التي اشتهر بها السعيد الزاهري في مواجهة أهل الجمود والتحجر إلا أنه في قصيدته (تحية العلماء) يسلك مسلك الاعتدال، لأن المقام لايسمح له بالشطط في اطلاق عبارات السباب والشتم، أو التدني إلى مستوى القذف، خاصة وأن الجمعية قد خطت لنفسها منهجا يقيها مثل هذه الترهات، ولذلك عمد الشاعر إلى تذكير العلماء بعراقيل الطبقة الجاهلة، شادا من أزر العاملين على نشر العربية والاسلام، والسائرين على طريق الحق :

رعاكم الله أهل العلم إنكم تعلمون الورى القرآن والحكما

لقيتم من جفاء الجاهلين بكم أذى كثيرا وشرا يقذف الحمما

وحسبكم من شداد الأمر أنكم قاومتموا الجهل حتى راح منهزما (2)

ب- الاشادة بالجهود الفردية:

شن شعراء الاتجاه الاصلاحي حملة حاسمة ضد دعاة الانحراف الديني، والجمود الفكري، وراحوا في المقابل يوظفون المعاني والرموز التي تزخر بها الشخصيات العلمية المعاصرة في الجزائر، أو في العالم الاسلامي.

وغالبا ما ترتبط هذه الجهود الفردية بمواقف معينة، تظهر بموجبها الشخصية على أنها متميزة ومؤثرة في الآخرين، ولها أصالتها التي تؤهلها للتأثير في المجتمع حينما تصبح بمثابة القدوة للاعتبار والاحتذاء.

1 – انظر مثلا قصيدة لأحمد سحنون ، الديوان ، ص 289 .

2 – الشهاب ، ج 9، مج 10، جمادي الأولى 1356هـ ، 12 أوت 1934 ، ص 407.

إن الرجال العظام يمكن اعتبارهم ثروة لأي أمة، تستلهم منهم العبرة، وتحاكيهم في مواقفهم، وتنحت من كل ذلك توجهات مستقبلية لحمل الأمانة العلمية، والاستمرار بالرسالة الحضارية.

وقد وجد الشعراء حافزا يدفعهم إلى تصوير هذه الشخصيات والاشادة بجهودها، والتنويه بخصالها، وسيلة للرد على محاولات المسخ والتشويه، وأسلوبا للمقارنة مع شخصيات الطرف الثاني الراكب شطط الجمود والتحجر، ومتنفسا عما أصاب النفوس من حنق، ومنهجا لغرس هذه المواقف في نفوس الناشئة.

إن الاشادة بالشخصيات العلمية والاصلاحية الجزائرية هي اشادة بمواقف دينية لشخصيات اسلامية لها وزنها الديني والعلمي في النهضة الثقافية، لمس الشعراء عن كثب جهادها في سبيل الاسلام والوطن، ورأوا بأعينهم نتاج نضالاتها في سبيل استرجاع الهوية الاسلامية للشعب الجزائري.

وكانت شخصية ابن باديس أكثر الشخصيات اهتماما لدى كل الشعراء خاصة وأن أغلبهم كانوا رفاقه في الحركة الاصلاحية، أو تلاميذه في المدارس التي غرستها جمعية العلماء في شتى الربوع.

وأغلب ما قيل فيه من شعر لا ينظر إليه بوصفه رجلا من عامة الناس، بل كشخصية نموذجية لها مواقفها، ولها وزنها على الساحة الدينية والثقافية والسياسية، ولها دورها الفعال في تغيير مسرى الحياة الدينية في الجزائر.

وقد تتبع الشعراء مختلف الانتصارات التي حققها ابن باديس في ميادين الاصلاح، كما سجلوا مختلف العراقيل والمضايقات التي تعرض لها لاسيما من الاستعمار أو من أذنابه (1).

إن ابن باديس هو ربّان الحركة الاصلاحية، يقود النهضة الاسلامية في الجزائر، ويرعى شؤونها، ويتوفر لها بكل ما يملك. وقد حقق نهضة ثقافية ودينية في ربوع الجزائر، وترك بصماته واضحة في أغلب مجالاتها. ولا يسعنا إلا أن نردد مع الشاعر :

1 - انظر مثلا : - محمد العيد ، ما بال أشيل يهذي ، ج الشهاب ، س 1، ع 13، 26/2/4 ، ص 4.
- محمد العيد ، حمتك يد المولى، الديوان (ص 124)، حمت كتاب الله (الديوان ص 157).
- حمود رمضان ، شلت يد الجاني ، ج الشهاب، ع 78 ، 27/1/6، ص 13.
- السعيد الزاهري ، إلى زعيم المصلحين .. ج الشهاب ، س 2، ع 79، 27/1/13، ص 14 - 15.
- الطيب العقبي ، في ذمة التاريخ أفظع حادث، ج الشهاب ، س 2، ع 83،، 27/2/10، ص 15-17.
- أحمد سحنون ، مات ابن باديس ، الديوان (ص 240)، عبد الحميد بن باديس (الديوان ص 243) روح باديس (الديوان ص 245)، الذكرى الثالثة للشيخ ع ، ح (ص 248)، ... إلخ.
- انظر قصائد كثيرة في مجلة الشهاب، ج 4، مج 14، 2 جمادي الأولى 1357هـ ، جوان ، جويلية 1938، ص 253 - 272.
- عبد الكريم العقون ، يا أبي الروحي ، البصائر ، سل 2، س 4، ع 154، 51/5/7 ، ص 7.
- صالح خرفي ، ذكرى الامام ابن باديس ، البصائر ع 319 ، 55/5/20 ، ص 5.

دمت ابن باديس ربانا لنهضتنا   تلقى مراسيها بالطور والجود

إن الجزائر لا تسمو بغيركم   فكنت منها مكان النحر والجيد (1)

واهتم الشعراء بشخصيات دينية وعلمية أخرى كانت لها اسهاماتها في تحريك الشعور الاسلامي في الجزائر، وفي دفع الحركة الاصلاحية، كالأمير خالد (2)، والابراهيمي (3)، والميلي (4)، والعقبي (5)، وغيرهم ممن عملوا على تشييد صرح النهضة العلمية والثقافية في الجزائر، وقاوموا التحجر والطرقية، والجمود الديني والفكري.

ولم ينس الشعراء جهود شخصيات أخرى من العالم الاسلامي (6)، كالامام محمد عبده، وشكيب أرسلان، والشيخ الباروني، وعبد الكريم الخطابي، وغيرهم كثيرون، ومرد هذا الاهتمام إلى مواقف هؤلاء من حركة البعث الاسلامي، والنهضة الثقافية في البلاد الاسلامية، وتحديهم للاستعمار في شتى المجالات.

ونخلص إلى القول : إن المتعطش إلى قطرة علم يبل بها صداه يتمسك بكل من يحس فيه أنه يملك منه شيئا، ولذلك رأينا كيف أسهم الشعراء الجزائريون في الوقوف مع كل حركة بعث علمي أو ديني في الجزائر.

فأشادوا بكل جهد يدفع عجلة الاصلاح نحو مواقع العلم والثقافة، سواء أكان هذا الجهد جماعيا منظما، كما هو الشأن في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أم غير منظم كبعض الوفود العلمية، والاسهامات المختلفة .

ولم ينس الشعراء الاشادة ببعض المواقف الفردية التي شكلت حاسما هاما في الصراع مع الطرقية والانحراف والجمود، وكانت بحق وسيلة للرد على محاولات المسخ والتشويه، وأداة لغرس بعض الفضائل في نفوس الناشئة الجزائرية، عدة المستقبل، وأمل الثورة على الظلم والطغيان.

---

1 - حمزة بكوشة ، هيهات يسبي فؤادي ، البصائر ، ع 108، 38/4/15 ، ص 7.

2 - تنظر قصيدة : الأمين العمودي ، الأمير خالد ، في كتاب : د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 49 (الملحق) نقلا عن الأقدام ع 103 ، 1922/11/26.

3 - انظر مثلا ، أحمد سحنون ، الذكرى الأولى (الديوان ص 253)، الذكرى الثانية (الديوان ص 255).
مفدي زكرياء ، التحيات أيهذا الامام، اللهب المقدس (ص 240).

4 - انظر مثلا ، أحمد سحنون ، أعظم بها سيرة، الديوان (ص 251).

5 - انظر مثلا ، محمد العيد، باقة شعر (الديوان ص 395).
والزاهري ، شعراء الجزائر ، ج 1، ص 97.

6 - انظر على سبيل المثال في الاشادة بأرسلان (ديوان ابن رحمون ، ص 60) ، وقصيدة لعبد الكريم العقون، البصائر، ع 71، 49/3/14 ، ص 7.
وفي الاشادة بالباروني ، تنظر قصائد كثيرة في ديوان أبي اليقظان، ... الخ.

3 - الموقف من اللغة العربية

لم يكن غريبا أن يتشبث الجزائري بلغته العربية، أداة لفهم دينه، ورباطا يشده إلى اخوانه، ووعاء يبلور أحاسيسه وطموحاته، ووسيلة للتعبير عن أفكاره.

وليس غريبا أيضا أن يقترن الدفاع عن اللغة بالدفاع عن الأرض، فكلاهما رمز للوجود، أحدهما تشبث بالكيان الحضاري، وبالشخصية العربية الاسلامية، وثانيهما تشبث بالكيان الوجودي.

كان الدفاع عن أحدهما رد فعل على طوفان الفرنسة والتشويه والادماج، وكان الدفاع عن ثانيهما رد فعل على التهجير والتفقير والحرمان.

وفي كلتا الحالتين كان رد الفعل قويا، تشبثا باللغة وبالأرض، واصرارا عنيدا على التحدي، رغم أساليب المستعمر في القضاء على اللغة العربية، وسد المنافذ أمامها، ووأدها في شتى المجالات، واغتنام كل فرصة لقطع سبل الحياة أمام الناطقين بها (1).

ولكنها كانت تحيا في القلوب، وتجيش في الصدور، ووجدت أماكن تتنفس من خلالها، وتستمد روح الحياة، بفضل بعض الزوايا والمساجد، وبعض الصحف العربية التي عملت على تلقيح الأفكار، وصيانة العربية من الاضمحلال.

كما أن الحرب العالمية الأولى قد أفرزت فئتين جزائريتين متعلمتين : فئة متفرنسة يسري حب أوربا في دمائها، ويملأ الاعجاب بلغتها جوانحها (2). وفئة معربة متخرجة في تونس والمشرق العربي وفي الجزائر أيضا متحمسة للغة العربية، مكافحة في سبيلها، جاهدة على تنقيتها من الشوائب العالقة بها، متصدية لكل أعدائها.

وقد وقف الشعر مدافعا باستماتة عن حرمة اللغة العربية، عاملا بكل ما في وسعه على انتشارها، وتقريبها من الأذهان، وتبسيطها إلى العقول، فكان بحق حادي الركب، ودليل المسيرة يذود عن الحمى، ويرد على كيد الأعداء، ويستنفر الأمة للعمل الجماعي على اعادة الاعتبار للغتها.

---

1 - وقد تم اصدار قرارات جائرة لمنع تعليمها، واعتبارها لغة اجنبية، وأهم هذه القرارات قرار 1892/10/18 الذي صعب عملية الحصول على رخصة فتح مدرسة عربية، وقرار 1904 الذي يمنع التعليم بدون رخصة ، وقرار 1938/3/8 ضد التعليم العربي الحر وغيرها، ينظر في الموضوع : أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص 140، ودبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج 1، ص 26، وسعد الله، الحركة الوطنية ، ج 3 ط 3، ص 92، و د. تركي رابح ، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط 2، 1981، ص 172.

2 - د. محمد ناصر ، المقالة الصحفية ، م 2، ص 46.

إن المتتبع لأشعار هذه الفترة يدرك أنها تصب في مجرى واحد هو الربط بين اللغة العربية والدين الاسلامي، أي أن اللغة ليست مفصولة عن الدين بفكرة قومية أو عنصرية، فالظاهرة المشرقية التي تفصل غالبا العنصرين تنعدم في الجزائر بصفة خاصة.

كما يدرك أنها قد عبرت عن رد الفعل ازاء الصراع القائم بين حماة اللغة العربية، والشباب المتعصب للفرنسية والذي تغذيه طغمة استعمارية حاقدة، وطرقية جامدة.

وكان الشعر رافعا لواء النفير، مستنهضا الهمم المتقاعسة، عاملا على درء الأخطار المتربصة باللغة العربية، داعيا إلى العمل الجماعي على اعادة الاعتبار لها. وهو موقف تمليه الضرورة الدينية، ويطرحه التشبث بالكيان الحضاري، فالشاعر محمد الهادي السنوسي حين يقول على لسان جريدة المنتقد :

هبوني يراعا يبعث الميت في البلى ويبعث من تحت الجنادل أقيالي

على اللغة الفصحى واعلاء شأنها وترديد ذكرها أعاقب أشغالي

إلى لغة الذكر الحكيم ومصدر النواميس في عصري وفي العصر الخالي

أهبت بشبان الجزائر كلهم فهم قادة الأفكار ركاب أهوال (1)

إنما يؤكد موقفا انتمائيا من القضية، هو موقف الاستنهاض والاحياء، واعادة الاعتبار للغة، لكونها لغة الدين والحضارة ويتوسم الشاعر الخير في الشباب درعا للمواجهة، وقوة للدفاع.

ونلمس في شعر العشرينيات روح الأسى، ونغمة التحسر على الوضعية التي آلت إليها اللغة، مقارنة بلغة دخيلة قلبت الموازين، واستولت على عرش الأولى، وأزاحتها من الريادة، ويصب الشاعر الاصلاحي جام غضبه على المسلمين الذين فرطوا في لغتهم، ولم يرعوها حق الرعاية، بل سحرت ألبابهم لغة المستعمر، فأداروا ظهورهم عن لغتهم، ووصفوها بالجمود والتحجر، فيقول اللقاني بن السائح على سبيل المثال ، منددا بهذا الوضع :

1 - المنتقد ، س 1، ع 1، 11 ذي الحجة 1343هـ ، 25/7/2 ، ص 02.

يا أمة ضيعت مجدا لها سلفا   طال النداء بنا لو كان يجدينا
ها هي أم اللغى تنعى لمصرعها   ها هي ألفاظها تبكي وتبكينا
خلطتموها بألفاظ مشوهة   ولم تقيموا لها يوما موازينا (1)
صارت شبيهة أثواب مرقعة   تضم من خرق طمر ملايينا (2)
وصفتموها بضيق في النطاق وقد   كنتم على وصفكم قوما ملومينا
بل هي أم لغات الأرض أجمعها   كل لها عند ضيق اللفظ يأتينا (3)

إن الشاعر لا ينفعل لوضعية اللغة في الجزائر، بل يستعير هذا الانفعال من شاعر مشرقي هو حافظ ابراهيم، فينسج على منواله، إما لأن الموضوع واحد، وإما لأن ظاهرة التقليد كانت مؤثرة في أغلب الشعراء وخاصة في بداياتهم الشعرية، وهو ما طبع الأبيات بطابع التكلف والتقليد، وتضمين أبيات من قصيدة « اللغة العربية تنعي نفسها ».

وقد وحدت التيارات المعادية للغة العربية صفوفها، من أبناء عاقين، ومعمرين صليبيين حاقدين و« أخذت تتجمع مع مرور الأيام، وتتعالى أمواجها الصاخبة مهددة بطوفان مسخ شامل، فقد ازدادت جبهة المستعمرين صلابة، وكشرت عن أنيابها علانية، ونشرت مخططاتها العدوانية وهي تستعد لغزو فكري مع مرور مائة عام على الاحتلال العسكري» (4)

وكان رد الفعل الشعري دعوة إلى التمسك باللغة العربية الفصحى رمزا للشخصية العربية الاسلامية، وحصنا ضد تيار الادماج والاحتواء، يقول محمد العيد، مخاطبا الطلاب، ومؤكدا هذه الحقيقة :-

لا تهملوا هذا اللسان ففقدكم   في فقده ودوامكم بدوامه
فكأنما هو عقد در فائق   رصفا وعلم النحو سلك نظامه (5)

1 - تضمين لبيت حافظ « سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فرات »
2 - تضمين لبيت حافظ « فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات »
3 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1، ص 37 - 38.
4 - د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 2، ص 51.
5 - قصيدة يا معشر الطلاب (1928) بالديوان ، ص 91.

واستمرت مثل هذه الدعوات خلال الثلاثينيات في صورة استعطاف مر، وحسرة واضحة كقول مفدي زكرياء :

بني الشرق هلا اليوم نظرة راحم ... إلى لغة أمست رهينة أحقاد

إلى لغة تشكو عقوق رجالها ... وقد أصبحت للغير كعبة قصاد

ألا ترقبون الله فيها فإنها ... لسان كتاب من هدى الله وقاد (1).

ويتزامن هذا الموقف مع المواقف التي تبنتها جمعية العلماء، دفاعا عن العربية، وحماية لها، وتشييدا للمدارس لتعليمها، وانشاء للصحف للنهوض بها، وأصبحت بذلك الدعوة إلى اللغة العربية بمثابة ايديولوجية وطنية تعنى بتحمسها للغة العربية تحمسا للشخصية العربية الاسلامية الجزائرية في وجه المسخ والادماج.

وبرزت في هذه الفترة نغمة الشكوى من القمع الاستعماري وقوانينه الجائرة ضد العربية، والتي تقصيها عن ساحتها الثقافية، وتنصب مكانها ضرتها الفرنسية، ولم يجد الشاعر محمد العيد إلا أن يردد هذه الفكرة، صيحة في وجه الاستعمار، وأذنابه :

تحن إلى نيل الحقوق نفوسنا ... وتأبى علينا نيلها قوة الغشم

ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها ... وليس سوى الفصحى لسان لنا (رسمي)

وما نحن إلا من سلالة يعرب ... فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم (2).

ورد الشاعر على قانون 8 مارس 1938 (3)، بقصيدته (كن قويا)، ذلك أن القمع والارهاب، وخلق العراقيل لا تقابل بالسكوت، بل بالمواقف الصلبة، والارادات القوية في تجاوز العقبة، فمحمد العيد يقرر هذا الواقع الذي فرضه الاستعمار في قوله :

ولسان غزته في ... أرضه جم ألسن

يبتغي الخصم دفنه ... تحتها شر مدفن

وهو عال مردد ... في نداء المؤذن

---

1 - مفدي ، نهوضا بني افريقيا من سباتكم ، ج النور ، ع 48، 27ر2 1351هـ ، 32/8/30 ، ص 03.

2 - محمد العيد ، إلى العلم ، الديوان ص 205.

3 - يعتبر هذا القانون اللغة العربية لغة اجنبية في الجزائر ، ويفرض الترخيص لفتح مدرسة ، أو تكوين جمعية أو تعيين مسؤول عن التعليم ... إلخ ، ينظر ، علي مراد ، م. س. ص 337، ود. سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3، ص 92.

القوانين حوله كالسلاح المسن

والقرارات ضده معلن اثر معلن

ذنبه أن سفره خالد منذ أزمن (1)

ويؤكد ارادة التحدي، وقوة التصدي في خطابه للنشئ :

ساحة المجد وعرة لم تمهد للسين

كن قويا بها تفز بالنجاح المضمن

كل صعب مذلل للقوي المهيمن (2)

فملامح الأمل باقية، وبوادر التفاؤل متوفرة من خلال الاعتماد على الشباب، براعم في بستان اللغة، وثمارا في النهضة الثقافية، وقوة مغيرة لمستقبل البلاد، وحصونا متصدية لكل كيد وضغط.

وأحمد سحنون حين يعرج إلى الحديث عن معاناة العربية، وما تتعرض له من اضطهاد إنما يفضح واقعا مزريا، ويعري حقيقة استعمارية أمام أعين الشباب، فيقول :

لج الاستعمار في طغيانه كل يوم منه ألوان اضطهاد

لغة الضاد التي ما برحت لغة الاعجاز سيمت بكساد

دينك الاسلام في أوطانه ناله المكروه من أيدي الأعادي (3) .... إلخ

وفي نفس هذا السياق تبرز نغمة كسيرة عند محمد العيد، يختلط فيها التشاؤم بالتفاؤل، حين يقول في قصيدته التي نوه فيها بأحد الشباب الأدباء (4) :

1 – محمد العيد ، كن قويا ، الديوان ، ص 323.

2 – م. ن. ص 324.

3 – أحمد سحنون إلى التلميذ ، الديوان ، ص 14.

4 – وهو الأديب محمد الصالح الصديق صاحب كتاب (أدباء التحصيل).

أسفي على الفصحى تحول نبعها　　وشلا وكدر صفوه الترنيق

صدئت جواهرها وغاب ضياؤها　　لولا بصيص نادر وبريق

يبدو على أقلام نشئ ناهض　　واع كمثلك دأبه التحقيق (1).

ومن البديهي أن يتعرض حماة اللغة العربية إلى ما تتعرض له هي نفسها من ضغط وعرقلة، بل تعرضوا إلى التنكيل والتشريد، والسجن والتقتيل (2)، وأغلب من تعرض لمثل هذه المعاناة هم أولئك الذين كانوا يمارسون مهنة التعليم في المدارس العربية الحرة، ويعايشون هذا الواقع الاضطهادي المر .

فالشاعر حسن حموتح على سبيل المثال بعد أن عدد المعاناة اليومية لمعلم العربية، والنظرة الاستعمارية إليه؛ باعتباره مجرما خارجا على القانو ن، يسام الهوان في زنزانات السجون. يؤكد أن اللغة العربية والدين الاسلامي قوام حياتنا ونور بصائرنا.

ويخاطب الاستعمار في ثقة متناهية، وأمل يفجر المستقبل، وفي نغمة تحد واصرار :

.ما شئت عرقل سيرنا　　لسنا نخاف تعرقلا (3)

إن الصراع اللغوي مع الاستعمار وأذنابه لم ينته بميلاد الثورة، بل استمر مجلجلا وسط لهيب المعارك. وقد آل المجاهدون على أنفسهم أن يرسخوا الحرف العربي في مراسلاتهم صفعة لأولئك المتشبثين بلغة الاستعمار والذين سماهم مفدي زكرياء بضفادع الحي التي تنقنق برطانة الأعاجم، ولا تفصح بلغتها العربية، تملك عقولا ولكنها قاصرة على ادراك الحقيقة، يقول الشاعر :

لغة من دم الحشاشات مبنا　　ها ولفظ، تخْنوله الافهام

ومعان للمنتهى تتسامى　　صعدا، لاتحدها الاجرام

شوهتها - طوع الدخيل - غرابيب، يغذي عروقها الانهزام

---

1 - محمد العيد ، قدوة الشباب ، الديوان ص 406.

2 - انظر مثلا : المسجونون من العلماء ، الشهاب ، ج 1، مج 15، رجب 1358هـ ، أوت 1939 ، ص 347، أو ركن «أنموذج شهر » في البصائر، وهو خاص بنتائج هذه السياسة ، ينظر على سبيل المثال ، ع 151، 1939/2/4.

3 - البصائر ، س 2، ع 256 ، 23 جمادى الاولى ، 1373هـ ، 1954/1/29 ، ص 05.

وابتغاها ضفادع الحي سخفا   يسفع الانف من هراها زكام
عورات لم يجد فيها حياء   وعقول ما حل فيها الفطام (1)

لم يجد الشاعر في وصف أبناء الجزائر العاقين لغتهم أبلغ من المفردة القرآنية : (غرابيب) (2)، للدلالة على سواد أفعالهم ، ومواقفهم الحالكة المؤيدة للسياسة الاستعمارية.

فاللغة ترتبط بالجانب الروحي، وأن افظع انسلاخ وأكبر عقوق أن ينسلخ المواطن عن لغته طوعا لرغبة الأجنبي الدخيل.

إن اعادة تكوين الشخصية العربية الاسلامية الممسوخة في الجزائر، تكمن أساسا في اعادة الاعتبار إلى اللسان العربي لسان تخاطب وتعليم وكتابة، تجذيرا له في القلوب، وتمكينا له في النفوس، حتى يصبح سيدا في داره وبين أهله وذويه.

ونلاحظ من كل ما سبق أن الموقف من اللغة العربية كان عند بعض الشعراء ترديدا لصدى دعوات مشرقية؛ يعوزها صدق الإحساس، وعمق التجربة، وعنفوان الشعور، وتغلب عليه السطحية.وكان عند بعضهم الآخر وليد الظروف الاستثنائية التي خلقها الاستعمار بقرارات جائرة ضد اللغة؛ سدا للمنافذ أمامها، وتنكيلا بمعلميها.

وكانت المواقف تنبع كلها من موقف ديني، ومن نظرة اسلامية إلى اللغة، باعتبارها لغة القرآن الكريم، ووسيلة القضاء على داء الجهل والأمية، وأداة للتعبير عن الشخصية العربية الاسلامية في الجزائر في مواجهة محاولات المسخ والتشويه.

ولذلك فإن بعض القصائد كانت تعبيرا عن وعي بالقضية واحساسا صادقا بالواقع.

وبالرغم من النبرات التشاؤمية التي صبغت بعض القصائد إلا أنها لا تعدم منافذ للتفاؤل، والأمل، بمستقبل مشرق، يعيد فيه الشباب الناهض إلى اللغة العربية فتوتها وقوتها، ويردون إليها عزها، فتترسخ في النفوس وتتجذر في الميدان.

على أن هذه النماذج التي سقتها تدليلا على أهمية اللغة العربية لدى رجال الاصلاح والشعراء معا إنما هي عينات لاغير، لأن ما قيل في اللغة من شعر يمكن أن يكون بحثا مستقلا؛ يتتبع البدايات الأولى حتى اليوم، فالصراع مازال مستمرا تجاه العربية بين أنصار التعريب وأنصار التغريب.

---

1 – مفدي ، التحيات أبهذا الامام ، اللهب المقدس ، ص 244/243.

2 – الغرابيب في الأصل : الجبال الطوال السود. قال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا : أسود غربيب. (مختصر تفسير ابن كثير ،. نشر دار القرآن الكريم / بيروت، ط 7، 81 ، مج 3، ص 145. وقد وردت هذه المفردة في الآية (27) من سورة فاطر.

4 - الإشادة بوسائل الثقافة

للثقافة قنواتها ووسائلها التي تستطيع بواسطتها احداث علاقة ترابطية مع المتلقي، علاقة تأثير وتأثر. ولما كانت الثقافة الجزائرية محرومة من التنفس بحرية، وتئدها الأيدي الاستعمارية في المهد، فقد عاشت على الأمل، وعانت الارهاب والارهاق، وتسللت إلى الناس بصعوبة، وهربت كما تهرب السلع الممنوعة.

ولذلك فإن الشاعر الجزائري حين يتغنى بوسيلة ثقافية إنما يتغنى بنافذة أشرعت في وجه النور والضياء ليغمر ليل الجزائر الحالك بسواد الجهل والأمية، وبمنبر للاصلاح يدعو إلى النهضة المنشودة ويتوسم فيها الأمل والخير لهذا الوطن المكبل بقيود الجمود والتحجر.

لقد تغنى الشاعر بكل وسيلة تساعد على نشر الثقافة، وتعمل على توعية الشعب وتبعث في نفسه رعشة التفاؤل، وتنبهه من الغفلة، وترسخ الحرف العربي وسط جو موبوء بتكالب استغرابي لنشر الحرف اللاتيني، وعزل الحرف العربي عن ساحته.

وكانت الوسائل المعنية في رأينا مثالا لاحصرا هي : المدرسة، والنادي، والصحيفة، والكتاب، وغيرها.

* * * * * * * * *

1 - المدرسة : إن المدرسة التي نعنيها هي المدرسة العربية « التي تصقل الفكر والعقل واللسان وتسيطر عليها، وتوجه الجيل الناشئ إلى الاسلام والعرب، وإلى الشرق الروحانية». (1)

وهي السبيل الأمثل إلى العلم، وكانت تمثل رد فعل على الموقف الفرنسي، ومحاولة نشره للغته، وتحييد اللغة العربية، ولذلك كان لابد من ثورة تعليمية تقودها المدرسة حفاظا على أصالتنا، وتتحول بمقتضاها هذه المدرسة العربية الحرة إلى قلعة للثوار، وحصون للناشئة .

وقد وضعت الحركة الاصلاحية على كاهلها مسؤولية بناء المدارس، وحث الناس على التبرع لها، وتزويدها بالمعلمين وبالبرامج الدراسية المؤهلة، ومن أشهر هذه المدارس(2)

1 - الابراهيمي ، عيون البصائر ، ج 2، ش.و.ن. ت. الجزائر ، ط 2، 1970، ص 302.

2 - انظر : د. تركي رابح ، م. س ، ص 233 - 237، ومحمد بن العابد الجلالي ، تقويم الأخلاق ، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، 1927، ص 174/173.

مدرسة الشبيبة الاسلامية التي كان من مدرسيها محمد العيد والهادي السنوسي وجلول البدوي، ومدرسة السلام، والمدرسة العربية القرآنية،وقد توجت بانشاء دار الحديث بتلمسان (1) ومعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة (2).

وقد شارك الشعراء في الاشادة بكل ذلك، وفضح العراقيل الاستعمارية التي تلاقيها، وتوضيح دورها في ازاحة غشاوة الجهل عن أعين النشئ، وتكوين شباب مثقف قادر على تحدي الاستعمار.

وكانت فترة العشرينيات فترة تململ ، ومحاولة نهوض، ارتبطت بدعوات شعرية لبناء المدارس لما لها من أهمية للناشئة: تعليما، وتربية، وتحصينا، وتكوينا. (3)

ومن كل ذلك نقتطف هذه الأبيات المتفرقة من قصائد لمفدي زكرياء، تطغى عليها النبرة الخطابية في صيغ الأمر والحث، والطلب :

- وحلوا رحاب العلم دوما فهذه	مدارس عصر فاض فيكم بسلسال (4)
- فكونوا يدا وابنوا المدارس واقتدوا	بقوم، إلى أوطانهم أحسنوا صنعا (5)
- وابنوا المدارس في تعليم ناشئة	أضحوا على الطرق آلاف شريدينا (6)
- فابنوا المدارس في البلاد وهيئوا	لغد، رجالا قادة أكفاء (7).

وشهدت الثلاثينيات من هذا القرن نهضة تعليمية قادتها جمعية العلماء، وساندها الشعب بكل ما يملك، وقوبلت بقوانين جائرة، ومضايقات ماكرة لم تزد المصلحين إلا اصرارا على التحدي، وثباتا على المبدأ :

لله در الحادثات فإنها	نعم الدواء ولو نراه مريرا
وبقدر قسوتها يزيد صلابة	إيمانهم وقلوبهم تنويرا
قل لي بربك هل تأسس معهد	فنما ودام ولم يزل معمورا
من غير أن تغدوا المصائب أسه	وجذوره وعماده والسورا. (8)

---

1 - دشنت عام 1937.
2 - دشن في شهر ديسمبر 1947، انظر : البّصائر، سل2، ع 16، 47/12/22، و ع 44 (خاص بالمعهد)، 1948/7/26.
3 - انظر : أبا اليقظان ، شمس العلوم ، الديوان ، ص 88.
4 - الاسلام يتكلم ، شعراء الجزائر ، ج 1، ص 153.
5 - انظر : جزائر ما أشقاك بالجهل ، د. ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 146. نقلا عن المغرب ، ع 8 ، 1930/7/15.
6 - انظر : الله راض ، د. ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 148، نقلا عن المغرب ، ع 10 ، 1930/7/29.
7 - انظر : أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا، د. ناصر ، م. ن، ص 167 ، نقلا عن الأمة ، ع 43، 1935/9/24.
8 - أبو اليقظان ، هذي الجزائر ، الشهاب، ع 9، مج 10، اج1، 1356هـ ، 1934/8/12، ص 413.

وكانت مهرجانات افتتاح المدارس مؤتمرات علمية، يستغلها الشعراء لمخاطبة الحاضرين وحثهم على تعليم أبنائهم، وبذل أموالهم في سبيل تيسير سبل العلم (1).

وكانت الاحتفالات بتدشين دار الحديث بتلمسان نموذجا لمثل ذلك، حيث دام الاحتفال أسبوعا كاملا، كان لمحمد العيد الفرصة في القاء ثلاث قصائد كلها حث على العلم، واشادة بدور المدرسة فيَ المجتمع، وهي في مجملها تعبير عن مشاعر الاعتزاز والفخر ، ودفع إلى التحفز، وبعث للعزة في النفوس (2).

كما نلمح في هذه الفترة التركيز على أن السيادة لا تكون إلا بالعلم، وأن المدرسة تشكل حصنا للوقاية مثلما هو المصنع حصنا للقوة (3). كما طغت روح التفاؤل على أغلب القصائد، فإذا نبرة الاستبشار ظاهرة، وإذا الأمل ماثل للعيان.

وبعد الحرب العالمية الثانية، والأحداث المأساوية التي عاشتها الجزائر أسفرت المدرسة في نظر الشعراء عن وجهها الحقيقي حصنا لتخريج الثوار، وثكنة لتربية الأحرار «وغدت مدرسة حربية، رسالتها تخريج دعاة ثورة وحملة سلاح» (4).

والشعر وهو «يحتفي بهذه المدارس شعر متطلع متفائل، نافذ النظرة في المستقبل، يحتفي بها قلاعا للثورة، وثكنات للجيوش، وفتوحات للنصر المبين، وكلما اقترب ميلاد الثورة تلمست ملامحها بارزة في الاحتفال بالمدرسة الحرة، من فتح، ونصر، وجبال.» (5)

وهناك قصائد كثيرة في هذا المجال يمكن الاستشهاد بها، وأهمها القصيدة التي قالها محمد العيد في افتتاح مدرسة الهدى بالقنطرة سنة 1947 (6)، والتي وظف فيها ألفاظا ذات طابع ثوري مثل : فتح، الجبال، الردى، النصر ... الخ وهو أسلوب جديد عند محمد العيد يفيض حماسة، واعتدادا بالنفس، وعزة بالكرامة، ونلمح من خلاله نغمة التهديد للمستعمر، لأن الشعب قد بلغ وعيه، وأتت الزروع العلمية ثمارها يانعات.

وهكذا حدث تحول في دور المدرسة، مثلما هو الحال لدور المعلم والتلميذ، فبعد أن كانت رسالة المعلم رسالة تضحية ووفاء والتزام بالمبدأ، وتطلع إلى هدف أكثر ماهي

1 - انظر قصائد كثيرة في هذا الموضوع في دواوين : محمد العيد ، أبي اليقظان (ج1 ، ج2)، وأحمد سحنون.

2- (وهي : تحية دار الحديث (الديوان ص 79)، و(استوح شعرك)، الديوان ص 143، و دعاك الأمل (الديوان ص 233).

3 - محمد العيد ، استوح شعرك ، الديوان ، ص 145.

4 - د. خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص 153.

5 - م. ن. ص 161.

6 - الديوان ، ص 181.

وظيفة يقتات منها ويحترفها رغم ما يعتورها من تقتير أصبحت ذات دور أخطر وهو «الجهاد والتحرير وفك الأسر» (1) وفي المقابل «أصبح الطلبة الجند والعتاد والفداء»(2). ونلمس ذلك جليا في قصيدتي أحمد سحنون : (إلى المعلم) (3)، و(إلى التلميذ) (4).

ومن الشعراء من اعتبر المدرسة مصباحا ينير دروب الحياة، ويحي الضمائر، ويغذو الفطن، ويخلق الوعي في الناس، ويخلد آثار الشعب (5).

واعتبرها بعضهم مخلصا من الوضع الراهن، مولجا لآفاق المستقبل (6)، إذا استقامت مناهجها وصلحت طرقها، واتضحت أهدافها، يقول الربيع بوشامة مؤكدا هذه الحقيقة :

ليس في الأرض كالمدارس نفعا   ما استقامت على هدى وأمان. (7)

ومع اقتراب موعد الثورة التحريرية، وفي فترة المخاض التي ينبلج بعدها فلق الصبح، ونور الفجر، راح الشاعر مفدي زكرياء يعطي للمدارس دورها الحقيقي في تحرير الأمة من ربقة الجهل، والعبودية والاستغلال، فيخاطب رجال الاصلاح :

فابنوا المدارس في عرض البلاد، فما   غير المدارس للتحرير، تمهيد (8).

ونخلص إلى القول : بأن الشعر كان داعيا إلى افتتاح المدارس لاحتضان البراعم الناشئة، وتربيتها وتثقيفها ثقافة اسلامية، تؤهلها لحمل رسالة العلم، وتحصنها من الوقوع في حبائل التغريب والفرنسة. كما كان حاضرا في كل مناسبة تدشين لأي صرح علمي، مهنئا، وحاثا، ومستنهضا، يثير النخوة في النفوس، ويبعث الاعتزاز في الصدور، ويحي روح الأمل عند الناس.

وكانت المدرسة في العشرينيات والثلاثينيات معهدا للتربية ووسيلة للتثقيف، ثم أصبحت بعد الحرب الكونية حصنا للوقاية وقلعة للثوار، ووسيلة لتربية الأحرار، رسالتها تخريج دعاة ثورة وحملة سلاح.

---

1 – د. خرفي ، م. س ، ص 153.

2 – م. ن.

3 – الديوان ، ص 12، 13.

4 – الديوان ، ص 14، 15.

5 – انظر : الربيع بوشامة ، أقم عيدك ، البصائر، س 2، ع 90، 12 ذق 1368هـ ، 1949/9/9، ص 09.

6 – انظر : محمد العيد ، إلى العلم ، البصائر ، س 2، ع 140، 141 ، 28 ذق 1369هـ ، 51/2/5 ، ص 09.

7 – الربيع بوشامة ، غن بالعلم ملهم الألحان ، البصائر ، س 2، ع 93، 9 محرم 1369هـ ، 49/10/31، ص 17.

8 – من يشتري الخلد إن الله بائعه ، البصائر، س 2، ع 250، 5 ربيع الثاني 1373هـ ، 53/12/11 ، ص 5. وفيها تحريض صريح للطلبة على الثورة لأن الوقت محدود، ولا مجال فيه للمماطلة أو الانتظار.

وتحولت رسالة المعلم إلى الجهاد والتحرير، والتلميذ إلى جندي ثائر في ساحات الوغى. وقبل اندلاع الثورة أصبحت رسالة المدرسة عند الشعراء رسالة تحرير من ربقة المستعمر.

وقد طغى على الشعر الأسلوب الخطابي الذي توحيه المناسبة في الغالب أمام الجموع المتشدة فإذا هو أداة صالحة لايصال الفكرة، ووسيلة إلى الحث والاستنهاض، وبعث العزة في النفوس.

2 - <u>النوادي</u> : أدرك الجزائريون أهمية النوادي في التربية والتثقيف، فجاهدوا لانشائها وفتحها في أغلب المدن الكبرى، ولاسيما في فترتي العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن (1).

وكانت النوادي بمختلف أنواعها مراكز للنهضة الثقافية والوعي السياسي؛ فيها تتبلور المواقف، وتتضح الرؤى، وتتلاقح الأفكار. وكان نادي الترقي بالعاصمة (2) نموذجا لها؛ استقطابا للتيار العربي الاسلامي، واسهاما في نشر الثقافة العربية، وتجميعا للعلماء والأدباء في مختلف المناسبات ولاسيما الدينية منها، وربطا للصلة مع العالم العربي بتنظيم لقاءات فكرية وطنية وأدبية.

وكان منذ تأسيسه عام 1926 محط رحال المثقفين، ومركز الخطابة والشعر والمحاضرات (3)، ومسقط رأس جمعية العلماء، ومنطلق نشاطها (4).

إن اهتمام الحركة الاصلاحية بالنوادي كان يهدف إلى تربية الشباب تربية أساسها الدين ومنهجها الاخلاص، ورائدها العمل المبني على الصدق والنصيحة، وتاجها الأخلاق الفضيلة، حتى تستغل طاقات الشباب استغلالا مثمرا، ويغرس في نفوسهم حب الوطن والتمسك بمقوماته الدينية واللغوية والثقافية.

وكان الشعر سباقا إلى الاحتفاء بالنوادي، والاشادة بدورها المتعاظم، تثقيفا

---

1 - مثل : نادي الترقي (1926) ، نادي الشبيبة ، نادي النهضة بالبليدة (1932)، نادي التقدم بالبليدة (1935)، نادي الارشاد سطيف (1936)، نادي العمل بسكيكدة (1936) نادي الشبيبة الاسلامية بالجزائر (1936) وغيرها.

2 - ينظر في الموضوع : أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، القسم 2 ، ص 110 وما بعدها ، وأحمد الخطيب، جمعية العلماء وأثرها الاصلاحي في الجزائر، م. و. ك الجزائر، 1985، ص 105 وما بعدها، وسعد الله ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الآداب ، بيروت، ط 2، 1977، ص 120 وما بعدها، ومحمد كناي، دور نادي الترقي في النهضة الجزائرية الحديثة، جريدة المساء ، ع 198، 1986/5/20، ص 9.

3 - كان من محاضريه : ابن باديس والابراهيمي ، والعقبي ، والمدني ، وغيرهم، ومن شعرائه : محمد العيد ، أبو اليقظان ، السعيد الزاهري وغيرهم.

4 - انظر : د. سعد الله ، مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي، الثقافة، ع 79، يناير/ فبراير 1984، ص 85.

وتربية، و«احتفاء الشاعر بالنادي احتفاء بمنبر للاصلاح، ونفير للتجمع، ولذلك تتوارد عليه كل المعاني والمغازي التي يثيرها اجتماع بعد فراق، وانتفاضة بعد خمود، وأكثر المعاني الحاحا على الشاعر ما يتصل بالعروبة والاسلام، وما يمس لغة الضاد التي تجد لها في كل ناد يفتتح متنفسا جديدا» (1).

وقد طفحت مختلف النوادي بالنشاط الأدبي والعلمي، وأسهمت في مختلف القضايا الثقافية التي جدت على الساحة الجزائرية، وعجت بروادها المتعطشين للعلم، وفتحت ذراعيها لكل مساهمة ثقافية تجذر انتماءنا العربي الاسلامي.

وحين يقف الشاعر الهادي السنوسي أمام هذا الصرح الديني والثقافي ينقله الأثر إلى تذكر المجد الاسلامي الذي يتجلى وقتها ماثلا أمام عينيه في صورة بني حماد، وبني عبد الوادي وغيرهم :

ناد الشبيبة وادعها (للنادي)	إن النوادي شرعة الوراد
ناد تجلى بالمحاسن منظرا	فكأنه ذكرى (بني حماد)
ناد سيذكره الرواة بماله	من نعمة تترى على الأحفاد
ويسجل التاريخ من أوصافه	عزم المجد وهمة الأمجاد
ويهز من أعطافه ما هز من	آباء فتيته لسان الضاد
من «قائد» ندب ومن نصرائه	وطنا ومن "أبناء عبد الوادي"
فيدوم في هذي الجزائر نشؤها	عربي منطقه بسعي النادي (2)

وقد تيقن الشاعر أن أثر النادي سيكون جليا في الوسط الشباني أكثر منه في وسط الشيوخ لعدة اعتبارات ثقافية واجتماعية.

ولم تكن النوادي أماكن لتزجية الوقت كما كان يخطط لها الاستعمار، أو أوكارا للرذيلة، وذبح الفضيلة، بل كانت مراكز للتدريب والتأهيل، وأشعة وضاءة في ليل

---

1 - د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 142.

2 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، ص 178.

الجهل والأمية، ووسيلة لحفظ القرآن الكريم ولغته العربية، وحماية الأخلاق، والتذكير بالأمجاد، وربط الصلة بالأخوان، وتوحيد الجهود، والتمسك بالمقومات الأصيلة للأمة.

وقاومت النوادي نزعات الاندماج، وطلب الجنسية الفرنسية، وأعادت الاعتبار إلى مآثر الأمة الاسلامية في شكل نهضة حاضرة تستفيد من معالم السلف الصالح (1)، يقول الشاعر محمد العيد في افتتاح نادي النهضة بالبليدة (في سنة 1932)، مركزا على بعض القضايا السابقة :

يا فتية النادي ومعشره الألى	ساقوا إليه بالقلوب، وشاقوا
داووا به مرض الهوى كمصحة	فيها لكل وجيعة ترياق
واحموا به الأخلاق من اخلافها	يعظم لكم في الصالحات خلاق
فكوا به الأعناق من أطواقها	فلطالما قعدت به الأطواق
وعليكم القرآن فهو من الهوى	حام وليس كنوره اشراق. (2)

إن استعمال الصيغ الخطابية في هذا المقام، كأداة الأمر هنا، يعتبر وسيلة للتأثير في الجمهور المتلقي الذي يحتشد في مثل هذه المناسبات، فيكون أسلوب الاثارة والحث والدعوة وسيلة للنهوض وجرسا ينذر بخطر الواقع التعيس.

ونلمح تركيز الشاعر في بيته الأخير على القرآن نورا مشرقا، ودرعا متينا لصيانة الأخلاق، ونشر الفضيلة، وتزكية النفوس. وقد ارتبط ذلك بالدعوة إلى العروبة، يقول الشاعر في ختام قصيدته التي حيا فيها حفلة نادي التقدم بالبليدة :

رفعتم به رأس العروبة عاليا وعدتم على الاسلام فيه بانعم (3)

فالاسلام والعروبة حبل لا ينفصم عراه في كل مؤسسة ثقافية تنشأ في الجزائر.

وقد وجد الاصلاح في النوادي فرصة لاقامة الاحتفالات، وتنظيم المحاضرات والأمسيات الأدبية، واستقبال الوفود العلمية والفنية، ووسيلة للافلات من قبضة

---

1 - انظر : أحمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر ، ص 165.

2 - الديوان ، ص 94.

3 - محمد العيد ، الديوان ، ص 93.

الارهاب إلى رحاب الانطلاق في أجواء الابداع، فتتوحد الجهود، وتتكاتف المواقف، وتتلاشى همزات العنصرية والتفرقة المذهبية أو الجهوية (1).

وإذا النوادي تسمو فخارا، وتطمح إلى المعالي، وتتحدى أوجه الشيطان، وتملأ قلوب الناهضين بالزهو والافتخار، وتدفعهم إلى توحيد المساعي، ومواصلة المسيرة الاصلاحية (2).

وفي الأخير نشير إلى أن النادي كان امتدادا لرسالة المدرسة، ووسيلة للتهذيب والتدريب، وأداة فعالة للاستنهاض، وربط الصلة بين الماضي والحاضر، ونافذة أشرعت للانطلاق المكبوت من جو الارهاب والقمع وقد ارتبط انشاء النوادي بتكوين الجمعيات الدينية والثقافية (3) التي تتولى الاشراف عليها وتنظيمها.

وتعتبر الجمعيات «بارقة شعور واحساس من الأمة» (4) تعمل تحت اشراف جمعيات أشمل وأوسع؛ مثل جمعية العلماء ذات البعد الوطني، وجمعية الحياة ذات الطابع الاقليمي بالجنوب الجزائري.

وإذا كنا لم نهتم بأسماء النوادي والجمعيات والتأريخ لها فإن هذا خارجا عن موضوعنا، ثم أن هناك باحثين قد عرضوا للموضوع، لأن غرضنا هو عرض ما قيل من شعر في القضايا التي تهم بحثنا وتتصل به.

3 - <u>الصحافة</u> : لقد أثرت الصحافة في الشعر تأثيرا مزدوجا؛ حيث ربطته بتراثه الثقافي العربي في أزهى عصوره، واتخذها الشعراء من جهة ثانية منبرا لنشر ابداعاتهم، وقد اتخذت منها الحركة الاصلاحية وسيلة لتدريب الشباب على الكتابة الأدبية مستخدمة أساليب للتنافس والتباري.

ولذلك أدرك الشعراء أهميتها في تنوير العقول، وشحذ الهمم، ومسايرة الركب الاصلاحي.

فاعتبرها المصلح ابراهيم بيوض نبراسا للشعوب ومرهما للأمم المريضة (5)،

---

1 - تنظر قصيدة أبي اليقظان، في حمى النادي، الشهاب ، ج 9 ، مج 10، 1356 هـ ، 1934/8/12، ص 419.

2 - تنظر قصيدة أبي اليقظان، نادي الترقي ، سجل مؤتمر جمعية العلماء، ص 234 - 235.
ولعمر بن البسكري ، في التنويه بنادي الترقي، م. ن. ص 237.

3 - ينظر : د. سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 120 - 128، ومحمد كناي، الجمعيات الاصلاحية وأثرها في النهضة الجزائرية الحديثة، ج الشعب، ع 8046 و 8047 ليومي 13 - 1989/9/14.

4 - حمزة بوكوشة ، تعدد الجمعيات ، البصائر، ع 9، 5 ذح 1354هـ ، 1936/2/28، ص 10.

5 - انظر : نائب النجاح بوادي زقرير ، ج / النجاح ، ع 154، 07 رمضان 1342هـ ، 1924/4/11م، ص 03.

ورآها حمود رمضان نورا للبلاد وفؤادا للشعب، ولسانا ناطقا عنه، ورسولا منه إلى غيره (1).

وهي عند الشاعر والأديب والصحفي أبي اليقظان حياة للشعوب، ووسيلة للسعادة، ومعرضا للأعمال، ومهذبا للأمم، ومرهما للأخلاق فيقول من قصيدته «في الصحافة» (2) :

إن الصحافة للشعوب حياة	والشعب من غير اللسان موات
فهي اللسان المفصح الذلق الذي	ببيانه تتدارك الغايات
وهي الوسيلة للسعادة والهنا	وإلى الفضائل والعلى مرقاة
هي معرض الأعمال برهان على	مقداره بل أنها المرآة
الشعب طفل وهي والده يرى	لحياته ما لاتراه رعاة
الشعب تلميذ وتلك مثقف	ومهذب إذ تخلص النيات
تعطيه دوما قدر حاجته كما	كانت نجوما تنزل الآيات
في اليوم تفعل في نفوس الخلق ما	لايفعلنه في الشهور دعاة
فهي الدواء ومرهم الأخلاق إن	كانت لديها نحوها نظرات
أخذت لها من كل لون مرهما	كالنحل إذ تجبي له الثمرات ...

إنها نظرة اصلاحية إلى الصحافة في مثل هذه الفترة التي بدأت فيها بوادر النهضة تشع من مختلف الربوع.

وقد لاحظنا أن الشعر يحتفي بكل صحيفة تخرج إلى عالم الوجود، منبرا للاصلاح، ووسيلة إلى الثقافة، وأداة لحماية الدين واللغة، فإذا جريدة لسان الدين (3) تنتشل الأمة وتحييها، وتدعوها إلى النهوض (4). وإذا مهمة المنتقد (5) عند الهادي السنوسي حماية اللغة العربية، اعتمادا على نهج الحقيقة، واتكالا على شباب الأمة الناضج بالأمل، المفعم

1 - انظر : إليك أيها الرجل العظيم ... ج/وادي ميزاب، س 1، ع 09، 20 جمادى الاولى 1345هـ 26/11/26، ص03

2 - ديوان أبي اليقظان ، ج 1، ط 1، 1350هـ المطبعة العربية في الجزائر، ص91/90.

3 - جريدة دينية سياسية اخبارية اسبوعية، صدرت في أول جانفي 1923، ظهر منها 12 عددا.

4 - انظر أحمد بن العابد العقبي، في الاشادة بلسان الدين، لسان الدين، ع 5، 23/1/20، ص 01.

5 - اسبوعية ظهرت بقسنطينة في (25/7/2) خطتها : الاصلاح الديني، ظهر منها 18 عددا .

بالحيوية، والمتسلح بسلاح الدين والعلم (1). وإذا هي «تحمل فكرة الاصلاح الديني بتنزيه الاسلام عما أحدثه فيه المبتدعون وحرفه الجاهلون» (2).

وسقطت في الميدان، وإذا جريدة "الشهاب" (3) استمرار لها، وتأكيد لمسيرتها :

إنما نحن نقتفي أثر المنـــــــتقد الحر تحت هذا "الشهاب" (4).

وتعتبر (وادي ميزاب) (5) عند مفدي زكرياء وسيلة لحفظ الدين والفضيلة، ونشر العلم والمعرفة، وأداة للدعوة إلى الاخاء والصدق. ومنبرا لفضح النفاق، وتعرية مكائد الاستعمار وأذنابه (6).

ولما أقدم الاستعمار على وأد هذا الصوت التحرري، المنادي بالاصلاح، كتب الشاعر أبو اليقظان – باعتباره المسؤول عن هذه الصحيفة – قصيدته «وادي ميزاب المقيد يتكلم»، راح من خلالها يؤكد أهمية هذه الصحيفة في خدمة الدين والعلم، وتزكية الأخلاق، ومحاربة أنواع الفساد، ومقاومة مختلف الأضاليل .

حياة لها الاخلاص والعلم والغنى	أساس ودين الله من حولها ستر
دعوت إلى العلم الصحيح بقوة	وتزكية الأخلاق كي يشمل الطهر
وحللت أسباب الفساد لتتقى	وشخصت أصناف العلاج لها سر
وقاومت أنواع الضلال بعزمة	حديدية تخشى صلابتها الصخر
وكافحت مكروب الجمود المميت إذ	به عالم الاسلام طوقه الشر
وذدت عن الدين الحنيف عن الحمى	عن القوم لايثني عزيمتي الذعر (7)

وحين بدلت جريدة الشهاب ثوبها إلى مجلة، نوه الشعراء بدورها شهبا على رؤوس الشياطين، ومنارات ساطعة تهدي الضالين وترشد الحائرين، فقال العقبي بأسلوبه المباشر والحاد في الوقت نفسه :

1 – انظر قصيدة له في : المنتقد ، س 1، ع 1، 11 ذي الحجة 1343هـ ، 1925/7/2 ، ص 02.
2 – ابن باديس ، الشهاب ، ج 1، مج 11 ، محرم 1345هـ ، افريل 1935.
3 – ظهرت في قسنطينة ، برز العدد الأول منها في (25 ربيع الثاني 1344هـ)25/11/12، مرة في كل أسبوع، ثم مرتين ، ثم صارت مجلة شهرية ، واستمرت إلى غاية 1939.
4 – محمد العيد ، تحية الشهاب للشباب، 1926 ، الديوان ص 88/87.
5 – جريدة وطنية اسلامية، لسان حال الفكر الاسلامي عموما والجزائري خصوصا، برز العدد الأول منها في 20/10/1 وصدر منها (119 عددا).
6 – انظر مصرع الفضيلة ، وادي ميزاب ، ع 62، 28 جمادي الثانية 1346هـ ، 27/12/23 ، ص 03.
7 – انظر الديوان ، ص 103.

شهاب على رأس الشياطين ينقضي يضيق عليهم دونه الطول والعرض

ونـــور مبـــين مرسل لهدايـــــة سيـــعرفه بعض وينـــكره بعض

لا وزر ينجيـــهم من عذابــــــه وليـــس لهم عنه سمـــاء ولا أرض (1)

والقصيدة التي اكتفينا منها بهذه الأبيات تنطلق من عاطفتين متباينتين ،

فمحمد العيد ينظر إلى دور الجريدة الاصلاحي دون أن يتعداه إلى الدور الثوري؛ استنهاضا للهمم، وتوعية للشعب من أجل افتكاك الحق المغتصب، فيقول عن جريدة السنة :

ولاصبـح إلا سـنـة نبـويـــة فمحص بها الآراء واجل المقاصدا

وحولك اسياف لـهـا وأسـنـة تقارع عنها المحدثـات الزوائدا

رجـالات اخـلاص لها ومبـرة بهـا وذوو عزم يدك الشدائـدا

يريدون وجه الله فيما تسننوا به لا يريدون الرشى والفوائـدا

وما الناس إلاّ كالنقود فزنـهم بنياتهم إن كنت للناس ناقدا ... (2)

إن الدور الذي توخاه محمد العيد هو دور اصلاحي يقارع البدع والخرافات، وينشر لواء السنة المطهرة، ويزكي النفوس، ويطهر الأخلاق.

وقد تجبّر الاستعمار مع هذه الصحافة، ووأدها في المهد، وهددها دوما بالمصادرة والاغلاق، وكم الأفواه، إلا أن تسبح بحمده وتبتعد عن أساليب الاثارة والحض على النهضة.

وقد عبر الشعر عن مختلف تلك المضايقات التي تصدر من فئة الجمود والتحجر (3)، أو من الاستعمار نفسه، مستنكرا هذا الواقع الأليم الذي تفتح فيه الأبواب للصحف الدخيلة، وتمنع فيه الصحف الناطقة بلغة الذكر الحكيم، والمنضوية تحت لواء الحركة الاصلاحية. (4)

1 - انظر القصيدة في الاصلاح ، س 3، ع 12، 8 رمضان 1348هـ 1930/02/01، ص 03.

2 - م. ن. ص 97.

3 - انظر أبياتا لمفدي زكرياء ، في مصرع الفضيلة ، ج وادي ميزاب ، ع 62، 1927/12/23، ص 03.

4 - انظر : أبا اليقظان ، نكبة الجزائر المسلمة في صحافتها الحرة (1929)، الديوان ص 156/154.

أبا اليقظان، هذي الجزائر، الشهاب، ج 9، مج 10، 1934/8/12، ص 412.

مفدي ، الله راض، المغرب ، ع 10، 1930/7/29 ... إلخ.

ولكن التشاؤم لم يجد سبيله إلى النفوس لأن رجال الاصلاح آمنوا «بجدوى الصحافة في ايقاظ الأمة ودورها الفعال في بث الوعي بين صفوفها، لذلك لم يستسلموا قط لهذه المعاملة القاسية، فقابلوا جبروت المستعمر وتعسفه بالحكمة وضبط النفس حينا، وبالحيلة والمناورة حينا آخر، فما إن تصادر السلطة جريدة عربية حتى يسارعوا إلى اصدارها بطريقة أخرى، فقد يكون الاسم مختلفا ولكن المسمى واحد، يديرها المدير الملاحق نفسه، والأسرة المنكوبة عينها، بل ولربما عادت بلهجة أشد وأقسى. » (1)

ولم تذهب تلك الجهود هدرا، فقد نمت بذورها في القلوب، وتغلغلت في الصدور، وانشقت عن شباب ناهض، مؤمن بالفعالية الثقافية، معتز بأصالته، لا يعرف الانهزام إلى عقله سبيلا .

4 - <u>الكتاب</u> : لم يجهل الشعراء دور الكتاب في نشر الثقافة، وبث المعرفة، وصقل الأذهان، فهو أعمق أثرا من الصحيفة، وأكثرها عمرا، وأدومها استفادة.

والكتاب بدر يشع المعرفة، ويحي مآثر التاريخ، ويسمو بالذوق إلى عالم الفن والالهام، ويستشرف بالنشئ آفاق المستقبل.

ولم تستطع الجزائر - تحت الحكم الاستعماري - مواكبة الشعوب في مجال التأليف والطبع والنشر، نظرا للعراقيل، وأساليب التضييق، ونقص الوسائل الكفيلة بتحقيق الغرض.

ورغم ذلك فإن العزائم لم تلن، والارادات لم تهن، وكان المثقف الجزائري مع التاريخ فطبع بعض الكتب الأدبية والتاريخية في ظل ظروف صعبة، وكان الشعر في الانتظار، اشادة وتنويها وتقديرا للمجهودات، وحثا على مواصلة المسيرة.

ومن أوائل ما طبع من انتاج شعري نجد كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر بجزءيه، لمحمد الهادي السنوسي (2)، والذي يعتبر أول كتاب يجمع قصائد شعرية لجزائريين تتفاوت قيمتها بين النضج والضعف، ولكنها تنبئ عن نهضة شعرية مرتقبة في الجزائر.

---

1 - د. ناصر ، الصحف العربية الجزائرية ... ص 16/15.

2 - طبع الجزء الأول منه في تونس ، في سنة 1926، ثم طبع هناك أيضا الجزء الثاني في سنة 1927.

وقد نوه محمد العيد بهذا المجهود المبارك واعتبره خطوة ستتلوها خطوات في درب التأليف والنشر، فيقول مخاطبا المؤلف :

عجب القوم من صنيعك لما   جئتهم بالكتاب غضا طريا
جئتهم بالكتاب يحوي قريضا   محكم السبك متقنا عربيا
من معان مثل المرايا وضوحا   ومبان مثل الصبايا حليا
حيث لا يسمع الألباء إلا   منطقا صائبا ولحنا خفيا (1)

ورغم الطابع التقريري للقصيدة، إلا أن عاطفة الشاعر جياشة، وانفعاله صادق بمثل هذا الانتصار الثقافي في ظل الظروف العصيبة.

وحين طبع أبو اليقظان ديوانه الشعري (سنة 1931)، والذي يعتبر أول ديوان يطبع في الجزائر في بداية النهضة الثقافية، انكب عليه الشعراء تنويها وتقريظا (2).

وكانت قصيدة مفدي زكرياء من أبرز ما قيل فيه من شعر؛ رهافة حس، ونبل عاطفة، وصدق انفعال، فإذا الديوان في مكانة شعر شوقي، وإذا هو إلى الاستعمار بمثابة عصا موسى أمام فرعون وسحرته، وهي صورة رائعة مقتبسة من التاريخ، ذات معنى قريب من الذهن، متداول عند الجميع :

وروح أرسلت في كـل بيت منه شوقيا
عصى موسى، فشل فرعو   ن عنها والأفاعيا
قواف ذكرتنا المـلـك والعصر الرشيديا
جهاد للعلى أرضى   به الدين الحنيفيا

فالشاعر بحق مجاهد بقلمه في سبيل الدين والوطن والشعب (3).

وقد ارتبط تنويه الشعراء ببعض الكتب الأخرى بالحنين إلى المجد الاسلامي، والأمل

1 – محمد العيد ، هذه خطوة ، ج الشهاب ، س 2، ع 86 ، 27 شعبان 45، 27/3/3 ، ص 20/19.
2 – انظر قصائد لمفدي زكرياء ، علي بن صالح، أحمد بن الحاج يحي ، حم بن محمد بن الحاج النوري، في جريدة النور، اعداد : 18، 19، 20، 24، 28، 34،، (لسنة 1932).
3 – مفدي زكرياء ، ج النور، س 1، ع 18، 10 رمضان 1350هـ 32/1/19، ص 03.

في استرجاعه ليكون نبراسا لنا في حاضرنا، ونجسده إلى سلوك عملي في واقعنا، وقد ظهر مثل هذا الربط في الاشادة بـ (كتاب الجزائر) (1) لأحمد توفيق المدني (2).

فالشعر يستغل فرصة الاشادة بالكتاب لينطلق في سماء المعاناة اليومية في الجزائر، باعثا النخوة العربية إلى النفوس، مستنهضا تلك الهمم، معبئا الطاقات للغد المنشود.

وكان تقريظ محمد العيد لكتاب المدني «محمد عثمان باشا» خير دليل على هذا المنحى، ذلك أن الشاعر كان يدرك أن العثمانين - بالرغم من نظرتهم الجامدة للاسلام، وسياسة التتريك التي أضرت بالمجتمع وبالثقافة وباللغة العربية - كانوا غصة في حلق الصليبية الطامعة في بلاد الاسلام، حين طردوها من بلاد المغرب، وفرضوا عليها الجزية وهي صاغرة، لذلك طفت على قصيدته نغمة التحدي ، وصولة الشجاعة، ونبرة الاعتداد بالأمجاد، ورغم ما يشيع على الأبيات أحيانا من نغمة الحزن، ولوعة التحسر، إلا أن الشاعر متفائل ببوادر الأمل التي بدأت تظهر في سماء الجزائر، مجسدة في هذه النخبة المثقفة التي تعمل جاهدة على استرداد المجد الضائع (3).

إن الشاعر رغم هدوئه المعروف، ورزانته الموسوم بها، إلا أنه في سورة التحدي، وفي محراب التاريخ يبرز معتدا بماضيه، معتزا بأمجاده، لا يخشى في الله لومة لائم.

ولم يكن اهتمام الشعراء منصبا على كتب بعينها، بل مع كل بارقة أمل، وأوراق تسود بالحرف العربي، فتنزل ضربة قاصمة على عروش الطرقية وكهنوتها (4). أو وابل مطر على حديقة الأدب فتنعشها وتبعث الحياة والنماء فيها (5).

---

1 - طبع في سنة 1932 ، بالمطبعة العربية الجزائر العاصمة.

2 - مفدي زكرياء ، اقرأ كتابك ، ج النور ، ع 28، 28 ذق 1350هـ ، 1932/4/5ص 03.

3 - انظر القصيدة في البصائر، ع 78، 5 ج2 ، 1356هـ ، ص 03.
وانظر ما كتبه ابن باديس في «ثمار العقول والمطابع» عن كتاب «محمد عثمان باشا» ، الشهاب ج 7، مج 13 رجب 1356هـ ، سبتمبر 1937.

4 - انظر مثلا - الاشادة بكتاب : رسالة الشرك ومظاهره ، للشيخ مبارك الميلي :
- محمد العيد ، الديوان ، ص 140 وما بعدها.
- أحمد سحنون ، الديوان ، ص 283.
- محمد بن بسكر، نور القلب والبصر، البصائر ع 95، 1938/1/14، ص 08.

5 - انظر في الاشادة بكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي، زهير الزاهري : الايمان بالقومية، الشهاب ، ع 1، مج 7، فيفري 1931 ، ص 30.
- الاشادة بكتاب (نهضة الأدب) لابن أبي شنب ، محمد العيد ، الاصلاح ، ع 13، 1930/2/27.
- الاشادة بكتاب (ذكرى ابن أبي شنب) لعبد الرحمان الجيلالي ، محمد العيد ، الديوان ، ص 452.
- الاشادة بمسرحية «المولد» لعبد الرحمان الجيلالي ، محمد العيد ، الديوان ، ص 405/404.
- الاشادة بكتاب : محمد عثمان باشا ، لأحمد توفيق المدني، محمد العيد ، البصائر ، ع 78، 37/8/13.
- الاشادة بكتاب الذهب الخالص ، لابراهيم اطفيش، أبو اليقظان ، الديوان ص 99/98.
- الاشادة بكتاب أدباء التحصيل لمجد الصالح الصديق ، محمد العيد، البصائر ، ع 189، 1952/5/12 ، الديوان ص 407/406.
- الاشادة بكتاب مقاصد القرآن، لمجد الصالح الصديق ، أبا اليقظان ، إلى مقاصد القرآن، الديوان ، ج 2، ص 67/66.

لقد كان الشعر بالمرصاد، احتفاء بميلاد كتاب جديد، وتنويها بجهود مؤلف جدير بالاشادة، يضيف إلى حصن الثقافة في الجزائر قطعة من قلبه ودمه، تتلقفها العقول المقيدة بسلاسل الطرقية والجمود، والمقموعة بأساليب القهر والتنكيل من الاستعمار الفرنسي. فإذا الكتاب الجديد قطرة ماء تبل الصدى، ونور يشع في دياجير الليل البهيم، وأساس من أسس النهضة الثقافية المنشودة.

ولا يتسع المجال للحديث عن كل القصائد والمقطوعات التي قيلت في هذا المضمار، والتي لم تكن قليلة أو شبه نادرة كما يذهب إلى ذلك أحد الباحثين (1).

---

1 - ينظر : سعيد سلام ، أثر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الأدبية في الجزائر، رسالة ماجستير (مخطوطة) ، جامعة عين شمس، 1979، ص 165.

5 - الدعوة إلى تعليم الناشئة وتربيتها

لقد عانى النشئ الجزائري نفس الحرمان الذي عاناه المجتمع الجزائري ككل، فكان فريسة هشة للجهل، والفقر، والمرض، وتقلب في أحضان هذا الجو الاستعماري الموبوء، فلم تفتح في وجهه دور العلم، ولم تشرع أمامه أبواب الحياة الحرة، حتى لايتحول إلى علقة في رقبة المستعمر، تقض مضجعه.

«وهكذا فتح الطفل الجزائري عينيه في ظلمات البيوت القصديرية، وشحت عليه «الأم الحنون» ببصيص من نور المعرفة، فعرف آلام الجوع رضيعا وسعت به قدمه طفلا في تسكع وضياع بحثا عن قطعة خبز يسد بها جوعته، وركب لها المهن الحقيرة فطأطأ الرأس ماسحا للأحذية، وأحنى الظهر رافعا للأثقال، واضطرته الحاجة إلى الانحراف الخلقي فنشأ سيء التربية مهمل الرعاية». (1)

وكان على الحركة الاصلاحية أن تهتم بهذا القطاع الحيوي تهذيبا وتربية، وتوجيها وتعليما، فعليه تعقد الآمال، وفي تربته تزرع بذرة الاصلاح لتكون شجرة يانعة في مستقبل النهضة الجزائرية، خاصة وأن الشباب قد انقسم إلى طائفتين : طائفة متمسكة بأهداب دينها ومقوماتها، وطائفة مشرئبة بأعناقها نحو الثقافة الغربية، متنكرة لمقومات أمتها الدينية والقومية.

وكان التركيز الاصلاحي على الطائفة الأولى رعاية وتعليما، مع امكانية اكتساب الطائفة الثانية القليلة عددا، والمحصورة مجالا.

وقد رصدت الحركة الاصلاحية مدارس وصحفا وجهودا معتبرة للعناية بالناشئة الجزائرية إدراكا منها بأن هذه الطائفة هي أمل المستقبل ، وعدته، خاصة وأن أعوادها لم تجف على التعصب الديني أو الطرقي. (2) مما يسهل عملية التوجيه في الاطار المرسوم، وقد شرح الابراهيمي مهام الحركة الاصلاحية في هذا الشأن في قوله : إنها كانت تعمل على «صرف القوة كلها وتوجيه الجهود متضافرة إلى التعليم المثمر وتكوين طائفة جديدة منسجمة التعليم، مطبوعة بالطابع الاصلاحي علما وعملا، مسلحة بالأدلة مدربة على أساليب الدعوة الاسلامية والخطابة العربية، حتى إذا كثر سواد هذه الطائفة وكان منها الخطيب ومنها الكاتب ومنها الشاعر ومنها الواعظ ومنها الداعي المتجول استخدمت في الحملة على الباطل والبدع على ثقة بالفوز» (3)

1 - د. ناصر ، المقالة الصحفية . م 1، ص 267.
2 - انظر : م. ن. ص 271.
3 - سجل مؤتمر جمعية العلماء ، ص 50 .

وكان التعليم المكتبي أول مركز للرعاية، يهدف إلى ربط الصلة بين الجيل الحاضر وسلفه، ويعقد علاقة ود مع اللغة العربية لسانًا للقرآن وللثقافة الاسلامية.

وقد أعطت جمعية العلماء وقبلها جهود الحركة الاصلاحية جزءا كبيرا من اهتمامها إلى تلقين الناشئة القرآن الكريم، هادفة من وراء ذلك إلى أن «تنشئ من أبناء الأمة جيلا قرآنيا يتقن حفظ القرآن الكريم، ويحسن فهمه والعمل به ويتخلق بأخلاقه ويتربى على هديه، ثم ينشر بواسطته دين الله في أرض الله» (1)

ثم توجه الناشئة إلى مدارس التعليم العربي التي ارتبطت فيها التربية بالتعليم، لأن التعليم وحده غير كاف، ما لم يتوج صاحبه بتربية اسلامية تنهض بنفسه، وترتقي بها في سلم الأخلاق.

وكان «الغرض من التعليم العربي هو أن يكون في الجزائر وسطا مثقفا لسانا وفكرا وروحا بالثقافة الاسلامية العربية» (2)، وهووسط يمكن أن يخلق في الجزائر:

« أقلاما تجول في مختلف الميادين

ألسنا تتفجر عن ينابيع الحكمة

شبابا يعتز بلغته

عامة قادرة على التمييز بين الاسلام والخرافة، وبين الحق والباطل» (3)

وهكذا نرى أن الحركة الاصلاحية التي ظهرت بعد الحرب الكونية قد وجهت اهتمامها نحو التعليم «تخلق بواسطته جيلا متفتحا مؤمنا برسالته في بعث الشخصية العربية الاسلامية الجزائرية» (4)

وفي الميدان الشعري، نحس منذ البداية أن النغمة التفاؤلية رغم ما يشوبها من كدر، ورنة أسى، تظل هي المسيطرة على روح الشعر، فالشاعر كان يدرك أكثر من غيره مآسي الناشئة في ظل وضع استعماري كريه، وأمية متفشية، وفقر مدقع، لكنه مع ذلك يرفع راية التوجيه والدعوة إلى اكتساب العلم والاعتصام بالتآخي، والتمسك بكتاب

---

1 – م. س، ص 66.

2، 3 – محمد بن العابد الجيلالي ، سجل مؤتمر الجمعية ، ص 114.

4 – د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 2، ص 11.

الله وسنة رسوله؛ مقوّمين أساسيين من مقومات الشخصية الوطنية المتصارعة مع الفكر الاندماجي والتغريبي (1).

وكان التركيز في هذه الفترة العشرينية على تثقيف النشئ وتزويده بسبل العلم، لأن الشعراء أدركوا أهمية العلم في تنوير البصائر، ودفع عجلة النهضة قدما نحو التطلع إلى افاق المستقبل، خاصة وأن الجهل قد عشش في أذهان نسبة كبيرة من الجزائريين. ونجد شاعرا مثل حمود رمضان يدعو في سنة 1927 شبابنا إلى اكتساب العلوم، ونبذ الجهل، ويربط بين العلم والتمسك بالدين، لأن الفترة كانت تضطرم بمختلف الصراعات الفكرية التي تعمل جاهدة على تفريغ الشباب من الشحنة الروحية، يقول الشاعر في أسلوب خطابي وفي أبيات تتصدرها صيغ الأمر :

فخذ العلوم إلى الحياة سبيلها   فالعلم سيف من عنى يفديك

وتمسكي بالدين لاتزري به   فالدين من نير العباد يقيك

وتعلمي من كل علم لبّه   فالجهل داء بالردى يسقيك (2).

ثم يدعوها إلى التقدم، ونبذ الجمود والتحجر، واسترجاع مافات من مجد الاسلام ومفاخره، اعتمادا على وسائل العلم والأخلاق والدين.

وتغيرت نبرة الخطاب لدى حمود رمضان بعد ذلك، واكتسبت قوة واصرارا في الدعوة إلى النهضة الشبانية بعد طول أسر ومعاناة (3)، وفي الدعوة إلى طلب العز والحياة الكريمة لأن الحر بمثابة الطير في الفضاء لا يحد من انطلاقته شيء (4).

ولا يرتقي محمد العيد إلى مثل هذه النبرة الحماسية الحمودية في ذلك الوقت، وكأن حماسة حمود أكثر اتقادا واشتعالا من حماسة محمد العيد، تبعا لإختلاف الظروف بينهما، وكذلك اختلاف المزاج وربما السن أيضا، فالعيد في خطابه إلى الطلبة (1928) نلمس فيه ذلك الهدوء المتزن المعروف به، في دعوة طلابةٌ إلى التمسك بالكتاب والسنة، والتعلق بالنهضة، وبعث الحياة، فيقول :

---

1 – انظر محمد العيد ، تحية الشهاب للشباب ، (1926) الديوان ، ص 88.

2 – ج الشهاب ، ع 66، 4 جمادى الاولى 1345هـ ، 1926/11/7 ، ص 03.

3 – انظر : نغمة الشباب ، وادي ميزاب ، ع 83، 27 ذي القعدة 1346هـ ، 1928/5/18 ، ص 03.

4 – انظر : اطلبوا العز وعيشوا كرماء، وادي ميزاب ، ع 92، 1 صفر 1347هـ ، 1928/7/21 ، ص 03.

يا معشر الطلاب هل من آخذ   بالذكر أو متمسك بعصامه
فتشرفوا بالأخذ من آدابه   وتعرفوا بحلاله وحرامه ..
. . . . .
يامعشر الطلاب هل من ناهض   بالشعب حر حافظ لذمامه
أو باعث في الشعب روح ابايه   منكم فموت الشعب في استسلامه ..
. . . . .
لاتهملوا هذا اللسان ففقدكم   في فقده ودوامكم بدوامه (1).

ورغم الطابع المباشر للأبيات إلا أنها تنم عن موقف معين من الناشئة العربية، تذكيرا لها بمقوماتها الأساسية، وحثا لها على التمسك بها، وتنوع الصيغ بين النداء والأمر والنهي كفيل بإثارة رد فعل لدى المتلقي لينزع إلى العمل بحثا عن سنن النهضة.

وكانت فترة الثلاثينيات وما تلاها فترة تحريض الأمة على العمل الجماعي، انشاء للدارس، وتجهيزا لها، وحثا على تنشئة جيل اسلامي متعلم، يكون بمثابة الشعاع الذي ينطلق في السماء الاستعمارية المظلمة، فينيرها، ويطرد جحافل ظلامها.

ويتخذ الموقف من كل ذلك فكرتين أساسيتين :

- اشادة بدور المواطنين في التعاون الجماعي على بناء المدارس ودور العلم.

- تنويه بجهود المدارس تعليما وتربية للناشئة. (2)

وأغلب القصائد لا تخرج عن اطار الاشادة بالأشبال التي تتعلم في المدارس، والتي ستتحول إلى ضراغمة يدكون قلاع الباغي (3). وتعقد مقارنة بين الشباب الناهض الذي تعلق عليه الحركة الاصلاحية أمالها، والشباب المائع المغتر بالألقاب، العاكف على مذاهب السوء (4).

وفي هذه الغمرة لم ينس الشعراء أهمية تكوين شخصية التلميذ على مستوى البيت والمدرسة والمجتمع، تزويدا له بجملة من الفضائل، وغرسا للأخلاق الفاضلة في سلوكه ومعاملاته .

1 - محمد العيد ، الديوان ، ص 91/90.
2 - انظر مثلا محمد العيد في افتتاح دار الحديث (الديوان ص 79 - 82) ودعاك الأمل (ص 233)، أحمد سحنون ، بوركت يا دار (الديوان ص28، 29 ... إلخ.)
3 - انظر محمد العيد ، فتح جديد ، الديوان ، ص 181 - 182.
4 - انظر محمد العيد ، يا شباب ، الديوان ، ص 259.

وقد تفطن الشاعر ابن رحمون إلى أهمية البيت في تربية الناشئة، فالبيت أول معهد يتلقى فيه الطفل التربية والتوجيه، ولا أهمية لتربية المدرسة إذا لم تعضدها تربية أسرية، حتى لا تصطدم تربية المدرسة بعادات عائلية شاذة، أو أخلاق غير قويمة، فينشأ الطفل ممزقا بين مثالية المدرسة، وواقعية البيت الشاذة، بين تربية منهجية، وسلوك شاذ، يقول الشاعر في أسلوب تقريري مباشر، يؤكد حقائق موضوعية :

زودوا النشئ من حميد سجايـــا كم ومن حسن قولـكم خير زاد

عـودوهـم على الكمال تـروهم مثل الصدق والهدى والسداد

فلقد يأخذ البنـون من الأســـوة ما يأخـذون بالميـــلاد

هـل ترون الدروس تُجـدي إذا لم يك طلابهـا ذوي استعـداد

يهدم البيت الدروس ما يشيده المكـــتب في الناشئين من ارشـاد

كيف يجدي نصح المعلم والعـنـا دات في العـائلات بالمرصـاد

وإذا البيت لم تصنعه يد الأخـــلاق ألقى بنسـله في واد (1)

إن هذه النصائح والتوجيهات تسيطر عليها النظرة الدينية بدون شك، وقد اتخذت طابع الأسلوب التقريري من نثرية ونزعة عقلية.

والشاعر في رأينا ينطلق من مقولة أن الطفل عرضة لتلقي الاستقامة والسلوك الحميد كما هو عرضة إلى الاعوجاج، حسب نوعية التربية التي يتلقاها في أسرته، والرسول (ص) يقول في هذا المعنى «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء (2) هل تحسون فيها من جدعاء». (3)

وقد ركز الشعراء على ما يمكن أن نطلق عليه شعر الأخلاق والتوجيه الذي يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، ويرتكز عادة على جملة من المواعظ والحكم والأمثال يقتدي بها الناشئة في حياتهم،والشاعر المسلم من طبعه أنه يمجد الأخلاق الاسلامية، ويشن حملة على ما ترسب فيها من سلوكات قبيحة لاتمت لها بصلة، بل هي رواسب استعمارية متعفنة، وأدران جاهلية موروثة.

1 - ابن رحمون ، أسوة الناشئين ، الديوان ، ص 88 - 89.

2 - جمعاء ، مجتمعة الأعضاء ، سليمة من كل نقص، لا توجد فيها جدعاء وهي مقطوعة الأذن ، ومعناه أن البهيمة تلد بهيمة ، ولكن يد الانسان هي التي تجدعها .

3 - ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، وبهامشه صحيح مسلم بشروح النووي للقسطلاني، ج 10، ط 6، 1305هـ، كتاب القدر ، ص 88.

وأغلب هذه التوجيهات تنطلق من نظرة اسلامية، لأن الشاعر يضع في فكره الخلق الاسلامي كمثل أعلى ، ثم ينسج نصائحه على منواله، مما يطبع الأبيات بطابع التقريرية الجافة التي تطغى عليها النثرية، وطابع النزعة العقلية، نظرا لاهتمام الشاعر بالفكرة وطريقة توصيلها دون عناية بالجانب الفني، مما يسقط جمالية التعبير.

ويمكن الاستشهاد بجملة من هذه التوجيهات التي اتسمت بالتركيز والاختصار حتى يسهل حفظها، وتذكرها، والاستفادة بها في الحياة العملية، يقول بعض الشعراء على سبيل المثال لا الحصر، موجهين خطاباتهم إلى الناشئة الجزائرية :

أ - اجعل العلم دليلا وهـــدى | إنما الجهل دجى والعلم هــاد
واقرأ القرآن واعرف هديه | إنــه نهج فـــلاح وســـداد
(خالق النــاس بخلق حسن) | فجمال الخلق عنوان الرشــاد
خلطة الأشــرار داء فابتعد | من أذاها وابق منها في حياد
واجتهد تدرك أمانيك فمــا | تدرك الآمـــال إلا بالاجتهــاد
وليكن حاديك تحرير الحمى | إن تحرير الحمى للحرحاد (1)

ب - نتمنى بالدين أن تتحلـــى | من تحلى بدينــه لا يعــاب
إنما الدين لليوث عريـــن | لا تغرنك بالعـواء الذئـــاب
إنما الدين في المبادئ رأس | المجد منها وغيره أذنـــاب (2)

جـ - يا طالب العلم اجتهـــد | لحصـــوله لا تلـــــعب
واطو الليالي باحـــثـــا | فيمـــا يفيدك واتعـــب (3)

د - لا تصحب الأشــرار بـــل | فاهجـــرهم وتجنـــــب
واختصر من الأصحــاب إن | صاحبـــت كل مهـــذب. (4)

---

1 - أحمد سحنون ، إلى التلميذ ، البصائر ، س 2، ع 8 ، 47/9/26، ص 6 (الديوان ص 14 - 15).
2 - محمد العيد ، يا شباب ، البصائر، س 2، ع 11، 47/10/20 ، ص 7 (الديوان ص 260).
3 - 4 - أحمد سحنون ، واصل كفاحك ، الديوان ، ص 127/126.

وقال أحمد سحنون يخاطب المعلم بأسلوب يتضمن توجيهات تربوية له لتعليم الناشئة :

حطه بالاسلام من كل أذى   واحمه بالخلق من كل فساد

واهده بالعلم فالعلم سنى   ومن القرآن زوده بزاد

صفه للاسلام نبراس هدى   ومثالا من ذكاء واجتهاد. (1)

وبالموازنة مع هذه التوجيهات الدينية والأخلاقية، اهتم الشعراء بنظم الأناشيد، وخاصة مع بروز بعض الجمعيات الكشفية التي كانت تؤازر التعليم العربي الحر، فتربي الناشئة على الانضباط الاسلامي، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وغرس حب الوطن في نفوسهم. (2)

وأغلب الأناشيد المنظومة هي من النوع الذي يغرس روح الاعتداد بالدين، والذود عن حياض البلاد، وحب اللغة العربية، والتعلق بالأمجاد الاسلامية، وتكريس القيم في نفوسهم الناشئة، وامدادها بفيض من الأمل، واحساس بالتفاؤل في مستقبل زاهر.

ومضمونيا تتغنى هذه الأناشيد بمآثر العقيدة، وتاريخ أبطال الفتح الاسلامي، ومكارم الأجداد، وتنظيم العلاقات الأسرية والمجتمعية، وتنظيم سلوك الانسان في الحياة وفق منهج اسلامي.

واعتمد الشعراء الأوزان السهلة الخفيفة التي يسهل حفظها، وتترك لدى السامع أو القارئ رنة موسيقية عذبة ومحببة تتوافق مع رغبات الناشئة، وتتلاءم مع أذواقهم.

فالشاعر حمود رمضان على سبيل المثال في نشيده (وطني بالنفس تفدى) 1927، راح يركز على العلم، ومقاومة الجهل لاسترجاع المجد الاسلامي الزائل، فقال في المقطع السادس مثلا :

---

1 - أحمد سحنون ، إلى العلم ، البصائر ، س 2، ع 7، 47/9/19، ص 6 (الديوان ص 12).

2 - Voir Jean Déjeux, La poésie Algerienne de 1830 à nos jours, 2 éme edition, Paris, 1982, Page 46 - 48.

يـــا شبابا قد تسامـى — بالمعـــالي جديــــر

انصروا الشعب إلى م — وهو للجهل أسيــر

اطلبوا علما ومجــــدا — قاوموا كل الخطوب (1)

وفي المقطع الأخير ، يقول :

يا بني الأوطان جهــرا — انزعوا ثـوب القـدم

جددوا بالعلم عصــــرا — جاء مرفــوع العلـم

ابذلوا في السيو جهدا — أنتم خـيـر الأمـــم (2)

والأبيات على وزن (الرمل) الذي أكسبها خفة، وأعطاها نغمة موسيقية عذبة تستهوي أفئدة الشباب، وتجتذب نفوسهم.

ويركز محمد العيد في أناشيده على الطابع الديني الأخلاقي للشباب، داعيا اياهم إلى التحصن بالدين، والتحلي بالأخلاق، والتزود بالعلم، والاتصاف بالعزم، وسداد الرأي.

فيقول مثلا من نشيد «كشافة الرجاء» سنة 1936

إنا على ربنـــا اعتمدنـــا — إنا بتاريخنـــا اعتددنـــا

إنا على الناس قبل سدنا — وسيد النـــاس لا يســـاد

أخلاقنا الصدق والأمانــة — والرفق والحذق والفطانة

والعلم والحكم والرزانــة — والعزم والحزم والرشـــاد (3)

كما عمل على غرس الروح الاسلامية والوطنية في نفوس الناشئة من خلال نشيد الشباب (1937) (4) ونشيد (كشافة الاقبال) (5)، ونشيد (كشافة الصباح) (6)، الذي ينهيه بهذا المقطع :

---

1 – ينظر : محمد بن العابد الجلالي ، تقويم الأخلاق ، ص 98.
2 – م. ن. ص 99.
3 – البصائر، ع 35، 2 رجب 55هـ (36/9/18) ، ص 7، والشهاب ج6 ، مج 12، أوت / س، 1936، ص 288 (الديوان ص 567).
4 – الشهاب ج 10، مج 13، شوال 1356هـ ديسمبر 1937 ، ص 453/452، الديوان (ص 569/568)
5 – الشهاب ج 3، مج 13، ربيع الاول 1356هـ ، 37/5/2 ، ص 144/143، الديوان ص 570.
6 – الديوان ص 571 (الشهاب ج 1، مج 14، محرم 57هـ ، مارس 38، ص 35).
وانظر نشيد ابن رحمون «أنشودة الكشاف» الاصلاح ، س 20، ع 55، 47/7/11.

نحن أبناؤك الكرام البنوه   نحن فتياتك العظام الفتوة

قد أخذنا من قوة الله قوة   واعتصمنا بالله عز و جلا.

وقد وجد الشعراء في الاشادة بشخصيات القادة الفاتحين، والصحابة، أسلوبا لغرس بطولاتهم في نفوس الناشئة « يلهبون بها حماسة الشباب، ويدفعونهم إلى الأخذ بما في تلك الصور من قوة وشهامة » (1).

وكانت شخصية الرسول (ص) شخصية محورية يدور حولها الحديث كمحاولة من بعض الشعراء في تجذير مواقفها، وتثبيت سلوكها في نفوس النشئ الجديد، ابعادا لهم عن محاولات التغريب والفرنسة، وتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة.

إن هذه الشخصية ليست متجسدة في الناحية المادية فقط، بقدر ما هي متجسدة في أخلاقه العظيمة التي مدحه الله بها، ولذلك لم يجد الشاعر محمد العيد بدا من تحية الرسول (ص) تحية نابعة من هذا الجانب الروحي، في أنشودته الموجهة إلى الشباب (سنة 1938).

إن التعلق بالرسو   ل و دينه بي أليق

أنا مسلم أهوى الهدى   بسواه لا أتحقق

بخلال أحمد أرتدي   وبحبه أتمنطق (2)

إن هذه الأنشودة الحلوة، التي ساهم وزنها - مجزوء الكامل - على اعطائها طابعا خفيفا، وساعدها حرف القاف المضموم على الاثارة والتشويق، من شأنها أن تحدث رجة في نفوس الشباب، فتغدو هذه الأوصاف قدوة لهم في مسيرتهم، أسوة بالرسول (ص) في حياته وجهاده، وبطولاته في عصر عزت فيه البطولة، وتفشى الانهزام والتخاذل.

وأمام كل ذلك لانستغرب إذا سمعنا جيل الخمسينات يردد مع الشاعر :

كلنا كلنا جنود   تحت راية النبي

كلنا كلنا أسود   في عرين المغرب

نبتغي عز الوطن   والفدى له ثمن

لانبالي بالمحن   إن نفز بالمآرب (3).

1 - د. سعد الدين محمد الجيزاوي، العامل الديني في الشعر المصري الحديث، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، 1964، ص 298.

2 - محمد العيد ، أنشودة الوليد ، الديوان ، ص 166.

3 - محمد العيد ، نشيد مدرسي ، الديوان ، ص 576.

ومن خلال ما سبق يتجسد لنا موقف الشعراء من الناشئة، وهو موقف يتسم بتخوفهم من سقوطه في أذيال التبعية الفكرية، فكان لابد من ابعاده عن هذه الرواسب التغريبية، حتى ينشأ جيلا للمستقبل، وأداة دفاع عن العقيدة، ووسيلة ذود عن الشرف.

إن هذا الجيل المستقبلي سيجابه عدوا شرسا، مما يتطلب منحه الوعي الكافي، والحصانة الكاملة، وارادة التغيير، وروح التحدي، ونبل الاستقامة، وسلامة القصد ليكون بحق جيلا قرآنيا قادرا على التضحية في سبيل القيم، والدفاع عن الوطن لدرء الاحتلال، ومحاربة الطغاة المعتدين.

ونلمح من خلال الأناشيد السابقة أنها تتضمن عدة عناصر تشويقية من شأنها اضفاء متعة جمالية على المضمون الهادف ونجملها في :

- الأفكار النبيلة، والكلمات الحلوة ذات النغم الموسيقى المؤثر.

- تشويق الطفل في حب دينه ولغته وتاريخه.

- خلق مناخات أخلاقية مستمدة من التاريخ الاسلامي يتربى الطفل في أحضانها.

- اللجوء إلى العربية الفصحى السليمة والمبسطة، ونبذ الصيغ المعقدة، واللهجات المحلية، تحبيبا للطفل في لغته.

إن هذه العناية الفائقة بتربية النشئ وتعليمه قد أتت ثمارها يانعات، وتغيرت نظرة الشعراء إليه من طالب علم إلى داعي ثورة، ومن قابع أمام معلم إلى قابع خلف رشاش يدك قلاع الاستعمار، وهكذا نجد كلمات جديدة تتكرر في بعض القصائد ذات مضامين ثورية، كالعتاد والجهاد، وأسر الأعادي، والقوي الباسل، والغادي، وذخر البلاد ... إلخ.

ولنأخذ بعض الأبيات لأحمد سحنون لنتأكد من هذه النظرة، يقول الشاعر :

- النشئ كالجند يحمي بلاده أن تصابا

النشئ درع تقيه لدى الحروب حرابا (1)

---

1 - شبيبة البرج ، الديوان ، ص 137.

– كشاف يابن الطبيعة   وابن الحقول البديعة
كن للبلاد دليلا   كن في الجهاد طليعة.(1)
– هات من نشئ الحمى خير عتاد   وادخرهم لغد جند جهاد
هات نشئا صالحا يبني العلا   ويفك الضاد من أسر الأعادي
هاته نشئا قويا باسلا   إن دجا خطب يكن أول فاد (2)
– لك في كل حشى نبع وداد   يا رجاء الضاد يا ذخر البلاد
شعبك الموثق لم يبق له   من عتاد، فلتكن خير عتاد. (3)

إن أغلب هذه التعابير هي من مواليد الأربعينيات بعد أن أثمرت جهود الحركة الاصلاحية في الميدان العلمي، وبعد أن تكاثر عدد الوفود العلمية المتخرجة في المدارس العربية، وفي جامعات البلاد العربية، وأصبحت الأرض الجزائرية حبلى بالأحداث الجسام في انتظار اليوم الموعود الذي تغيرت بعده الأوضاع، وطلق الشباب مقاعد الدراسة ليعقد صلة الود والاخاء مع الثائرين في الجبال، ممتشقا سلاح المقاومة، ومتذرعا بالارادة والصبر، فإذا العلوم لاتجدي في وقت الحرب، وإذ الأولوية للغة الرصاص، وإذا الشاعر يخاطب النشئ المثقف :

خض في الجزائر ثورة حمراء   ودع المدارس والكتاب وراء
ثر غاضبا في وجه من سلب البلاد   حقوقها وأضاعها وأساء ... (4)

وهكذا تحول الشعر من نبرة الدعوة إلى العلم، إلى نبرة الدعوة إلى الثورة، ومقاومة المعتدي الغاشم لافتكاك الحق السليب.

ونخلص إلى القول إن الشعر الاصلاحي قد أكد من خلال ما سبق على «وجوب العناية بالجيل الصاعد، وتنشيئته تنشئة اسلامية صحيحة قوامها الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، لأن حبل النجاة من طوفان المسخ والتشويه الاستعماري بيده وحده، إذن فلتهيأله التربة الصالحة وليتعهد بالرعاية والسقي ليستطيع تحمل المسؤولية على أكمل وجه وأتمه.» (5)

1 – كشاف ، الديوان ، ص 16.
2 – إلى المعلم ، الديوان ، ص 12.
3 – إلى التلميذ ، الديوان ، ص 14.
4 – صالح خباشة ، قصيدة إليكم ، تنظر في : مؤيد صلاح ، الثورة في الأدب الجزائري ، مكتبة النهضة المصرية ، 1963، ص 82.
5 – د. ناصر ، المقالة الصحفية ، مج 1 ، ص 282.

على أن الشعر الذي عرض للموضوعات السابقة إذا كان قد أهمل نسبيا الجانب الجمالي، فإنه عرض لها بالتفصيل لأن مهمة الشاعر هي الدعوة والنهوض قبل العناية بالصياغة الفنية، ولذلك كثر الانتاج، وقل الشعر. وليس غرضنا الالمام كليا بما قيل ولكن همنا هو ضرب الأمثلة وعرض النماذج التي تسند غرضنا من البحث والاتجاه وموقف الشعراء مما سبق ذكره .

الفصل الثالث
القضايا الإجتماعية

1 - الموقف من البؤس
2 - الحملة على المفاسد الإجتماعية
3 - قضية المرأة

لم يعدم الإستعمار الفرنسي وسيلة من وسائله الجهنمية في تفقير الشعب الجزائري؛ استيلاء على موارد رزقه ، واستحواذا على أراضيه الزراعية الخصبة، وتمليكا لها إلى المعمرين الوافدين من كل حدب وصوب حالمين باقطاعيات واسعة، وأراض خصبة، ومياه متدفقة (1).

فكانت سياسة نزع الملكية من أصحابها وسيلة لاستيطان المعمرين ، وأسلوبا لطرد الجزائريين إلى الفيافي والقفار كما تبتعد الوحوش من الأماكن الآهلة على حد تعبير السفاح روفيغو (2).

وقد تم تسليط عدة قوانين جائرة على الشعب (3)، عملت متضافرة في اتجاه إقصائه عن أرضه، وتحويلها كّرها الى غيره، مما أضاع مصدر عيش الفلاح الجزائري ، ورمز بقائه، وتشبثه بأرض أجداده ، وحل محله الشقاء والحرمان، والتشرد والفقر (4).

واضطر الجزائري الذي سلبت منه أرضه أن يعمل أجيرا عند المعمرين « مهضوم الحقوق، ذليل الجانب، تقهره الحاجة، وتذله المسغبة ، وأصبحت حاله أشبه شيئ بحالة عبيد الأرض، في القرون الوسطى » (5). فتخبط في حياة الفاقة والحرمان، وتمرغ في أوحال الديون، وسوق الربا الذي روجه الإستعمار، و تحكم فيه اليهود ، فضاع ماتبقى من الأمل. وقد وصف محمد العيد هذا الواقع المؤلم حين قال يصف معاناة الفلاح الجزائري :

وتفشى الربا بسوقك حتى ... ليس عنه للكاسبين حياد

كم ممد به ليحمي أرضا ... لم تدم أرضه ولا الامداد

اثقلت ظهره الديون فبيعت ... أرضه معلنا عليها المزاد (6)

وفي الميدان التجاري لم يجد التاجر الجزائري مكانه وسط سيطرة يهودية مرابية، ووسط جو مشحون بالتنافس بين هؤلاء والمعمرين، مما ألقى بالجزائري بين طواحين لاترحم ، فكان عليه إما أن يتعرض الى الإفلاس ، وإما أن يتعامل مع المرابين ، واما أن يتقوقع على نفسه ويقلص من تجارته .

---

1 - انظر في مساحة الأراضي التي استولى عليها المعمرون، كتاب الجزائر، لأحمد توفيق المدني ، ص 70 .

2 - انظر : فرحات عباس ، ليل الإستعمار ، ص 77 .

3 - ومن هذه القوانين : قانون متعلق بعقد الملكية (مرسوم فاتح اكتوبر 1844) ، وقانون التجمع (مرسوم 1851) وقانون البحث في الملكية (مرسوم 1853) وغيرها .

4 - انظر فرحات عباس، م س . ص 103 / 104 .

5 - د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م2 ، ص 83 ، ولمزيد من التفصيل انظر فرحات عباس ، م س ، ص 115 .

6 - محمد العيد ، ومن العلم للمواطن تاج ، 1936، الديوان ، ص 21 .

وفي ميدان العمل يمكن ملاحظة الظواهر التالية التي كان خطرها واضحا في خلق أجواء من البطالة الحقيقية :

- تقلص ملاك الأرض ، وتضاؤلهم بصفة مدهشة .
- نقص الهياكل الصناعية ، التي بامكانها امتصاص الطاقات العمالية .
- اجتياح الأزمات الإقتصادية الجزائر ، وتحمل الأهالي آثارها السلبية (1)

إن هذه الأوضاع وغيرها (2) جعلت عددا كبيرا من الجزائريين يفكرون، في الهجرة إلى فرنسا بحثا عن موارد للرزق . لكن الإستعمار كان بالمرصاد ، اذ حد من هذه الهجرة، حتى يبقى الجزائري تحت رحمة المستعمر يستخدمه بأزهد الأجور التي لاتكاد تسد رمقه.

وقد اصطنعت فرنسا المبررات للحد من هذه الهجرة بدعوى أن الجزائريين يقومون بأعمال معادية لفرنسا، ويثيرون الشغب، وينشرون الفوضى، فأصدر شوطان وزير الداخلية الفرنسي قرارا في 8 أوت 1924 قيد فيه هجرة الجزائريين إلى فرنسا (3) .

وألغت السلطات الإستعمارية هذا القرار بعد الحادث المأساوي الذي ذهب ضحيته إثنى عشر عاملا جزائريا في باخرة سيدي فرج ، والتي اعتبرها الشاعر محمد العيد (باخرة الموت) (4) ، وعبر عن هذا الموقف أحسن تعبير، مصورا الحالة السيئة في الجزائر، منددا بالتشويه الذي ألصقته الدعاية الإستعمارية بسمعة الجزائري (5).

وفي قصيدته « أيها الرافعون القصور » تعداد لبعض مظاهر التفقير التي غرق فيها الجزائري ، فازداد بؤسه ، وتفشى جوعه، وبارت تجارته ، وتسلطت الديون على رقبته ، وانتشرت مظاهر البطالة .

---

1 - من ذلك أن سنوات 1920 - 1926 كانت شديدة على الجزائريين ، بلغت فيها المجاعة حدا لايوصف ، فتساقط الناس أحيانا موتى من الجوع ، وفرت نساء عن فلذات أكبادهن خشية الإملاق،ينظر في ذلك دراسات كثيرة .

2 - ينظر حول الحالة الإقتصادية مقال : أحمد بن عمر ، الحالة الإقتصادية في الجزائر ،جريدة المنار ع 4 ، 1951/05/21، ص 06 .

3 - ما أشبه اليوم بالبارحة ، اذ أن العنصرية الفرنسية مازالت تصدر القوانين للحد من هذه الهجرة ، وتعيش فرنسا ضجة في الأونة الأخيرة حول هذا الموضوع .

4 - الديوان ص 285 - 286 .

5 - ولأبي اليقظان موقف من تضييق الحكومة وخاصة بعد وقوع حادث السفينة الشراعية (أفريك) والتي كادت تتكرر فيها مأساة (باخرة الموت) ، انظر مقال : أين المفر ، وادي ميزاب ، ع 25 ، 1927/03/25 .

ب - يقول الشاعر :

فشا الجوع واشتد عسر المعاش — وعادت سنو يوسف الغابره
وعم الكساد عروض البلاد — فسائر صفقاتها خاسره
وود غريق الديون الخلاص — فعافته أمواجها الغامرة
متى تجد الشغل أيدي العباد — متى تنفق السلع البائره ؛
متى يستظل بظل النعيم — مساكين يصلون بالساهره ؛ (3)

****

ويمكن أن نجمل محاور هذا الفصل كالتالي :

1 - الموقف من البؤس

2 - الحملة على المفاسد الإجتماعية .

3 - قضية المرأة .

1 - الموقف من البؤس :

إن المعالجة الشعرية لقضايا الفقر والبؤس، يمكن تقسيمها إلى نوعين أو اسلوبين : المعالجة التقليدية والمعالجة الوجدانية .

أ - المعالجة التقليدية : لقد رفع الشعراء الإصلاحيون لواء المجاهدة لدفع هذا الظلم، والإنتصار لحق المسحوقين في أسلوب نلمس فيه النقمة على الأوضاع القائمة ، والدعوة إلى تغييرها . ولم يتجاوز بعضهم موقف المصلح الذي يستعطف الأغنياء حتى يجودوا بفضول أموالهم على الفقراء .

فالشاعر التقليدي المعالجة يعرض لقضايا الفقر والبؤس عرضا سطحيا في الغالب يقف موقف الملاحظ المتفرج على الأحداث ، ثم ينقلها دون أن تختلط بوجدانه، وبالعنصر الذاتي في التجربة الشعرية ، مما يؤثر على حرارتها وعلى صدق المعاناة . فكأن القضية

1 - الديوان ، ص 251/250 (1934).

عند الشاعر لاتمس وجوده الذاتي وكأنها ليست مشكلته ، بل مشكلة الآخرين فالشاعر محمد العيد أقدر من غيره على تصور هذا الموضوع بحيث أبان عن صور قاتمة برز من خلالها تشبعه بالقرآن الكريم الذي يحث على الإهتمام بالفقراء ، والإحسان إليهم ، ومواساة اليتامى ، ورعايتهم ، وتقديم يد العون للمحتاجين والبؤساء ، وتيسير أمورهم، وفتح مجالات الرزق امامهم .

إلا أن محمد العيد لايلتزم في قصائده موضوعا واحدا له علاقة بهذه القضايا (1) باستثناء قصائد قليلة جدا (2)، فيجعل قصيدته متعددة الموضوعات شأنه شأن الشعراء الإصلاحيين ، فاذاهي متشعبة ، يعرض فيها كل مايجول في خاطره من أفكار ومعان ، تبعا لنوع المناسبة ، ونوعية الجمهور .

فالشاعر الإصلاحي مثلا يستغل المناسبات الإحتفالية التي تحتشد فيها الجماهير لعرض أفكاره هادفا إلى « إثارة مشاعر الجماهير التي تستعذب مثل ذلك الشعر الذي يضرب على عدة أوتار ، ويعرض لكل قضايا الساعة عرضا موجزا بعيدا عن العمق والمعاناة والتأمل . » (3) كما يقول أحد النقاد في معرض حديثه عن الشعر الكلاسيكي .

وتبدو قصيدة « منظر تاعس ناعس » من أوضح القصائد في تبيان هذا الإتجاه عند محمد العيد، إذ آلمه منظر لأحد التعساء ، متكوما على الثرى غير بعيد عن منزل الشاعر، أهاجت هذه الصورة مواجده ، وسكبها عبرات ، وكلمات دامية فيها روح رومانسية أحيانا :

بـدا لعيني تاعـس ناعـس   على الثرى في الصبح بالي الثياب
جاث على الرجلين حاني الحشى   والظهر هاوي الجسم ذاوي الشباب
فهاج من حـزني ومـن لوعتـي   كما يهيج النـار عود الثقـاب
ورحت من شعر إلى عبـرة   والشعر والعبرة جهد المصـاب (4)

واذا كان الدكتور الركيبي يرى أن هذا الوصف وغيره في القصيدة « يدل على صدق وتعاطف ، وعلى حساسية قوية لما يكابده هذا الفتى الفقير » (5) فيبدولي أن هذا

---

1 ـ انظر مثلا قصائده في الديوان ، خيرية ، في ذمة التاريخ ، أيها الرافعون القصور ، في ظلال الخير ، دار الخيرية .
2 ـ انظر مثلا : منظر تاعس ناعس ، لسان حال البخيل .
3 ـ د. مفيد محمد قميحة ، الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة ، ببيروت ط1 ، 1981 ، ص 64 .
4 ـ الديوان ، ص 28 .
5 ـ د. الركيبي، الشاعر جلواح ، من التمرد الى الإنتحار ، م . و . ك . الجزائر ، 1986 ، ص 34 .

الوصف لا يرقى إلى هذا المستوى ، ذلك أنه كلام يكاد يكون عاديا ، أقرب إلى النثرية منه إلى الفن الشعري ، ولايساعد كثيرا على إثارة المتلقي .

واذا كان الشاعر قد حاول الإستعانة بالروح القصصية في التصوير والتي تسهل عملية نقل المشاهد المؤلمة، ومناظر البؤس والشقاء ، وتفسح المجال للشاعر في الإنطلاق وفي الإطالة والوصف ، فانه لم يستعملها كإطار فني يساعد على الإثارة ، بل وسيلة لتقريب الفكرة من ذهن المستمع، وتبسيطها الى فهمه .

إن الشاعر قد حاول الربط بين الجانب التقليدي والوجداني في هذه القصيدة ، ونلمح هذا الخلط خاصة في وصف الأغنياء وتأنيبهم على التفريط في مثل هذه الحالات المأساوية ، وهي نظرة الوجدانيين في سخطهم على الأثرياء ، وعطفهم على الفقراء ومشاركتهم لأحزانهم وأتراحهم .

يقول الشاعر :

هل أنت إلا بشر مثلنا ... أم أنت جن زال عنك الحجاب؟
لابل فقير لم تجد رحمة ... عند ذوي (الفيلات) ذات القباب
بطونهم ملأى وأكياسهم ... وأنت خاوي البطن خالي الوطاب
ونومهم طاب واحساسهم ... وأنت مرتاع بقفر يباب ..
كيف يطيب العيش في معشر ... شدوا عن المسكين فضل النصاب؟
كأنهم ليس لهم ذمة ... وليس فيهم مؤمن بالحساب
يا أيها المثرون هبوا إلى ... إسعاف أهل الفقر فالفقر ناب (1)

فالشاعر لايستكمل سخطه، بل ينتقل إلى الإستعطاف، والحث على البذل، وهو موقف متأثر بدوره كمصلح إجتماعي يحاول الوعظ والإرشاد . فهو ليس فيلسوفا يستبطن الأشياء ويتعمقها ، بقدر مايحاول أن يعرضها دون أن يندمج فيها .

---

1 ـ الديوان ، ص 30 (1930).

إن الإنسان لايمتلك صفة الإنسانية ، ولايتحصل على حق الأخوة الإسلامية إلا اذا عاش آلام الغير، وأحس مشاكلهم، وأرقه مصيرهم المعذب تحت ضربات الشقاء، وسياط الفقر، وتذكر قوله صلى الله عليه وسلم: «لايؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه مايحب لنفسه» (1)

أو قوله : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (2)

ويبدو لي أن أسلوب المقارنة السابق في الأبيات بين الفقراء من جهة والأغنياء من جهة ثانية مع مايظهر من متناقضات بين الطبقتين، رغم طابعه الوجداني المتعاطف، والناقم، فانه موقف عقلي منطقي قبل أن يكون موقفا عاطفيا، ولذلك فهو معالجة تقليدية (كلاسيكية)، تعطي لسلطان العقل والمنطق الأهمية الكبرى، رغم بذور الإتجاه الوجداني التي تطفو عليه أحيانا.

وفي فترة الثلاثينيات نجد شعرا كثيرا ينحو هذا المنحى الإجتماعي، يستخدم أساليب متعددة، للتخفيف من هذه الظاهرة ، ومن تلك الأساليب :

- <u>أسلوب الحث والتوجيه</u> : الذي تكثر فيه صيغ الأمر والنهي والدعاء، والإستفهام، والتحضيض، والتنبيه، فإذا الشعر جهوري غير هامس، يومئ ولايوحي، يصرح ولايلمح. وكل تلك الصيغ لاتخرج عن إطار الدعوة إلى البذل والعطاء ، والجود بفضول الأموال ، وصرفها على الفقراء، وقاية لهم من مهاوي الرذيلة ، والإنحلال، وحفظا لأنفسهم من ذل السؤال ، كقول محمد العيد في عدة قصائد

- والبذل للأعمال ضربة لازب ... فاكسوا به الأعمال فهو رتاق (3)

- نعم أجر الجهاد بالنفس والما ... ل وقل للغني: إياك أعني (4)

- إلى الجود ياقوم فالمعوزون ... من الناس في عسرة عاسرة (5)

- ولاتبخلوا بالمال فالمال معرج ... إلى كل معل في المنازل معلم (6)

1 - ينظر، القسطلاني، ارشاد الساري، ج 1 ، ص 96 .
2 - م.ن ج 10، ص17 .
3 - محمد العيد ، ياقوم، 1932، الديوان ص 95
4 - محمد العيد ،تحية الشبيبة، 1933، ص 111.
5 - محمد العيد ، أيها الرافعون القسور، 1934، ص 253.
6 - محمد العيد ، تحية أيها النادي، 1935، ص 93.

- تعالوا للندى قومي تعالــوا   تنــالوا بالندى أقصى المــرام (1)
- تعالوا بني الإسلام للبذل كلما   دعيتم إليه في اليسار وفي العدم
- ولا تجعلوا الآفات للشح حجة   فذاك عنــوان التسخط والشؤم (2)

* أوقول أحمد سحــنون :

- وابدأ ببذل المال   يسهل كل أمـر أصعب
- المال بعدك صائر   لسواك إن لـم يوهـب (3)

* أو قول مفدي زكرياء :

- من يكنز المال، لم يسعد به وطنـا   ويلمــه، فهو في الأمــوات معدود
- جودوا بـه، قبل أن تكوى الجباه بـه   المال يفنى، ويبقى الفضل والجود (4)

- **توظيف صورتي الطفل والمرأة** : فتوظيف هاتين الصورتين مما يؤثر على وجدان السامع، ويحرك الهمم المتقاعسة، ويوخز المشاعر الدفينة، فنعثر في قصائد الشعراء على صور الفتيان اليتامى الذين ينبشون القمامات بحثا عن قطعة خبز، أو الطواف على المزابل بحثا عن لقمة عيش، أو قطع عظام (5). وعلى صور أولئك الصبيان المشردين في الأزقة والساحات ولاعمل لهم يقيهم طائلة الجوع سوى مسح أحذية السادة، أو سرقة جيوب الأغنياء (6).

إن الهدف من توظيف هذه الصور هو التأثير على نفوس الأغنياء، حتى يرحموا أولئك المحتاجين الذين لامعيل لهم. ومن طبيعة المرء أن يحب أبناءه، ويعمل على أن يضمن لهم حياة هنيئة . ومن شأن هذه الصور أن تثير مقارنة في نفوس الأغنياء بين مناظر هؤلاء وإمكانية حدوثها لأبنائهم إذا ماخنت عليهم صروف الدهر. انها صور تدمي

---

1 - محمد العيد ، شهر الصيام ، 1937، ص 154.

2 - محمد العيد ، الى العلم، 1937، ص 204.

3 - أحمد سحنون ، واصل كفاحك، 1953، الديوان، ص 127.

4 - مفدي زكرياء ، من يشتري الخلد إن الله بائعه، اللهب المقدس، ص271.
والبيتان يتضمنان قوله تعالى بشأن الذين يكنزون الذهب والفضة « والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون » الآيتان 34، 35 من سورة التوبة.

5 - انظر مثلا محمد العيد ، شهر الصيام، الديوان ص 154.

6 - انظر مثلا مفدي زكرياء ، فهذا فؤادي وهذي يدي، النور، ع 43، 22 ربيع الأول 51 هـ ، 32/07/26 ، ص03.

القلب المؤمن، وتجعله يسارع إلى تيسير كرب المعسرين، وتفريج الضغط المادي عنهم، ومواساتهم، ودفع الخصاصة عنهم.

بل إن الشاعر باعتباره صاحب موقف اسلامي يستخدم صورا أكثر اثارة، وأدمى للقلوب، كصورة الفتيات اللائي تترصدهن دور الحضانة التبشيرية لتمسيحهن، وتكوين أسرة جزائرية مقطوعة من أصولها، يقول محمد العيد يصور هذا الواقع المأساوي في صور يندى لها الجبين :

قف معي بالجزائر اليوم واسبر غور أحوالهـــــا بـعين وأذن

تجد الطفل في الأزقة يلهـــــو والفتى يشرب الخمور ويزني

تجد الطفلة اليتيمة تشقـــــى تحت خدر تنــوء أو تحت خدن

أولدى البيض نصروها وقالــوا أكرمتها يد المسيح بحضــــن

ولو أن الرجال منـا رجـــــال لم يفتهـــــا تزوج وتبـــــن

ماعلى خرد الجـزائر غـيـــرا ن ولا بالحدود والآي معــــنى (1)

فالبيتان الأخيران صرخة قوية في الحاضرين فيها اثارة الإحساس بالرجولة ، والغيرة القومية والإسلامية . ذلك أن المسلم الذي لايشارك في محو هذه الصور من مجتمعه ، مشكوك في إسلامه،والمسلم الذي لايسارع إلى انتشال البنت المسلمة من مخالب الارساليات التبشيرية مسلم غير غيور على دينه .

كما أن التركيز على صورة المرأة التي ترغمها الفاقة في بعض الأحيان على بيع جسدها لضمان قوتها وقوت أبنائها هي صورة مرعبة في ظل مجتمع يدعي الإسلام، وفيه بقية من حياء ومن مروءة. انظر الى هذه الصورة التي يرسمها الشاعر في قوله :

والفقـر فـاش فالنساء سوافر يكدحن في طلب المعاش حيارى

يبذلن حتى العرض في تحصيله ليقتـن أبنــاء لهن صغـــارا

ياللرجـال لحـرمـة مهتوكـــة أفشاعرون أم الرجال سكارى؛ (2)

---

1 - محمد العيد ، تحية الشبيبة ، الديوان ، ص110.

2 - محمد العيد ، هيهات يخزى المسلمون (1934) الديوان ، ص113.

فصيحة الشاعر في البيت الأخير، استثارة لكرامة السامعين ورجولتهم، ذلك أن التعبير بالشرف المداس والرجولة المستخذبة أشبه بوخز الإبر (1).

إن مثل هذه الصورة يتفطر لها قلب المسلم ، المعتز باسلامه ، وبرَجولته، فكيف يمكن الادعاء بالإنتماء الى الإسلام والمرأة المسلمة تاكل من جسدها ، والمسلمون يكنزون الذهب والأموال ؟ إنها صورة فاضحة لواقع مأساوي ، تحرك المشاعر ، وتلين القلوب .

وتجدر الإشارة في هذا المقام الى أن مثل هذه الصور لاتشكل ظاهرة اجتماعية كبيرة ، وانما يختار الشاعر أكثر المناظر إيلاما ووخزا ليصل إلى هدفه بأيسر السبل التي تقنع السامع، وتجعله يشعر بتأنيب الضمير فيلجأ الى تغيير هذا الواقع بما استطاع الى ذلك سبيلا .

وقد عمد المصلحون الى التخفيف من هذه المظاهر بتكوين الجمعيات الخيرية رد فعل على الجمعيات التبشيرية، ومحاولة لمعالجة هذه القضايا الإجتماعية، وتقديم يد العون من خلالها الى هؤلاء البائسين، وكان الشعراء حداة هذه الجمعيات ، والمعبرين عن أهدافها والناشرين أفكارها، والمشاركين في حفلاتها الخيرية ، بشعر يهز النفوس الجامدة، ويحرك المشاعر الأنانية ، ويرج القلوب الغلفة.

إن الجمعيات الخيرية في حقيقتها « لفتة انسانية لتخفيف المآسي التي لم يتحرك لها احساس المستعمر » (2).

والقصائد الخيرية تبرز بشكل واضح الصورة القاتمة للوضع الإجتماعي في الجزائر، وغالبا ماتكون بمثابة صور للمقارنة بين واقع غني يعيشه المستعمرون، وواقع اضطهادي يعيشه الجزائريون .

وهناك قصائد كثيرة لمحمد العيد تزخر بصور متناقضة من هذا النوع (3) ، تعطي للأسلوب واقعية حية يعيشها المسلم الجزائري ، وتتميز بصورها الواقعية ، وأسلوبها البسيط الذي يتلاءم مع الجمهور الحاشد في مثل هذه المناسبات .

ونلمح في القصائد الخيرية لمحمد العيد أثرا من قراءاته الشعرية العربية ، فالروح

---

1 ـ د. خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص148.

2 ـ م .ن. ص 146.

3 ـ انظر ديوانه مثلا: أيها الرافعون القصور (ص250)، في ظلال الخيرية (ص254) ، دار الخيرية (ص258).

(الحافظية) ظاهرة فيها (1)، ذلك لأن حافظ إبراهيم قد اهتم بمثل هذه القضايا الإجتماعية داعيا الى رعاية الأيتام وبناء الملاجئ ،ومساعدة البؤساء .

فمحمد العيد استمرار للتراث الشعري العربي، وتلميذ لمدرسة الأحياء والتجديد، ولاعجب أن ينهل من ينابيعها، ويتأثر بها، وخاصة في المواقف المتشابهة والأوضاع المتجانسة.

وحتى يعطي الشاعر لقصيدته الخيرية طابعها المؤثر في النفوس ، راح يبحث عن أساليب مؤثرة تشد السامع، وتؤثر في وجدانه ، فلجأ الى أسلوب الحوار في شبه قصة شعرية ، ومن شأن القالب الحواري إضفاء روح المتعة القصصية على المستمع الذي تعودت أذناه سماع القصص الشعبي، وسيرة النبي (ص) وصحابته، وبطولات القادة المسلمين كما أن هذا الأسلوب يدفع المستمع إلى تتبع ماتنجلي عنه القصة من مغزى. ففي قصيدته «في ظلال الخير» نعثر على صورة قصصية في شكل حوار بين أرملة وأبنائها اليتامى يطلبون منها مايسد رمقهم ويستفسرونها عن مصير أبيهم الذي أهملهم.

يقول الشاعر :

وأيم ويتامى حولها اصطرخـــــوا	في الليل واصطرخت من بينهم هلعا
قالوا متى الصبح إن الضر أزعجنا؟	قالت ومـاذا يفيد الصبح إن طلعـــا
قالوا متى الأكل إن الجوع أحرقنـا؟	قالت إذا منح المعـروف مـن منعـــا
قالوا وأين أبونـا كيف أهملنـــــا؟	قالت به وقـع الأمر الذي وقعـــــا (2)

ورغم أن الشاعر قد استغل هذا الأسلوب الحواري أسلوبا أكثر إيحاء لانه يركز على حادثة معينة ويجليها مستخدما ألفاظ القول، ومقدمات لقطات مؤثرة في وجدان السامع ، ليصل به إلى ذروة الهدف من كل ذلك ، إلا أن حبل الخيط القصصي ينقطع لينتقل الشاعر إلى الأساليب المباشرة من حث، ودعوة ، واستنهاض .

فالشاعر الإصلاحي يعتمد هذا الأسلوب لا كهدف فني ، وتجديد يبغي اتباعه بل

---

1 - يمكن المقارنة بين قصيدة حافظ ، الجمعية الخيرية الإسلامية ، الديوان ، مطبعة دار الكتب المصرية 1937، ج 1 ، ص304 / 305 وقصيدة محمد العيد ، أيها الرافعون القصور، الديوان ، ص253.

2 - محمد العيد ، الديوان، ص256.

وسيلة لإيصال موعظته ، ونقل أفكاره الى غيره ، وخاصة وأن أسلوب القص ومايضفيه عليه الشاعر من طابع رومانسي يثير الشفقة والرحمة ، ويجعل المتلقي أكثر استجابة وأكثر اهتماما وإثارة .

ويظهر أن هذه المعالجة التي تستدر العطف ، وتبذل الجهد في سبيل الوصول إليه فيها أحيانا تكلفَ ظاهر، وإجهاد واضح ، رغم النظرة الدينية البارزة في المضمون .

وقد وجدنا عندالشاعر محمد العيد أسلوبا جديدا في مقاومة هذه المظاهر ، وخاصة تلك التي سيطرت على بعض النفوس ، فغلفتها بطابع الأنانية ، ولم تحررها لتشارك غيرها سراءهم وضراءهم، ذلك هو أسلوب السخرية من البخلاء بعد أن لم يجد معهم أسلوب الوعظ والارشاد الذي طغى على رسالة الشاعر الاصلاحية .

فالأسلوب الفكاهي الساخر يوخز النفوس، ويعريها أمام الناس ويعطي للصورة بعدها الدلالي، فاذا البخيل يفضح نفسه ، ويبرز نوازعها الأنانية ، ويكشف قسوة قلبه ، وجشعه الذي لايحده حد، يقول الشاعر على لسان البخيل في صور معبرة دالة على تأصل رذائل الأنانية والجشع والبخل في نفسه :

إذا الاخوان بي حفوا وطافوا	تولاني ارتجاج وارتجاف
وضاقت حيلتي واشتد قربي	وكاد يصيبني الموت الزعاف
وماسبب لذلك غير أني	أخاف علي منهم ، ما أخاف
أخاف طموح عينهم لكيسي	فأكره أن يفارقه الغلاف
تلامسه بقعر الجيب كفي	وعيني مالها عنه انصراف
وإذا أفتحه أفتحه اختلاسا	وفي نفسي انكسار وانكساف
فان لمحته بين يدي عين	ألم بلحيي حاء وكاف (1)

إن الشاعر قد «لجأ إلى التصوير الكاريكاتوري التجسيدي المعتمد على الخيال أساسا والمبني على جعل المجردات والمعنويات متحركة محسوسة ، إنه أسلوب يذكرنا

1 ـ د. ناصر ، محمد العيد وقصائد مجهولة ، ح3، ج الشعب، ع 7290 ليوم 24 رجب 1407 هـ ، 87/03/24، ص11 .

بأسلوب الشاعر العباسي ابن الرومي ، وهو يدل على حس مرهف ، ودقة في الملاحظة وجمع موفق بين الجد والفكاهة : ببراعة الفنان ، وحس الشاعر » . (1)

ونخلص إلى القول : إن القصائد التي تتجه هذا الإتجاه لدى شعراء الاصلاح رغم بعض الطفرات التجديدية فيها ، والمتعلقة بأسلوب المعالجة ، إلاأنها تنظر الى الواقع نظرة مسطحة غير متعمقة فيها كثير من التشاؤم والسخط وكان يمكن أن تتعمق في الحياة وتصف دروب البؤس بأسلوب فيه تصوير وتجسيد لهذا الواقع وللأوضاع، المتردية وتصبح نظرة تسهم في التغيير » (2)

إن الشاعر الاصلاحي رغم نقمته على الأوضاع ، وحملته على ترف الأغنياء وأنانيتهم ، ومواقفهم المتراخية إزاء الطبقات المحرومة التي تعيش حياة الشقاء والحرمان إلا أن قصائده لاتخرج عن إطار القصائد التقليدية في الشعر العربي الحديث التي تقف نفس المواقف « فيغلب فيها الحض على الإصلاح ومناصرة الجمعيات الخيرية وملاجئ البائسين ، ولكنها دعوة على شدتها أحيانا تؤمن بواقع الحال فلا تطالب بثورة أو انقلاب ، وغاية ما ترجو أن تلين قلوب الأغنياء فيمدوا يد الإحسان » (3)

ويرجع ذلك أساسا إلى ثقافة الشعراء ، وتكوينهم ، ونظرتهم إلى الحياة، والظروف التي أحاطت بهم وبالمجتمع ، وكلها أسهمت في هذا الموقف ، وبلورته على الشكل الذي رأيناه .

2 - المعالجة الوجدانية :

يحاول الشاعر في هذه المعالجة أن يرسم للفكرة أجواء من الحزن ، وظلالا من الشفقة ، فيغلفها ببعض التعابير الموحية بعيدا عن التقريرية التي لمسناها عند الكلاسيكيين ، فالتعبير الموحي يلامس شعور الانسان ، ويثير وجدانه، ويؤثر فيه ، فينطلق إلى عملية الرفض للواقع ، وتتعدد أساليب الرفض، من رفض سلبي تقوقعي، الى رفض إيجابي تغييري .

إن الشاعر الوجداني شاعر رقيق الاحساس ، تؤثر فيه المآسي الانسانية من فقر وحرمان وبؤس، وتفجر في قلبه «ينابيع الحزن ، والرحمة وتجلو أمام وجدانه مافي

---

1 - م. س .

2 - د. الركيبي ،الشاعر جلواح ، ص18

3 - أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، دار العلم للملايين ، ط7، 1982 ، ص229/228.

الحياة من عبر ومافي النفس البشرية من متناقضات ، فيعبر عن كل ذلك بروح من التعاطف تجعل ذلك الاطار «الموضوعي» وجها من وجوه «الذاتية» على ماقد يبدو في ذلك من مفارقة » (1)

ولكن الشاعر الجزائري في هذا الاتجاه لم يتعمق الرومانسية ، بل انها كمذهب أدبي لم يعتن بها إطلاقا ، فاذا بكاؤه وحزنه سمة من سمات الرقة والشفافية التي تسيطر على كيان المسلم أينما وجد «فالدموع لدى المسلم انعكاس لمعنى الخير والثقة فيه ، وتعبير عن حاجته إلى التغيير الدائب الايجابي في طريق الخير والصلاح والهداية .» (2)

ويلجأ الشاعر إلى أسلوب القصة الشعرية المؤثرة التي لاترد عرضا في سياق القصيدة كما هو الشأن في الشعر الكلاسيكي ، بل يتصاعد فيها الحدث بوتيرة معينة ، حتى ينجلي عن خاتمة مفجعة في أغلب الأحيان ، تعطي دفقة شعورية حادة، ورجة عنيفة تهز السامع فيلين قلبه وتطفح شفقته ، وتعود إليه إنسانيته ، ويتجرد من أنانيته .

فقصيدة «مشاهدات صورتها يد الخيال» (3) للشاعر محمد الصالح خبشاش نجد المشهد الرابع منها على وجه الخصوص، يركز على صورة طفلة تذري دموعا تنحدر على وجنتيها، وقد انقطع بها حبل الأمل في الحياة ، بعد أن فقدت والديها ، فغزاها الجوع والسهر، ولم تجد وسيلة تستريح بها من عناء الحياة وشقاوتها سوى الانتحار،فاللجوء إلى الانتحار من السمات البارزة في الشعر الرومانسي، وهو موقف سلبي من الواقع، إلا أنه يضفي على القصة طابع الأسى ، ويغلفها برداء من المشاعر المرهفة التي تفجر في قلب السامع ينابيع الحزن والرحمة ، فيندفع إلى البذل والعطاء صيانة لمثل هذه النفوس البريئة .

وقصيدة «الفقير الصابر» لأحمد سحنون ، استعمل فيها الشاعر أسلوبا رقيقا مليئا بالحسرات والتوجعات التي تثير في نفس القارئ بعض المشاعر، يقول على لسان الفقير :

---

1 - د. ع. ق القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط2 ، 1981 ، ص98.

2 - د. نجيب الكيلاني ، الاسلامية والمذاهب الأدبية ، مؤسسة الرسالة ، ط2 ، 1981، ص74.

3 - انظر: ج النجاح ، س 10، ع 820 ، 29 جمادي الثانية 1348 هـ ، 29/12/2، ص03.

كم أعاني الأسى ولا أتكلم — وإذا ماشكوت من يتألم ؟
لم أجد في القلوب قلبا رحيما — (ماتفيد الشكوى لمن ليس يرحم)؛
كيف أشكو إلى العباد شقائي — وهم علة الشقاء المحتم
كل شر ألقاه في الدهر إلا — وشرور العباد أدهى وأعظم
ليس بي من الأسى غير فقري — ورجائي في الأغنياء تحطم
جعل الله في يدهم نصيبي — وإذا ما طلبت حظي أحرم
زادهم قسوة علي وحقدا — أنني إن رأيتهم أتكتم
وإذا الضر مسني أتحمل — وإذا ما ظلمت لا أتظلم
شيمة لي منحتها صيرتني — ساخرا بالخطوب لا أتبرم
لست أشكو بثي وحزني إلا — لإلاهي فانه بي أرحم (1)

لقد بلغت الدعوة هنا حد الألم المر ، فالشاعر ينطق بلسان الفقير الذي يجتر واقعه مع الأغنياء ، ولكنه لايثور على الوضع كشأن الواقعيين ، طالبا تغييره، مستشرفا آمال المستقبل ، بل يعمد إلى الاستكانة والرضوخ للأمر الواقع،والنقمة على المترفين ، والاكتفاء بالشكوى إلى الله ، وطلب رحمته .

ولكن القصيدة رغم ذلك تفيض بالمعاناة الانسانية ، والتبرم من شرور العباد، وقسوة قلوبهم التي لاتتفجر عن بذل وعطاء وكرم .

ونلمس نفسه الأسلوب في قصيدته « رب رحماك بالفقير » (2) التي يطغى عليها «شعور العطف والرجاء لاشعور الذي يبحث عن حل لمأساة هذا الفقير » (3) فهو ينسب فقره إلى « حظه » لا إلى المجتمع، وهذا اختلاف واضح بين الرومانسيين والواقعيين ، فالرومانسي لايبحث عن مكامن العلة، ودوافعها، ويدعو إلى إزالتها، بل يكتفي بالمشاركة الوجدانية التي يضمن بها أحيانا «استجاشة النفوس ، واستثارة المشاعر وحرارة الاستجابة » (4)

1 ـ الديوان ، ص 170 .
2 ـ الديوان ص 150 .
3 ـ د. الركيبي، الشاعر جلواح ، ص 36.
4 ـ سيد قطب، النقد الادبي، أصوله ومناهجه، دار الشروق بيروت ، ص 47.

ويصل الشاعر في نهاية القصيدة إلى قوله :

رب إن الفقير أسلمه الناس　　　فلا راحم لــه أو مجيـــر

كن لـه خير راحم ونصيـــر　　　أنت نعم المولى ونعم النصير (1)

إن هذه النظرة الاصلاحية لاتثوّر الفقير على وضعه ، بل تكتفي بالدعاء له بالرحمة، حتى ينصره الله ، ويجيره بعد أن خذله الناس .

إن شعرا من هذا النوع شعر سلبي يحاول استدرار الشفقة دون أن يعمد إلى العمل التغييري للوضع ، وإلاّن يطلبه ، وكأنه لم يتمعن في قوله تعالى: «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم» (2)

وتغيير مابالنفس يدخل جانب منه في هذا الاطار الذي نناقشه .

إن الشاعر قد طغى عليه الاحساس بظاهرة العجز عن تغيير الواقع المأساوي وهذه الظاهرة تولد التضرع إلى الله ، في انتظار معجزات خارقة تغير ماعجزت عنه قدرة الانسان .

إن الفقير الذي عضه الجوع بأنيابه، وحطم الفقر نفسيته لايمكن أن يكتفي برفع يديه إلى السماء داعيا وملبيا، أو أن يمد يده إلى الناس أعطوه أو منعوه،بل عليه «أن يشهر سلاح الثورة من أجل إعادة اللقمة التي انتزعها منه أناس سرقوا حقه وكرامته. ويريدون بسرقة هذه اللقمة منه سرقة حياته ووجوده أيضا، فاذا لم يثر الانسان من أجل حقه في الحياة ومن أجل تخليص قوته من الأيدي المستغلة الظالمة فهو لايملك من الانسان إلا الصورة الزائلة .» (3)

وقد ظهر عند الوجدانيين وفي معالجتهم لهذه القضايا مايعبر عنه النقاد بالاندماج مع الطبيعة وتشخيصها وتصويرها ، ومقاسمتها الآمال والآلام ، كما فعل أحمد سحنون في قصيدة (مناجاة البحر) .

ولكن هذا الاندماج لايستمر، بل ينتقل الشاعر إلى الربط بين الطبيعة والواقع

1 ـ الديوان ، ص 150 .

2 ـ الاية (11) من سورة الرعد

3 ـ د. محمد مفيد قميحة ، الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر ، (ص 129).

المتعفن الذي يحياه ، ويكتوي بناره في صور موحية. فيعقد مقارنة بين ضيق البحر بحياته الصاخبة الهادرة ، وضيق الشاعر بالسياسة وبالأخلاق المتدهورة، فيقول :

يابحر ماهذي الشكاة ألست توصف بالعظم ؟

ماذا البترم بالحياة كأنما أشجاك هم ؟

أتضيق ذرعا كابن آدم بالوجود وما انتظم ؟

أتضج من عبث السياسة كم أباد وكم هدم ؟

ومن المعمر إذ طغى ومن المسيطر إذ ظلم

أتضج مث شرف يداس ومن حقوق تهتضم ؟

أتضج من حريهان ومن وضيع يحترم ؟ (1)

وفي تقريبا الفترة (1372هـ)، نلتقي بقصيدة «موكب الربيع» التي تمتزج فيها الصور الرومانسية بالصور التقليدية في وصف الطبيعة ، وبعد ثلاث أبيات ينتقل الشاعر إلى وصف فصل الشتاء وأثره على النفوس بعد أن ترك غصة ببرده القارس في المساكين والبائسين ويعمد الشاعر إلى الربط بين وطأة الشتاء على البائسين وقسوته عليهم في أسلوب مؤثر يجعل المتلقي يحس بأثر المعاناة :

كان في القلب غصة ماشعرنا   اذ تولى بغصة في الضلوع

كان للبائسين سوط عذاب   وأداة للفتك والترويع

كم طريح على الثرى مات جوعا   ويتيم على الطريق صريع

لم يذوقوا طعم الهناء نهارا   لم يذوقوا في الليل طعم الهجوع

زمهرير يغري الجلود مذيب   وثلوج تأتي بأثر صقيع

ورعود لها هزيم مريع   ودوي يصم سمع السميع

ذاك جيش الشتاء ولى كسيرا   مذ أطلت عليه شمس الربيع. (2)

---

1 ـ الديوان ، ص 33 .

2 ـ م. ن ، ص 48 .

لم يكتف الشاعر بوصف الطبيعة وصفا تقليديا ، بل مزجها بأحاسيسه الانسانية ، وجعل علاقة بينها وبين الانسان هي علاقة تأثير وتأثر .

وقد ركز بعض الشعراء على وصف المعاناة النفسية التي تضطرم في قلب الفقير، عندما تدفعه الحاجة إلى الاستجداء والتسول ، ومثل هذا النوع من الوصف كفيل باحداث إشعاع وجداني ينبعث من الشاعر المتأثر بما يلقي إلى الأشخاص الذين يصلهم خطابه الشعري، مما ينعكس أثره على نفوسهم ، ويشاركونه وجدانيا، ثم تنتقل هذه المشاركة الوجدانية النظرية إلى ممارسة فعلية تتجسد في الواقع ، وتتلاءم مع الاحساس الجديد .

ونحس في هذا النوع من الشعر الالتحام بين الذات والموضوع، فالشاعر يحس بمعاناة البائس الفقير، ويتمثلها، فتختمر التجربة في وجدانه، وتمتزج بذاته، فيعكسها شعرا صادقا. فابن رحمون باعتباره شاعرا رقيق الاحساس يشعر بمرارة الحياة التي اكتوى بشقائها (1)، فيقرأ في عيون الفقراء معاني البؤس والشقاء ، ويلمس آثار أنياب الدهر في أحشاء المحرومين، ولذلك إذا كتب قصيدة مثل «المسكين مع شبح الموت» لايكتبها بأسلوب تقريري مباشر، بل يحاول وصف هذا المسكين وصفا يستدر الشفقة ، وينم عن أسى عميق ، تزيده وضوحا تلك القافية الهائية المشبعة ، والتي تعطي دلالات على التأسف والتوجع والتحسر :

لاتعذلوه فان الفقر أضـــواه	والحظ عـاكسه والدهر عـــاداه
لاتنهروه إن استجـدى أكفكم	فالجوع آلمه والصبـــر أعيـــاه
ما كان يبسط للتسآل راحته	إلا ووجدانـه عن ذاك ينهـــــاه
تأملوا إن أردتم مايكابــــده	تدلكم عن أليم الوخز عينـــاه
لولا غريزة حفظ الذات تدفعه	ما كان يأتي بأمر ليس يرضــــاه
لكنما الفقر ياقومي مشقتــه	قد ترغم النفس عما النفس تأباه
والجوع يزجي إلى ذل السؤال	ولـو رأى الضير من الإيلام أقساه (2)

---

1 ـ عاش الشاعر هذه المأساة فعلا في أيامه الأخيرة ، ومات شريدا في قارعة الطريق .

2 ـ ابن رحمون ، الديوان ، ش. و. ن. ت ، الجزائر ، 1980 ، ص 105 .

«إن هذا الالتحام الانساني بين الشاعر والفقراء الذين زرعهم في نفسه ، وعجنهم بآماله وأحلامه، وفتح لهم قلبه وجسده وتطلعاته، ووقف حياته من أجلهم ، إنما هو تحسس بل التزام واع منه بمعاناة عرف الشاعر أبسط نتائجها ، وذاق طعم مرارتها، وأحس بنارها اللاذعة التي تحرق مشاعر الانسان ووجوده، وتجعل سنيه عذابا وألما ود.. وعا فالفقر داء ع... يقتل المشاعر الان...، ويحطم كبرياء الا... ان ويذله ، ويودي به في كثير من الأحيان الى المهالك أو الرذائل (1)» ويبدو لي أن إطلاق هذا الحكم على أغلبية الناس وفي كل الظروف تقريبا أمر يجافي الصواب ذلك لأن الفقير الصابر المحتسب، المتمسك بعقيدته، الملتزم بسلوك الاسلام يرضى الموت ولايسمح لنفسه بالوقوع في مهاوي الرذيلة .

ثم إن القصيدة السابقة تختلف في حقيقتها عن قصائد محمد العيد ذات الأسلوب الخطابي المباشر غالبا، فهي هنا ترتكز على دقة الوصف، وروعة التصوير من خلال الحديث عن معاناة الفقير ، وموقف الناس منه، وما يصطرع في نفسه من نوازع متباينة، ومشاعر متناقضة كما أنها من جهة أخرى تتوفر على وحدة موضوعية ظاهرة، فتركز على معاناة الفقير مع شبح البؤس، دون أن تقحم معه الحديث عن موضوع آخر، وقلما نجد هذه الظاهرة عند الشعراء الآخرين.

وقد ظهر ابن رحمون من خلال القصيدة شديد الحساسية، رقيق الشعور، ينقل إلينا صورا تبعث الأسى في النفس، وتترك ألما ولوعة في القلب .

ويتحول الشاعر إلى منقذ للمعذبين والفقراء، حين يوخز الأغنياء بصوره الجريئة، وينفخ في نفوسهم معاني الاخاء والتكاتف والتضامن حتى يسارعوا إلى إسعاف هؤلاء المحرومين من بؤسهم وأوجاعهم المضنية، ويبعدوا عنهم ألم المسغبة، وذل الحاجة.

ونرى من خلال ماسبق أن الموقف التقليدي يعرض قضايا البؤس عرضا سطحيا لاأثر فيه للاحساس النابض بالموضوع الذي قد ينقل التجربة من الشاعر الى القارئ فيحس بصدق المعاناة، وبحرارة العاطفة.

ثم أن الشاعر رغم بعض الصور الباهتة، وبعض محاولات التجديد في عرض هذه القضايا استخداما للقصة الشعرية، والحوار ، وتوظيف بعض المضامين

1 - د. قميحة ، الاتجاه الانساني في الشعر العربي المعاصر، ص 125 .

المؤثرة، إلا أن قصيدته لا يلتزم فيها موضوعا واحدا إلا ماندر، فيجعلها متعددة الموضوعات، متشعبتها، لأن الجماهير المحتشدة، تحبذ هذا النوع الذي يطوف بها على عدة ميادين من الحياة .

أما الموقف الرومانسي فيغلف مضمون قصائده بأجواء من الحزن وظلال من التعابير الموحية التي تصيب القلوب، فتثير فيها المواجد، وتؤثر في المستمع، وتجعله يشارك وجدانيا.

وقد حاول الشاعر الوجداني الاندماج مع الطبيعة ، ومشاركتها آلامها وآمالها، وربط ضيقها بضيق الحياة البائسة للفقراء ، كما حاول التركيز على وصف المعاناة التعيسة للفقير ، ورغم ذلك فان هذه القصائد تبقى سلبية الموقف في أكثر من مجال، فالمشاعر الناتجة هي مشاعر العطف، لامشاعر البحث عن حل للأزمة .

ويبدو الاختلاف واضحا بين المعالجتين السابقتين والمعالجة الواقعية التي لم تظهر في هذه الفترة، ذلك أن هذه المعالجة لاتقف بعيدة عن هذا الميدان ، ولاتكتفي بزاوية الشفقة والاحسان ، واستدرار العطف بل تركز على أن قضايا البؤس والفقر تنبع من أسباب اجتماعية بالدرجة الأولى ولذلك لم يعمد الشعراء الواقعيون إلى تليين قلوب الأغنياء بل طالبوا بتأمين فرص العمل الانساني اللائق للفقراء .

«إن محاربة الفقر لاتكون الا بالعمل وتأمين فرصه الشريفة لأوسع طبقات المجتمع وأكثرها بؤسا وشقاء لأن العمل وحده هو الذي يقضي على آفة الفقر ويخلص الانسانية من براثنها شريطة أن يتنزه هذا العمل عن الاحتكار والظلم والجور والسيطرة التي تزيد الكادحين بؤسا فوق بؤس ، وفاقة فوق فاقة.»(1)

وتخلص إلى القول:إنه رغم تعدد طرق المعالجة الشعرية إلا أن شعراء الاتجاه الإصلاحي لم يكونوا يعيشون بمعزل عن هموم أمتهم ، بل كانوا يتعرضون لما يتعرض له الشعب من حرمان ، وفقر ، وبؤس ، واكتوى أغلبهم بلسع الجوع، وضنك العيش .

ولذلك فليس غريبا إذا هم رفعوا لواء الاهتمام بهذه الطبقات البائسة ، فصوروا معاناتها وتألموا لأحوالها، ودعوا الأغنياء الى التخفيف من ضغط الحياة عليها ، وتيسير

1 ـ م. س ، ص 93 .

كربها، وتفريج عسرها، تطبيقا للسلوك الاسلامي في هذا المجال، والذي يدعو الى مثل هذه الأخلاقيات في علاقات الناس بعضهم ببعض .

وكان لهذا الواقع أثره في الناحية الاجتماعية ، وتولدت عنه بعض المضاعفات الخطيرة، التي غذاها الاستعمار، وفتح لها أبواب الرعاية، فانتشرت مظاهر الفساد الاجتماعي والأخلاقي، تهربا من الوضع البائس ، أو تقليدا لمجون الغرب، أو استكانة بمغريات الاستعمار الذي فتح هذا الباب على مصراعيه قتلا للبقية الباقية في النفوس من دين، ومروءة، ورجولة ، وقيم.

وكان شعراء هذا الاتجاه بالمرصاد ، فأولوها عنايتهم فضحا وتعرية واصلاحا .

2 - الحملة على المفاسد الاجتماعية :

انعكست آثار البؤس الاقتصادي في الناحية الاجتماعية ، فالاستعمار بعد أن حرم الجزائريين ميادين الرزق، وعسرها عليهم، لم يترك لهم سوى بعض المنافذ الضيقة التي لاتدفع رمقا، ولاتذهب خصاصة، فتعود بعض الناس على البطالة ، والتواكل ، وكثر لديهم وقت الفراغ، فلم يستثمروه في مجالات النفع العام ، بل زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، وقادهم إلى ارتياد أماكن الفساد، التي استباحها الاستعمار بحكم القانون، وجعلها تجارة رابحة .

إن الاستعمار لم يكن في حاجة إلى دهاء لكي يفتح هذا المجال واسعا أمام الجزائريين، وقد ركز على أولئك " المتفرنجين " الذين فقدوا مناعة العقيدة ، وحصانة الدين ، ووجدوا في الفساد متنفسا لهم خارج ضيق الحياة وعسرها ، رغم أنه خانق للمواهب ، قاتل للنفوس ، وموهن للعزائم .

ولم تكن أساليب المستعمر «في غزو النفوس تقل فظاعة أو جرما عن أساليبه في احتلال البلاد، وقد أدرك المستعمرون بحسهم الماكر، أن نفوس الجزائريين الثائرة لن يكبح جماحها إلا إذا خدرت أعصابها بأحدث ما أنتجته مخابر أوربا من جراثيم المسخ، وما استحدثته قاعات (الموضة) من فنون الغواية ، ففتحت أبواب الحانات على مصراعيها في كل قرية ومدينة (1) »

إن انحلال الأخلاق ، والانغماس في حمأة الشهوات ، وارتياد أماكن البغاء والقمار والخمر، دعامة من أهم الدعائم التي يقيم عليها الاستعمار بناءه في أرض المسلمين.

ولكن هذا لاينطبق على الجزائريين كلهم بل على طائفة قليلة انساقت وراء تيار الانحلال وطبقت سياسة الاستعمار الجهنمية ، وفي الحقيقة فان «الفقر مع خلو النفس من الدين سبب كل الجرائم، وأم كل الموبقات ، فانتشر الزنا، وانعدمت الغيرة من نفوس الآباء والأزواج الفاسدين وكثرت الجرائم والفتن ، وحب السطو والانتقام» (2) وكثرت دور اللهو والمراقص ، وعملت هذه المظاهر بالتوازي مع هجمات المبشرين الجاهدة في تشويه العقيدة الاسلامية ، ورمي أهلها بالجمود والتحجر ، مما أدخل الوهن في أخلاق الشعب ، وانحدر بالمثل العليا عند الشباب.

---

1 ـ د.ناصر ، المقالة الصحفية ، م1 ، ص 205 .

2 ـ دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر ، ج 1 ، ص 25 .

وما كان للمصلحين أن يسكتوا عن هذا الباطل المنكر ، فهو يتطلب الجهاد في سبيل تخليص بلاد المسلمين من عبث العابثين ، وتربية الفرد تربية إسلامية لأنه نواة في كيان المجتمع الاسلامي ، المتخلق بأخلاق القرآن الكريم.

وقد ركزت عليه الحركة الاصلاحية هجومها الكاسح، تخفيفا من حدة الفساد ، وانقاذا للشباب من أحضانه، وعودة به إلى الدين وسلوكه القويم، ذلك أن جمعية العلماء قد وقفت «من جميع الرذائل المتفشية في الأمة الجزائرية من خمر وفجور، ومسارعة في الأيمان الفاجرة وترك صلاة، وشهادة زور، موقف الخصم الجبار، وحملت عليها ـ ومازالت تحمل ـ حملات صادقة شكرها لها المنصفون، وإن قلل من شأنها المتعسفون.» (1)

بل إن هذه الجهود الاصلاحية قد أتت أكلها بعد حين من الدهر ، وقبل قيام الجمعية نفسها وإن كانت تلك النتائج لم تقض كلية على مواطن الداء، يقول مالك بن نبي رحمهُ الله عن إحدى هذه الحركات التي تصدت للفساد وهي حركة محاربة الخمور وبيعها انه «لم يجد باعة تلك السموم حيلة يغرون بها من هجوم الحركة الاصلاحية ، إلا أن يلجؤوا إلى الحكومة حوالي عام 1927، محتجين بأن إيرادهم تناقص ، وأن تجارتهم بارت، وبدأت فعلا المساجد تمتلئ برواد الخمارات كما أن الحلقات الدراسية الليلية قد عمرت بأولئك الذين انصرفوا عن حلقات الدراويش » (2)

ولما كان الشعراء جزءا من الحركة الاصلاحية، فقد شنوا حملة على كل هذه الآفات، وكل مظاهر التهتك التي لاتتلاءم مع تقاليدنا العربية الاسلامية، وآية ذلك تلك المقالات الكثيرة في مختلف الصحف (3)، وتلك القصائد الجليلة التي نبهت الناس إلى خطر مايرتكبون، وعملت على تقويم المنحرفين، وسد منافذ الانحلال أمامهم ، وإزالة الغشاوة عن أعينهم، ودعوتهم إلى التمسك بدينهم حتى يحموا أنفسهم من كل ذلك .

كما كانت الدعوة في المقابل موجهة أساسا إلى فتح المدارس ، وانشاء النوادي، وتكوين الجمعيات الخيرية والأخلاقية، فكلها تساهم بنصيب في ازالة هذا الفساد، وتنقية المجتمع .

إن الشعراء قد «أدركوا تمام الادراك أن التحرير من ربقة الاستعمار يبدأ

---

1 ـ سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 74

2 ـ مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص 46 .

3 ـ انظر مثلا مقالات «وباء الفجور » التي كتبها أبو اليقظان في جريدة وادي ميزاب ، اعداد (99.95.93.91.90).

بتحرير النفوس من هوى الشيطان، وأن الشعور بالمميزات الشخصية العربية والاسلامية هي التي تحفظ للشعب ذاتيته فيجاهد في سبيل الحفاظ عليها خوف التلاشي والذوبان. » (1)

إن موقف الشعراء موقف ينبع أساسا من توجههم الاسلامي، فالاسلام يركز على إحلال الأخلاق الفاضلة مكانها في نفوس الشعب، ويبوئها مكانتها في المقام الأول، حتى ينشأ المجتمع فاضلا، متماسكا، متحررا من ربقة الشهوات، وحماة الانحلال .

ثم ان شعراء هذا الاتجاه لم يهتموا بظاهرة دون أخرى، بل ان قصائدهم تركز على مفاسد مجتمعة ، فقلما نجد قصيدة تفرد لظاهرة ما ، (2) فالمفاسد الاجتماعية تنخر مجتمعة جسم الأمة، وتضرّبه في الصميم ، وتركز على دعامته الأساسية ، ورأسماله الحي المتمثل في الشباب النابض بالحياة، فلاغرابة إذن أن نجد قصائد متعددة الموضوعات تحارب هذه المظاهر، وتندد بها، وتوسعها فضحا وتعرية .

وأول ملاحظة يمكن تسجيلها في هذا المقام هو بروز النبرة التشاؤمية عند الشعراء من فساد الوضع الاجتماعي وصعوبة إصلاحه وهي سمة بارزة في شعر هذا الاتجاه وخاصة في فترتي العشرينيات والثلاثينيات ، حيث كثرت أساليب الشكوى والتذمر واليأس ، حتى أن شاعرا مثل محمد السعيد الزاهري رغم طابعه الاستنهاضي إلا أن اليأس قد ذهب به حد القنوط ، حتى توهم أن إصلاح المجتمع لن يتم حتى ينادى للحساب :

هيهات تصلح أمة ذي حالها   حتى ينادى للحساب منادى (3)

ونحس باستمرارية هذه الروح الكسيرة ، وتلك النغمة الحزينة، وذلك التأسف المتأوه من وضعية الأمة حتى في نهاية الثلاثينيات ، فقصيدة «ويخلد الاسلام» (1939) لمحمد العيد على سبيل المثال ، ركز فيها على انتشار مظاهر الفساد، من تفريط في الحدود ، وانتشار للبغاء وتفش للزور والقمار، واستفحال للشر ، وبروز للظلم ، وانتهاك للاعراض .

ويبدو من خلال القصيدة أن نفس الشاعر المؤمنة الطاهرة قد عافت الحياة في هذا

1 ـ د.ناصر ، المقالة الصحفية، م1، ص 206.

2 ـ ربما باستثناء قصيدة « الخمر » لمحمد العيد ، الديوان ، ص 281 .

3 ـ انظر ويح الجزائر ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص 175.

الجو المتعفن والذي لم يكن يشمل كامل مناطق القطر ، بل ينحصر أثره على مستوى التجمعات السكانية الكبرى التي تشكل بؤرة صالحة لانتقال العدوى ، وتصبح المناعة أحيانا غير مجدية .

يقول الشاعر :

فرط الناس في الحدود فأمست   تتبارى في دوسها الأقدام
نشر الكفر في حمى الدين ذكرا   ه وأحيت عهودها الأصنام
وغدا البغي ظافرا حوله الجند   عزيزا تظله الأعلام
وفشا الزور والقمار على الأر   ض وراج الخنا بها والمدام
واستطار الفساد واستفحل الشر   وعم الأذى وطم الخصام (1) ... الخ

إن الشاعر باعتباره مبشرا بالأمل، وحاديا لقافلة الاصلاح. كان بامكانه أن يتجاوز مرحلة العرض، والتفرج على هذا الوضع الذي يثبط العزائم، ويوهن الارادات، ويقف الموقف السلبي من كل ذلك، متهربا من مواجهته بعين التغيير، والتوجه نحو الآفاق الرحبة للأخلاق الاسلامية الرفيعة.

وكانت رذيلة الخمر من أكبر الرذائل التي وجهت السهام الاصلاحية نحوها للقضاء على خطرها الذي ينخر جسم الأمة في شبابها النابض بالحياة .

والخمر أم الخبائث ، ورأس كل بلية وهي محرمة شرعا ، ولن يستقيم أمر مجتمع ما، ولها فيه وجود ولئن لم يفردها الشعراء بقصائد كثيرة ، فانهم ربطوها بغيرها من الرذائل لأنها مفتاح كل معصية ، وسبيل كل غواية .

وقد عمد الاستعمار الى تغذيتها بمختلف الوسائل ، نشرا لها في أوسع نطاق ، ودعما لها ببعض القوانين، وتشجيعا لمعاقريها ، ونعتا لمحاربيها بالجمود والتحجر. يقول فرحات عباس في (ليل الاستعمار) موضحا حقيقة الاستعمار في مثل هذه الظاهرة «أما الحانات حيث تتدفق الخمور أنهارا فانك تجدها في كل حي وطريق غاصة

1 ـ محمد العيد ، الديوان ، ص 177 .

بالناس ليلا ونهارا ... وان الحكومة الاستعمارية تتساهل في ترخيص فتح حانة أكثر مما تتساهل في فتح مدرسة .. » (1) فالمدرسة تنير العقول، وتضيئ الدروب، وتنشر العلم والمعرفة ، وتخلق الوعي. أما الحانات فتقتل المشاعر، وتبلد الأذهان، وتسلب الشخصية ، وتقضي على الأحاسيس .

فالشاعر المولود بن الموهوب (2) يربط رذيلة الخمر بغيرها من الرذائل والمفاسد الاجتماعية الناجمة عنها، والمتولدة من جرائها كعدم الغيرة على العرض، والتنافر، والقمار، والربا ، وهي مفاسد اجتماعية نقلتها المدنية الغربية المزعومة الى مجتمعنا لالترقيته ، بل لتستولي على أرضه وعقله، ونفسه. وتسلخه من كل مقوماته فاذا هو آلة في يد الاستعمار لايملك أمر نفسه :

يقول الشاعر :

رمت أمواج بحـر اللهو منا	أناسا للخمور ملازمينـــا
أضاعوا عرضهم والمال حبـا	لبنت الحان فازدادوا جنونا
تواصوا بالتنافر فاطمأنـت	لحقدهم قلوب الكائدينـــا
فكم أكل العقار عقار قـــوم	أصولهم له أفنوا سنينـــا
وكم ساق الكحول الى أناس	كحيلا مثل جمعهم أهينـــا
وكم رقم القمار على بيـوت	ديونا وفق قول الغالبينـــا. (3)

إن الأبيات رغم طابعها السطحي والمباشر، وبغض النظر عن مستواها الفني الذي راح الشاعر يغطي ضعفه بالمحسنات البديعية كالجناس في قوله (العقار ، عقار) و(الكحول ، كحيل) ... إلا أنها مضمونيا تبرز بشكل جلي انغماس بعض الناس في الشهوات ، واستهتارهم في المعاصي ، وارتكابهم للموبقات فتفسخت أخلاقهم، وفقدوا مناعة الفضيلة، وغرقوا في أوحال الرذيلة .

وكانت فئة الشباب أكثر تعرضا من غيرها للوقوع في هذه الآفة الجهنمية، ذلك أن

1 ـ فرحات عباس ، ليل الاستعمار ، ص 116 .

2 ـ المولود بن الموهوب (1866 – ؟) من مؤسسي نادي صالح باي ، وكان مدرسا بالمعهد الكتاني ، واشتغل مفتيا. ينظر شعراء الجزائر ، ج 2، ص 31 – 34.

3 ـ المولود بن الموهوب ، المنصفة ، شعراء الجزائر ، ج2، ص 42 وانظر له : ابناؤه أيتاؤه ، م. ن ، ص 40 /41 .

الاستعمار يركز على عقل الأمة ، وعمادها ، وهو الشباب ، فيلقيه في غياهب الفساد ، فتتقاذفه الأزقة، وتستقبله الحانات ، وتحتضنه بيوت الدعارة ، فيخسر المجتمع درعا واقيا ، وأملا قويا وفكرا مستنيرا .

ولذلك كان رد الفعل قويا من جانب الحركة الاصلاحية ! فتحا للمدارس والنوادي، وانشاء للجمعيات الأخلاقية لتحطيم خطط الاستعمار، وتحصين الشباب ، وتوجيهه الوجهة الأخلاقية الصائبة .

ومن تلك الجمعيات "نذكر"الجمعية الأخلاقية لمحاربة الفساد" التي تأسست بالعاصمة في منتصف العشرينيات وقد طلبت من الشاعر الهادي السنوسي أن ينظم لها قصيدة تعبر عن اهتماماتها ، واستجابت قريحة الشاعر ، فنظم قصيدة في هذا المجال (1)، أقرب ماتكون الى القصة الشعرية ، بطلها أحد المدمنين على الخمر، ينتشي في سكره، فاذا بصاح يصيح فيه، داعيا إياه الى نبذ مايفعل، واجتناب مايرتكب، موضحا له الانعكاسات السلبية في تصرفه على أمته ، في أسلوب خطابي مباشر يخلو من الشاعرية المتدفقة التي تؤثر في وجدان السامع أو القارئ . فاذا المعالجة سطحية واذا القصيدة نظم قيل تحت الطلب، فاذا هي وليدة المناسبة لاوليدة المشاعر، فطغت عليها المباشرة وسيطر عليها العامل الخارجي ، وخلت من الطابع الذاتي .

وهذا النوع من الشعر وان كان يرضي العاطفة الدينية الاصلاحية بمضمونه ، إلا أنه لايرضي الحاسة الفنية، «وتبدو النثرية فيه واضحة ، ولا يدل على تجربة منفردة عاناها الشاعر، وانصهر فيها، وعاشها حتى اكتملت في وجدانه ثم ابرزها في صياغة تلائم هذه التجربة .» (2)

وقد ربط الشعراء هذه الآفة بآفات أخرى مثل الزنى، والبغاء، وكانا من أشد الأمراض فتكا بالشباب ، وانتشارا تحت الحكم الاستعماري ، جندت له كل أساليب الغواية، وفنون الدعاية .

ومن آية سخرية الاستعمار بالدين الاسلامي أن بات «جامع سيدي رمضان بالعاصمة تحيط به العاهرات إحاطة السوار بالمعصم، ومثله الجامع الأعظم بمستغانم ، ومثله .. ومثله ..» (3)

1 ـ انظر السنوسي ، مقال ، الأدب العربي التقاتة الى الماضي ، م هنا الجزائر ، ع44 ، مارس 1956، ص 03 .
2 ـ د. الركيبي ، الشعر الديني ، ص 668 /669 .
3 ـ مسلمو الجزائر وحالتهم الراهنة ، لسان الدين ع11 ، 25 رجب 1341هـ ، 13 /03 /1923.

وقد جند الشعراء أقلامهم للهجوم على أوكار الفساد ، ودعاة الانحلال الذين انساقوا وراء التيار وأصبحوا وصمة عار في جبين المجتمع الاسلامي . فابو اليقظان يشطر قصيدة للشيخ سليمان الباروني بمناسبة المولد النبوي الشريف ، ويشن من خلالها هجوما كاسحا على مختلف الرذائل الرائجة :

(الخمر فيَ سوق التجارة رائــج) أرباحها والناس منها في جنـون
أما الدعارة فهي زينة عصــرنا (أما الخنا فغدا شعار العالميــن)
(هذا الزنا أبوابه مفتوحـــة) مع أنـه مقراض نسل الفاعليــن
أما القمار فحرفة لذوي الثرى (أما الربا فتجارة المستسعديــن
آه بمولدك الشريف تنوعــت) سبل الفساد فهل لنا من مرشدين
آه بمولدك الشريف تعـــددت (طرق المعاصي في بلاد المسلمين . (1)

وعلى الرغم من الطابع المباشر والخطابي للقصيدة وظاهرة التكلف البارزة على مثل هذا النوع من الفن الشعري إلا أن الأبيات صرخة في وجه الرذيلة ومرتكبيها من مؤمن توفر للدفاع عن الأخلاق وغرسها في النفوس ومكافحة الفسق والفجور لاجتنابهما من النفوس المريضة من المتفرنسين والمقلدين وماشاكلهم .

وقد خصص محمد العيد حيزا كبيرا من قصائده الاجتماعية للتنديد بهذه الانحرافات ، فكانت استنكارا على بعض الرذائل التي وجدت مرتعا خصبا لها في شواطئ البحار والمدن الكبرى . (2)

وكانت تنديدا بظاهرة انعدام الحياء في المجاهرة بارتكاب المحرمات على الشواطئ، وعرض الأجساد العارية جرا للشباب إلى الغواية والضلال :

على الشواطئ سيل من الفضــائح أزرى
تلقى الفتاة فتاهــا كلاهمـا فيك معـرى

---

1 - قصيدة : قم يامحمد ، ديوان أبي اليقظان ، ص 25/24 .
2 - تنظر قصيدة: وقفة على بحر الجزائر ، الديوان ، ص 17 .
وقصيدة ويخلد الاسلام ، الديوان ، ص 176 وما بعدها .

يكاشفانك فحشا ويسمعانك هجرا

فالقلب من ذاك آس والعين من ذاك عبرى (1)

ويدرك الشاعر المصلح أن المسلمين يساهمون في نشر بعض الانحرافات في غياب تضامن أخوي يربط بينهم ، ويوحد صفوفهم ويوثق أواصر الصداقة بينهم ويعصمهم بحبل من المشاركة الوجدانية سراء وضراء ، فلو انعدمت مثل هذه الروابط ، فلم يرع الغني الفقير ولم يحن المجتمع على الأرملة ، ولم يرفق بالأيتام ولم يتعهد المساكين لانعكس كل ذلك بصورة سلبية على البيئة الاجتماعية .

وقد استغل الشاعر محمد العيد أسلوبا نفسيا مرنا يكتسي طابع الأثارة في دغدغة الشعور بل ووخز الضمائر الحية عندما بين بعض الانحرافات ومساهمة الأغنياء فيها، ويقسو على هذا النوع من الرجال الذين تنعدم روح الغيرة من نفوسهم ، وتتبدد إنسانيتهم ويضمحل إيمانهم اذا لم يدفعوا الخصاصة عن نسوة يبعن أعراضهن في سبيل لقمة العيش لأبنائهن . (2) فهذا النوع من النسوة لم يرتكبن الفاحشة انسياقا وراء التقليد ، أواستهتارا بالقيم ، بل نتيجة لبخل الأغنياء ، وانعدام روابط التكافل والتضامن بين المسلمين ، وتقوقع الأغنياء حول أنانيتهم المفرطة ، وتناسي الأيتام والفقراء والبائسين .

فالشاعر يضع نصب عينيه أن الحل إسلامي يقتضي تطبيق روح التكافل الاجتماعي التي أكدتها شريعتنا الاسلامية .

وقد ركز بعض الشعراء على محاربة ظاهرة تقليد الغربي في مجونه وفسقه لا في علومه وثقافته. فالغربي حاول بكل ما أوتي من قوة أن يبعد الجزائري المسلم عن ميادين الثقافة والعلوم ويلقي به في أتون الخلاعة والمجون، قصد إضعاف الأخلاق ، وزعزعة أركان المجتمع، والغريب في الأمر أن يقع المسلم في هذه الحبائل المنصوبة له ، فيقلد الغربي في موبقاته ، ويغرق في وهاد الفسق ، ويركب دروب الشيطان دون ترو أو إعمال نظر :

---

1 ـ محمد العيد ، يابحر ، الديوان ، ص 64.

2 ـ محمد العيد ، هيهات يخزى المسلمون ، الديوان ، ص 113 .

نقلدهم كالببغاء ، تفرنجـــا	ولم نتبع مـاقررته الأوائـــل
نقلدهم في فسقهم ومجونهـم	ولكن سدابيننـا والفضـائـــل
وإنا فرادى في المكارم والحجى	ولكننا في الموبقات جحافـــل
شباب على نهج الغواية ســادر	وشيب عن الارشاد والنصح عادل . (1)

فالمسلم يغض النظر عن شريعته، ولا يقلد الغربي فيما ينفعه من علم وثقافة، ومنهجية، ومصادر قوة، بل يقلده فيما يضعف عزيمته ويوهن إرادته ويحط من قيمته ويقضي على مقوماته الشخصية .

وكان من أثر بعض الانحرافات الاجتماعية التي غذاها الاستعمار، وقوتها الارساليات التبشيرية، ورعاها بعض الجزائريين المنحلين الذين رفعوا لواء الاندماج والتغريب ، أن افتتن بعض الشباب المثقف ثقافة فرنسية، والمهيأ أكثر من غيره للاندماج في هذا الكيان الغريب بموجة سفور الغربيات ، وتبرجهن وعرض فتنتهن في الشوارع والشواطئ فغرته هذه المظاهر المثيرة ، وعاف بنات جنسه ودينه، ورغب في الزواج من الأجنبيات دون أن ينتبه لعواقب ذلك على تنشئة الجيل الجديد.

فالتربية موكولة بالدرجة الأولى الى الأم، وهذه الأخيرة لن تسمح لنفسها بالتخلي عن دينها ولغتها وعاداتها، وخصائص شخصيتها المتميزة، وتلقن كل هذه الحقائق الى أبنائها من صلب هذا الرجل العربي الذي تنظر إليه نظرة احتقار لأنه ينتمي إلى طبقة مغلوبة على أمرها، باعتباره رمز الحضارة مسيطرة وباعتبارها نتاجا لحضارة أرقى.

وقد عمد الشاعر محمد الأمين العمودي الى نموذج من هذه الظاهرة ، وسلط عليه قوارص انتقاداته المؤلمة ، في صورة ساخرة تثير الشفقة أكثر مما تثير الضحك، بل انها تثير الرثاء لهذا النوع من دعاة المساواة والتجنيس والاندماج الذين غرهم الاستعمار بأساليبه المعسولة، وزين لهم الانغماس في حمأة التغريب ، فقال بشأن الطبيب الذي تزوج أجنبية وولدت له ذكرا سماه « صالحا » وسمته أمه « موريسا » :

1 - حمود رمضان، علام نلوم الدهر والله عادل، وادي ميزاب، ع 100، 1928/09/14، 30 ربيع الأول 1347، ص 03.

حي الطبيب ولا تنس قرينته فهو سليمـــان و«المدام» بلقيـــس
له غلام أطـال الله مدتـــه تنـــازع العـــرب فيه والفرنسيـس
لا تعذلوه إذا مـاخان ملتـــه فنصفه «صالح» والنصف «موريس» . (1)

«وفي الحق إن هاته الأبيات هي منطبقة على جميع هؤلاء الشبان المغرورين الذين يتركون قريباتهم العربيات ويتزوجون بالأجنبيات البعيدات » (2) وأغلب هؤلاء من المتفرنجين الذين انسلخوا عن مقوماتهم الذاتية ، وانساقوا وراء غوايات المدنية الغربية بفسقها ومجونها وخلاعتها. (3)

وقد تفطن الشعراء الى خطر مثل هذه الانحرافات ، فركزوا بالخصوص على التنشئة الاسلامية للنشئ، صونا له من هذه التيارات الدخيلة، وحفظا لمقوماته الذاتية كما سنوضح ذلك في مكانه .

إن الشعراء لم يعدموا وسيلة يخاطبون بها الناس ، ويحاولون اصلاح أمورهم وتوجيه شؤون حياتهم وأسلمة سلوكهم بما يخدم الأخلاق الفاضلة، ونلحظ أن شعر هذا المجال يكتفي ببعض اللمحات السريعة ، والإشارات العابرة من خلال القصائد الإجتماعية التي تتطرق الى جملة من الموضوعات المعيشة .

إن القصائد التي وجهت الى محاربة الفساد الاجتماعي قليلة ، لأن الشعراء لم يكونوا يكتفون بالقصائد الشعرية، بل تعددت جبهات كتاباتهم فمنهم خطباء الوعظ والارشاد ، وبعضهم كتاب مقالات ... ولذلك كان حظ الشعر قليلا، وأقله يرقى الى المستوى الفني المقبول.

فأحمد سحنون مثلا، لم يركز على مثل هذه المظاهر الا بعد الاستقلال ، ولم يهتم بها قبل هذه الفترة، إما تحرجا، أو تعففا ، أو أنه عالج ذلك في خطب الوعظ والارشاد .

كما أن شعرا من هذا النوع هو شعر مضمون لا شعر فن ، فالشاعر ينظر إليه على أنه وسيلة الى الجمهور ، مما طبعه بطابع الخطبة النثرية التي تحفل بالقوالب المباشرة:

---

1 ـ ننظر الأبيات في : محمد السعيد الزاهري ، الاسلام في حاجة الى دعاية وتبشير، دار الكتب ، الجزائر 1983 ، ص 59. مع الملاحظة أن هذا الكتاب قد طبع في طبعته الأولى سنة 1928، وفي طبعته الثانية سنة 1933 .

2 ـ م.ن ، ص 60.

3 ـ وانظر للزاهري أيضا مقاله : التفرنج الآثم ، البرق ، ع7 ، 16 شوال 1345هـ ، 1927/04/18، ص 1 .

من موعظة خالية من الشاعرية وروح تقريرية طاغية تجعل الجانب الفني يضعف ويتقلص أمام طغيان الجانب المضموني .

فالشاعر كان يخاطب عقل المسلم قبل عاطفته ، ويبين له خطر هذه الانحرافات والآفات للصد عنها ، وهجرها، والقضاء على خطرها في سبيل تكوين مجتمع أخلاقي خال من كل الأمراض ، متشبث بأهداب دينه وملتزم بالأخلاق الاسلامية الرفيعة .

والقصائد مزيج أحيانا بين الذاتية والموضوعية ، فالشاعر الاصلاحي يتجه إلى الجمهور اصلاحا ووعيا ، ولكنه في الوقت نفسه يحاول أن يصور من خلال ذلك مشاعره فيطغى الجانب الذاتي حينا، كما يطغى الجانب الموضوعي حينا آخر .

3 ـ قضيـــة المـــرأة :

إن الحديث عن القضايا الاجتماعية يسلمنا حتما الى الحديث عن قضية المرأة ، ونظرة شعراء الاتجاه الاصلاحي إليها، في ظل معطيات استعمارية كالحة، ووضع ثقافي متدهور وأمية مُتفشية، وفقر يكاد يكون مدقعا في أغلب الأوساط وأمراض اجتماعية فتاكة تنهش جسم المجتمع فتضعفه.

وفي بداية القرن العشرين لم تكن حالة المرأة الجزائرية بأفضل من حياة أخيها الرجل فكلاهما يرزخ تحت نير الاستعمار ، يتحكم في مصيرهما مستعمر غاصب يكتم أنفاس كل فكر حر، ويسلطّ علّى الشعب سياسة التجهيل والتفقير، وتنفرد المرأة بسيطرة الرجل عليها في أغلب الأحيان، وحرمانها من بعض حقوقها التي ضمنها لها الاسلام، وتكاد تكون حريتها معدومة أمام سلطة الرجل، في ضوء تآويل خاطئة لأحكام الشريعة .

وقد رفعت الحركة الاصلاحية لواء إصلاح الانسان الجزائري رجلا كان أم امرأة ، واعتنت بالمرأة لكونها جزءا هاما من المجتمع ، ولكون التربية موكولة إليها، مؤهلة لها، فركزت على تعليمها وتهذيبها، وحددت إطار معينا للمبادئ التي تتعلمها في ضوء الأحكام الشرعية.

ولم تكن الحركة الاصلاحية تنطلق في موقفها هذا مع أية دعوة تحررية ، وليست متجاوبة مع أي تيار كان، اللهم إلا مايمليها عليها شرعها، وتسمح به عقيدتها، لأن منطلقها كان إسلاميا سلفيا، ولذلك لم تحبذ خروجها سافرة الى الميدان العملي، بل دعت الى تعليمها وتربيتها للقيام بدور أشمل وأخطر من دورها في الحياة العملية خارج بيتها.

وعلى هذا الأساس ، قل دعاة السفور والتبرج، وتحرير المرأة بالمفهوم الحديث للحرية المطلقة ، فمثل هذه الدعوات «لاتجد صدى لها في المجتمع الجزائري بسبب سيطرة الروح الدينية والتربية والبيئة هذه البيئة التي كانت تحد من انطلاق الشباب أيضا .

وكانت النظرة المحافظة للمرأة - بالإضافة الى تأثير الدين - هي الخوف من أن ترتمي في أحضان الحضارة الغربية فتتخلى عن قيمها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها الإسلامية العربية فتفقد بذلك الأمة شخصيتها بفقدان تقاليدها .» (1)

وفي هذا السياق فان الأمثلة ماثلة للعيان أمام الجزائريين ، فالمرأة الغربية تتخبط في وضعية مزرية رغم الحرية المزعومة ورغم التطور الذي تدعيه المدنية الأوربية.

واذا كانت المرأة الشرقية على وجه الخصوص قد حققت قفزة نسبيا فارتمت في أحضان السفور والتبرج تحت تأثير دعوات كثيرة تنطلق من اتجاهات متعددةواحتكت بالتقاليد الغربية فقلدتها في مظاهرها السطحية ، فان هذا الاحتكاك لم يكد يحدث في الجزائر على المستوى الاجتماعي نظرا لتقوقع المجتمع حول نفسه وتمسكه بعاداته وتقاليده ونظرته الى الاستعمار باعتباره كافرا ينبغي الاحتراز منه، وعدم السماح للمرأة بالخروج وحدها إلا في نطاق محدود . بل ان المرأة الجزائرية لم تختلط بغيرها إلا في نطاق ضيق ، وخاصة في المدن الكبرى ، وعلى مستوى الأسر التي تربطها علاقات ما مع الفرنسيين ، تعاملا أو تجارة أو خدمة أو ما شابه ذلك .

وفي الميدان الشعري فان انعكاس قضية المرأة فيه بسيط جدا، والقصائد قليلة ، والمواقف تكاد تكون متشابهة ، لأنها تنطلق من نفس المنطلق الاسلامي نفسه .

ولن نتعرض في هذا المبحث الى موضوع الغزل وأنواعه ، بل نحصره في الحديث عن الموقف من المرأة من حيث أنه موقف اجتماعي بالدرجة الأولى، يتعامل مع المرأة، ويحدد لها الاطار الأمثل الذي تنشط في مسرحه، انطلاقا من التوجيهات الاسلامية. (2)

ففي بداية القرن هناك شعراء قلائل «تصدرت قصائدهم عناوين مؤنثة مثل (عمر بن قدور) في قصيدته (فتاة طرابلس الغرب) وسعد الدين الخمار في قصيدته (الفتى والفتاة) قبل الحرب العالمية الأولى » (3)

ولا يمكن في اعتقادي مناقشة هذه القضية بالاعتماد فقط على القصائد ذات العناوين (المؤنثة) كما سماها الدكتور خرفي ، ذلك لأن الشعر في هذه الفترة لم يكن يتوفر غالبا على وحدة موضوعية ، يمكن أن نستأنس إليها ونعتمدها كمحطات للعمل.

1 - د. الركيبي ، القصة الجزائرية القصيرة ، ص 30.

2 - فهناك من ألف كتابا كاملا في الموضوع مثل كتاب الاكتراث بحقوق الاناث محمد بن المصطفى بن الخوجة ينظر خاصة دبوز، نهضة الجزائر، ج1، ص 128.

3 - د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص 168.

فالشاعر يجمع أغراضا كثيرة في قصيدة واحدة مما يصعب إعطاء عنوان لها، بله التكهن بموضوعها .

وبعد الحرب العالمية الأولى ، كثرت الهزات في كل المجتمعات ، وكان لها تأثيرها على نفوس الشعراء ، فتجلى الاهتمام واضحا بقضية المرأة ، وظهرت دعوات حارة للنهوض بها، وتجلت على ألسنة الشعراء «في صورة مثالية هي أقرب الى الخيال منها الى الواقع » (1)

وأحسن مايمثل هذا الموقف قصيدة الشاعر محمد الهادي السنوسي، «الفتاة الجزائرية» (2) والتي كانت صورة متخيلة لما يمكن أن تكون عليه المرأة الجزائرية في ظل الحركة الاصلاحية ، ونهضتها العلمية المرتقبة.

يقول الشاعر :

أخذت تمد إلى النهوض الجيدا لما رأت علم الاخا معقودا (3)
ومشت تجدد للبنات مودة نحو البنين الطالبين صعودا
بنت تمت إلى العروبة نسبة حسناء تخجل في الجمال الغيدا
تفتر عن برد إذا أبصرته أبصرت منه اللؤلؤ المنضودا

وعلى لسان الفتيات يقدم صورة عن الحالة التي كن يعشنها من جهل وتخلف وعبودية:

إنا بنات الشعب في أمية ملئت رؤوس الناشئات خمودا
ومشـ[illegible] الناشئين جهالة صاروا بها بين الفرنجة دودا
كانت لنا في الغربيات مكانة ترعى فاصبحنا لهن عبيدا
ناشدتكم بالله والرحم التي في الكتب مجد ذكرها تمجيدا
أن تبعثوا بالعلم في أبنائكم روحا ومن كيس المشح نقودا (4)

---

1 - م.س، ص 169.

2 - ذكرها الدكتور خرفي تحت عنوان« المرأة الجزائرية » في كتابة «الشعر الجزائري الحديث».

3 - إشارة إلى محاولة تاسيس (جمعية الاخاء العلمي) بقسنطينة في سنة 1924.

4 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 196/195.

إن الشاعر وان كان قد علق على العنوان بقوله«تخيل الشاعر هذا الفتاة وأنشأ عليها هذه القصيدة» (1) فان تسامي الشاعر الى عالم المثال والخيال، لايعني هروبه من الأرض، وانعزاله عن الواقع الحياتي. لأنه لم يسم في هذا العالم إلا ليُفكر كيف تكون الصورة الإيجابية للمرأة، والواقع الذي يرضاه لها إلتزامها بالسلوك الاسلامي ، بل أن الشاعر يصطدم بالواقع ومآسيه وبؤسه ومنغصاته، فيحلم بعالم المثال وشفافيته، بل ويطمح الى تحقيقه في أرض الواقع ، سموا بالعالم الواقعي الى مستوى العالم المثالي.

فالعالم الواقعي لايرضيه باعتباره شاعرا مرهف الاحساس، فيهرب الى تخيل عالم مثالي شفاف، ورقيق يسمو به على أدران الواقع.

وقد اختنقت فكرته فيْ المهد «أوتلاشت كما تلاشت المحاولة الأولى لتأسيس جمعية العلماء (2) الاطار الذي تخيله الشاعر للنهوض بالمرأة» (3)

لم تخرج إذن هذه الدعوة عن الاطار الذي رسمته الحركة الاصلاحية ، وهو الاطار الاسلامي السلفي، رغم أن شاعرا هو محمد الصالح خبشاش قد شذ عن هذه القاعدة ، حيث آلمته الوضعية المزرية التي تتخبط فيها المرأة، وظلامة الحجاب المضروب عليها قصرا، وتخيله سجنا يحد من انطلاقتها نحو آفاق العلم والمعرفة، وفي درب اللحاق بمثيلاتها الأوربيات .

وقد أفسح الشاعر المجال للحديث عن قضية السفور والحجاب ، وهذه القضية التي طرحت على الساحة الثقافية في هذا الوقت المبكر قد ترعرعت في أوساط الطبقة المثقفة ثقافة فرنسية، وبعض دعاة التغريب المتجاهلين للتراث الديني الذي يوجه سلوك المرأة الجزائرية المسلمة الوجهة السليمة .

وقد وجد هؤلاء الدعاة في الجزائر مرتعا خصبا ينشرون منه أفكارهم سواء في صحيفة «الصوت الأهلي»(4) للربيع الزناتي المتجنس، أو صحيفة «صوت المستضعفين» (5) الصادرتين بالفرنسية. (6)

---

1 ـ م. س.

2 ـ تخيل الشاعر إطار نهضة المرأة في جمعية الاخاء العلمي، وليس في جمعية العلماء، وكانت الأولى نواة فكرة للثانية.

3 ـ د.خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص 172.

4 ـ La voie Indigene

5 ـ La Voie des humbles

6 ـ ينظر : علي مراد، م.س ص 317 ـ 321، ففيه تفصيل عن أثر هاتين الصحيفتين ومن الأثر التركي والمصري.

وهو شأن الدعوات التي ظهرت في البلاد العربية ، والتي قادتها البيئات المسيحية التي عششت في تلك المناطق، في سوريا ولبنان على سبيل المثال«فقد كان أدب المناصرة للقضية النسائية أبرز في البيئات المسيحية. » (1)

وقد كان التأثير المصري واضحا في هذه القضية ، إذا انتقل إلى البئات الثقافية العربية عن طريق الإطلاع على الصحافة المصرية ، والصراع المحتدم فيها بين دعاة السفور ودعاة الحجاب، «وللمرحوم قاسم أمين أنصار يدعون المغربيات الى السفور وترك الحجاب ، غير أن دعوتهم لم تجد ملبيا ولا مجيبا فأخفقت إخفاقا شديدا .» (2)

إن تأثير قاسم أمين وأضرابه قد وصل الى الجزائر واطلع بعض الشعراء والكتاب على كتابيه : «تحرير المرأة» الصادر سنة 1897، و«المرأة الجديدة» الصادر سنة 1901، أو اطلعوا على الأقل على الضجة الاعلامية التي أثارها ظهور هذين الكتابين في الصحافة المشرقية والتي استمرت طوال نصف قرن .

ويمكن أن نلاحظ أن قاسم أمين لم يكن يرفض الحجاب كما قرر في الدين ولكنه يرفض الحجاب المصطنع الذي يغطي المرأة كاملة، يقول في هذا الصدد : «فانني لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره اصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها. غير أني أطلب ان يكون منطبقا على ماجاء في الشريعة الاسلامية .» (3) ويقول في موضع آخر :

«إننا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى أحكام الشريعة الاسلامية » (4)

وكان تأثير مصطفى كمال أتاتورك أعمق في هذه القضية ، فهو الذي حمل نساء تركيا على السفور وأفسح لهن حرية الاختلاط بالرجال ومواقعهم وكان لصنيعه رد فعل أثمر معارك فكرية في الصحافة وفي الأندية ، ومامن شك في أن صداها قد بلغ الجزائر التي كانت على صلة بالثقافة المشرقية .

إن ثورة الشاعر خبشاش على الحجاب في قصيدته «المرأة والحجاب» (5) تذكرنا بموقف الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي الذي يخاطب المرأة العراقية في قصيدته «الحجاب والسفور»

---

1 ـ أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص266.

2 ـ محمد السعيد الزاهري، مكانة مصر في المغرب العربي، مجلة الرسالة ، س4 ، ع 135 7ذق 1354هـ ، 36/2/3 ، ص 180.

3 ـ قاسم أمين ، تحرير المرأة ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1990 ، ص 59.

4 ـ م.ن، ص 77.

5 ـ ننظر في: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص 94.

مزقي يابنة العراق الحجاب واسفري فالحياة تبغي انقلابا
مزقيه واحرقيه بلاريث فقد كان حارسا كذابا (1)

وفيها يشير الى النزاع القائم بين المحافظين والمجددين فيقول مدافعا عن هؤلاء الأخيرين :

زعموا أن في السفور سقوط في المهاوي وأن فيه خرابا
واذا ماطلبتهم بدليل يثبت الدعوى أو سعوك سبابا
كذبوا فالسفور عنوان طهر ليس يلقى معرة وارتيابا (2)

ويبدو أن شاعرنا «خبشاش» قد تأثر بهذا الموقف ، وبما سبقه من مواقف، فثار في وجه الحجاب في الجزائر ودعا الى تمزيقه، والاقتداء بالمرأة الأوربية في حضارتها، يقول الشاعر مستهزئا بالوضعية التعيسة التي تحياها المرأة الجزائرية في نبرة سخط على واقعها الأليم :

تركوك بين عباءة وشقاء مكؤوبة في الليلة الليلاء
مغلولة الأيدي بأسوأ بقعة محفوفة بكتائب الأرزاء
دفنوك من قبل الممات وحبذا لو مت قبل تفاقم الأدواء
مسجونة مزجورة محرومة محفوفة بملاءة سوداء
ماذا جنيت على الزمان وأهله حتى رموك بطعنة نجلاء (3)

ونلاحظ هذه الصفات المتكررة التي يعيدها الشاعر تأكيدا لفكرته وابرازا لموقفه ، واعطاء كل ذلك بعدا تأثيريا واضحا في ذهن المستمع ووجدانه فالمرأة في أبياته تراكمت عليها صفات الشقاء والتعاسة، فهي شقية، مكؤوبة (من الكآبة) مغلولة، محفوفة بالأرزاء،مسجونة،مزجورة،محرومة،محفوفة بالحجاب الكثيف ..الخ.

2،1 ـ تنظر الأبيات في: د.يوسف عزالدين، الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، 1965 ـ ص 248.

3 ـ شعراء الجزائر ، ج2، ص 96/94.

ونتساءل : هل هذه الوضعية المأساوية من نتائج هذا المظهر الخارجي أي ارتداء المرأة لحجابها؟ أم الى عوامل موضوعية أخرى؟ أعتقد أن الوضعية تعود بالدرجة الأولى الى عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية أفرزتها حركة تطور المجتمع الجزائري في ظل واقع استعماري بغيض.

واذا كان الشاعر يذهب بعد الأبيات السابقة الى حد المقارنة بين الوضعية السابقة ووضعية المرأة الأوربية في قوله :

فإلى متى هذا الحجاب الى متى　　　إلى التلاشي أم ليـوم لقــاء

أترابكن من الفرنج غدون.فـــي　　　غرف العـلى من عزة قعســاء

وتمتعت أفكارهن بنهلـــــــة　　　من خمرة العرفان لاالصهباء (1)

فهل النتائج التي حققتها المرأة الغربية تعود الى سفورها أم الى عوامل أخرى من تربية وتعليم وتكوين ، وجو اجتماعي سائد وعلاقات إنسانية متمكنة في المجتمع؟

أعتقد أن «مشكلة المرأة مشكلة إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدنية ، فلا يكون حلها إذن بمجرد تقليد ظاهري لأفعال المرأة الأوربية دون مانظر الى الأسس التي بنت عليها المرأة الأوربية سيرها .» (2)

كما أعتقد أن التطرف في سجن المرأة ومنعها من التعليم هو الذي دفع خبشاش وهو الشاعر المتطلع الى حياة أفضل للمرأة - الى تطرف في الموقف تحت تأثير عاطفة جياشة فلم يدع فقط الى التعليم بل دعا الى الجرأة على الحجاب الذي خيل إليه أنه السبب في منع المرأة من التعليم.هذا من جهة ومن جهة أخرى فاننا نحس في نهاية القصيدة بتذبذب موقف الشاعر ، فهو عندما يحاجج العلماء ويدعوهم الى مقارعة الحجة بالحجة يحول دفة القضية الى وجهة أخرى هي «تعليم المرأة» لا إلغاء الحجاب .

وبديهي أن جماعة الهدى والملة السمحاء - كما يسميهم - لايعارضون تعليمها ولكنهم يعارضون تقليدها لسفور الأوربية .

---

1 - شعراء الجزائر ، ج2، ص 96/94.

2 - مالك بن نبي، شروط النهضة ، ص178.

ومما يزيد تأكيدنا على عدم استحكام الفكرة في نفس الشاعر هو أنه تخلى عنها نهائيا إما لكونها نزوة شبانية، أو لكونها تقليدا لمواقف مشرقية،أو باعتبارها رد فعل متطرف على مواقف متطرفة من تعليم المرأة،أو بدافع الخشية من المجابهة المحتملة مع رجال الحركة الاصلاحية،أو أن صوته لم يجد له صدى في وسط إصلاحي غير مستعد لتقبل الفكرة رغم النداء الذي وجهه الشاعر الهادي السنوسي الى الشعراء من أجل توضيح مواقفهم في الموضوع. (1)

والشاعر السنوسي وإن لم يعط رأيه صريحا في الموضوع إلا أن إشادته بالشاعر خبشاش «توحي بأنه كان يميل الى القول بالسفور» (2)

ورغم أن هذه القصيدة قد كتبت في فترة متقدمة . (3) وكانت «بدعا في فكرتها وجرأتها في الشعر الجزائري الحديث» (4) إلا أنها لم تثمر كما كان متوقعا عن أية نتيجة وخاصة في الميدان الشعري؛ ذلك لأن الشعراء الاصلاحيين كانوا يدركون أن السفور قد يؤدي الى مهاوي الرذيلة والانحلال، فعمدوا الى الاحتياط وسد الذرائع أمام أهل النفوس الضعيفة ، «ولاريب أن الحجاب حيطة والاختلاط ترخص فلذلك أوجب الدين الحجاب ونهى عن الاختلاط إلا في أحوال معينة ، ومن وراء حدود مرسومة تؤمن معها الفتنة ولايخشى فيها التعرض لها» (5) ثم أن قضية الحديث عن السفور قد تجلب السخرية من صاحبها وسط هذا الجو الاصلاحي فـ «الصبغة الدينية للشعراء كانت تمنعهم من الخوض في هذا الموضوع . إما لأن فيه إحراجا لهم أو أنهم كانوا لايؤمنون به ويعارضونه» (6)

ومن خلال ماسبق فان الشاعر خبشاش قد انضم في آرائه الى قافلة الحركة الاصلاحية وتخلص نهائيا من موقفه الجرئي السابق بل وتطرف في موقفه الحالي، دعوة الى ترك المرأة جاثمة في الدور،مستورة بعيدة عن غوايات السفور يقول الشاعر :

اترك الطير جاثما في القصـــور	فاذا فـر لم يعـد للـــدور
وتدبر عواقب الأمـر واعلــــم	أن بعد السفور شرب الخمور

---

1 - حيث قال: «ولعلهم يمدون أقلامهم بعده الى حجاب المرأة ويعطوننا آراءهم صريحة في الموضوع وماحرية البحث بضيقة المجال اليوم» شعراء الجزائر ،ج2 ، هامش ص 94.

2 - د. الركيبي، الشعر الديني ، ص 677.

3 - أي في سنة 1925.

4 - د.خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 171.

5 - علي النجدي ناصف، الدين والأخلاق في شعر شوقي مكتبة نهضة مصر ،ط2، 1964، ص 183.

6 - د. الركيبي، الشعر الديني ، ص 679.

(نظرة فابتســـــامة فحديـــــث) مستطـــاب فغيرهـــا من أمــور

ليت شعري هل يرتجي الستر قوم كشفوا الستر عن ذوات الخدور؟ (1)

بل ودعا أيضا الى مقاومة تيار التجديد والتحرير، وهو التيار الذي شغل الكتاب والشعراء في الشرق العربي خاصة إثر دعوات وصيحات تردد صداها في ذلك الوقت، ووصل خافتا الى منطقتنا وكان له دعاة من أذناب الاستعمار ملحدين ومتجنسين وتغريبيين. يقول الشاعر من مقطوعة «السلامة في الوكر» (2) وعنوانها يغني عن مضمونها :

لا تسمعـــوهن تحريـــرا وتجديـــدا ولا أزيدكموا للأمـــر توكيـــدا

ذم المنـــازل إن أضحت بهـــا نكـر تبـدد الصفـو والتوقيـر تبديـدا

ماذا تقول - أبيت اللعن - إن برزت أسرابهـن وقد أبدت لك الجيـــدا

خل الأمـــور بلاشـــرح فان لهـــا مصائبا بات منها البعض منكودا.

لقد أدرك الشاعر خطر السفور والاختلاط ، فراح يحذر من ذلك داعيا الى مواقف إصلاحية تستوحي أراءها من الفكر الاصلاحي لجمعية العلماء ، وهو فكر يستمد أسسه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

إن قضية المرأة لاتكمن في مسألة الحجاب والسفور،بل هي تتجاوز ذلك الى الأمور الجوهرية في حياة الانسان الجزائري الذي لم يكن مثل هذا الأمر يعنيه في ظل الوضعية المزرية التي يتخبط فيها. فالشاعر محمد بن بسكر كمثال قد تفطن الى هذا الجدل العقيم الذي كان خبشاش يحاول توجيه الأنظار صوبه تاركا الوجه الحقيقي للقضية والذي يتركز في الدين والعلم والأخلاق .

إن اللباس عند ابن بسكر مجرد مظهر خارجي لايغني عن المضمون شيئا وأن الاهتمام بهذا المظهر يحمل في طياته مغالطة،وأن النهضة الحقيقية هي النهضة الدينية المرتكزة على العلم والعمل .

---

1 - خبشاش،سفور البانيا، النجاح، ع1975، 1937/3/31.

2 - خبشاش،النجاح، ع1977، 1937/4/7.

فيقول الشاعر :

ليس السفور ولالبس البرانيـــط   هو النهوض فلا تركن لتغليـــط

إن النهوض لفي ربط الجديد بمـــا   يرضي القديم وفي حزم وتنشيط

فانهض بدينك إن رمت العروج الى   أوج السماء وجانب كل تخليـــط (1)

ويبدوا أن الشعراء كانوا يستمدون مواقفهم من مواقف الحركة الاصلاحية التي لم تكن ترى الحجاب عائقا عن التقدم ، اذا أزيل حجاب الجهل، يقول الامام ابن باديس «اذا أردتم اصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها،فان حجاب الجهل هُو الذي أخرها،وأما حجاب الستر فانه ماضرها في زمان تقدمها،فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانا عاليا في العلم وهن متحجبات فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم الى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء» (2) فابن باديس وبأسلوبه المتميز يميل الى المنطق والعقل، ويوظف التاريخ في الاستدلال برأيه، ويسوءه أن تتركز المجادلات حول أمور سطحية متناسية الأمور الجوهرية بل يستنكر مثل هذه المواقف وكان له مؤيدون وأنصار. (3)

ثم ان صف المحافظين كالزاهري ومحمد العيد وأبي اليقظان والعمودي وحمود جمعتهم فكرة واحدة وحدت أراءهم حول هذا الموضوع هي«الرفض المطلق لكل تجديد يحاول المساس بشرف المرأة المسلمة أو يتطاول الى تحريف نص من نصوص القرآن ، أو تأويله حسب الميل والهوى» (4)

فأبو اليقظان يرى أن القضية تمثل جوهر الصراع بين المسلمين وأعدائهم الغربيين محاولة من المستعمرين لتشويه الأسرة المسلمة ، واضعاف أخلاقها وتفكيك روابطها فيقول «إن مسألة السفور والحجاب ليست مسألة جمود وحركة ورقي وانحطاط، وعلم وجهل بل هي مسألة تدين وتجرد، عفاف وتهتك ، عقل وطيش، وجملة هذه فتنة من فتن أوربا خدعت بها أغرار المسلمين لينصرفوا عن واجباتهم الدينية والوطنية الحقيقية .» (5)

---

1 ـ النجاح، س 9 ، ع 782 ، 1 ربيع الثاني 1348 ، 29/9/4 ، ص 03.

2 ـ الشهاب ، ج 10 ، مج 5، نوفمبر 1929 ، 1 جمادي الثانية 1348، ص 09.

3 ـ انظر مثلا: الأمين العمودي كلمة عن السفور ، الاصلاح ، ع11 ، 13 شعبان 1348، 1930/1/23.

4 ـ د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م1 ، ص 249.

5 ـ وادي ميزاب، ع72، 1928/3/2.

ولذلك كان موقفه من هذه (الفتنة الأوربية) موقف من يغار على دينه ، ولايرضى الدنية في شريعته، فقال بما لايدع مجالاللشك أو التأويل «ان حجاب المسلمة دين» (1)

أما حمود رمضان فيتساءل مستنكرا حالة القوم الذين يفكرون في رفع حجاب الستر عن وجه المرأة ، والابقاء على حجاب الجهل : « ياللعجب لقوم يريدون أن يرفعوا الحجاب عن وجه المرأة ، ونقاب الجهل والاستعباد والتأخر لازال مسدولا على وجوههم» (2)

بل ان الشاعر محمد العيد قد وقف موقفا صارما من القضية ، وأصرعلى احتجاب المرأة ، وفاء لها من الشرور،وصيانة لها من الفساد،وعصمة لأخلاقها،ووسيلة للمحافظة على عفتها واحتشامها :

كيف تنجو من الشرور نساء	لايواري وجوههن لثام
صار خلق العفاف أندر خلق	وتفشى الفسوق والاجرام
عصمة المرأة احتجاب وصون	وإباء وعفة واحتشام (3)

فموقف محمد العيد ينبع أصلا من البيئة الثقافية والاجتماعية التي تربى فيها والسلوك الاسلامي الذي يجسده في حياته العامة فكانت نظرته الى المرأة نظرة إسلامية تنطلق من موقف الدين والأخلاق والتقاليد الاجتماعية أفلا يمكن اعتبار الأبيات السابقة تنطلق من قوله تعالى «ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما» (4).

فستر الأجزاء الفاتنة من جسم المرأة المسلمة تمييز لها عن غيرها من اللاتي يبدين زينتهن ، ويتبرجن فيغرين الناس، ويتعرضن للأذى من أولئك الذين في قلوبهم مرض، ثم ان السفور ومايترتب عليه من تبرج وإبداء للفتنة يسلك المسلمة في مسالك الشك والريب، ويطمع فيها الفساق والفجار ، ويتعرضون لها قولا وفعلا. (5)

---

1 ـ المرأة في الاسلام، وادي ميزاب، ع78، 1928/4/6.

2 ـ بذور الحياة، ص69، وله مقالات وخواطر في الموضوع، أهمها مقالة : دعاة التجديد الذي اعتبرفيه السفور خروجا الى جهنم الفتن، ومعارك الشهوات .وادي ميزاب ،ع110، 1928/11/30.

3 ـ الديوان، ص 179.

4 ـ الآية: (59) من سورة الأحزاب.

5 ـ وللاستزادة انظر الآية (13) من سورة النور وما تحدده من مبادئ سلوكية للمرأة .

وقد وقف الشاعر محمد الأمين العمودي (1) على النقيض من بعض الشعراء ، إذ ألصق جملة من التهم على رأس المرأة ، فاعتبرها أصلا لكل المصائب فتاكة بالملوك والسلاطين تتصف بصفات رذيلة كالهمز واللمز، والتصنع والتقلب فقال من قصيدة «أمر دبر بليل » :

هي روح كل بلية فتاكة	حتى برب التاج والاكليل
همازة لمازة صناعة	للترهات سريعة التحويل. (2)

وأعتقد أن هذا الموقف قاس ومتطرف،وينطلق من موقف مسبق من المرأة أو يتعلق بنوع معين من النسوة خبر الشاعر مراميهن أو اكتوى بخبثهن ومكرهن.

وقد هاجمت القصيدة - بالإضافة الى ذلك - ماانتشر من بعض مظاهر الفساد ذات العلاقة بانحراف المرأة فكانت بمثابة «صرخة في وجه المجتمع وثورة على رق المرأة وهجوم عليها ايضا » (3)

إن النظرة الى المرأة في فترة العشرينيات تختلف من شاعر إلى آخر، ولم تكن تنطلق من مبدأ واضح كل الوضوح ، يتبناه الجميع ويعتنقونه، وهذا المبدأ سيتبلور بصفة جلية بعد قيام جمعية العلماء التي استقطبت اهتمامات الجميع ، ووحدت أساليب التفكير، وحددت الرؤى.

وأخذ الحديث عن تعليم المرأة يطرح بشكل جدي على مستوى الجمعيات والنوادي ، ذلك أن الآفة الكبرى التي تقوض أركان المرأة وتهز عروشها وتدحرجها الى الحضيض ليست هي الحجاب ، بل هي الجهل الذي ضرب رداء من ظلام على عقلها، فغشاها بالأمية، وطرحها في مهاوي التخلف الفكري ، وقذف بها في أتون الشعوذة والطرقية .

وقد ركز الشعراء على قضية الجهل« الذي عصب أعين النساء وأخذ بأيديهن الى بيوت النصابين والدجالين والسحرة يقدمن الضحايا والقرابين ويحرقن الشموع والبخور ويفرقن الصدقات والنذور ويقمن حفلات الرقص باسم ملوك الجن والشياطين.» (4)

1- (1898-1957) ، ينظر شعراء الجزائر ، ج 2 ، ص 19 ، والشهاب ج 11 مج 9 ، فيفري 36 ، وعلي مراد ، م. س. ص 110 ، والثقافة ع 43 ، فيفري ، مارس 78 ، والمجاهد الأسبوعي ع 1439، 88/3/4. ومحمد الأخضر عبد القادر السائحي ، محمد الأمين العمودي ، م. و. ك. 1988.

2 ـ شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج2 ، ص 26.25.

3 ـ د. الركيبي، الشعر الديني ، ص 680.

4 ـ د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م1، ص 231 ، 232.

وكانت الدعوة الى تعليم المرأة تعليما إسلاميا، تستقطب اهتمام الشعراء وتستحوذ على جانب كبير من عنايتهم وهو التعليم الذي يؤهل المرأة لتكون أما مثالية تتولى تربية أبنائها تربية متكاملة تؤهلهم للحياة المستقبلية .

وهو موقف ديني كان بمثابة رد فعل على دعاة إدماجها في السياسة التغريبية وتوجيهها توجيها غير إسلامي يعتمد القشور ويلغي اللباب كما سبقت الاشارة.

فحمود رمضان يركز على ظاهرة التهذيب والتثقيف للمرأة ، لأن الثقافة وحدها غير كافية، مالم تتوج بأخلاق تقومها ، ويدعو الى تعليمها مايهمها فقط من ضروريات الحياة. (1) وكأنه يخشى أن يمتد تعليمها الى أمور تخرج بها عن طابعها كربة بيت تعتني بأسرتها وبيتها ، وتربّي للمجتمع أجيال المستقبل،ولذلك فقد وضع خطا أحمر لايسمح للمرأة بتجاوزه .

<u>ويطرح التساؤل التالي</u> : ماذا نعلم المرأة في ضوء مواقف الحركة الاصلاحية ؟ كما رأينا فان الأديب حمود رمضان يحصر التعليم في «ضروريات الحياة لاغير» وابن باديس يقول «علينا أن نعلمها كل ماتحتاج إليه في القيام بوظيفتها ونربيها على الأخلاق النسوية» (2) ، أي تعليمها ماتحتاج إليه في القيام بوظيفتها كأم تربي الأجيال وتعدهم لمستقبل البلاد .

وهو التعليم الذي«يناسب خلقتهن ودينهن وقوميتهن» (3) حتى لايجمح التعليم بالمرأة الى مواقع تبتعد فيها عن رسالتها التربوية والتهذيبية .

وباختصار إنه التعليم المبني على أساس الدين والقومية ، (4) فهو دعوة الى ازالة غشاوة الجهل، ونشر التعليم ، وليس دعوة الى التحرير .

وقد اعتبرت قضية المرأة قضية ذات شأن ودرست بعناية في المؤتمر الأول لطلبة شمال إفريقيا الذي عقد بتونس سنة 1931، فهذا المؤتمر « هو أول هيئة ثقافية تطرح للمناقشة في مؤتمر عام قضية المرأة في المغرب العربي» (5) وقد خرج بعدة قرارات أبرزت موقف الشباب المثقف من قضية المرأة وكذا المكانة التي تتبوأها في هذه الفترة.

---

1 ـ بذور الحياة ،ص 70.

2 ،3 ـ الشهاب، ج10، م5، 1 جمادي الثانية 1348هـ ، نوفمبر 1929.

4 ـ انظر رأيا لابن باديس، الشهاب ، ج 3 ، مج 15 ، ربيع الأول 1358، أفريل 39.

5 ـ د.خرفي، صفحات من الجزائر، ش.و.ن.ت، 1973 ص 271. وهناك غير هذه الهيئة : جمعية الشباب الجزائريين لتثقيف المرأة المسلمة (1939) وجمعية النساء المسلمات الجزائريات (1953) [انظر البصائر، س1 ، ع 175 ، و ج المنار ، ع 49].

ويعتبر الشاعر محمد العيد من أكثر الشعراء اهتماما بموضوع المرأة حيث أنه لم ينقطع عن الدعوة الى تعليمها وتربيتها التربية الاسلامية الصحيحة التي تؤهلها الى المشاركة في تكوين جيل جزائري،اسلامي العقيدة ، عربي اللغة والتفكير .

ففي قصيدته «استوح شعرك» يدعو العلماء الى إعطاء النساء حقوقهن لما في ذلك من أثر على تكوين جيل صالح من الشباب ، فيقول :

أذوي العمائم علموا وتعهدوا	بالوعظ والذكرى ذوات البرقع
أتوا النساء نصيبهن من الهدى	يخرجن نشئا كالرماح الشرع (1)

ويحمل البيت الثاني تشبيها له مدلولات قومية ووطنية،فاذا الجيل الذي يتربى في أحضان الأمهات المتعلمات الواعيات بمسؤولياتهن لن يكون جيلا عاجزا عن درء الظلم، ولامتوانيا عن المجابهة، ولامستسلما لقوى البطش والظلم،بل يكون بمثابة الرماح المشروعة في صدر المستعمر تذوقه طعنات الموت لتعيد الى الجزائر إسلامها وعروبتها.

ويتوسل الشاعر بالأسلوب الخطابي ليؤدي الدلالة المنشودة من التوجيه والارشاد، مما يصبغ المعنى بصبغة التقريرية التي تقترب من القالب النثري وتقدم المعنى واضحا مسطحا دون إيماء أو ايحاء.

إن الحقوق التي يركز عليها محمد العيد هي الحقوق التي تجعل المرأة الجزائرية أُما صالحة قادرة على تربية أبنائها وتعليمهم وإعدادهم للحياة فاذا هي الحق في التربية التي تحصن بها نفسها، والحق في تعلم أمور دينها وشؤون تدبير منزلها ورعاية أطفالها والتودد لزوجها .

إنها التربية التي تعطيها مناعة وتقيها من هجمات الغواية وتحفظها من دعوات الضلالة والانحلال . ففي قصيدته «ويخلد الاسلام » تهيمن القيمة الأخلاقية الاصلاحية على القيمة الفنية فتطغى الخطابية ممثلة في أسلوب الأمر وسيلة الى تحقيق الغاية ، يقول الشاعر :

---

1 ـ الديوان ، ص149.

علموا البنت مابه تحصن النفـــــس لينكف عن أذاها اللئام

علموا المرأة الحقائق في الديــــــن فقد طوحت بها الأوهام

علموها كيف النظام وكيف السعــــي في بيتها وكيف القيام

علموها كيف الرعاية للطفـــــل وكيف التلقين والالهام

علمـــوها كيف التـــودد للزو ج وكيف التقدير والاعظام

علموها كيف الوقـــاية مما هاجمتها بشره الأيـــام

لاتغرنها بضاعـــة نخــــا سين كانت بها الاماء تسام (1)

فالشاعر لايتعلق بتلك النظرة الضيقة الداعية الى حجز المرأة في البيت بل يفتح المجال أمام تعليمها،فراح يؤكد من خلال التكرار لفعل التعليم ، الى تعليم المرأة مايتناسب مع استعداداتها الفطرية،فتنمي ثقافتها الدينية،وترفع من شأن ثقافتها المنزلية،وتوسع مجال تعليمها الى أساليب الوقاية والاحتشام والاحتجاب، حتى تصون نفسها من المغريات .

وينطلق الشاعر في قصيدته «نساء الجزائر » (2) من المنطلق الاسلامي نفسه الذي تحدده الآية الكريمة في قوله تعالى « ... وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (3) لأن ذلك مدعاة الى صيانة العرض والشرف من كل الريب والظنون .

ورغم بوادر الأمل التي كانت تطل على نفوس الشعراء من ثورة تعليمية تقضي على بؤر الجهل في نفوس النساء،فان الدعوة الى تعليم المرأة وتربيتها وتهذيبها بالآداب الاسلامية استمرت متواصلة بعد ذلك في الفترة الموالية ، حتى بداية الثورة المسلحة، فخفتت حدتها وتغيرت النظرة تغيرا جذريا وماعادت قضية الحجاب أو التربية تشغل الشعراء كثيرا بل ظهرت الدعوة جريئة الى خروج المرأة مجاهدة في ميادين الثورة المسلحة.

فاختفت لدى الشعراء ألفاظ التربية والتعليم وأصبحت المرأة في قصائدهم ثورية مساهمة في الجهاد،وفدائية مساندة لثورة الرجل، ثائرة على الظلم والطغيان

---

1 - الديوان ، ص 179.

2 - الديوان ص 574.

3 - الآية 33 من سورة الأحزاب.

محطمة لسلاسل القيود ، صائحة صيحة اللبؤات تتسابق مع الرجل الى ساحات الوغى (1).

وأحدثت الثورة انقلابا جذريا في الموقف من المرأة ، وتحولت من مجرد كم مهمل في البيت الى شخص فعال في الأحداث ، له احترامه وتقديره يملك مكانا في ساحة المعركة وفي قلب الجبل، وفي مخبأ المدن. وأصبحت المرأة تجسد معاني التضحية والبطولة والفداء، وقد عبر الشاعر (باوية) (2) عن تغير هذه النظرة حين خاطب المرأة في قصيدته «إنسانة الطريق»

حطمي الأغلال وامضي للسلاح

حطميها .. واهتفي ملء الأثير

ياطغاة اشهدوا اليوم الأخير

حطميها لم تعودي قطعة من أدواتي أو رؤى حلم ثقيل

حطميها لم تعودي عبد خلخال وسوط ودموع وعويل (3)

إن الفترة السابقة قد أثمرت وآتت أكلها وأوجدت نساء متعلمات عدتهن الفكرة، وزادهن العلم،ودرعهن العفاف،ورائدهن الصبر،وحصنهن الصلاح،وعمادهن الدين، وتاجهن الأخلاق.

ورغم أهوال الثورة فان المرأة لم تفرط في ذاتيتها ومكونات شخصيتها العربية الاسلامية لأنها تتحصن بحصن الإيمان ، وتتدرع بدرع التقوى .

* * * * * * * * * * * *

بقي أن نشير في آخر هذا المبحث الى أن الشعراء قد التفتوا الى بعض القضايا التي تؤرق المرأة وتحد من انطلاقها المكبوت ، وتعترض سبيل تقدمها، كالاشارة الى ما تعانيه المرأة من ويلات الشقاء والجهل، وامتهان الكرامة من قبل المستعمرين . فقد طرح الشاعر محمد الهادي السنوسي قصة شعرية مؤثرة إثر حادثة وقعت في مدينة الجزائر

1 - ينظر على سبيل المثال : مفدي زكرياء ، نشيد بنت الجزائر ، اللهب المقدس ، ص 93.

2 - محمد الصالح باوية من مواليد 1930، يعتبر من رواد الشعر الحر في الجزائر ، تخلى عن الأدب لصالح الطب منذ السبعينيات . تنظر ترجمته ، د. ناصر ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 670 ، الثقافة ع 23 ، أكتوبر ، نوفمبر 1974، المحلق ، ص 10.

3 - أغنيات نضالية ، ش. و. ن. ت ، 1971، ص31.

وكانت ضحيتها فتاة جزائرية لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، اغتصبها طبيب فرنسي واختطفها وقطع بها البحر الى فرنسا ولم تستطع خالتها استردادها رغم تدخل العدالة.

والقصيدة تفيض بنبرات التحسر على الوضع،والرثاء للواقع،والدعوة الى الثأر لشرف البنت الجزائرية :

إن بنت الشعب عار أن تضيع   خذ بثأر البنت من مستهتر (1)

وتعتبر هذه القصيدة من أوائل القصائد التي توفرت على وحدة موضوعية ظاهرة بل ظهرت فيها نواة الوحدة العضوية التي يتنامى فيها الحدث تدريجيا ليصل الى نهاية الحادثة.

وحاول الشعراء أيضا تنبيه الناس الى بعض المخاطر التي تتعرض لها البنت الجزائرية، وخاصة مايمس منها عقيدتها الاسلامية.حيث أن الارساليات التبشيرية كانت تعمل جاهدة على تنصير ماأمكن من نساء الجزائر ، لانهم أدرى من غيرهم على خطر الأم على تربية النشئ، يقول محمد العيد من قصيدة «تحية الشبيبة» ، يصور جانبا من مأساة المرأة الجزائرية :

قف معي بالجزائر اليوم واسبر   غور أحوالها بعين وأذن
تجد الطفل في الأزقة يلهو   والفتى يشرب الخمور ويزني
تجد الطفلة اليتيمة تشقى   تحت خدرتنوء أوتحت خدن
أولدى البيض نصروها وقالوا   أكرمتها يد المسيح بحضن
ولو أن الرجال منا رجال   لم يفتها تزوج وتبنى (2)

ويحاول الشاعر بمثل هذه الصور المأساوية أن يوخز الضمائر، ويؤنب المشاعر ويدعو الى التكاتف الاجتماعي الذي يحفظ حقوق المرأة بنتا، وزوجة، وأما،ويصون

1- الفتاة الجزائرية المغتصبة ، شعراء الجزائر، ج2، ص 192.
2- الديوان ، ص 110.

كرامتها ويحميها من كل خطر يهدد كيانها أو يحاول المساس بشرفها أو يوجهها وجهة غير إسلامية.

وناقش الشعراء مشكلة الزواج واكراه البنت على التزوج بمن ترضاه لها أسرتها دون اعتبار لرأيها الشخصي،وهو تقليد يتعارض مع موقف الدين.فالشاعر الربيع بوشامة اهتم بالموضوع في قصيدته «فجعوها» (1) التي جاءت على شكل قصة شعرية مترابطة ، في وحدة موضوعية متكاملة.وفر لها الجو النفسي المناسب وطبعها بطابع من رهافة شعوره، وعاطفته الصادقة، ورجع في القصيدة باللوم على والدها الذي عاملها كما تعامل الأنعام،وحرمها من أمانيها التي نسجتها في طفولتها؛من تكوين بيت مثالي، وإنجاب أبناء صالحين.لكن العادات البالية حطمت آمالها،وقضت على أحلامها،وتحول كل شئي الى مجرد سراب، يقول الشاعر :

فجعوها في حلمها البسـام — دون رحمى بقلبها المستهـام
وقضوا أن تحيا حياة المآسي — في أشد الشقاء وأقسى الضرام
تتقلى ملتاعة في لظى هـم — مبيد وذكريات دوام
كل ماحولها خراب وموت — وأسى جارف وكون ظلام
لا ترى فيه غير أشباح يأس — فاجع ولواعج الآلام
راعها من قد كان يحنو عليها — وسقاها بالظلم أسوأ جام
والد مشفق وأم رءوم — زوجاها بالكره والارغام
من فتى أبغضته قلبا وروحا — وأبت أن يبتاعها كالسوام (2)

وكان بالامكان أن تكون القصيدة من أروع القصائد لولا أن ختمها بأبيات تقريرية تقترب من لغة الوعظ والارشاد ولا ترقى الى مستوى الفن الشعري الذي يلمح ولا يصرح :

1 - البصائر س8، ع331، 15 محرم 1375هـ ، 2/9/1955، ص 7.

2 - م. ن .

إنما المرأة اللطيفة دنيا رحمات وخير عضو عصامي

رفع الله قدرها ورعاها بالمساواة في هدى الاسلام

وحباها حق اختيار سديد لشريك الحياة ألف الدوام

من يسسها بالحق والخير يبعث أمة من أرقى الشعوب العظام

ويعد عهد النور والطهر فينا حيث كنا السادات للأقوام .(1)

ولكن الشاعر كان في موقف اصلاحي ينبع موقفه من النظرة الاسلامية للقضية ويعمل لتغيير الأذهان والعقليات،ولذلك استعمل الصيغ الخطابية المؤثرة في قلوب الحشد المستمع.فاذ القصيدة تؤدي مهمة إصلاحية ، قبل أن تؤدي مهمة فنية .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى أن التعليم الذي تلقته المرأة كان محدودا وفي إطار ضيق،ولم يصل بها درجة التعبير عن مشاعرها،والمشاركة برأيها في قضيتها، وانعدم لدينا بذلك الصوت النسوي المعبر عن المشاكل الذاتية، والأماني المطروحة. وحرمنا من مقارنة بين نظرتين لقضية واحدة :

نظرة رجالية تناقش القضية من عل وبنوع من الأبوة والوصاية،ونظرة نسوية تحوم في الصدور على شكل همهمات ولكنها مبهمة لاتفصح ولا تبين،ولم تصلنا أصداؤها، فقد تكون موجودة، وقد نعثر على قصائد في هذا المجال،ولكن يبدو أن التقاليد لم تكن تسمح بنشرها إن وجدت فوأدتها في المهد، أو سجنتها في أدراج بعض المكتبات الخاصة أو الارشيفات السرية.

ونخلص الى القول : إن معالجة قضية المرأة لم تكن متجاوبة في أغلبها مع أية دعوة كانت وإنما كانت تنطلق عند الشعراء من موقف إسلامي يدعو الى أن تقر النساء في البيوت ، محافظات على حجابهن غير متبرجات ولا سافرات يخرجن في حدود الأدب والحشمة، ويتعلمن ما ينفعهن في أمور حياتهن الدنيوية والأخروية.

وتطورت النظرة الى المرأة خلال الثورة المسلحة فدعا الشعراء الى مساهمتها في المجهود الحربي كمجاهدة ترفع السلاح وتسعف المرض وتواسي الجرحى.

---

1 - م. س .

وكانت لبعض القضايا الاجتماعية الخاصة بالمرأة مكانتها عند شعراء هذا الاتجاه كقضايا المعاناة التي تعانيها المرأة من التسلط الأجنبي البغيض،وأنواع الغزو الديني والفكري الممارس عليها من قبل الارساليات التمسيحية، أو قضية الزواج الذي تكره المرأة على قبوله.

وقد غلب على القصائد طابعها الاصلاحي،واعتمادها الأدوات الجمالية المؤثرة في متلقي ذي مرجعية فنية متواضعة.فتوسلت القصائدبالأسلوب الخطابي المباشرفي أغلبها، فطغت عليها التقريرية،وهيمنت عليها القيمة الاصلاحية على القيمة الفنية،وكانت اللغة ملائمة رغم كل ذلك لمناخ الوعظ والإرشاد .

الفصل الرابع
القضايا السياسية

1 - السياسة الداخلية

أ - سياسة الإدارة الاستعمارية في الجزائر

ب - المؤتمر الاسلامي في الجزائر

جـ - حوادث الثامن ماي 1945

ك - التمثيل النيابي في الجزائر

هـ - الشعر الثوري

2 - السياسة الخارجية

أ - قضايا المغرب العربي

ب - قضايا العالم العربي

جـ - القضية الفلسطينية

د - قضايا العالم الإسلامي

لم تتقوقع الحركة الاصلاحية حول جوانب التربية والتوجيه، بل كانت تعمل بصفة غير مباشرة في الميدان السياسي، لأن كل نشاط اصلاحي، وكل تفاعل مع الأحداث داخليا وخارجيا يعتبران مساهمة سياسية بوجه أو بآخر.

وقد ارتأينا تسهيلا للبحث أن نقسم هذا الفصل إلى مبحثين.

1 - مبحث خاص بالسياسة الداخلية : يتفرع إلى القضايا التالية :

- سياسة الادارة الاستعمارية في الجزائر.
- المؤتمر الاسلامي الجزائري
- حوادث الثامن ماي 1945
- التمثيل النيابي في الجزائر
- الشعر الثوري الاصلاحي

2 - مبحث خاص بالسياسة الخارجية : يتفرع إلى القضايا التالية :

- قضايا المغرب العربي
- قضايا العالم العربي والاسلامي
- قضية فلسطين

وسيكون تركيزنا كبيرا على المبحث الثاني، باعتبار أن المبحث الأول قد أخذ بعض نصيبه ضمن الفصول السابقة.

وقبل التطرق إلى القضايا السابقة نتساءل عن موقف الحركة الاصلاحية من السياسة، لنلج من خلاله إلى معالجة الموقف الشعري ضمن الرؤية النظرية.

ونؤكد بادئ ذي بدء أن السياسة كانت جزءا من نشاط الحركة الاصلاحية، من ذلك أن الشهاب قد صرحت بأنها للسياسة كما هي للتهذيب (1). وهذا قبل الاحتفال بالعيد المائوي للاحتلال. وإذا كانت جمعية العلماء قد أشارت في قانونها الأساسي إلى ما يلي : «لايسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتداخل في المسائل السياسية» (2)، فإن مرد ذلك أنه حتى يتسنى لها أن تستعمل السياسة في مجال التعريض والتلميح باعتبارها دروبا ملغمة ووعرة.

1- الشهاب ، ع 158، أوت 1928

2- سجل مؤتمر جمعية العلماء ، الملحق ، ص 5.

إن السياسة قد ارتبطت بالفعل الاصلاحي، وبمواقف المصلحين رغم محاولاتهم نفي ذلك عن نشاطاتهم فعلى سبيل المثال، حاول الشيخ العقبي الابتعاد عن السياسة الحكومية إيمانا منه بأن ذلك من شأنه أن يسلم الحزب الاصلاحي من ويلاتها. (1)

وارتأى ابن باديس في نهاية العشرينيات تجنبها ، وتجنب كل ما له مساس بها لأن ذلك في رأيه خير من تحطيم أقلام الكتاب الإصلاحيين (2).

ورغم ذلك فإن الحركة الاصلاحية قد أسهمت بقسطها الوافر في المجال السياسي، وعالجت مختلف الموضوعات، ودافعت عن حقوق المسلمين، وتعرضت بالانتقاد إلى سياسة الاستعمار بدون هوادة، وقد أشار الباحث سعد الله إلى هذا الموقف الاصلاحي الذي لا يتعارض مع الجانب السياسي حين قال :«والعلماء كانوا مصلحين بالمعنى الشامل للاصلاح، والاصلاح بالمعنى الشامل قد يبدأ بالثقافة، أو بالدين أو بالمجتمع ولكنه في نهاية الأمر يغطي كل مظاهر الحياة في مجتمع ما، بما في ذلك السياسة، وهذا بالضبط ما حدث للاصلاح في الجزائر.» (3)

ورغم الطابع الديني والثقافي لجمعية العلماء إلا أنها على طول المدى كانت سياسية في اتجاهها (4)، وإن لم تعلن ذلك صراحة؛ حتى لا تثير شكوك الادارة الاستعمارية محاولة منها في مغالطتها بحقيقة الجمعية، التي ومهما حاولت فإنها لن تستطيع فصل الاصلاح عن السياسة، لأن الاشتغال بأمور الاسلام كل متكامل يتداخل فيه الجانب الديني، بالثقافي، بالاجتماعي، بالسياسي، ولأن السياسة مظهر من مظاهر النشاط في المجتمع.

وقد كان النشاط الاصلاحي ذو الطابع السياسي يتدثر بدثار التقية، ولم يكن واضحا كل الوضوح، فيظهر مكثفا حين تواتيه الفرص، أما حينما يكثف الاستعمار ضغطه وعراقيله فتخفت حدته ويتقوقع حول أمور دينية بحتة. لكنه سرعان ما يبرز جليا في أوقات التسامح حسب طبيعة كل حاكم عام يتولى أمور الجزائر.

ورغم هذا التنوع في الأسلوب فإن المواقف والمبادئ تبقى ثابتة لاتقبل مساومة أو تغييرا.

* * * * *

ما موقف الشعراء من السياسة ؟

من خلال الاطلاع على بعض النماذج والمقطوعات الشعرية التي تحدث فيها

1- العقبي ، لبيك يا حزب الإصلاح الديني ، ج الشهاب ، ع 6 ، 1925/12/17.

2- انظر : الشهاب ، ج1، مج 6 ، فيفري 1930، ص 34.

3- الحركة الوطنية ، ج3 ، ص 86.

4- الحركة الوطنية ، ج2 ، ش. و. ن. ت. الجزائر ط3، 1983، ص 313.

أصحابها عن مواقفهم من السياسة، يتضح لنا جليا أن هذه المواقف وليدة للموقف الاصلاحي السابق؛ بعدا عن السياسة ظاهريا، وتنقيصا من شأنها، ودعوة إلى مجانبتها.

إن السياسة في مفهوم الشعراء ليست هي الانغماس في قضايا المجتمع، ومحاربة المواقف الاستعمارية بل كانت تعني الحزبية والتيارات السياسية، والجري وراء الكراسي الانتخابية، والانبطاح الأعمى وراء الضلالات الاستعمارية، وهي بهذا المفهوم غير مرغوب فيها على الاطلاق، بل هي كما يقول حمود رمضان « بحر عميق إن لم تحسن السباحة فيه غرقت » (1)، ولذلك فهو يستعيذ بالله منها، لأنه « لا يسلم من صادقها ولا من عاداها، فالأول يغرق في بحر كذبها، والثاني لايعيش مع أربابها. » (2)

إن السياسة عند حمود، نفاق وكذب وبهتان، ومهالك، ومزالق، لا تليق برجل الاصلاح الورع الذي يتحرى الصدق في معاملاته، ويسلك مسالك التقوى.

وقد شن الشاعر خبشاش هجوما كاسحا على السياسة لما لها من أثر في تشتيت شمل الجزائريين، وربطهم بروابط حزبية لا دينية، ولما تشعله بينهم من نار العداوات، ولما تنفثه بين أوساطهم من سموم : فيقول من قصيدة « الروابط الجديدة ».

هي السياسة قد سرت في جسمكم — فتبلدت وتقرحت أذهـــــان
هي السياسة ذي عفت لكم الأذى — فكأنها بسمومها ثعبــــان (3).

واستعمل الشاعر نفسه عبارة حمود في اعتبار السياسة بحرا لا يسلم من الغرق فيه إلا من اتصف بصفات الحلم والحزم والنظر والحذر، فيقول عن « بحر السياسة » :

بحر السياسة تعلوه الأضاليل — فاحذر فكم غرقت فيه الأساطيل
فمن غدا سابحا والموج يقذفـه — لاشـك ينبذ به نكد مناكيـل
فكن حليما أديبا ليس يعـوزه — حزم ولانظر والأمر معقـول (4)

وفي الذكرى الثانية للمؤتمر الاسلامي (1937)، وأمام المماطلات الاستعمارية، شن محمد العيد هجوما على السياسة الاستعمارية التي تتعامل بالشر والغدر والمماطلة، فقال بأسلوب ينضح قوة واصرارا، ويفوح برائحة السخرية المريرة :

1، 2- ينظر في ذلك بذور الحياة .
3- النجاح ، ع 1979، 1937/4/8.
4- النجاح ، ع 1985، 1937/4/23.

أبت السياسة في الجزا ئر أن نعامل كالبشر
ولعل من نظم السيا سة أن نفش وأن نفر
ولعل منها أن يدس لنا ونجذب للحفر
ولعل منها أن نما طل كي يساورنا الضجر
والملك في علم السيا سة معرض الحيل الكبر
كم للسياسة فيه ألواح منوعة الصور. (1)

والموقف نفسه يقفه الشاعر أحمد سحنون في قصيدته «إن الجزائر تشكو» حيث يشير إلى ما تلقاه الجزائر من حرمان ومعاناة، وتجرع لكل صاب من السياسة، (2)

ويعتبر في مقطوعة له أن السياسة ليست تشدقا، وذكرا للمبارزات والحروب، واحداث ضجة في المجالس، بل هي التفكير في مشاكل البلاد والبحث عن الحلول، وتحمل المكاره في سبيل ذلك :

إن السياسة أن تفكر دائما فيما تعالجه بلادنا من كروب
وترى فتعمل ما ترى لعلاجها ولو اقتحمت لها المكاره والخطوب
أما التشدق بالسياسة وحدها من غير تضحية فذاك من العيوب (3)

وهو موقف - رغم الطابع النثري للأبيات - ينبع عن اقتناع بجدوى السياسة الاصلاحية التي تعمل لصالح البلاد، ومن رفض لكل تشدق بالسياسة لايقدم خدمة للأمة، بل يزيد في انقساماتها ويوسع في هوة الخلافات الفكرية بين أبنائها.

وبعد هذه الاشارات السريعة يمكن أن نلج الموضوع، لنعرج على السياسة الداخلية، ونتتبع في البداية :

أ - الموقف من السياسة الاستعمارية :

لقد عمل الاستعمار جاهدا على جعل الجزائر قطعة من فرنسا، فشجع الاستيطان الأوربي على أراضيها، وسن القوانين الجائرة التي تفتك من الجزائري أرضه، وتقدمها هدية إلى شذاذ الآفاق،وقضى على الدين الاسلامي وأوقافه، وحاصر اللغة العربية، وحارب كل فكر اصلاحي، وفسح المجال للطرقية والتبشير خدمة لركابه، وتمكينا له في أراضي غيره كما بينا من قبل.

1- يوم الشعب ، الشهاب ، ج5، مج 13، 10 جويلية 1937، الديوان ، ص 307.
2- انظر : الشهاب ، ج 8 ، مج 13، أكتوبر 1937، الديوان ، ص 108.
3- السياسة ، الديوان ، ص 143 (خلال الثلاثينيات).

وكان للحرب العالمية الأولى أثرها في بروز نوع من الوعي السياسي لدى فئة من الأهالي، وخاصة أولئك الذين أسهموا إلى جانب القوات الفرنسية في حروبها. فسرى في نفوسهم وعي حاد بمشاكل الجزائر السياسية .

وتعتبر حركة الأمير خالد (1) رائدة في جمع شتات الشباب الناهض؛ مطالبة بالحقوق السياسية، واتحادا للكلمة. واتخذت من صحيفة «الاقدام» (2) وسيلة اعلامية، ومنبرا لإيصال صوتها إلى الضمائر الحية في الأمة.

ولم يتحمل الاستعمار هذا الصوت التحرري، فأشعلها نارا هوجاء أدت إلى نفي الأمير خالد خارج الجزائر، لكن البذرة قد غرست في التربة، وتحركت عن أحاسيس وطنية ظهرت للعيان ممثلة في حزب نجم شمال افريقية (3) وغيره من التجمعات (4).

وأمام هذا الوضع وجد الشعر الاصلاحي نفسه منغمسا في بحر السياسة، فاتخذ في فترة العشرينيات طابع الملاحقة للانحراف الديني، وطابع الدعوة إلى اكتساب العلوم، واتسم بسمات التحسر والتفجع على الوضع في الجزائر، وهو ما تعرضنا إليه بالتفصيل في غير هذا الفصل.

ويمكن في هذا المجال التوقف برهة عند حادثة شكلت امتحانا للموقف السياسي الجزائري، وكشفت النقاب عن جوانب كثيرة من نضال الحركة الوطنية، ونعني بها : الاحتفال بمرور قرن على الاحتلال.

فلقد كان لمظاهر الاحتفال أثرها في اثارة مشاعر المسلمين «فنكأت بذلك جرحا في الأعماق طالما تنزى دما، وأججت في النفوس لهيب النخوة الوطنية والغيرة الاسلامية»(5)

إن هذه المناسبة التي راحت فرنسا من خلالها تتبجح بدفن جنازة الاسلام، واقامتها الأبدية على تربتنا الطاهرة، كانت تمثل للجزائريين عهد بعث وطني من أجل استرداد الحقوق، والاستعداد للجولة السياسية الفاصلة مع فرنسا (6).

فالشاعر محمد الهادي السنوسي يقف وقفة متأنية في هذه الذكرى المشؤومة ليصف واقع الجزائر وصفا يتنزى حسرة، وينضح عن أسى عميق فيقول :

1- هو حفيد الأمير عبد القادر . ولد بدمشق سنة 1875، وتوفي بها سنة 1936، وقد تزعم الحركة الوطنية في الجزائر ما بين 1919-1923، أي إلى أن نفته السلطات الإستعمارية من بلاده .

2- الإقدام ، 1920-1923 ، جريدة الإتجاه الوطني الواضح ، كانت مزدوجة اللغة ، سياسية تربوية إقتصادية ، صدر منها حوالي 120 عددا. (انظر د. ناصر ، الصحف العربية الجزائرية ص 46-50) .

3- ظهر كمنظمة مدنية عمالية في فرنسا ، سنة 1926. وكان حزبا مغاربيا ثم تجزأر (انظر الحركة الوطنية ، ج3 ، ص 115 وما بعدها)

4- مثل جماعة النخبة ، وهيئة النواب. وان تفاوتت درجة الوطنية عند كل تجمع.

5- د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م1، ص 295.

6- انظر : د. سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج2 ، ص 328

مائة لقتل مواهبي مرت على　　　شعبي وشعبي لم يزل في وادي
مائة لو أن سوادها متفرق　　　ملأ العوالم كلها سواد
سرنا على ظلماتها في وحشة　　　يا ويلنا فيها من الابعاد
الويل كل الويل يا قومي لمن　　　لم يبرح الأيام في الأصفاد (1)

لكنه أسى – ورغم طابع التفجع على حالة الشعب – ينذر المستعمر، ويتوعده بالصحوة المنتظرة التي يقف الشاعر داعية لها في أسلوب خطابي مباشر، يجمع بين الحماسة والحكمة :

فخذوا على الباغي موارد عيشه　　　بوسائل الساعي للاسترداد
فالدهر لا ترجى رغائب نيله　　　إلا لكل مدرب شداد (2)

ولم يتورع الاستعمار في سبيل مواقفه من عرقلة مساعي الجمعية التي تكونت رد فعل على هذه الاحتفالات المشؤومة التي كان من نتائجها أن وجهت الجزائريين وجهة الاتحاد،وجمع الرأي، ولم الشمل.

وخلال الثلاثينيات استمرت نبرة التحدي والوعيد في الشعر الاصلاحي، وبخاصة حين أصدر الاستعمار قراراته الجائرة التي تكبل الوعظ والتعليم (3)، وهي القرارات التي تركت شجى في حلق الشعراء، وقفزت بمكنوناتهم السياسية إلى الظهور، فصرخوا في وجه الاستعمار متوعدينه بالويل والثبور :

فقال أبو اليقظان من «الجهاد الوطني» :

إن للحق زئيرا إن دوى　　　فر منه الخصم في قعر الزوايا
إن للحق لسلطانا إذا　　　خفقت رايته أبدى المزايا (4)

كما تبرز هذه النغمة المتوعدة في مثل قول محمد العيد :

أرى الأنفاس مرهقة بجو　　　كمثل الغاز، يوسعها بخنق
يدوي بالوعيد دوي رعد　　　ويومض بالردى ايماض برق

2،1 – انظر : شعراء الجزائر ، ج 2، ص 185

3– مثل قرار 1933، القاضي بمنع علماء الجمعية من الوعظ والإرشاد (انظر الحركة الوطنية ، ج 3، ص 21) ، وقرار تفطيل صحف الجمعية (انظر مقالا في الموضوع للعقبي في البصائر ، ع 49، 37/1/1، ص 02) ... الخ.

4– الديوان ، ص 85.

أيـوثق بالأداهـم كل كـف ... ويوطأ بالمنـاسم كل عنق

فمهلا يا زمـان البغي مهلا ... فقد أعيا كواهلنـا التلقي. (1)

فالبيت الأخير صرخة في وجه الظلم والطغيان، وتمرد على الأسر والقيد، ومحاولة للانفلات من ربقة العبودية، ودعوة إلى المقاومة والجهاد والتحرر، وهي الدعوة التي تكررت في شعره تلميحا وتصريحا. (2)

إن الموقف من السياسة الاستعمارية قد تجلى في مواقع كثيرة، وخاصة في القضايا التي سنواصل تناولها، والتي تندرج في اطار المبحث الخاص بالسياسة الداخلية، ومنها :

ب - المؤتمر الاسلامي الجزائري (3) :

لقد اعتبر هذا المؤتمر بحق شكلا من أشكال التلاحم بين مختلف التيارات السياسية في الجزائر، واشتركت فيه جمعية العلماء دفاعا عن النهضة الدينية، وذودا عن حياض اللغة العربية، وتمسكا بالشخصية العربية الاسلامية، وتلاحما مع القوى الأخرى في سبيل العزة الوطنية، ومحاولة لانتزاع بعض الحقوق من المستعمر (4).

ولم يكن موقف المؤتمر الاسلامي من الاستعمار إلا كما عبر عنه الشاعر محمد العيد في قصيدته «يا فرنسا» حين قال يخاطبها :

يا فرنسـا ردي الحقوق علينـا ... وأقلي الأذى وكفي الوعيـدا

نحن رغم الطغاة في الأرض أحرا ... ر وإن خالنا الطغاة عبيـدا

نبتغي السـلم والهدوء ونـأبى ... أن يكاد أمرؤ لنا أو يكيـدا. (5)

إن الشعر وهو يتأبط هذه المواقف الاصلاحية من المؤتمر، لايتسم بسمات التخاذل، ولا يصطبغ بصبغة التذلل، بل يندفع جريئا تحدوه علامات الوحدة القائمة بين الأحزاب والجمعيات، فيقول محمد العيد مؤكدا حقيقة الوعي الذي بلغه الشعب، وهو يعقد مؤتمره الاسلامي :

1- براك الله للذكرى حساما ، الشهاب ، ج 5، مج 11، أوت 1935، الديوان ، ص 84.

2- انظر على سبيل المثال : في أذن الشرق ، (1935) ، الديوان ، ص 120 على الخصوص ، وغيرها من القصائد .

3- انعقد المؤتمر بالملعب البلدي بالعاصمة يوم الأحد 7 يونيو 1936. وشاركت فيه مختلف الأحزاب والجمعيات والهيئات المختلفة (النواب ، العلماء ، الشبان ، الشيوعيون ، الإشتراكيون ، المرابطون) باستثناء حزب النجم . انظر في ذلك : د/ سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 3 ، ص 147 وما بعدها .

4- ومنها : إلغاء القوانين الإستثنائية ، وإلغاء الولاية العامة بالجزائر ، وفصل الدين عن الحكومة ، ونسخ كل القرارات الصادرة ضد اللغة العربية ، توحيد الإنتخابات ... الخ ، انظر المصدر السابق ، وانظر : العقبي ، مطالب الأمة الجزائرية ، البصائر ع 30، 36/7/31.

5- الشهاب ، ج 4، مج 12، جويلية 1936، الديوان ، ص 294.

شهدت اليوم مؤتمرا عظيما   أغر لمثله يجب الشهود
به تجنى الجزائر من جديد   وتستحيا المآثر والجدود
ونبعث صوتنا الشعبي حرا   يدوي مثلما دوت رعود
ونقتحم السدود إلى حقوق   حرمناها وإن علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهد   وأدركنا فاذعن يا وجود (1)

والنبرة المتحدية والمتفائلة لاتحدها القرارات الباهتة للمؤتمر، ولا التسويف المتكرر للادارة الاستعمارية، فتغيرت من نبرة التفاؤل والاصرار، إلى نبرة الوعيد والتهديد حين كشفت فرنسا عن حقيقتها المراوغة، فقال محمد العيد مستنكرا :

متى توفى الوعود؟ فقد مللنا ...   تساؤلنا : متى توف الوعود ؟
فما هذا التجاهل والتناسي   وما هذا التنكر والجحود ؟ (2)

ورغم الطابع المسالم لمحمد العيد إلا أن مثل الموقف المتخاذل لفرنسا، يجعله يتخذ موقفا ينضح بالثورة ويصدع بالحق، ويدعو إلى اختيار طريق الجهاد أسلوبا لافتكاك الحقوق بدل الجري وراء السراب، فيقول بحماس ثوري داعيا (ابن البلاد) إلى النهضة واليقظة، وافتكاك الحق السليب :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض   بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لص   تجلى الصبح وانتبه الرقود ...
فخض يا ابن الجزائر في المنايا   تظللك البنود أو اللحود
ولا تيأس من الفوز المرجى   فقد يخضر بعد اليبس عود
بغى الباغي رداك فخاب سعيا   وللباغي الردى ولك الخلود. (3)

وحين همّ الوفد الاسلامي الجزائري بالتوجه إلى فرنسا لعرض مطالبه، وقف الشاعر أمامه وقفة تحتاج إلى توضيح، فهو يقول على لسان الوفد مخاطبا فرنسا «الأم» :

جئناك كالأم نشكو   أخا علينا تعدى

1- الشهاب ، ج 6، مج 13، أوت 1937، الديوان ، ص 303.
2- م ن. ص 304.
3- م. ن.

(معمـــرا) لك أخـــــلى   وبانيــــا لك هـــــدا
لم يعمـــر الـــدار إلا   ليوسع الجـار طرداً
صــاحبنــا مستفـــلا   وساسنـا مستبـــدا
إن أبصر الحسن أخفى   أو أبصر القبح أبدى
لقدْ تهيــأ ســـرا   لحربنــا وتصـــدى. (1)

فهل يتناقض هذا الموقف مع الموقف الثوري السابق ؟ إننا نلمح في هذه الأبيات روحا متخاذلة لكنها ليست مستجدية، تأمل الاستجابة من فرنسا، وتتيمن بهذه الوفادة في وقت كان الشعب يقنع ببعض الحق (2).

كما نلاحظ أن الشاعر كعادة الحركة الاصلاحية يفرق بين سياسة فرنسا كحكومة، وبين السلطات الحاكمة في الجزائر، ولذلك رأينا من مطالب الوفد مثلا إلغاء الحاكم في الجزائر، وربط الجزائر بحكومة باريس .

وفي القصائد التي تولدت عن هذا الحدث «أي المؤتمر الاسلامي الجزائري» وكانت نتيجة له، تبرز فيها الاشارة إلى الاخلاق الاستعمارية، والتي تقابل الاحسان بالاساءة، وتجازي صاحب الخير شرا، فالاستعمار رغم المواقف الجزائرية المساندة لفرنسا قبل الاحتلال، وفي الحرب الكونية الأولى، إلا أنه يتنكر لها جميعها، ويردها مواقف اساءة وشرور وفساد، مما جعل الشعراء يسجلون هذه الصفة الرذيلة في أشعارهم فيقول محمد العيد من «ياوفد» في هذا المعنى :

فخففـي الحجر عنـا   إنا نضا هيك رشـدا
إنــا نقــلضيك دينـــا   قد آن أن يستـــردا
حقا لنا منك يقضـي   لا نعمة منك تسدى (3)

وفي ذكرى المؤتمر يتساءل باستنكار :

ألم نوسعك في الجلى جهودا   ألم تحم الحمى تلك الجهـود
فما هذا التجاهل والتناسي   وما هذا التنكر والجحود ؟ (4)

1- ياوفد ، الديوان ص 301/300.
2- من تعليق للإبراهيمي على القصيدة ، ديوان محمد العيد ، هامش ص 301.
3- الديوان ، ص 300.
4- الديوان ، ص 304.

وقد يذكر الاستعمار ببعض المواقع الحربية في فرنسا، والتي أبلى فيها الجزائريون بلاء حسنا دفاعا عن بلاد تسومهم أصناف العذاب، فيقول من «يا وادي السان» الذي يرمز إلى فرنسا :

انصف عطاشا أرادوا منك أن يردوا   فزادهم كل فتـــاك وفتـــان
لهم عليــك أيــاد جمـة شهــدت   بها وقائع (لا مــارن) و (فردان) (1)
إنا قنعنا فلم نســأل سوى ثمــن   بخس لما ابتعت منا من دم قاني. (2)

فالشاعر يعطي في هذه القصيدة لألفاظه دلالات معينة، حتى يستغل طاقتها التعبيرية وجانبها الايحائي،ويبتعد عن المباشرة والتقريرية، فيخاطب فرنسا بالوادي، والوادي من معانيه أنه مؤرد لاطفاء العطش، وسقي الأراضي الجافة، فهو رمز للبذل والعطاء، والخير. لكنه بالنسبة للجزائريين «حميم آن» (3) اشارة إلى ما يتجرعه الجزائريون من عذاب وارهاق.

وقد ظهر مثل هذا الموقف الاستنكاري عند أحمد سحنون في تحيته للوفد اثر عودته من فرنسا، فقال معبرا عن هذه الحقيقة :

أمن الحق أن نكون سواء في الرزايا وفي الخطوب الجسام
وإذا ما انجلى الغبار رددنا عن حظـوظ لنا وعن أقســام (4)

وهو الموقف نفسه الذي يقفه مفدي زكرياء بعد ذلك، وفي تعبير أوضح وأبلغ، فيقول معرضا بجبهة الشعب التي ازدرت الشعب، وهضمت حقوقه، وتنكرت لمطالبة، مذكرا إياها بأيادي الجزائر على فرنسا :

أمن العدل يافرنسا بشعـــــب   أن يرى فوق أرضه مـوءودا ؟
أمن البــر أن تشـــح فرنســا   وتجازي على الجميل الجحودا ؟
نحن جدنـا حيالهـا بالدم الغــا   لي فماذا يضرها أن تجـودا .
إن تنــاست وأنكـرت ذكروهـــا   جثث الشعب تملأ الأخـــدودا
ضاق صبر البلاد يا جبهة الشعـــــب فهل تنتجين شيئا مفيدا (5)

1- لامارن ، وفردان ، موقعان في الأرض الفرنسية لمعركتين في الحرب العالمية الأولى.

2- الديوان ، ص 315.

3- آن : شديد المرارة ، وانظر هذا الإستعمال القرآني في البيت الثاني من القصيدة ، وهو اقتباس للآيتين 42 و43 من سورة الرحمان.

4- الديوان ، ص 289.

5- الشمال الإفريقي يتحد ، انظر : د. ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 175 نقلا عن الامة ، ع 137 ،1937/9/14.

إن هذا الأسلوب يبتعد عن الاستجداء والتخاذل، ولايتسم بسمات التذلل والمهانة، بل يدافع عن حقوقه بكرامة وعزة نفس، ولا يطالب سوى برد الدين، وهل جزاء الاحسان إلا الاحسان ؟!

وقد تولد عن هذا الأسلوب ظاهرة الاصرار والتحدي، وتثوير الشعب لمقارعة الاستعمار، والاستعداد لمواجهته بمختلف الوسائل، كمثل الأبيات التالية التي قيلت في الثلاثينيات :

- فإلام الخنوع يا قوم ؟ والغاصب ... في أرضنا علينا استبدا
فقوام الحياة أن ينهض الشعب ، وللنائبات أن يستعدا (1)

- أيها الشعب خل عنك الأماني ... واركب العزم واتركن الجمودا
وعلى النفس فاعتمد وتقدم ... واقتحم في الحياة عصرا جديدا (2)

- من أبطل الحق استحق السخط فالحذر الحذر ؟! (3)

- فمن سامها بالجور هاج عبادها ... ولم يحمه منهم سلاح وعسكر. (4)

- ياوفد حذّر فرنسا من مماطلة ... كدنا نميل بها لليأس والضجر. (5)

- ساحة المجد وعرة ... لم تمهد لليّن
كل صعب مذلل ... للقوي المهيمن (6)

ويستمر هذا الاصرار على التحدي قائما خلال الأربعينيات لينفجر ثورة عارمة في الخمسينيات، فالنبرة الثورية لا تأبه بالبطش الاستعماري بعد أن خبرته، ففضحت أساليبه، ودعت إلى مجابهته. بل أنه في هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية قد طغت على القصائد الاصلاحية روح المباشرة الصريحة بالتمرد والثورة، ومطاردة الدخيل الأجنبي، وكان التركيز بارزا على الشبيبة الناهضة المتخرجة في مدارس جمعية العلماء، والمعتزة بدينها وعروبتها، فيقول محمد العيد في (شباب محمد) مخاطبا هذه الفئة بهذه الأبيات الحماسية الثورية :

1- م الهادي السنوسي ، تحية الوفد ، الشهاب ، ج1، مج 13، محرم 1356 هـ ، 37/3/14.
2- مفدي ، الشمال الإفريقي يتحد ، م. س.
3- محمد العيد ، يوم الشعب ، الشهاب ، ج 5 ، مج 13 ، جويلية 1937، الديوان ، ص 309.
4- محمد العيد ، ختمت كتاب الله (1938) ، الديوان ، ص 160.
5- محمد العيد ، يا وفد سائل فرنسا ، (1938) الديوان ، ص 319.
6- محمد العيد ، كن قويا ، الشهاب ، ج 3، مج 15، أفريل 1939 ،الديوان ، ص 324.
وانظر للإستزادة رأيا لابن باديس في مشاهدات وملاحظات ، البصائر ، ع 38 ، 1936/10/9. ص 03.

ولستم بالأسود إذا رضيتم بأن تسطو بأرضكم الذئاب
ولستم نسل آباء كرام وأنفسكم - كأرضكم - نهاب

وفي لهجة استنكارية يتعجب الشاعر من الوضع القائم :

أيمسى ابن البلاد غريب دار ويرعى للدخيل بها جناب
ويمسي ابن الفتوح رهين أسر وطعم الأسر للاحرار صاب (1)

وفي قصيدة «إلى الأمة الجزائرية» تتجلى أفكار سحنون الثائرة، حين يعقد مقارنة بين العربي المسلم الذي يعتز بدينه وبانتصارات قومه على الروم والفرس، والمستعمر المعتدي، فيقول على سبيل المثال بلهجة تنم عن الاصرار والتحدي :

قل لابن الاستعمار خل بلاده العرب لا يرضون باستعمار
الذئب لا يرعى القطيع ولم يكن يوما مجيرا للهزير الضاري (2)

وخلال الثورة المسلحة ازدادت هذه النبرة الثورية حماسة، وتجلت عن قصائد ثورية تتقد رصاصات رفض، وتنضح ببطولات شعب، رمى برداء الكسل والتهاون، وشمر عن ساعد التحدي والمواجهة العلنية التي أسفرت عن انبلاج صبح جديد، وشمس مشرقة وضاءة.

جـ - حوادث الثامن ماي 1945

إن يوم الثامن من شهر ماي من عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف، كان يوما أسود قاتما في تاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ففي مثل هذا اليوم خرج الشعب الجزائري الأعزل في مدن الشرق الجزائري على الخصوص ملوحا برايات النصر، رافعا العلم الجزائري (3)، حالما بوعود فرنسا، معتبرا هزيمة النازية هزيمة للاستعمار في كل بقاع العالم، فإذا الحلم يصطدم بصخرة الواقع، ويتحول الفرح إلى مأتم، والأمل إلى مأساة ، ويسقط خمسة وأربعون ألف شهيد، خضبت دماؤهم الغالية هذه الأرض الطيبة لتورق أشجار الثورة والتحدي والرفض.

لقد اختزنت ذاكرة الشعراء هذه الحادثة الأليمة وامتزجت بأحاسيسهم، وخرجت نغما شجيا بعد ذلك كلما تجددت هذه الذكرى المشؤومة.

1- البصائر ، ع 23، 5 ربيع الثاني 1367هـ ، 1948/2/16، ص 07، الديوان ، ص 197.
2- في الديوان تحت عنوان « المغرب العربي » ، انظرها في البصائر ، ع 158، 29 شعبان 1370هـ ، 1951/6/4، ص 02، الديوان ، ص 117.
3- وهو علم الأمير عبد القادر الجزائري ، وليس العلم المعروف في يومنا.

ولم تكن الاستجابة الشعرية آنية، فظهرت المقالات النثرية في البداية ساخطة ناقمة ومتوعدة، أما الشعر فهو الشعور والاحساس الذي يتطلب مدة يختمر فيها الحدث في نفس الشاعر وتهدأ عاطفته الجياشة من فداحة الخطب وهول المصيبة وأثر الصدمة.

ويبدو أن أول صدى شعري كان القصيدة المشهورة « لا أنسى » لمحمد العيد والتي تقطر أسى وبكاء صامتا على الوضع المأساوي الذي خلفته أحداث هذه الذكرى، ويأسا من الشكوى إلى ظالم متجبر لا يرحم، وقد اختار لها الشاعر حرف السين رويا، وهو ما يترك في النفس الحسرة والتفجع :

أأكتم وجدي، أو أهديء إحساسي ... و (ثامن ماي) جرحه ما له آس

وأرقب ممن أحدثوه ضماده ... وهم في جماح لم يميلوا لإسلاس

تمر الليالي وهو يدمي فلم نجد ... له مرهما منهم سوى العنف والبأس

إذا ما رجونا برأه ثر دافقا ... بأحداث سوء وقعها مؤلم قاس (1).

إن الشاعر لا ينسى الجرائم الاستعمارية المرتكبة من قتل وتنكيل ونفي وتشريد، وقد قطع حبل الوصل مع كل الوعود الاستعمارية الزائفة، وانتقل إلى مرحلة المواجهة والوعيد التي تقربه من العمل الثوري.

وإذا كان محمد العيد قد خص الحادث كلية بهذه القصيدة فإن الشاعر الربيع بوشامة قد ركز على الحادث في مدينة معينة كانت بؤرة لهذه الهجمة الاستعمارية في قصيدته «خراطة بين زلزال وقع، وبركان يتوقع» (2) ، يتأسف فيها على المصائب المتوالية على هذه البلدة من تنكيل استعماري ومصائب طبيعية .

وهو وإن لم يخصص هذه القصيدة للذكرى المشؤومة، فيومئ إليها في اشارات عابرة، فقد خصص لها قصيدة طويلة (3) بعد أقل من شهر يتعجب فيها من عودة هذا الشهر بملامحه المرعبة، وما توحي به من معاناة، وأهوال شابت لفظاعتها الولدان، وتفطرت أكباد الأمهات، وتطلع إلى مواقف ثورية تغير هذه الملامح، وتحيل سوادها بياضا، وعبوسها انشراحا :

عجبا لوجهك كيف عاد كحاله ... من بعد أحداث عرتك جسام

هلا غربت عن الزمان وأهله ... فتريح هذا الشعب من إيلام

1- انظر الديوان ، ص 325.

2- انظر : البصائر ، ع 75، 13 جمادى الثانية 1368هـ ، 1949/4/11، ص 07

3- انظر : عجبا لوجهك كيف عاد لحاله ، البصائر ، ع 79، 11 رجب 1368هـ ، 1949/5/09، ص 07.

أصبحت رمز الفاجعات بذا الحمى تبدو بهيمـــا، مفزع الأظـــلام. (1)

وقد كانت ذكرى هذا الشهر فرصة للشعراء استغلت في، فضح السياسة الاستعمارية؛ تنديدا بالظلم والأحكام التعسفية، ووعيدا بالثأر لها حين يحين الموعد.

كما استغلت في مواساة جراح الشعب بدعوته إلى الصبر، ومواصلة الاستمساك بعروة الحق، والاستعداد للمواجهة المحتملة مع الاستعمار.

وإذا كان الدارس للقصائد السابقة وغيرها (2)، تظهر لديه تلك الروح السوداوية المسيطرة عليها، فإن تلك الملاحظة لاتحط من قيمتها، بل هي دليل على عمق الجرح الذي تركته هذه الفاجعة في نفوس الشعب الذي لم ييأس من النضال؛ وواصل عمله بكل حزم لتأكيد الهدف، ولذلك يلمح في نهاية كل قصيدة بعض الأبيات التي يطغى عليها روح التفاؤل؛ والايمان بقدره الشعب على تحقيق الحلم، والتيقن من قرب نهاية المستعمر.

بل إن الدارس يحس بالغيظ المكتوم الذي يتفجر عن بركان وعيد، ورصاص رفض، وعاصفة تحد واصرار، وبالعمل الدؤوب على توعية الشعب ودفعه نحو عجلة الثورة.

فإذا كانت بداية القصائد قاتمة، فإنها في النهاية تنضح ثورة واصرارا، ولا تتوقف عند مجرد البكاء والتحسر وتعداد المآسي والجراحات، بل تعتبر أن ذلك لا يجدي نفعا، إذا لم يقترن بالاستعداد لليوم المشهود، والاعتبار بهذه الحادثة، والعمل الدائب للأخذ بالثار، وهو ما عبر عنه محمد العيد في قوله :

ولا خير في عد المظالم وحدها إذا لم تبن عن مرهفات وأتراس (3).

ولذلك يدعو شعبه إلى الصبر والتذرع بالأمل، والبعد عن اليأس :

ويـا أيـها الشعب المروع لاتضـق بدنياك ذرعا واطرح خلق اليـأس
وقـل للذي آذاك لاوصْـل بيننـا وموعدنا العقبي فما أنا بالناسي (4)

1- م. س.
2- مثل قصائد : - الإبراهيمي : ذكرى 8 ماي ، البصائر ، ع 119، 50/5/15 ، ص 01
- ع. ك. العقون : الكون ضاق بكل حكم جائر ، البصائر ، ع 155، 8 شعبان 70 هـ ، 51/5/14، ص7
- إبراهيم : انظر قصيدته في جريدة المنار ، س 2، ع 4، 52/5/23 ، ص 03
- ابن رحمون : (يوم 8 ماي) ، ج المنار ، س 2، ع 4، 52/5/23 ، ص 03
- احمد بوعدو : كيف السلو ، ج المنار ، س 3، ع 4، 53/5/8 ، ص 03.
- السائحي : همسات وصرخات ، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط 2، 1981، ص 81.
3- الديوان ، ص 326.
4- م. ن. ص 327

ونلمس في نهايات القصائد المشار إليها سابقا ما يشبه النار تحت الرماد، والهدوء الذي يسبق العاصفة، فهي جميعها مصممة على الثأر والانتقام، ولذلك فهي تستصرخ الشعب الناهض، وتهيب به للرد الثوري على طغيان الاستعمار،كما في قول الشعراء :

– يا (ماي) مالك واجما لم تنتقم أو ما سقاك الظلم أسوأ جام (1)
– لا تيأسن إذا الزمان قسا يتفجر الينبوع من صفوان (2)
– هذي دروس في الحياة مفيدة "للشعب" إن رام العلا، يتحذر
أن الأوان فجددوا بنضالكم مجدا تليدا للبلاد يسطر (3)
– لا تحسبوا إن نار الشعب خامدة فخصمه بلظاها سوف يحترق (4)

إن الشعر الاصلاحي كان حاضرا في كل الأحداث السياسية التي تعاقبت على الجزائر، فشارك الشعب آلامه وآماله، وعبر عن مآسيه، ووقف يستنهضه للدفاع عن حقوقه، وبصَّره بقيمه العربية الاسلامية، وعبأه التعبئة الثورية لافتكاك الحقوق المهضومة بعد اليأس من سياسة الوعود الكاذبة، والمساومات المغلوطة، وبعد تلقي الضربة تلو الأخرى، مما سهل التصميم على الحل الثوري.

د – التمثيل النيابي :

لقد ألح الجزائريون منذ القرن الماضي على اعطائهم حق التمثيل النيابي ، منبرا للدفاع عن مطالبهم، واسماع أصواتهم إلي السلطات الحاكمة، ففي عريضة 1886 الموجهة من الوطنيين إلى المجلس الوطني الفرنسي، نجد المطلب التالي :« المساواة في التمثيل النيابي بين الجزائريين والفرنسيين » (5)

ولا يخفى ما للاستعمار من دهاء وعراقيل في حرمان الجزائر من هذا الحق، بل لقد سلك دروبا ملتوية حتى يبعد العناصر الوطنية،لئلا تصبح خطرا على الأقلية الأوربية، فوضع شروطا قاسية أمام الناخبين والمنتخبين من المسلمين، فلكي يترشح الشخص لاتشترط فيه الكفاءة والقدرة، بل يشترط فيه الاخلاص لخدمة الاستعمار، والولاء لفرنسا، والتجسس على الوطنيين، والموافقة الدائمة على الرغبات الاستعمارية، وضعف الشخصية، والترديد الببغائي لأقاويل الاستعمار ... وهلم جرا. (6)

1– من قصيدة بوشامة ، عجبا لوجهك كيف عاد لحاله ، المشار إليها سابقا .
2– من قصيدة ابن رحمون المشار إليها سابقا .
3– من قصيدة ع. ك. العقون المشار إليها سابقا .
4– من قصيدة أبو عدو المشار إليها سابقا .
5– د. سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج2 ، ص 183.
6– انظر : د. ناصر ، المقال الصحفي ، م1 ، ص 345–346.

وقد شكلت هذه القضية ما يشبه المهزلة في أسلوب اختيار المترشحين، وفي تنظيم الانتخابات، وفي حرمان المسلم من الادلاء برأيه في الاختيار، وفي مواقف النواب من ممثليهم بعد فوزهم في الانتخابات.

ويمكن اعتبار هذه المأساة دليلا على السياسة الاستعمارية في الجزائر، والتي تتسم بالعدوانية، واحكام الحصار، وفرض عزلة على الجزائريين «لتبعدهم عن مناصب الحكم فيخلو لها بذلك الجو لتوجيه دفة الأمور حسب هواها.» (1)

إن نخبة النواب التي توالت على الجزائر خلال الفترة الاستعمارية كانت نخبة مستغربة في معظمها ورغم ذلك «فقد كانت هناك مجموعة من النواب التقليديين من أصحاب العائلات الكبيرة والتجارة والأرض وقدماء المحاربين في الجيش الفرنسي» (2).

ولم يستطع هؤلاء النواب تشكيل تجمع سياسي له وزنه على الساحة الجزائرية كما فعلت الحركة الاصلاحية بتكوينها جمعية العلماء، بل لم تكن وحدة النواب «سوى تجمع مرتخ غير متماسك ومن ثم لم يكن في مقدوره أن يكون رأيا عاما في البلاد.» (3)

وهذا ما طبع مواقف النواب بالتذبذب، فكانوا يقفون موقفا وسطا في القضايا العامة، ويعملون على ترضية كل الاطراف؛ فتارة يهاجمون المعمرين ويمدحون فرنسا، وطورا يذمون تعصب المسلمين ويشيدون بالتسامح الاوربي، واحيانا نجدهم يدافعون عن الاسلام، وينقمون على العناصر الفرنسية المتطرفة. (4)

وهذا الموقف هوالذي حدا بالحركة الإصلاحية أن تقف في مواجهة هذا التجمع المهترئ، فتنتقد الشهاب هذه الألاعيب النيابية، بل إن أحد الكتاب قد كتب مقالا له تحت عنوان «موقف الناخبين» (5) متهما النواب - اثر الإنتخابات التي جرت بعد الاحتفال المائوي -بالجبن والفوضى، والعجز عن تكوين موقف موحد، أو برنامج عمل، أو مبدأ واضح، واتهمهم بنقص الشجاعة الأدبية التي تسمح لهم بتوضيح مواقفهم التي يعرفها الناخب والنائب والحكومة، لأن الموقف المتذبذب للنواب في رأيه يسهل التلون والتملص إذا دعت المصلحة الخاصة ذلك.

إن الحركة الاصلاحية لم تكن موالية للنواب، بل هاجمتهم مرارا، ووقفت منهم مواقف تنطلق من مواقف النواب أنفسهم من الأحداث؛ فقد تتحالف معهم، وتستنجد بهم حينما تضيق السلطات الاستعمارية الخناق عليها، وقد تهاجمهم بسخرية لركونهم إلى التأثير الفرنسي، وقد تنتقدهم نقدا لاذعا لتلهفهم وراء أصوات الناخبين، ثم

1- م. س. ص 345.

2- د. سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج3 ، ص 57.

3- م. ن. ص 58.

4- م. ن. ص 59 بتصرف

5- ينظر : الشهاب ، ج 10، مج 7، أكتوبر 1931.

سفورهم عن وجه مغاير بعد فوزهم بالنتائج، وقد تسخر من جهلهم وحمقهم .

«وكان العلماء ينظرون الى النواب عامة على انهم واقعون كثيرا تحت طائلة الادارة يأتمرون بأمرها ويتحركون باشارتها »(1) ، كما أن النواب أنفسهم، وخاصة أولئك الموالين صراحة للاستعمار، قد كانوا ضد المصلحين، وطالبوا بتضييق الخناق عليهم، واحكام الرقابة على نشاطهم.(2)

ولقد عولجت هذه القضية النيابية شعرا بناء على موقف الحركة الاصلاحية. وشرحت أبعادها وصفا ودعاية، انتقادا وتوجيها، تعريضا وسخرية. فكانت المعالجة سطحية حينا وعميقة حينا آخر. وقد انصبت- بالخصوص- على المحورين التاليين:

1-الموقف من الانتخابات.

2-الموقف من النواب.

1-الموقف من الانتخابات :

لقد عمد الاستعمار الى سياسة التفرقة، مشعلا نار الخصومات بين الناس، ضاربا الجهود الوحدوية التي تقوم بها الحركة الوطنية في الصميم، موقدا فتيل المؤامرات والصراعات الهامشية، مشجعا الروح القبلية والجهوية في الانتخابات المزيفة.

وقد اهتم الشعر الاصلاحي بسير الانتخابات، كاشفا دسائسها ومؤامراتها، معريا السياسة الاستعمارية في هذا المجال، ناصحا الأمة على ادراك هذا الواقع، ولمّ الشمل، والاتحاد حول مواقف معينة، واختيار الممثلين الذين يعبرون عن طموحاتها المشروعة في سبيل القضاء على بؤرة الصراع والتناحر.

وقد حز في نفوسهم أن تتقاسم الامة شيعا وأهواء متصارعة،وهي في أشد الحاجة إلى موقف موحد من الاستعمار الذي يشعل فتيل هذه المعارك ويقف ساخرا مستهزئا بهذه الرؤوس المتناطحة على الكراسي.

ويبدو أن الموقف الاصلاحي كان ينبع أساسا من اتجاهات المنتخبين، والذين غالبا ما ينتمون إلى اتجاهين : اتجاه عربي اسلامي، واتجاه غربي متجنس، وهذا الاتجاه الأخير هو المسيطر بحكم علاقته مع الاستعمار.

1- د. سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 3، ص 94.

2- انظر موقف أحدهم في (المصدر السابق ص 94) ، حين قدم لائحة ضد العلماء تطالب الإدارة الإستعمارية منعهم من القيام بالوعظ والإرشاد في المساجد ، وقصر الأماكن الدينية على رجال الدين الذين عينتهم السلطة فقط . وهذه اللائحة كانت تمهيدا لمنشور ميشال .

وقد وسم هذا الأمر كتابات الحركة الاصلاحية بالهجوم والانتقاد والملاحقة، فالسعيد الزاهري حسب ميوله الساخرة، راح يصب شواظ انتقاده على أهوال الانتخابات، واصفا يوما من أيامها ، وقد كان فيه الصراع على أشده بين أصحاب الأموال الذين يحاولون توجيه دفة الأمور لصالحهم، والصعاليك الذين يجندون في مثل هذه المناسبات، فقال بنوع من السخرية يصف هذا اليوم:

ما كـان أكبـر من يوم أهـوال يوم به ركبت حـال على حـال

يوم به قامت الحرب العوان على ساق لها بين صعلوك وذي مال . (1)

وقد وصف الشيخ محمد العلمي ما يجري في عملية الانتخابات من تطاحن وشقاق، ومزايدات، حين قال في قصيدته «نواب الشعب أسديت نصحا» مؤكدا الحقيقة السابقة :

إذا ما حـان وقت الانتخـاب ترى الأقوام تعوي كالذئـاب

شقـاق مستمـر كل يـوم سماسرة تهرول في الرحاب (2)

وقد عرض بعض الشعراء تعريضا غير مباشر بعملية الانتخابات وأساليب المنتخبين في الحصول على رضا الشعب، وسلبية النتائج المترتبة من العملية (3). كما تتبعها البعض الآخر، وكشف عوراتها، ولاحق أصحابها بانتقادات لاذعة، فمحمد العيد يصف الصراعات الهامشية التي تعد نتيجة لمثل هذه الأجواء الانتخابية الداكنة بسخرية مرة حين يقول :

ودوا النـزاع فكانـوا مثل الكبـاش نطاحـا

أخشى على الشعب هلكا يبيـده واجتيـاحـا

من ألسـن قـاذفات تروي القبيـح فصاحا

وأنفس خـائنـات تهوي الخنى والسفاحا. (4)

فالشاعر ينطلق من مفهوم اسلامي يشجب القذف، والخيانة، والنفاق، والنميمة، ولكن هذه الرذائل هي المسيطرة على الواقع الانتخابي الذي تغذيه السياسة الاستعمارية.

1- شعراء الجزائر ، ج1، ص 94.

2- النجاح ، س 9، ع 726، 7 ذي القعدة 1347هـ ، 1929/4/17، ص 02.

3- انظر : خبشاش ، سلسلة ، النجاح ، ع 2057، 1937/10/16.

4- انظر قصيدة : يا ليل ، الديوان ، ص 47 (البصائر ، ع 145، 1951/3/5).

وقد تساءل الشاعر حسن حموتن في استغراب واستنكار عن هذا التناحر، والعداوة القائمة التي يدفع الاستعمار أوارها امعانا في توسيع هوة الخلاف والشقاق، مع أنه هو المستفيد من هذه «النيابة» التي لاتنفع الشعب، بل تحكم القبضة الاستعمارية على رقابه ، فقال متعجبا :

لم يا ترى هذي العداوة بيننا ... وعلام هذا العض بالأنياب ؟
إن النيابة للمعمّر وحده ... هو ربّها، ومسير الدولاب . (1)

إن الصراعات الهامشية التي تنشب عادة بين أطراف الانتخابات، لم تكن محصورة في ميدان السب والشتم، بل وصلت حد الاقتتال والجرح. ففي احدى الفتن الانتخابية المعروفة في الجزائر سقط شابان بمدينة بسكرة على أيدي الشرطة العتاه، وكادت تكون مقتلة عظيمة بين الفريقين : الوطني الأعزل، والبوليس، ومن ورائه جميع قوى الحكومة (2)، وقد وصف محمد العيد هذه الحادثة،ولكنه لم يكتف بالجانب السطحي من القصة، بل توغل إلى كشف الدور الاستعماري في مثل هذه المؤامرات، والذي يتحمل مسؤولية مثل هذه الحوادث التي يذهب الشعب الأعزل ضحية لها، فقال :

إن انتخابا جرى بحيف ... في دورها أعقب انتحابا
تبت يدا حاكم غشوم ... يجر للأمة التبابا
بغير جرم من الأهالي ... عليهم ينزل العقابا
فهو الذي بالغثاء يلقي ... وهو الذي يوقد الثقابا (3)

فلقد تعقب الشاعر هذه المأساة من خلال تعقبه الذين من ورائها يؤججون أوارها، ويشعلون فتنتها لتنتج فرقة وانشقاقا.

ومما سبق نلمح أن الشعر الاصلاحي قد تعقب مأساة الانتخابات المهزلية التي كانت تديرها السلطة الاستعمارية، ففضح ممارساتها وتجاوزاتها، وتعقب أساليب التفرقة والانشقاق المدبرة فكشفها، وأبان الألاعيب الاستعمارية التي توقد ثقاب الخلاف، وتتفرج على الصراعات التي كثيرا ما تتطور لتتحول إلى اقتتال دام بين الاشقاء في سبيل قضية يملك الاستعمار أوراقها ويوجه دفتها لصالحه.

إن مثل هذه المواقف الشعرية تدل على يقظة سياسية جديدة بعد الحرب الكونية،

1- انظر البصائر ، ع 231، 1953/5/29، ص 05

2- انظر تصدير قصيدة « قصة شهيدين » لمحمد العيد ، الديوان ، ص 460.

3- الديوان ، ص 461.

وعلى وعي قومي تولد عند الجزائريين، فأصبح بعد احتكاكه بهذه التجارب القاسية في حاجة إلى اتحاد الشمل، ولم الجهد، وضم الصفوف، والتصدي لأضاليل الاستعمار.

2 - الموقف من النواب :

إن الصراعات التي أشرنا إليها سابقا متولدّة أساسا من الاختلافات القائمة بين المواطنين في اختيار مترشح دون آخر، وهذه العملية تتداخل فيها جملة من العناصر؛ كالولاء للقبيلة، أو الجهة، أو المصلحة الخاصة أو غيرها. إلا أنه يبدو من جهة ثانية أن الصراع كان قائما «بين المرشحين الذين يحملون الأفكار العربية الاسلامية ويعتبرونها أصلا في المطالب، والمرشحين الذين يتحمسون للتجنس والتفرنج ويرونه طريقا لنيل الحقوق السياسية» (1)

وقد ظهر لدى بعض الكتابات النثرية تأكيدا لهذا الموقف، حين راحت تدعم هذه الحقيقة، على أساس أن الأمة لا تريد نيابة من لا يعرف مقتضيات دينها القويم، ولا يخدم شعائر نبيها الكريم، بل تنيب رجالا جعلوا المحافظة على الدين أمامهم، واحترام العوائد الصحيحة زمامهم. (2)

إن مثل هذا الموقف يؤكد حقيقة الوعي السياسي لدى الجزائريين، وهو وعي ينظر إلى النيابة على أنها سلطة تأثير على الادارة الاستعمارية، قادرة على انتشال الشعب الجزائري من وهدة التخلف، وتجنب نشر القوانين التعسفية التي تحيكها السلطة الاستعمارية لاخناق الأصوات الحرة.

فالنواب ساعد الأمة تعتمد عليهم وقت الشدة والضيق، وتشكوهم أمرها، وتبثهم حزنها، وترجو منهم خيرا لأنهم ممثلوها، إلا أن يتنصلوا من مسؤولياتهم ومن الأمانة التي حملوا بها.

وقد ظهرت خيبة الرّجاء في هؤلاء النواب بعد تجارب قاسية ومريرة أثبتت الأيام أنهم أدوات طيعة في اللعبة الاستعمارية، قانعون بما تسديه عليهم الحكومة من رواتب ومناصب، ومصالح خاصة، متناسون مصلحة الشعب الذي يمثلونه، فقد قال في وصفهم محمد السعيد الزاهري :« إن هؤلاء النواب غير أكفاء، وليس فيهم كفاءة، ولا أهلية للكراسي التي يستوون عليها ليكونوا لسان هذه الأمة، وليكونوا صوت الجزائر. ذلك بأن أكثرهم - وهم ربع مجموع النواب - جاهلون لا يعون ما يدور حولهم من الأحاديث ولا يفقهون حتى مواضيع المسائل التي تطرح أمامهم للبحث والمناقشة، فكثير منهم

1- د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1، ص 351.

2- إنظر في ذلك رأيا لعلي مبارك قدور بن محي الدين ، م. س. ص 351، نقلا عن الإقدام ، ع 4، (20/10/1)

يرفعون أيديهم حين الاقتراع على شيء - مصادقة على ما لا يعرفون - فيضرون من حيث يريدون أن ينفعوا وهم لايشعرون » (1).

ويبدو من خلال تاريخ التمثيل النيابي في الجزائر أن الشعب لا دور له إطلاقا في فوز النواب بالانتخابات الصورية، لأن المهمة موكولة بالادارة الاستعمارية، مما جعل الشعور العام يخلص إلى القول : أن النيابة تعيين وليست انتخابا.

وقد انصب من الشعراء الاصلاحيين على النواب سيل من التهكم المرير، ناعتين اياهم بالأوصاف الجارحة، والسخريات القاسية، والتفكه اللاذع.

فكل القصائد التي اطلعنا عليها لا تذكرهم بخير، بل تنتقدهم بعنف، وتسخط على مواقفهم، وتسخر منها سخرية مريرة. وتتهمهم بخيانة الأمانة، والانسلاخ عن الدين، ومسايرة الاستعمار في كل ما يمليه عليهم من أوامر، وغلبة المصلحة الخاصة. والشلل في المجالس أثناء مناقشة القوانين، وغيرها.

وقد وصف هؤلاء النواب في فترة العشرينيات بقوم «نعم نعم» (2) أي أولئك الذين لا يرفضون للاستعمار مطلبا، بل يوافقون على كل ما يعرض عليهم دون أدنى اعتراض، حتى لا تهدد مصالحهم.

وقد وصف أحد الشعراء النواب وصفا استهزائيا في قصيدته «نعم نعم أو نشيد بني وي وي» فقال ساخرا من مواقفهم المتخشبة التي تثير الرثاء على ما وصل إليه انبطاحهم :

إذا صال قوم في المجالس مرعدا	أجبنا وما في القول غير نعم، نعم
وإن قيل أن العرب أشأم أمة	رفعنا الأكف قائلين : نعم، نعم
وإن قيل إن العرب ألأم أمة	ضربنا الصدر منشدين : نعم، نعم (3)

وتستمر القصيدة على هذا المنوال التقريري فضحا لهذه المواقف الببغائية، وتعرية لأصحابها، وتنديدا بها، وتوعية للشعب لضمان اختيار نواب يمثلون الشعب، ويكونون ضميره الناطق باسمه.

إن الموقف الرضوخي للنواب أمام السلطة الاستعمارية لم يجعلهم يتورعون عن خداع الشعب وتخديره بالأماني المعسولة، ولذلك نجد شاعرا مثل محمد العلمي (4) يلسع

1- العربية والنواب ، ج البرق ، س1، ع 18، 13 محرم 1346هـ ، 1927/7/11، ص 01

2- أي بني (وي وي) المؤيدين لكل القرارات الإستعمارية .

3- انظر الشاعر الذي رمز لاسمه بحرف (ج) من عنابة ، النجاح ، ع 214، 1925/6/26، ص 03

4- محمد العلمي (1306 هـ-؟) لقب بشاعر العصر ، نشر أغلب شعره في جريدة النجاح ، ينظر شعراء الجزائر ، ج2، ص 114-116.

هؤلاء النواب بقوارص انتقاداته على الأساليب الخبيثة المستعملة في عمليات ابتزاز الأصوات، فيقول :

فكلهم يقـــول أنــا زعيــــم — أزحزح عنكم كل العـــذاب
واطلب في صلاحكم حقوقـــا — تنال بها النجاة بلا ارتياب
وأقوال بظـاهرهـا صـــلاح — وباطنها سراب في سراب
نقضتم مثل ذا الميثـاق قبلا — وكنتم للخلاعة والشـــراب
أريحوا واستريحوا من دعاو — فإن الناس أبصر بالمـــآب

ويقف الشاعر صوتا للاصلاح في وجه هذه الدعاوى الباطلة ، صارخا في وجوه النواب صرخة الحق التي تردعهم عن غيهم :

فإن ترجوا السعادة فاستقيمـوا — فخيرا لكل في حسن النواب
لأن الشعب يدعـوكم لتبنـــوا — صروحا من وفاق واقتـراب (1) ...

وقد استمرت النعوت القبيحة تنزل على النواب كالصواعق تزلزل عروشهم، وتفضح أطماعهم، وتعري أدعاءاتهم أمام الرأي العام. وقد راح السعيد الزاهري – أمام مهزلة التمثيل النيابي – يعترض على الانتخاب، ويقرر مقاطعته لأن النواب نوائب على الأمة، وأحجار جامدة في المجالس لاتحرك ساكنا، ولا تدفع مصيبة ولاتحل معضلة، فقال بيقين لا يساوره الشك، وبغضبة ثائرة :

أنا لا أراني بعد ذا اليوم ناخبـا — فلست أرى النواب إلا نوائبا
إذا انتخب الأحجار شعب لمجلس — فلا بد يوما أن يذوق المصائبا (2)

وبعد قيام جمعية العلماء، وتحديد موقفها من النواب، وتصاعد نشاطها الاصلاحي، تزايدت التحرشات الاستعمارية على نشاطها وأعلامها، رغم بصيص الأمل الذي يظهر أحيانا، وحين وقف محمد العيد يحيي جريدة «السنة» منبرا للحركة الاصلاحية، راح كعادته يعرج على موضوعات متعددة في قصيدته، ويشن هجوما على التمثيل النيابي في الجزائر، والذي لايضم أسودا تزأر دفاعا عن المقدسات، بل وسائد هامدة خامدة لاتثور:

1- العربية والنواب ، سبقت الإشارة إليها .

2- انظر الإصلاح ، س3 ، ع6 ، 1929/10/24. وفي معنى النواب " نوائب " استعمل الشاعر محمد العيد مصطلح النيابات " نائبات " في قوله :

ياببلادا ماللزعامة فيها — قوة أو لزاعميها اتحاد
النيابات كلها نائبات — والقيادات كلها أقيـاد

الديوان ، ص 120 ، البصائر ، ع 1 ، 1935/12/27، والشهاب ، ج11 ، مج 11، فيفري 1936.

أفدني برأي في النيابات هل حوت أساود في قاعاتها أم وسائدا ؟
وإلا فما تلك السموم التي سرت فمن ذاق منها طأطأ الرأس هامدا
ألم يأتها أن المعابد حجرت على الذاكرين العامرين المعابدا (1)

ويصب جام غضبه على النواب الذين لايمثلون البلاد بل يعتبرون نوائب عليها، يمنونها بعسيل القول، ثم يصبون عليها شواظا من قرارات جائرة، فيفضح ادعاءاتهم المتناقضة مع تنكرهم العملي لها :

فيا نائبا ناب البلاد بحادث وخلف شعبا قائما فيه قاعدا
على أي ظهر كنت سوطك منزلا وفي أي نحر كنت سيفك غامدا
ومالك ترغي في النيابة موعدا ألم تك من قبل النيابة واعدا (2)

ويلمح الشاعر إلى الموقف المتخاذل لمجلس النواب جمودا وركودا، وقلة مواقف أمام المطالب الوطنية.

وبعد الحرب الكونية الثانية تطاول الاستعمار بعد أن كشر عن أنيابه في حوادث الثامن ماي، وأدار رحى الانتخابات، وفعلت فعلها في النفوس، وانساق الشعب نحو أوارها يتلظى بجحيمها، ويكتوي بويلاتها، وأسفرت عن أشخاص لايمثلون الأمة؛ بل هم مجرد أعضاء في مجلس غير متجانس الأفراد، لهم من النيابة لفظها وحروفها، ولهم من الوظيفة معناها وحقيقتها «وما دامت الانتخابات بالعصي فابشروا بطول البقاء في هذه الكراسي» (3).

وقبل الثورة المسلحة اعتبر الشاعر مفدي زكرياء، النوابَ آلات تستخدمها الادارة الاستعمارية لاضفاء الشرعية على القوانين والرغبات الاستعمارية فإذا هم أصنام متحركة تستغل في أذلال الشعب، بل هم أشبه بشهداء الزور والبهتان، انقض بهم الاستعمار على هذا الشعب :

وفي المجلس أصنام، تحركها يد المعمر، تحميها التقاليد
رموا بها الشعب، كالبهتان تحسبها شهادة الزور، ترويها المناكيد. (4)

ونخلص إلى القول إن التمثيل النيابي في الجزائر، قد جسد السياسة الاستعمارية

1- تحية جريدة السنة (1933)، الديوان، ص 97
2- م. ن.
3- انظر مقالا للإبراهيمي، البصائر، ع 33، 1948/4/26.
4- مفدي، من يشتري الخلد إن الله بائعه، 1953، اللهب المقدس، ص 266.

في الجزائر، وأظهر صورة الزعامة المستمدة من ليل الاستعمار القاتم، فهي ظلال باهتة ولكنها منفذة لمواقفه وأفكاره، إنها أقزام أمام الاستعمار، وعمالقة أمام الشعب. نلتمس فيها التناقض الصريح بين الوعود العسلية والتنكر لها.

استمد الشعر من كل ذلك العبرة للوحدة الوطنية، فبصر الشعب بعواقب هذا الانحراف، ودعاه إلى لمِّ الشتات، وجمع الصف، وتوحيد الكلمة، فكان ترشيدا للنهضة السياسية وتعبئتها للعمل الثوري.

هـ - الشعر الثوري ذو الاتجاه الاصلاحي :

إن الشعر الاصلاحي لم يتقوقع حول قضايا الاصلاح الديني والتربوي والاجتماعي والسياسي، بل كان يمتلك حسا ثوريا متغلغلا، يمكن أن نستشفه من خلال بعض القصائد والأبيات التي يمكن اعتبارها ارهاصات تدعو إلى الثورة، وتتنبأ بها، وتستشرف آفاقها المستقبلية، وتتطلع إلى فجرها المنبثق من ركام الظلمات والعذاب، وتتجلى مثل هذه الأحاسيس الثورية في أشعار محمد العيد، مفدي زكرياء، أحمد سحنون، عبد الكريم العقون، وغيرهم .

فالعقون في تحيته للبصائر سنة 1947،يبث في أبياته الروح النضالية ويدعو إلى الثقة في طاقات الشعب،وإلى جهاد الأعداء لاسترداد الحق الضائع، فيقول في أسلوب خطابي يمتطي أفعال الأمر :

وفكـــوا قيـــده لا تتركـــوه	يعـــاني كل ظلم واضطهـــاد
فهبوا يا أسود الله واحمـــوه	حمى قد بات في أسر الأعـادي
وشيدوا مجدكم بجهـــاد صدق	فـإن المجـد يدرك بالجهـــاد. (1)

وحين يخاطب الشاعر أحمد سحنون المعلم إنما يخاطبه قائدا لجيش مظفر، وليس مجرد وسيلة تربوية:

هات من نشء الحمى خير عتاد	وادخرهم لغد جند جهـــاد . (2)

ويخاطب التلميذ باعتباره جنديا في ساحة المعركة، همه تحرير البلاد من الأوغاد :

وليكن حـــاديك تحرير الحمـــى	إن تحرير الحمى للحرِ حاد. (3)

1- تحية البصائر ، البصائر ، ع 1، 1947/7/25.

2- البصائر ، ع 7، 1947/9/19، ص 6، الديوان ، ص 12.

3- البصائر ، ع 8، 1947/9/26، ص 6، الديوان ، ص 15.

ويتساءل الشاعر محمد العيد باستنكار في سنة 1950، حاثا الهمم والنفوس إلى التحوك، ضاربا الأمثلة بشعوب استفاقت من غفلتها واستعادت حريتها، فيقول من قصيدة «سلوا التاريخ»

وهل شعب الجزائر مستفيق — من الأحلام مطرح الركود
وهل هو بالتحرر سوف يحظى — كأمة (ليبيا) أو (كالهنود)
ولا يعطى التحرر غير شعب — يجيب إلى المعامع حيث نودي. (1)

لقد ظهرت مفردات جديدة في مثل هذه الأبيات السابقة كالجهاد، والتحرر، والقيد، وغيرها تدل على اليقظة الثورية، والاستعداد لليوم الموعود، بل إن محمد العيد في سنة 1951 يذكر الاستقلال بلفظة الصريح حين دعا قومه إلى النهوض لاغتنام حياتهم :

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم — فالعمر ساعات تمر عجالا
الأسر طال بكم فطال عناؤكم — فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا — حرية تحميه واستقلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف — حر لنا عال ينير هلالا (2)

فلم يكتف الشاعر بالدعوة إلى اليقظة، بل مزج ذلك بالثورة على الظلم والأغلال، لافتكاك الحرية، واسترجاع الاستقلال، ورفع العلم شامخا في سماء المجد والكرامة. فإذا الأبيات تتسم بالروح الثائرة، والأحاسيس الناقمة، والعاطفة الصادقة.

وهناك قصائد أخرى كثيرة في هذا المجال تتضمن الدعوة إلى الثورة، وركوب الصعاب نحوها، والاستعداد لمواجهة الطغاة، وتحرير البلاد من رجس الاستعمار (3). وفي هذا المعنى يقول الأديب حمزة بوكوشة : « إن للشعر تنبؤات صادقة تأتي كفلق الصبح المبين وإنّ للشعر وحيا والهاما يصدقه الواقع ولو بعد سنين، والشعراء في كل

1- البصائر ، ع 114، 1950/4/3، ص 7، الديوان ، ص 201

2- المنار ، س 1، ع 9 ، 1951/10/5، الديوان ، ص 339.

3- انظر مثلا : – مفدي زكرياء : نشيد الإنطلاقة الأولى (1936)، اللهب ص 104.
– الشمال الإفريقي يتحد ، د. ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 175 نقلا عن الوطن التونسية ع 1937/8/5.
– محمد العيد ، أين ليلاي ؟ ، الشهاب ، ج 7 ، مج 14، سبتمبر 1938.
– رعد البشائر ، الديوان ، ص 185، (1947).
– يا ليل ، الديوان ، ص 48 (1951).
– في يوم باتنة ، الديوان ، ص 218 (1954).
– أحمد سحنون ، ياجارة البحر ، الديوان ، ص 115
– المغرب العربي ، ص 117
– بوركت يادار ، ص 28 ،
– شباب محمد ، الديوان ، ص 197 ... الخ

أمة من الأمم هم حداتها إلى المجد القديم ودعاتها إلى الثورة على العبودية والتمتع بالحرية وهم معبرون عما تكنه الأمة في ضميرها بصدق وحكمة » (1).

إن الشعر الاصلاحي قد تكهن بميلاد الثورة وهي أبعد منالا، وأقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وحين اندلعت الثورة المظفرة في فاتح نوفمبر، واصل رسالته الاصلاحية التي اختلطت في هذه المواقف بالرسالة الثورية، وإن ظهرت هناك هدأة لهول الشرارة المنطلقة، ولما يتطلبه الموقف من اختمار التجربة وتبلورها في أحاسيس الشعراء، وإن كنا نلح على أن هذه الهدأة لا تعني أن الشعر الاصلاحي قد سكت كما يدعي بعض الدارسين (2)، بل استمر ممتزجا بالأشعار الثورية، فإذا محمد العيد يكتب خلال الثورة قصيدتين ثوريتين (3)، أشار إليهما كثير من الدارسين، وكتب غيرهما خلال الفترة الأولى من الثورة المسلحة مثل قصيدته في استقلال السودان (1956)، التي يعرج فيها على الوضع في الجزائر، ويدعو إلى استقلالها من الأجنبي المحتل بأسلوب لايحتمل التأويل :

نتبادل القبلات باستقلاله	فرحا وإن طافت بنا الأحزان
متسائلين عن (الجزائر) هل دنا	تحريرها أم حظها الحرمان ؟
ومتى تقرر كالشعوب مصيرها	فقد اقتضى تقريره الابان ؟
ومتى يكف عن الخصومة خصمها	أو يرعوي محتلها الغضبان ؟
ومتى تفوز بنعمة استقلالها	فقد استقلت دونها الأوطان ؟ (4)

واستمر أحمد سحنون يكتب الشعر خلال الثورة، وأغلبه كان من وحي السجن، أو في الذكريات والاخوانيات (5).

ولم يسكت الهادي السنوسي كما يتوهم البعض، وإنما استمر ينشر قصائد ذات طابع ديني لاعلاقة لها بالثورة في مجلة هنا الجزائر التي كانت تابعة للادراة الاستعمارية (6).

وكان الوضع نفسه بالنسبة للسائحي، الذي كان يتعامل مع المجلة المذكورة آنفا، وكل ما

1- البصائر ، ع 358، 16 مارس 1956، 3 شعبان 1375هـ ، ص 02.

2- يرى الدكتور خرفي أن محمد العيد لم ينظم سوى قصيدتين يرجع تاريخهما إلى الثورة ، وأن أحمد سحنون قد سكت ، وسكت آخرون مثل السائحي ، والهادي السنوسي ، ومحمد جريدي ، وعمر شكيري (انظر الشعر الجزائري الحديث ، ص 224) وتبعه في ذلك سعيد سلام في رسالته ، ص 251، 252.

3- هما : مناجاة بين أبيير وأبي بشير ، و (أبا المنقوش).

4- البصائر ، ع 355 ، 1956/2/24 ،الديوان ، ص 356.

5- انظر ذلك في ديوانه المطبوع

6- انظر الأعداد التالية : ع 32 (فيفري 55) ، ع 34 (أفريل 55) ، ع 36 (جوان 55) ، ع 79 (أوت 59)

قاله من شعر خلال هذه الفترة لا يحمل أي طابع ثوري، بل يدور حول بعض المناسبات الدينية، وكأني به يداري الوضع القائم آنئذ، أو أنه راض به. (1)

وقد دفع بعض الشعراء الاصلاحيين أنفسهم فداء للوطن الغالي، فاستشهد منهم الأمين العمودي الذي اختطفته الأيدي الآثمة، وقتلته في شهر أكتوبر 1957 (2)، وعبد الكريم العقون الذي ألقى عليه القبض في شهر جانفي 1959، وقضى عليه بعد تعذيب شديد في 1959/5/13. (3)

والربيع بوشامة الذي ألقي عليه القبض في أواخر 1958 وهو يؤدي عمله مديرا لمدرسة الثبات بالحراش، واستنطق وعذب إلى أن استشهد في ماي 1959 (4).

ومنهم من زج بهم في السجون والمعتقلات والاقامات الجبرية (5) فراحوا يصرخون حينا ويصمتون أحيانا، ومما زاد في سكوتهم أن جمعية العلماء قد اندمجت نهائيا في سنة 1956 في جبهة التحرير الوطني التي كانت تقود الكفاح المسلح، وتركت الكلمة لصوت الرشاش، ولغة المدافع التي وجدت في شعر مفدي زكرياء خير من يمثلها في هذه الفترة،وهو القائل في قصيدة «وتعطلت لغة الكلام» 1957.

نطق الرصاص فما يباح كلام وجرى القصاص، فما يتاح ملام !
وقضى الزمان، فلا مرد لحكمه وجرى القضاء، وتمت الأحكام !

إلى أن يقول متأثرا بأبي تمام :

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت، فكان بيانها الابهام
والنار، أصدق حجة، فاكتب بها ما شئت، تصعق عندها الأحلام
إن الصحائف، للصفائح أمرها والحبر حرب، والكلام كلام (6).

والفكرة نفسها يرددها خمار بعيدا عن أرض المعركة والميدان، وهو يحس بالندم والحيرة من عدم مشاركته الفعلية في الثورة، لأن الكتابة والكلام لا تجديان نفعا أمام لهيب المعركة (7).

1- هناك حوالي (20) قصيدة نشرها في المجلة المذكورة خلال الثورة المسلحة .
2- انظر الشعر الجزائري المعاصر ، رقم 1، سلسلة مجلة آمال ، 1982، ص 8.
3- نفسه ص 113.
4- نفسه ، ص 106.
5- مثل مفدي زكرياء ، أحمد سحنون ، محمد العيد ، وغيرهم .
6- انظر : اللهب المقدس ، ص 42، 43.
7- انظر : صيحة غريب ، ظلال وأصداء ، ش. و. ن. ت. ط2 ، 1982، ص 24، 25.

وتفتحت آفاق رحبة للشعر الثوري على أيدي مفدي زكرياء، خباشة، خرفي، سعد الله، وغيرهم.

فإذا ديوان اللهب المقدس يضم دررا من القصائد الثورية التي تتغنى بالجزائر، وببطولات المجاهدين، وتشيد بمآثر الشهداء الذين لقنوا دروسا في التضحية والفداء للجلادين.

وإذا الشعر يصور بعض المآسي التي تعرض لها الجزائريون من وحشية الاستعمار البغيض (1)، ويشيد ببعض المواقف التاريخية للشعب الجزائري الصامد في وجه أداة القمع الجهنمية (2)، ويسجل بعض الأحداث التي تعاقبت على الثورة في نموها وتطورها (3).

ويمجد البطولات التي اتصف بها جيش التحرير الوطني (4).

ثم هو في النهاية يفرح بطرد الغزاة واسترجاع العزة والاستقلال لهذا الوطن (5).

وقد اعتمد الشعر الاصلاحي ذو الطابع الثوري في هذه الفترة القالب الحماسي الذي يتماشى مع جو البطولات والمعارك، فكثر التكرار، وترديد معاني التحرر والثورة والبطولة والاستقلال.

---

1 انظر مثلا : - أحمد معاش الباتني ، مشبوه ، البصائر ، ع 312، 55/4/1.
- صالح خباشة ، هول تبسة (مارس 1956)، الروابي الحمر، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1971، ص 13-15
- القنبلة الصماء ، مؤيد ، الثورة في الأدب الجزائري ، ص 83.

2 - انظر مثلا : - مصطفى بن رحمون ، الإضراب في الجزائر ، الديوان ، ص 185، والعزيمة الجزائرية تجاهد الجريمة الإستعمارية ، الديوان ، ص 157.
- خمار ، صرخة الجبل ، ظلال وأصداء ، ص 93.

3- انظر مثلا : - خباشة ، مؤتمر الصومام ، الروابي الحمر ، ص 23-27.
- أبو اليقظان، إيقاف النار، مؤيد، الثورة في الأدب الجزائري، ص 132.

4 - انظر مثلا : - محمد العيد، جيش التحرير الوطني، الديوان، ص 427.
- أبو اليقظان ، إلى جيش وجبهة التحرير الوطني، مؤيد، م. س. ص 132.
- محمد الهادي السنوسي، الثائر، م. ن. ص 22.

5 - انظر مثلا : - خباشة ، الفرحة الكبرى، الروابي الحمر، ص 183.
- أبو اليقظان، رفع العلم الجزائري، الديوان، ج2، ص 26.

2 - السياسة الخارجية :

سنتطرق إليها من خلال عدة قضايا أهمها : قضايا المغرب العربي ، قضايا الوطن العربي، قضية فلسطين، وقضية العالم الاسلامي الشامل.

أ - قضايا المغرب العربي :

إن العاطفة الاسلامية المتأججة في صدور الشعراء جعلتهم لا يتقوقعون حول قضايا وطنهم الجزائر، بل ينغمسون في قضايا أمتهم الاسلامية دون أن يثنيهم عن ذلك التجاوب أسلاك وأشواك، وهو موقف يدل على أن الأخوة مغروسة في النفوس تجد التجاوب المنطقي معها، ويصدح بها الشعراء نغما شجيا، متفاوت القيمة والمعالجة.

وقد ارتبطت قضية المغرب العربي بالنضال ضد الاستعمار الفرنسي الجاثم على دويلاته، وظهرت محاولات الوحدة بشكل جدي مع حزب نجم شمال افريقيا الذي طالب باستقلال أقطار المغرب العربي ووحدتها. وظلت بذلك الوحدة هاجسا لكل تجمع أو جمعية (1)، من أجل القضاء على مظاهر التشرذم والتفرق ، وتوحيد هذه الكيانات المتباعدة والمتناثرة، دون أن تستطيع جحافل الاستعمار وحدوده الوهمية، وأسلاكه الشائكة الوقوف حجر عثرة في سبيل هذا الحلم لجمع شمل الشعوب والتغني بوحدتها.

إن المعالجة الشعرية كانت متفاوتة؛فهي عند بعض الشعراء تلميحات عابرة، واشارات سريعة ترد ضمن الموضوعات المتعددة في القصيدة الواحدة وبوحي من المناسبة. وهي عند بعضهم الآخر الحاح متواصل، ووحدة موضوعية في القصيدة، بل اعتبرها مفدي زكرياء جزءا من رسالته الاصلاحية، وصلت عنده إلى مرتبة أسمى، فغدت «عقيدة راسخة تمتد جذورها في أعماق أعماله الشعرية، ومبدأ سياسيا ناضل من أجل تحقيقه منذ يفاعته حتى آخر لحظات عمره». (2) أي أنه لم يكتف بدور المتفرج يحس بالقضية، وينفعل بها، فيعبر عنها شعرا، بل مارس العمل النضالي في سبيل هذه (العقيدة)، «واكتوى بنار الثورة في كل مراحلها، وواكب أحداث المغرب العربي السياسية في كل تطوراتها، وتعرف إلى مناضليه عن احتكاك وزمالة، وجسّد في شعره آلامه وآماله، فغدا وثيقة حية تؤرخ لمدة نصف قرن من حياة المغرب الكبير ... يحمل الفكرة عقيدة وينصهر مع الأحداث يعيشها بكل خفقة من خفقات في قلبه، وتصبح ايمانا راسخا يتعمق شعره. هذا الايمان الراسخ الذي جعل زكرياء مواطنا مخلصا يعتبر وطنه في الخارطة الجغرافية يمتد من (أغادير) غربا إلى (صفاقس) شرقا.» (3)

---

1 - مثل جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حزب الشعب، لجنة تحرير المغرب العربي ... إلخ.

2 - د. ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ص 41.

3 - م. ن. ص 66/65.

ولم يكن موقف شعراء الاصلاح يخرج بالقضية عن اطارها الاسلامي الصرف، فكثرت في أشعارهم الاشارة إلى العوامل التي توحد الصفوف:كالدين واللغة والتاريخ والمصير المشترك، وحتى التعابير، والصيغ الداعية إلى الوحدة والتمسك بها لاتخرج عن اطار التعابير الاسلامية المقتبسة من القرآن الكريم.

* * * * * * * * * *

يقف مفدي زكرياء في بداياته الشعرية موقفا وحدويا من الثورة الريفية في المغرب الأقصى (1)، ولم تكن هذه الثورة في نظره ثورة لتحرير المغرب، بل ثورة لتحرير المجد الاسلامي في المغرب العربي وفي البلاد الاسلامية عامة، فهي في نظره صورة للصراع الاسلامي الصليبي الذي لم يتوقف، «وبالعودة إلى مضمون هذه القصيدة، تتضح لنا جليا هذه الروح الاسلامية المتدفقة من كل بيت من أبياتها .. (ذلك أن الشاعر) كان يرى في جهاد الريفيين ضد الأسبان امتداداً لجهاد المسلمين ضد الكفر، وأن قتالهم ضد العدو المحتل إنما هو قتال بين الصليب المسيحي، والهلال الاسلامي (2):

أجبريل هلل بآي الظفر   وكبر وخط جليل الخبر
وابلغ رسول البرية أحمد   هادي الشريعة بادي البشر
بأن الهلال على أفق العز   والمجد بعد الأفول ظهر (3).

إن زكرياء شاعر وحدوي، أخلص لهذه العقيدة وآمن بها، وجسدها في شعره وسلوكه، وصب كل اهتماماته على توجيد النشئ الجديد ممثلا في طلبة شمال افريقيا، وتوجيهها لخدمة هذه العقيدة التي نادى بها وعمل على تحويلها إلى واقع ملموس (4).

وشاركه غيره من الشعراء هذه النظرة، مدركين أن الاسلام روحها والعربية وسيلتها والثقافة أساسها، والشباب منفذها (5)، فانصبت الاهتمامات على تغذية النشئ بهذا الشعور، وعملت مؤتمرات الطلبة المغاربة في الثلاثينيات «على نشر غايات الوحدة العربية والوحدة المغربية بايمان فعال» (6).

إن الايمان بهذه الوحدة تجعل الشاعر يملك احساسا قويا من كل قضايا دويلات المغرب العربي، فيشاطرها آلامها وآمالها، لأن العوامل التي تجمعها أكثر من العوامل

---

1 - وهي الثورة التي قادها البطل عبد الكريم الخطابي ضد الاسبان.
2 - د. ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ص 44/43.
3 - م. ن، ص 131 نقلا عن لسان الشعب (التونسية)، ع 6 ماي 1925.
4 - في المؤتمر الرابع للطلبة المنعقد بقاعة الخلدونية بتونس سنة 1934، اقترح زكرياء على المؤتمرين ما يمكن تسميته بميثاق التوحيد، وسمى البنود العشرة التي تتضمن هذه الأفكار (عقيدة التوحيد)، انظر د. ناصر، م. ن، ص 52/51.
5 - انظر مثلا قصيدة للهادي السنوسي، الاصلاح، س3، ع4، 29/10/3، ص 4.
6 - شارل اندري جوليان، افريقيا الشمالية تسير، ص 36.

التي تفرقها، ويعبر عن هذا الموقف الشاعر الهادي السنوسي، فيقول مخاطبا الشقيقة تونس :

أخت الجزائر لاعادتك عادية ولا عدمناك في الفصحى تآخيها
أرسلت راحتك البيضاء منشدة ود الأخاء فمديها ومديها
إنا علىَ قصر الأيدي نجود بها والجنس والدين يرضينا ويرضيها
ما أرض تونس إلا أرض جارتها هذي وتلكم سواء في تشكيها (1)

والموقف كله ينطلق من قوله تعالى «إنما المؤمنون اخوة» (2)، ومن قوله عليه الصلاة والسلام : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.» (3)

ويعتبر زكرياء الوحدة المغربية وسيلة للوحدة العربية الاسلامية، لأن المغرب غير مفصول عن المشرق، وكلاهما يستظل بظلال الدين واللغة العربية، فيخاطب طلبة شمال افريقيا في مؤتمرهم الذي عقد بالجزائر سنة 1932، باعتبارهم دعاة لهذه الوحدة :

بني القطر الشقيق ومن أتى بالود منتدبا
فانا كلنا وطن غدا للشرق منتسبا
بلاد أمها لغة إذا ما الدين كان أبا
فحيّ الله وحدتنا وحيّ العلم والأدبا
وحيّ الدين يربطنا وحيّ الشرق والعربا . (4)

وقد خيم على الشعر الاصلاحي - رغم كل ذلك - ظل من التشاؤم على الوضع في المغرب نظرا لمواقف التخاذل والتنافر، وتكالب الاستعمار على هذه الدويلات، وأساليب التفرقة التي تبذر سمومها، فنجد محمد العيد يشير إلى هذه الظاهرة في قوله سنة 1937 من قصيدة «بلادي»

وفي تونس الخضراء شمل مبدد وفي المغرب الأقصى أذى متفاقم
وفي المقدس الباكي الحزين فظائع توالت وأنكاد طغت ومآثم . (5)

---

1 - جريدة النجاح، ع 691، 1929/1/18، ص 03.
2 - سورة الحجرات ، الآية 10.
3 - ينظر : القسطلاني ، ارشاد الساري، ج 10، ص 17.
4 - زكرياء، المأدبة، النور، س 1، ع 49، 1932/9/6، 3 جمادي الأولى 1351 هـ ص 02.
5 - الديوان ، ص 138، وانظر له أيضا : ومن العلم للمواطن تاج، الديوان ، ص 119.

ونلمح من خلال العنوان، ومضمون البيتين ذلك الربط بين الوضع المحلي والوضع العربي الشامل لأن جسم الأمة واحد في نظر الشعر الاصلاحي.

إن أبواب الأمل لاتعصف بها مثل هذه الفترات العصيبة، بل استمرت مشرعة في وجه اتحاد القوى، وتجميع الصفوف، ووحدة الجهود خدمة لشعوب المنطقة، وكان الأمل في الشباب ظاهرة مميزة باعتباره وقود الاتحاد وحادي المسيرة، يقول محمد العيد عن الشباب المطعم بتجربة الشيوخ والمنطلق نحو تحقيق أهداف الوحدة :

شملوا ببرهم (الشمال) وأجمعوا　　أن يجمعوا من شمله المتصدع. (1)

وزكرياء كما عهدناه متفائل أيضا بامكانية تحقيق هذه الوحدة، فحين ترأس الوفد الجزائري في مهرجان تونس (سنة 1937)، ألقى قصيدة كشف فيها آراءه الوحدوية وأطلق عليها «صوت الجزائر : بردة الوطنية الجزائرية» وجسد من خلالها الوحدة الأزلية بين الأقطار المغربية، فقال بثقة وحماس معهودين لديه :

تونس ، والجزائر اليوم والمغـــــرب، شعب لن يستطيع انفصـالا

وحدة أحكم الاله سداهـــــا　　من يـــرد قطعهـــا أراد محـالا

نبتـــت مـن أب كريم، وأم　　وسمت في الحياة عما وخـالا (2).

ويستهزئ الشاعر بالحدود المصطنعة التي أقامها الاستعمار، محاولة فاشلة منه لخلق حواجز فاصلة بين الاخوان تحول دون تحقيق وحدتهم المنشودة :

نصبوا بينها حدودا من الألـــــواح جهلا، وخدعة، وضـلالا

فاجعلوا إن أردتم الكون سدا　　وضعوا البحر بيننا والجبالا

نحن روح مزاجه الضاد والد　　ين فلن يستطيع قط انحـلالا

نحن قوم على الولاء خلقنـا　　يشهد الدهر ذكرنا والفعـالا

نحن شعب على الزمان عزيز　　عربي، كالنيـرين اشتعـالا

كلما رمتم افتراقا قربنــا　　وعقدنـا محبـة واتصـالا (3).

إننا نحس من خلال الأبيات بهذا الحماس المتدفق، وهذه العاطفة الجياشة، وهذا الايمان القوي بالمبدأ الوحدوي، وهذا الاعتقاد الجازم بالقضية، مما طبعها بطابع الإنفعال

1 - انظر : الديوان ، ص 144.
2 - د. ناصر، مفدي زكرياء ، ص 169 - 170، نقلا عن الشباب (التونسية)، ع. 1937/3/5 و ع. 1937/4/7.
3 - م. ن

وصدق المشاعر، وأضفى عليها جوا من القوة. وكان لتكرار الفكرة دور في ابراز القضية واعطائها شحنة حماسية زادتها قوة وايحاء، وأعطتها تحديا واصرارا قلما نجدها في قصائد هذه الفترة.

إن الوحدة المغربية التي كان الشعر الاصلاحي يدعو إليها هي تلك الوحدة المبنية على أساس الاسلام والتوحيد، والأخلاق الفاضلة، ولواء الضاد (1)، أي تلك التي تجعل منا أسرة واحدة قوامها الدين والجنس واللسان :

بورك المغرب من دار لنا	بوأتنا من مغانيها كنانـــا
نحن فيهـا أسرة واحـدة	أخوة دينا وجنسا ولسانــا
فتت الفرقة في أعضائنا	إن منهـا أبدا كلّ ضنانــا
عالجوها باتحـاد جـــامع	ناجع المفعول ينفي الشنآنا
ضمن الله به العز لنـــا	ونفى الذلة عنـا والهوانـا. (2)

وقد تسلح بعض الشعراء بهذه العقيدة الوحدوية، فكانت هواءهم الذي يتنفسونه، والسماء التي تظللهم، والأرض التي يفتر شونها، وقد أكد هذه الحقيقة الشاعر مفدي حين قال مفتخرا بموافقه :

وفي المغرب الجبار ناشدت وحدة	سبقت بها - في فجر عمري - أقراني
وهمت بأبناء العروبة، يافعـــا	أرى كل أبنـــاء العروبـة، اخوانـــي . (3)

وقد وقف الشعر الاصلاحي مواقف حاسمة من الأحداث التي تلم بالاخوان في دويلات المغرب العربي،كاستقلال تونس والمغرب وليبيا (4)، أو بعض القضايا المؤثرة في الواقع المغربي (5).

1 - انظر مثلا : - أحمد سحنون، المغرب العربي، 1370هـ ، الديوان ص 117.
- أحمد سحنون إلى الأمة الجزائرية، 1370هـ ، الديوان، ص 120.

2 - محمد العيد ، تأبين الشاعر خزندار، البصائر، ع 261، 1954/3/5، ص 5، الديوان، ص 481.

3 - مفدي ، هنيئا بني أمي، اللهب المقدس ، ص 321.

4 - انظر مثلا : - محمد العيد، استقلال ليبيا، الديوان، ص 349.
- مفدي زكرياء، يوم الخلاص، اللهب المقدس، ص 208.
- مفدي زكرياء، قالوا نريد، نفسه، ص 113، هنيئا بني أمي، اللهب ، ص 320.
- الربيع بوشامة، حييت يا ليبيا، البصائر ، ع 99، 1949/12/19.
- ع. ك. العقون، يوم الجلاء والتحرير، البصائر، ع 285، 1954/9/17، ص 03.

5 - انظر مثلا : - محمد العيد، عمر المختار الشهيد، المرصاد، ع 1، 1931/12/27، ص 02.
- أحمدسحنون، أتونس خطبك خطب الشمال، البصائر، ع 51، 1948/9/27.
- أحمد سحنون ، يا بن الشمال، البصائر، ع 248، 1953/4/20.
- ع. ك. العقون، تحية المغرب، البصائر، ع 181، 1952/2/21.
- أحمد معاش الباتني، نكبة المغرب، البصائر، ع 274، 1954/6/11.

مثل الموقف الذي وقفه مفدي اثر العدوان الفرنسي السافر على (بنزرت) التونسية يوم 1961/7/19، وفيه أعاد إلى الأذهان إيمانه بالوحدة المغربية التي لا تزعزعها الأفكار المتقلبة، بل تدعمها أواصر المحبة التي تجمع المسلمين في السراء والضراء فيقول :

يا شعب مهما باعدت بيننا — سياسة، لم ينقطع حبنا

الرأي، إن وزع أفكارنا — ما زعزع التفكير ايماننا

لم تنسنا الأحداث أرزاءنا — فكيف ننسى اليوم اخواننا ؟

أم كيف يجفو المسلم المسلما؟

وبيننا قربى، وجنس، ودين. (1)

ولم ينفصل الشعر الاصلاحي عن بعض الأحداث الأدبية في تحية بعض الشعراء أو تابينهم (2) أو تحية بعض العظماء والقادة (3). وإن كنا نؤمن بأن الوحدة مطلب شعبي قبل أن تكون مطلب قيادات تتقاذفها الأهواء والصراعات ويحتكم فيها بعض القادة إلى أنانية النفوس لا إلى جماعية الرأي.

ونخلص إلى القول أن الشعر الاصلاحي قد جسم الوحدة المغربية في أشعار الشعراء ومواقفهم وأعمالهم؛ فنجدها مبثوثة في شعر محمد العيد، وأحمد سحنون، ومحمد الهادي السنوسي، وأبي اليقظان، والعقون، ومفدي زكرياء، وغيرهم. وقد تفوق مفدي على الجميع تكرارا والحاحا، ومستوى فنيا، لايمانه بهذه الوحدة التي صارت عنده بمثابة العقيدة؛ ناضل من أجلها وقضى حياته في خدمتها، وقال بشأنها «إن وحدة مغربنا الكبير – كرصيد للوحدة الكبرى – لاتختلف قط عن عقيدتي في وحدانية الله، لذلك تراني أشدُ وفوق كل غصن من مغربنا الكبير، وأمجد كل من يعمل على خيره وخير العرب أجمعين» . (4)

---

1 – مفدي ، ارادة الشعب تسوق القدر، تحت ظلال الزيتون، دار النشر التونسية، 1965، ص 54.

2 – انظر في تحية خزندار : خبشاش، النجاح، 642، 1928/9/23، الهادي السنوقمي، النجاح، 691، 29/1/18.

وفي تابينه : ع. ك. العقون، البصائر، 259، 54/2/19، محمد العيد، البصائر، 261، 54/3/5.

وانظر في تابين الشابي : ع. ك. العقون، إلى روح أبي القاسم الشابي، البصائر، ع 244، 53/10/23.

3 – انظر مثلا : – ع. ك. العقون ، تحية عبد الكريم الخطابي، البصائر، ع 7، [سلسلة 2]، 47/7/19.

– سحنون، في رثاء المنصف، الديوان، ص 263.

– سحنون، مات محي الدين، البصائر، ع 296، 54/12/10.

وانظر قصائد كثيرة في محمد الخامس، مثل :

– الابراهيمي ، السلطان محمد بن يوسف، البصائر، ع 147، 51/3/19.

– محمد العيد، عودة المليك الزعيم، البصائر، ع 346، 55/12/23.

– سحنون، من المنفى إلى العرش، البصائر، ع 351، 56/1/27.

4 – انظر : مقدمة ديوان تحت ظلال الزيتون، ص 9/8.

ب - قضايا الوطن العربي :

تجاوزت النظرة الجزائرية موقع الخطو، ولم تتقوقع حول قضاياها المحلية أو قضايا المغرب العربي، لتتعانق بشغف وحنين مع القضايا العربية الاسلامية، مؤكدة وحدة الانتماء، واشتراك المصير ..

ولم يكن الارتباط مع المشرق العربي إرتباطا عفويا، بل هو انتماء حضاري إلى كيان ثقافي، اسلامي الدين،عربي اللغة، يرتبط تاريخيا بأحداث ومواقف، فهو مهبط الوحي، وأرض الرسالات السماوية، ومنبع اشراق الحضارة الاسلامية.

إن موقف الانتماء هذا لم تقف في وجهه أسوار حديدية، ولا حدود وهمية، ولم تثنه قيود ولا محاولات القزل الاستعمارية، بل كان عرقا نابضا ينبض شوقا ومحبة، ويجذر هذا الانتماء بمختلف الأساليب، ويرد كيد دعاة التغريب والاندماج إلى نحورهم. ويهزأ بالمنطق الاستعماري الذي يحاول عبثا تغيير مجرى تدفق النهر العربي .

وللالمام - ولو بايجاز - بهذا الموضوع ارتأينا تقسيمه إلى العناصر التالية : الموقف من الشرق، بين الشرق والعروبة، القضايا العربية، القضية الفلسطينية، مدركين صعوبة تقسيم مثل هذا الموضوع المتشعب، منتقين بعض ما قيل فيه من شعر لكثرته وتعدد مناحيه.

* * * * * * * * * * * *

إن التوجه إلى الشرق كان طبيعيا لأن الاخوة مغروسة في القلوب، ممتزجة بالدماء، وجذوة الشوق لاتخمدها أعاصير المستعمر ولا محاولاته اليائسة، ولا جنوده المخلصون من دعاة التجنيس والتغريب، بل إن هذا التوجه «كان تعبيرا عن احساس وجداني أخوي كثير الروابط والمصالح المشتركة» (1)، وكان رفضا لسياسة الفرنسة والادماج التي حاول المستعمر فرضها قصرا واكراها.

وقد ترعرع هذا التوجه ونضج في أوساط المثقفين ثقافة عربية اسلامية بحكم انتمائهم الحضاري،ومواقفهم ضمن الحركة الاصلاحية، وبرز شكل باهت عند بعض المثقفين ثقافة فرنسية ممن تربطهم صلات وثيقة بهذه الحركة.

لقد أدرك الشعراء أن ربط الصلة مع المشرق هو السبيل الوحيد للمحافظة على الذاتية الجزائرية، والوجود الذي يهدده الاستعمار، بل هو النافذة الوحيدة المسيجة

---

1 - د. سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 114.

بأغلال الاستعمار والتي يمكن من خلالها استنشاق هواء العروبة.

ولم يكن هذا الارتباط عنصريا قوميا كما يتوهمه البعض، بل كان ارتباطا روحيا، حبله الاسلام، وأداته اللغة العربية، أي ارتباط القلب واللسان، وارتباط العقل والتفكير، وارتباط الشعور والتقدير كما يرى ابن باديس، فهو إذن ارتباط عقيدي ينبع من موقف ديني لا يتعصب لأي جنس، خاصة وأن مفهوم العروبة في الجزائر يرتبط دوما بالاسلام، ويشكلان معا وجهين لعملة واحدة.

إن الاتجاه نحو الشرق كان تكاملا للحضارة، وتجديدا للعهد، واستفادة من منابعه الصافية، حتى أن الهجرة الجزائرية في طلب العلم لم تكن في غالبها الا شرقا، لأن الشرق رمز الخلاص، وحلم المستقبل، ومنه انطلقت النهضة إلى الغرب، فالغرب مذعن للشرق ومعترف بكماله (1).

وقد كثر الحديث عن الشرق في الشعر مع مطلع الثلاثينيات بظهور بوادر النهضة المرتبطة بزعماء الاصلاح في المشرق العربي، وبروز فكرة الارتباط بالشرق وسيلة لاسترجاع الهوية والذاتية والكيان عند جمعية العلماء، ولذلك فلا نستغرب إذا أكد الشاعر محمد العيد ارتباط ابن الجزائر بأبناء المشرق ارتباطا روحيا قويا، لا تزلزله عواصف، ولا تؤثر فيه نوازل، ولا تعوقه حوادث، فيقول هذه الحقيقة جاهرا بها أمام الملأ، صارخا بها في آذان أولئك الذين أصابهم وقر، وغشيت أعينهم ضلالات الاستعمار :

وابن الجزائر با بن الشرق مرتبط   وإن احاطت به الأشواك أسوارا (2).

إن ذكرى الرثاء لشاعر عربي كبير قد أوحت إلى الشاعر بهذه الحقيقة المنطقية ليدوي بها في وجه الاستعمار وأذنابه، الذين يتوهمون الجزائر قطعة من فرنسا، مفصولة عن رحم الأمة العربية.

وبعد الحرب الكونية الثانية ومع بروز بعض الانتفاضات العربية على الاحتلال، وتململ المارد العربي في حوادث ماي بالجزائر، وانتفاضته في مواقع أخرى، ظهرت النغمة حادة إلى فكرة الوحدة العربية ضمن اطار الوحدة الاسلامية أي «فكرة الارتباط بالمشرق والايمان بالوحدة العربية بل بالوحدة في اطار اسلامي واسع» (3).

وتأكيدا لكل ذلك دأبت جمعية العلماء على توجيه البعثات العلمية إلى المشرق العربي للتزود من مناهل العلم والمعرفة، وحينها لم يجد الشاعر محمد العيد بدا من

---

1 – انظر : محمد العيد، لوح الخيال، (الديوان ص 25)، الشهاب، ج 7، مج 8، جويلية 32.
2 – محمد العيد، رثاء شاعر النيل حافظ ابراهيم، الديوان ، ص 456.
3 – د. الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب - ليبيا، تونس، ط 3، 1977، ص 14.

مخاطبة الشباب – كرمز للمستقبل حاثا اياهم على التزود بزاد العلم، والارتواء من مناهل الشرق الصافية لأنه وكر للعروبة، وكهف آمن لهم، فيقول :

يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ   كل كنز له إليه انتساب
إنمــا الشــرق للعروبـــة كهف   آمن الظل بالأذى لا يصـاب
إنمــا الشــرق للعروبـــة وكر   من بنيهــا تؤمه أســراب
إنمــا الشــرق للعروبـــة ورد   بارد الماء سائغ مستطــاب
هو صفــو وغيــره لك شـــوب   فرِدْ الصفو لا تَرِد ما يشاب (1).

وقد التجأ الشاعر هنا كعادته في مواقف الاستنهاض والاستثارة إلى الأسلوب الخطابي المباشر في صيغة نداء إلى الشباب، وقد برز التكرار لتوكيد الفكرة، وتثبيتها في النفوس، نظرا لسيطرتها على شعور الشاعر ووجدانه، فراح يكرر صيغة (إنما الشرق للعروبة) الذي زاد الأبيات صدقا، وأعطاها تشويقا واثارة.

وأحصى بعض الشعراء العوامل التي تجمعنا مع الشرق كالدين والأخلاق والعادة، والمجد التليد، والانتماء إلى سلالة يعرب، رد فعل على أولئك الذين يدعون انتماءنا إلى فرنسا. (2)

وقد وجد الشعراء في الحديث عن الشرق، والدعوة إلى ربط الصلة معه فرصة للتخفيف من الضغط الاستعماري، والتنفيس عن الجو المكبوت، وفرصة للتعويض عن الحاضر الشقي الذي يحيونه، فإذا الشرق رأسمالهم الحي، وربح أعمالهم، ونجع مآربهم، وموردهم الأصفى الذي يروي غلتهم بل هو الحلم والأمل، ناشرا لواء العدل، قاضيا على مظاهر الطغيان. (3)

وقد أحس الشعراء أن هذا التجاوب كان أحاديا، فإذا المشارقة لا يعبأون بالمغاربة، ولا يهتمون بقضاياهم، بل انهم يجهلون عنهم الكثير، ويعتبرونهم جزءا مهمشا من الأمة العربية، بل أندلس جديدة استولت عليها الصليبية الحاقدة.

وإذا كان المغاربة يعرفون عن المشارقة أدق التفاصيل فإن المشارقة لايكترثون كثيرا بقضايا المغرب، يقول أحمد سحنون معبرا عن هذه الحقيقة في قصيدة «يا بنات النيل».

---

1 – الديوان، ص 260/259، البصائر، ع 11، 47/10/20. ص 07.
2 – ع. ك. العقون، بني العرب هذا يومكم، البصائر، ع 43، 48/7/12، ص 6.
3 – انظر مثلا قصيدة لصالح خرفي، البصائر، ع 319، 55/5/20، ص 5.

إنما نشكو إليكم منكم وحشة لم تخف عن أذهانكم

لم تغيبوا قط عن وجداننا كيف غبنا نحن عن وجدانكم (1)

وقد طرح غيره كلمة عتاب رقيقة إلى اخوانه المصريين داعيا اياهم إلى تحقيق نوع من الاحساس المشترك، والتجاوب المتبادل خاصة وأن الجزائر تحيا في ظل ظروف استعمارية صعبة، تتطلب مؤازرة الاخوان ومساندتهم (2).

* * * * * * * * * * *

2 - وارتبط مفهوم الشرق أو المشرق بالعروبة والوحدة والاسلام، ولا تكاد قصيدة تتعرض إلى قضايا الجزائر تخلو من حديث عن هذه المفاهيم. فالجزائر في ظل الكبت والحرمان تجد متنفسها في الحديث عن الأمل في المشرق؛ رمزا للخلاص والفداء.

والنظرة في حد ذاتها نظرة وحدوية تنظر إلى العالم العربي لا كدويلات مهمشة نثرها الاستعمار، وفصلها بحدود وهمية، بل كعالم يعلو فوق الحدود والتقسيمات الجغرافية، يتعانق فيه الاخوان، ويرتبطون ارتباط اللحم والدم رغم تباعد المناطق والأماكن :

فهل نحن إلا أمـــة عربيـــة شقيقة أرواح قسيمة أكبـــاد ؟

وهل نحن إلا أمـــة أحمديـــة مقدسة غرا سليلـة أمجـاد

وهل نحن إلا في الجراحات أخوة بنــورهم شرقيـــة ذات أولاد

وثيقـــة حب لا يفرق بينهـــا تباين مرعى في سهول وأنجاد. (3)

وقد برزت هذه المنظرة التي تنطلق من عقيدة وحدوية بصفة جلية بعد الخمسينيات،نظرا لنضج فكرة القومية العربية في العالم العربي، وخروج طبقة متخرجة في المدارس العربية، وعودة طبقة متعلمة في معاهد الشرق وجامعاته، وما تحمله من رسائل شوق، وعلاقة محبة بأمتهم العربية.

وكان لتقسيم فلسطين، وتداعي الغرب على الشرق من الأسباب التي حذت بالشعراء أن يوجهوا بؤر تفكيرهم نحو هذه المنطقة، مؤكدين التصاقهم بها، مستعدين للتصدي إلى مؤامرات الاستعمار، متشبثين بعهد العروبة والاسلام رغم كيد الكائدين :

---

1 - الديوان، ص 45، البصائر، ع 108، 50/2/20، ص 07.

2 - انظر مثلا، ع. ك. العقون، يوم الجلاء والتحرير، البصائر، سل2، ع 285، 20 محرم 74، 54/9/17، ص 03.

3 - مفدي زكرياء ، نهوضا بني افريقيا من سباتكم، النور، ع 48، 30 أوت 1932، ص 03.

رسول الشرق .. قل للشرق إنا على عهد العروبة، سوف نبقى

وإمـــا بالجزائر، أنكرونـــا سنخرق وصمة (الاجماع) خرقا. (1)

إن البيتين يقطران تحديا واصرارا لأن ايمان الشاعر بالعروبة عقيدي، بل أن عهد العروبة ركن من (عقيدته التوحيدية) التي أشرنا إليها في المبحث السابق يؤكدها في قوله - عند تعرض مصر إلى الاعتداء الثلاثي سنة 1956 -

عهد العروبة ركن من عقيدتنا وللعروبة في أصلابنا، رحم. (2)

وقد توفر لهذه العقيدة خلال الثورة المسلحة إلحاحا وتكرارا في عدة قصائد، برز فيها القالب الحماسي واضحا، وأشاد فيها بالتجاوب القائم بين أقطار العالم العربي في السراء والضراء :

نسب بدنيا العرب زكى غرسه ألم، فأورق دوحه وتفرعـــا

سبب بأوتـــاد القلوب، عروقه إن رنّ هذا، رن ذاك، ورجعـــا

أمـــا تنهد بالجـــزائر مـــوجع أسى الشـــام جراحهُ، وتوجعـــا

واهتز في أرض الكنانة خـــافق وأقض في أرض العراق المضجعا

وارتج في الخضراء، شعب مـاجد لم تثنـــه أرزاؤه أن يفزعـــا

وهوت مواكش حوله وتأملت لبـــــنان واستعدى جديس وتبعـــا

تلك العروبة إن تثر أعصـــابها وهن الزمان حيالها وتضعضعـــا. (3)

يحشد الشاعر هذه الأسماء للأقطار العربية، توكيدا للروابط، وتجسيدا للتعلق، واقتباسا لمضمون الآية القرآنية الكريمة «إنما المؤمنون اخوة» (4)، ولمضمون الحديث النبوي الشريف في هذا المعنى الذي سبقت الاشارة إليه.

ولما كان الشاعر داعيا وحدويا في المغرب العربي، صرحا للوحدة العربية الاسلامية، فقد ربط بين الوحدتين المنشودتين في تخليده للذكرى السادسة للثورة في قصيدته "سنثأر للشعب" 1960.

---

1 - مفدي زكرياء، على عهد العروبة سوف نبقى، اللهب المقدس، ص 122.

2 - مفدي ، قل يا جمال ، اللهب المقدس، ص 203.

3 - مفدي ، اقرأ كتابك، م. ن. ص 60.

4 - الآية 10 من سورة الحجرات.

وفي الشــرق اخــوان، كرام أعـــزة عروبتنا، كم عبدت بيننا الطرقا

هي الوحدة الكبرى، فمن رام قطعها فقد رام أن يستل من صلبنا عرقا

هو المــارد العملاق ! إن تحم ظهــره تعش مستقلا، لا تضل ولا تشقــى (1)

وفي الأبيات السابقة تصوير عميق، وايحاء بقوة الوحدة العربية التي جسمها الشاعر فجعل منها «عرقا وشريانا قويا فمن رام قطعه قطع الحياة كلها» (2).

* * * * * * * * * * * *

شاطر الشعراء الاصلاحيون العالم العربي أحزانه وأفراحه، وتجاوبوا معه تجاوبا صادقا، ينبع من حماس ديني متدفق، يربط الصلة بين الأخ وأخيه بحبل من المودة والمشاركة الوجدانية التي لا تفصم الأحداث عراها، ولاتحل عقدها.

فقد يغمر النفوس الاستبشار، ويحفها الأمل حين يتحرر أحد أجزاء هذا العالم من نير العبودية، وتشرق عليه شمس الحرية، لأن الجزائري عانى قسوة الاحتلال ولظاه، ومن هنا كان الشوق إلى الحرية عارما، واللهفة إليها لا يطفئ ظمأها إلا فجر الاستقلال.

وقد يطغى على النفوس روح التشاؤم، ويلفها اليأس وهي تعيش أحداث الانتكاسات التي تتوالى على هذا العالم، لكنه يأس سرعان ما يتحول إلى حماس، ونهضة تسترد المجد المندثر.

ونجد من القضايا البارزة بعض الحوادث الكبرى كالهجوم الفرنسي على دمشق، وحادث القنال، وثورة الشعب المصري قبل الجلاء، واستقلال بعض البلدان العربية، ليبيا، السودان، تونس، المغرب، ... إلخ.

لقد كان الشعر حاضرا في مأساة دمشق، حين حطمتها الجيوش الفرنسية الغادرة، فرثاها الشعراء العرب، وبكوا مجدها المحطم، لكن الشعرالجزائري فضح من خلال هذا الموقف الاستعماري جرائم الاستعمار التي تفتك به وباخوانه، داعيا إلى الجهاد والنضال، فأبو اليقظان مثلا في قصيدته (في الجهاد الوطني) لا يرثي دمشق كغيره من الشعراء، ولم تكن قصيدته «نواحا أو تباكيا على ما وقع بل (كانت دعوة) إلى مزيد من الضحايا ومزيد من المقاومة» (3)، فيقول :

1 – مفدي ، اللهب المقدس، ص 205/204.

2 – د. الركيبي قضايا عربية، ص 28.

3 – م. ن. ص 102.

ابن صرح المجد عن أس الضحايا ... وأشد عرش العلى رغم البلايا

خض غمار الهول غوصا إنمـــا ... لؤلؤ التيجان في بحر المنايا

إن في الموت لطـــلاب العلـــى ... لحيـــاة، لا حيـــاة أهل الدنايـــا (1)

لقد اتخذ الشاعر من هذه القضية، نقطة لكشف الفضائح الاستعمارية، ووجدها فرصة للدعوة إلى الثورة على كل احتلال أجنبي للبلاد العربية :

إنما الدنيا جهاد من ينم ... يومه داسته أقدام الرزيـــا (2)

ولنيل الحق أدوار غدت ... خطوات جازها جل البرايا. (3)

ورغم الطابع الخطابي المباشر الذي ميز القصيدة والذي يصلح في مثل هذه المناسبات الحماسية، فإن القصيدة إدانة للموقف الاستعماري، وصرخة في وجه الاحتلال، وحلقة من حلقات الارتباط بالاخوان.

ونلمح مثل هذا الموقف أيضا في قصيدة مفدي زكرياء التي حيّا فيها انتصار العُمانيين على أعداء الله (4)، وكانت العلاقات واضحة بين الجزائريين واخوانهم العمانيين عن طريق المراسلات، وتبادل الصحف والأخبار.

ويظهر في القصيدة احساس الشاعر بقيم العزة والانتماء الاسلامي، فيمتزج شعوره المحلي بشعور اخوانه العمانيين، وتغدو قضاياهم جزءا من كيانه، فيقول في وصفهم :

يحيون تحت لواء الله مذ خلقوا ... مـــا ظلهم علم للأجنبي إبـــا ..

كم حاولت (ابرطانيا) اغتيـالهم ... فاتبعوا الرأس من ثعبانها الذنبا

وكيف تغتال أقواما تصـــونهم ... عين الاله الـــذي أولاهم الغلبـــا

ومن يكن ورضـــاء الله رائـــده ... مد الإله له من روحـــه سببـــا. (5)

إن الروح الاسلامية تبدو واضحة في القصيدتين، لأن اندفاع الشاعرين في الذود عن حياض الدول العربية، وموقفهما من قضايا تحررها يعتبران في رأينا نموذجين

1 ، 2 ، 3 – الديوان ، ص 84.

4 ، 5 – زكرياء بن سليمان ، تـه يا عمان بنصر الله، وادي ميزاب، ع 12، 11 جمادي الثانية 1345هـ ، 26/12/17، ص 02. والاحساس نلمسه في قصيدة أبي اليقظان، تحية ميزاب لعمان، الديوان، ص 39.

حيين للحماس الديني الذي يغمر نفوس الشعراء الاصلاحيين، ويجعل عاطفتهم جياشة وصادقة، لاتبتغي من وراء موقفها منّا ولاتزلفا، ولا كسبا عاجلا.

وكأني بعواطف الشاعرين تسمو في مثل هذه المواقف بالدافع الديني المتجذر في القلوب، وبالدافع الانساني المتعاطف مع المظلومين في كل مكان وزمان، غير أن الدافع الأول أمتن وأقوى من أي رابط.

وكانت لمناسبات الاستقلال أثرها في نفوس الشعراء، إذ يستبشرون بها خيرا، ويعدونها بارقة أمل شعت على الوطن العربي، ومثالا يحتذى لبقية الدويلات المكافحة في سبيل حريتها واستقلالها، فاستقلال ليبيا - عند الربيع بوشامة - قدوة لبقية الأقطار المغربية في التحرر :

إن حررت ليبيا قد أصبحت عصبا　　　حيا بهيكلنـــا من خير أنصـــار

وقدوة يحتذيهـــا بعد مغربنـــــا　　　فيفتدي من لظى مستعمر ضار

ويغتدي في اتحاد العرب خير قوى　　　تتم جـــامعة من كل أقطـــــار

فيعتلي في سمـــاء العز طائرنـــا　　　عاتي الجناحين قهارا للأشـــرار. (1)

إن الشاعر لايكتفي بالمناسبة العابرة، منوّها بدورها في اليقظة العربية، بل يجدها فرصة مواتية لشحذ الهمم، واثارة النخوة، ودفع الحماس لنهضة مرتقبة لاترضى بلظى الاحتلال.

وكان الشعر الاصلاحي حاضرا في الاعتداء الثلاثي على مصر، شجبا، وتنديدا، وتحريضا للجماهير العربية على التسلح بسلاح الايمان، والتصدي بقوة لجحافل الطغيان. (2)

وكان حاضرا في استقلال سوريا (3)، والمغرب (4)، والسودان (5)، وغيرها من البلاد العربية، وقد وجدها فرصة لإذكاء عاطفة الجهاد في نفوس أبناء الدول المستعمرة للاقتداء باخوانهم في البلدان المستقلة نحو فجر جديد يدم جديد.

وامتاز هذا اللون من الشعر بجودة السبك، وما يلائم ذلك من المعاني الفخمة والألفاظ الجزلة التي تتصل بالحماسة والاعتزاز والفخر.

---

1 - الربيع بوشامة ، البصائر، سل 2، ع 99، 29 صفر 1369هـ، 1949/12/19، ص 67، وانظر قصيدة في نفس الموضوع لمحمد العيد، الديوان، ص 349/348، البصائر، ع 183، 22 جمادي الأولى 1371هـ ، 52/2/18، ص 7.

2 - ينظر مثلا : مفدي زكرياء، قل يا جمال، اللهب المقدس، ص 303؛ وأبو اليقظان، إلى قمة المجد والعظمة، الديوان، ج 2، ص 23.

3 - ينظر مثلا -ابن رحمون ، بشرى الأمة الجزائرية باستقلال شقيقتها الأمة السورية، الديوان، ص 153 - 156.
- جلواح، النهضة العربية واستقلال مصر وسوريا، جريدة الأمة، ع 94، 36/10/13.

4 - ينظر مثلا : - مفدي زكرياء، قالوا نريد، اللهب المقدس، ص 113.

5 - ينظر مثلا : - مفدي زكرياء، استقلال السودان الديوان ، ص 354، البصائر، ع 355، 1956/2/24، ص 03.

وكان حاضرا في توحيد بعض الجهود العربية التي أسفرت مثلا عن عقد لواء الوحدة بين مصر وسوريا سنة 1958 (1)، الذي يعتبر فاتحة عهد جديد بين البلدان العربية المستقلة ايمانا منها بعدم جدوى التفرقة والتشتت، واعتقادا منها بأهمية الوحدة في تكثيف الجهود، وتمتين الروابط نحو الاعتصام بحبل الله الذي لاتنفصم عراه، ولايهن المتمسكون به.

إن أغلب ما قيل من شعر في القضايا العربية إنما ينبع أساسا من إيمان الشاعر الاصلاحي بقيمة الوحدة العربية في مواجهة الصليبية المتربصة بالاسلام، ويعبّر في نفس الوقت عن احساس الشاعر بقيم العزة والوطنية والانتماء، لأن شعوره العربي الاسلامي يطغى على شعوره الذاتي فيعيش التجربة في جو ملؤه الحماسة والتوثب والتحفز.

وأكبر قضية شغلت الشعراء والكتاب، وسيطرت على شعورهم، فأولوها عناية، وجندوا لها أقلامهم؛ ابرازا ودعما، وحثا ومساندة هي القضية الفلسطينية التي تعتبر بؤرة الشعور في كل القضايا العربية الأخرى، ومركز الصراع بين الاسلام والصهيونية والصليبية، وسنخصها بمبحث مستقل بعد هذا المبحث الذي يمكن القول في نهايته:أن التجاوب مع القضايا العربية رغم طابع المناسبة التي يكتب بوحيها، والتي من الممكن أن تجعل القصيدة خالية من صدق العاطفة وسمو الخيال، إلا أنه على العكس من ذلك نلمح حرارة الانفعال، وصدق التجاوب، وسموا الشعور، لأن الشاعر يرتبط بالذكرى ارتباط المأسور في قبضة المستعمر، فيحاول أن يجد متنفسا للتعبير عن فرحته بحرية اخوان له فيتغنى شعرا رائعا، ويخفق قلبه بنغمة الحرية، كما يخفق لكل مكروه يصيب اخوانه،ذلك لأنه جزء متمم لهم، واستقلالهم طريق موصل إلى استقلاله، ومصابهم مصاب لكل عضو من جسم الأمة الاسلامية.

إن هذا النوع من القصائد تكثر فيه عبارات الشوق والاشتياق، وأساليب البهجة والسرور، وبخاصة في مقام الحديث عن الانتصارات التي تحققها الدول العربية باسترداد حريتها وكرامتها؛ فإذا الألفاظ جزلة قوية، وإذا المعاني فخمة، وإذا الشاعر يوفر نوعا من جودة السبك لقصيدته.

وقد تكثر عبارات الأسى والحزن إذا أصاب مكروه عضوا في هذه الأمة، فتتحسر النفوس لوعة؛ وتظهر عبارات تنم عن الفجيعة.

ولم ترتفع القصائد - رغم ذلك - إلى مستوى الايحاء والرمز، بل كانت قصائد مباشرة في مجملها ذات طابع خطابي موجه إلى جمهور من المستمعين، تكثر فيه أدوات الخطب الحماسية من ترادف جملي، وتكرار، واستفهامات، ونداء، تطغى على ما عداها من أساليب الايحاء والخيال المجنح الذي يشرك القارئ في حضن القصيدة دون أن تقدم له نفسها مباشرة وبسطحية واضحة في أغلب الأحيان.

---

1 - ينظر مثلا - صالح خباشة، هلا تضمك وحدة كبرى، الروابي الحمر، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1971. ص 83 - 86.
- عبد الرحمن بن العقون، الديوان ، ش. و. ن. ت. 1980 ص 95. وقد أعلنت هذه الوحدة في أول فبراير من سنة 1958، وسميت الجمهورية العربية المتحدة، وأقر الشعبان المصري والسوري هذه الوحدة في استفتاء يوم 20 فبراير 1958. وحدث الانفصال في أواخر سنة 1962.

جـ - القضية الفلسطينية

إن القضية الفلسطينية أعسر قضية عربية تحدت واقعنا، وفرضت نفسها على ساحته، وجندت الأقلام حولها ترد كيد الأيادي الآثمة، وما تدبره من مؤامرات عالمية.

وكانت حاضرة في وجدان الشاعر الجزائري يعيشها بأحاسيسه ومشاعره، ويترقب أخبارها بشوق ولهفة رغم بعد المسافات، وندرة الأخبار.

ولم يكن هذا الاحساس بدعا في هذا المجال لأن الروابط الجزائرية الفلسطينية تفرض مثل هذا الموقف وتؤكده، فهناك روابط الدين، والعروبة، والتاريخ، والمصير، والأمجاد المشتركة، ثم هناك التشابه في الوضعية فكلتاهما ابتليت باستعمار استيطاني يحاول اجتثاث شجرة المستعمر من الجذور، ويقيم وطنا له على أرضها، ويطبق في سبيل ذلك سياسة التشريد والقتل والاغتصاب.

ثم إن الشعراء والكتاب كانوا على معرفة بأساليب اليهود الجشعة، وبوحشيتهم الجهنمية في امتصاص خيرات غيرهم، ومواقفهم مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر لا تحتاج إلى دليل، فقد تعاملوا معه سماسرة ومترجمين وتجارا، فحققوا الثراء الربوي على حساب الشعب الجائع، وكان لقانون «كريميو» (1) الفضل الكبير في حصولهم على حقوق تخول لهم التمتع بما يتمتع به الفرنسيون أنفسهم (2).

إن الاطلاع على خفايا الصهيونية قد صبغت الموقف الشعري بصبغة دينية، ذلك أن الاهتمام بفلسطين معناه صيانة قبلة العرب الأولى، وثالث الحرمين، ومعراج الرسول (ص) من عبث الصهيونية، واحياء مجد المواقع الحربية المشهورة في اليرموك وعين جالوت وحطين.

ولم يبدأ هذا الاهتمام لدى الأدباء الجزائريين مع الثلاثينيات كما يتوهم بعض الباحثين و لا مع تقسيم فلسطين، بل يعود إلى أبعد من وعد بلفور (4). فعمر راسم مثلا في سنة 1909 كان يشارك بقلمه بفصول نشرها في بعض الجرائد التونسية «تناول فيها موضوع الصهيونية في العالم بعامة، وفي الجزائر بصفة خاصة، وراح يدعو إلى مقاومة هذا الداء بصراحة عجيبة، وتحليل يمتاز بالعمق وبعد الرؤية» (5).

1- كان عضوا في لجنة الدفاع الوطني ، أصدر هذا القانون في سنة 1870.

2- انظر ، د. ناصر ، المقالة الصحفية ، ج1، ص 397، بتصرف .

3- من ذلك أن الدكتورة نور سلمان قد جانبت وجه الحقيقة حين أشارت في أطروحتها عن الأدب الجزائري إلى أن الكتاب الجزائريين قد تنبهوا إلى خطورة المعضلة الفلسطينية في مطلع الثلاثينات ، انظر الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1981، ص 154.

4 - انه حلقة من حلقات الغدر والخيانة،، ووعد بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، ظهر في كتاب وجهه اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا إلى الثري اليهودي ادمون روتشيلد، في الثاني من نوفمبر سنة 1917.

5 - د. محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، الثقافة، س 5، ع 30، ديسمبر / جانفي 1976، ص 14.

ويذكر الشيخ أحمد توفيق المدني أن (عمر راسم) (1) قد أنشأ جريدة سماها «ذو الفقار» (2) وهي بشكل مجلة مصورة ينشر فيها آراءه، وينقل فيها بعض المقالات «وكانت أول جريدة عربية في الدنيا «اكتشفت» الخطر الصهيوني ونبهت عليه.» (3) بل و«فتحت أعين الجزائريين على الاشراك التي يصنعها الصهاينة للايقاع بالشباب الجزائري في حمأة الفسق، والخمر، والقمار، وكشفت القناع عن الوسائل التي يستعملونها لأجل تدمير القوى الروحية للأمة» (4).

وبذلك «يعتبر عمر راسم أول كاتب جزائري تفطن إلى خطر الصهيونية بل إلى خطر اليهود عامة في أساليبهم لتدمير الشعوب.» (5)

وإذا كانت المقالات قد سبقت الشعر في الظهور، وأبانت عن موقف أصحابها من القضية (6)، فإن التجسيد الشعري، قد ظهر مع نهاية العشرينيات ومع حوادث 1929 (7) حول حائط المبكى التي فجرت القضية، وكشفت نوايا الصهيونية، فتوفر الشعر الجزائري لهذه القضية كما توفر لقضاياه المحلية، وأفردها بقصائد كثيرة أوضحت موقفه منها دفاعا عن المسجد الأقصى، واستصراخا للبراق الشريف، فإذا القصائد تتقد حماسا، وتتدفق عاطفة متأججة، وتغلب عليها الروح الخطابية ، والألفاظ الجزلة القوية وتنبع من التزام عربي اسلامي تجاه القضية الفلسطينية.

أيقظ الشعر الغافلين من الأمة، واستنهض هممهم، وفضح أساليب الصهيونية وخداعها، وكشف عن دسائسها، وعرى التواطؤ القائم بينها وبين الاستعمار الانكليزي، وحث على الثورة،وقدس التضحية،، وألهب المشاعر دفاعا عن حرمات الأمة الاسلامية.

وحين انتصرت بريطانيا لليهود، وتوالت الأحداث في فلسطين، وتأججت روح المقاومة الشريفة في عرب فلسطين، وتفاقمت الحوادث في عام 1930، شارك الشاعر عبد الرحمن بن العقون اخوانه هناك، وراح يشن حملة هوجاء على وعد بلفور الذي أعطى أراضي غيره لهذه الحثالة البشرية، مذكرا في نفس الوقت هؤلاء القوم اللئام بنعم الاسلام عليهم، وتعتبر هذه القصيدة (8) في نظرنا من أوائل القصائد التي خصصت

---

1 - عمر راسم، صحافي ومصلح جزائري، ولد بالعاصمة سنة 1883، كان عبدويا في أفكاره الاصلاحية توفي سنة 1959.

2 - ذو الفقار : جريدة عمومية اشتراكية انتقادية، عملت على محاربة أعداء الدين، واظهار مكايد اليهود، وانتقاد أعمال المفسدين، صدر منها أربعة أعداد فقط، أول عدد ظهر في 4 ذي القعدة 1331هـ ، (1913/10/5).

3 - المدني، كتاب الجزائر ، ص 345.

4 - د. ناصر، فلسطين وأقلام جزائرية، مجلة الثقافة، س 7، ع 37، فبراير ، مارس 1977، ص 18.

5 - د. عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، ص 42؛ وفي هذا المرجع فصل خاص بقضية فلسطين.

6 - من ذلك أن بعض الشعراء كانوا كتابا، فالزاهري مثلا كتب عدة مقالات في الموضوع، أهمها مقالة الذي يقول فيه «إني والحمد لله أول مسلم كتبت بحرية عن المسألة الصهيونية، ولم أخن ديني وضميري لأرضى على جماعة اللصوص وعار الانسانية ... ولم يسبقني في هذه المسألة إلا الشيخ عمر راسم» البرق ع 2، 1927/3/24.

7 - وهي حوادث دارت حول جدار المبكى، ينظر : كامل السوافيري ، الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، مكتبة نهضر مصر ومطبعتها، مصر، ط 1، 1964، ص 142.

8 - آه على أمة القدس التي بسطت للجار أحسانها، مجلة الشهاب، ج 11، مج 6، رجب 1349هـ ديسمبر 30، ص 688 .

موضوعها لهذه القضية دون سواها، فتوفرت لها وحدة موضوعية نسبية، ولولا الضعف الفني الذي اتسمت به، وكثرة الأخطاء العروضية فيها، لنقلناها في هذا المقام.

ومهما يكن فإننا نلمح فيها هدوء الشاعر واتزانه، ودحضه لمزاعم اليهود بالحجة والمنطق، اعتمادا على العقل، دون أن تطغى عليه العاطفة فيلتجئ إلى صيغ النزال والعراك. إنه يدحض الأباطيل اليهودية واحدة تلو الأخرى، ولا يسعه في الأخير إلا أن يعبر عن تفاعل الجزائر مع هذه الأحداث، لكنه تفاعل روحي لايرقى إلى مستوى الفعل؛ وأنّى للمأسور أن يطير، وللذبيح أن يتحرك :

أما الجزائر فهي من مصـــابكم   في حر نار الأسى تشكو لباريها
فإن عدمتم شخوصنا فإن ضمير   رنا في لظى دهيــا يعــانيها. (1)

وهذا الأسلوب المنطقي هو الذي ميز قصيدة محمد العيد لبني التاميز، حين وقعت الثورة الفلسطينية في سنة 1936، وكادت تزلزل عرش انكلترا، وتقضي على نفوذها فتدخلت بقوة لاخماد صوت الثائرين، واحداث التنافر بين العرب واليهود، ولم تلتزم جانب الحياد في الصراع، بل انتصرت كعادتها لليهود، فقال محمد العيد منددا بهذا الجور والنصب، كاشفا المسؤول الأول عن هذه الفتنة، وفاضحا أيادي الاستعمار التي تحرك القضية لصالح الصهيونية ضربا للاسلام والمسلمين :

بني (التاميز) قد جرتم كثيرا   فهل لكم عن الجور ازدجــار ؟
أفي أسواقكم نصبا وغصبــا   تسوم (القبلة) الأولى التجار
أخال (القبلة) انسجرت دمـاء   كما للبحر باللجج انسجــار
تشاجرت العمومة في ذراهـا   ولولاكم لما وقع الشجـــار
غدا العبري للعربي خصمــا   بها وكلاهمــا لأخيه جـــار
ترون لها سوى العربي أهـلا   وتأبى الترب فيها والحجـار
فليس لهـا بلا فمه لســـان   وليس لها بلا دمه نجـــار (2)

تسكب الأبيات السابقة جهارا نغمة الشاعر القوية في التصدي لهذه المؤامرات،

---

1 – م. س.

2 – انظر الديوان ص 374، أو مجلة الشهاب، ج 9، مج 12، رمضان 1355هـ ، ديسمبر 1936 ، ص 409/408.
وفي نفس الموضوع، أنظر قصيدة عبد الله الزريبي، فلسطين الشهيدة، البصائر ع 32، 1936/8/28، ص 8.

وحتى يعطي لأبياته قوة التأثير، ومتانة التعبير، راح - وبتكليف واضح - يفرغ عليها ألفاظا مجلجلة، ويكرر كلمات تشتمل على حرفي الجيم والراء (جرتم، الجوار، ازدجار، التجار، انسجرت، اللجج، الفجار، تشاجرت، الشجار، جار، الحجار، نجارُ ...».

ففي (7) أبيات تكرر حرف الجيم 13 مرة، وهو تكرار مقصود يهدف إلى الاثارة وشد الانتباه، فالجيم حرف شديد مجهور يختص ببعض الحس والضجيج، وهو ما يهدف الشاعر إلى إثارته.

وتطرح الأبيات أفكارا منبثقة من عاطفة متفجرة، فجرتها أحداث المحنة ، فإذا هي عواطف قلق واضطراب تثير في النفس عوامل شتى من الغضب والسخط، ولولا جري الشاعر وراء اقتناص الكلمات التي تحتوي على حرفي الجيم والراء لأعطى لقصيدته دفقة شعورية رائعة، ولأضفى عليها من تجربته الشيء الكثير.

وحين قامت لجنة بيل (1) باقتراح تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، كان الشعر في خندق المواجهة فاضحا ومعريا، ومنددا بهذه التعسفات، داعيا إلى الوقوف ضد هذا المخطط، وإغاثة قبلة العرب المسلمين الأولى، والاستعداد للمواجهة، وتأكيد عروبة القدس، والتنديد بالتواطؤ الانكليزي السافر (2).

وقد احتجت جمعية العلماء على اقتراح التقسيم، وعدت ذلك تدخلا سافرا في قضايا بلد اسلامي، يتطلب الاتحاد في الموقف، والتصدي لكيد الصهيونية، وحماية أرض الأنبياء من دنس الرجس (3) :

وفي الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية نلمح في الشعر الجزائري ظاهرة التنديد بالمظالم المرتكبة في أرض فلسطين، وما تسام به من خسف وذل، وما يتعرض له أحرارها من اقصاء ونفي وتشريد وسجن، وما تمطره بها انكلترا وربيبتها الصهيونية من قوارع ورزايا. (4)

وحين قسمت فلسطين (سنة 1947) (5)، انتقل الشعراء إلى صيغ الاستنهاض

---

1 - ترأس هذه اللجنة البريطاني (اللورد بيل)، وصلت فلسطين يوم 36/11/11، أذيع تقريرها يوم 37/7/7، وقسمت بموجبه فلسطين إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : عربي، الثاني يهودي، الثالث : خاضع للانتداب البريطاني، (انظر كامل السوافيري، م. س. ص 164 - 166).

2 - انظر مثلا محمد العيد : - تقسيم فلسطين، الديوان ، ص 314، البصائر ع 79، 37/8/20، ص 5.
- استوح شعرك، الديوان ص 147، البصائر ع 83، 37/9/30، ص 5 - 7.

3 - وقد عبر عن ذلك شعرا الشيخ سعيد صالحي في قصيدته « لحمة الدين مالها من نفاذ » البصائر ع 87 ، 37/11/29، ص 03.

4 - انظر على سبيل المثال : - محمد العيد ، يا عام، الديوان ص 387 ، الشهاب ج 11 ، مج 13 ، ذي القعدة 56 (جانفي 38) ص 494.
العباس بن الشيخ الحسين ، بالفلسطين الشهيدة، البصائر ع 157 ، 25 محرم 58 ، 39/3/17، ص 07.

5 - وصلت لجنة هيئة الأمم المتحدة إلى القدس في 47/6/17، وتم اقرار مشروع التقسيم في 47/11/29 بأغلبية (32) صوتا، ضد (13 صوتا) وامتناع 10 أعضاء. (انظر كامل السوافيري، م. س. ص 368).

والحث، داعين الجيوش الاسلامية إلى التصدي للعدو الباغي، حاثين على مقاومة التقسيم بكل السبل.

ونلمح في القصائد تلك التعابير الخطابية المباشرة التي تصلح لاثارة الحماس، وهز النفوس الجامدة، وتحريك الضمائر الميتة، فطغى عليها الصراخ والانفعال الجاد والعواطف الهائجة . (1)

فمحمد العيد رغم طابعه الهادئ إلا أنه - وبوحي هذه المناسبة الأليمة - يتميز غيظا، وتتأجج عاطفته فتنفطر حقدا على غياب العدالة والحق في وقت أصبحت فيه الكلمة للقوة والطغيان، فيؤكد ذلك في قوله :

القدس لابن القدس لا لمشـــرد | متصهين ومهـاجر غـــدار
يالجنة القدس حدت عن الهـدى | وسخرت منه فبؤت بالانكار
القبلة الأولى التي استصغرتها | هي للعروبـة قبلة الانظـــار (2)

إن انفعال الشاعر ينبع من حماس ديني يرى الحق قد أغمط، وعلت سطوة الباطل، وكثر رواده ومؤيدوه، فتكالب على الأمة الاسلامية ينهش كيانها ويزيح عنها جزءا عزيزا ومقدسا.

وكانت النكبة في عام 1948 (3)، وصدم العقل العربي بصدمة لا مثيل لها، وخلقت في نفس كل مسلم جرحا لا يندمل بفعل الهزة العنيفة، وتتابع الحوادث وعنفها، وفشل الضمير العربي من التصدي، فاستيقظت المشاعر على الواقع المؤلم، وراحت تبحث عن العلاج.

وكان لهذا الجرح انعكاساته الواضحة على الشعر الجزائري، إلا أن الشعراء لم يلجأوا إلى رثاء فلسطين كما فعل بعض الشعراء العرب، بل تفجرت الأعماق عن عواطف دينية، ودوت صيحات الغضب في كل مكان وعلى كل منبر، مستنهضة قوات الأمة، مؤكدة على إعداد القوة والسلاح داعية إلى الجهاد والكفاح دفاعا عن الأرض الفلسطينية المقدسة، وذودا عن حياض الدين، ودفعا لزمر الشيطان.

إن هذا الموقف لا يخرج في مجمله عن اطار الدعوة إلى الجهاد، اعتمادا على الشبيبة الناهضة التي ستردع المعتدين، وتصحح أخطاء الجيل السابق، فالشباب بمثل

---

1 - انظر مثلا . أحمد سحنون، فلسطين، الديوان ص 128، البصائر ع 18، 22 صفر 1367هـ ، 1948/1/5، ص 07.
2 - هيجت وجدي ، الديوان ، ص 330، البصائر ، ع 20، 1948/1/19، ص 7.
3 - وبالتحديد في 1948/5/15 حين غادر المندوب السامي فلسطين معلنا جلاء آخر جندي بريطاني عنها، مرسيا دعائم (الوطن القومي)، ممكنا اليهود من اقامة (دولتهم).

الأمل والحلم، بل هم عند الشاعر أحمد سحنون ورثة المجد الاسلامي الذي ضيعه الهوى، وعصفت به ريح الفرقة، وتكالبت عليه قوى الشر، فيقول مخاطبا الشباب :

لقد شبت بأرض الشرق نار　　　لها في القبلة الأولى التهاب

وأنتم خير من خاضوا لظاها　　　فكيف يروعكم هذا الذبـاب ؟

سيغدو الموقدون لها وقـودا　　　ومن رام الخراب لـه الخراب. (1)

وكانت الدعوة إلى الجهاد واضحة عند الشاعر الربيع بوشامة في قصيدته «صوت الجهاد» والتي ينبئ عنوانها عن مضمونها الثوري، فكانت تحريضا مباشرا على الجهاد في سبيل الله لاسترجاع فلسطين :

فتى العرب هيا فلب النداء　　　ولاق المنايا بسـاح الفدا

فلسطين في النار نهب العدا　　　تنادي الجهاد الجهاد الجهاد. (2)

فالشاعر يكرر كلمة الجهاد ابرازا لها، وترديدا لذكراها، وتوكيد ا لمعناها، لأنها هي المصطلح الذي يسيطر على شعوره في مثل هذه المواقف الحاسمة.

وقد كثرت مثل هذه الأساليب الخطابية المباشرة الحاثة على الجهاد وقتال الأعداء في عدة قصائد، كقول بوشامة :

فانهضوا للفدا ولبوا سراعا　　　داعي الله من سما الأكوان. (3)

أو قول سحنون :

لقد جد الجد فاقتحموا الوغى　　　ولا تدفعوا جد الحوادث بالهزل

ويا أيها الجيش الذي رج ذكره　　　قلوب العدى باكر فلسطين كالوبل. (4)

لقد أدرك الشعراء أن شعرهم ثورة على الواقع الآسن، غير أنها تصول بلا كف وتسعى بلا رجل (5).

ولذلك ارتبط هذا الشعر بالايغال في التقرير والسرد والخطابية، لأن القصد منه حفز الهمم وإثارة النفوس، واحداث الحماسة في الأجسام الهامدة. ثم أن التجربة

1 - شباب محمد، الديوان، ص 198، البصائر ع 23. 05 ربيع الثاني 67هـ ، (48/2/16)، ص 07.
2 - البصائر، ع 35 ، 1 رجب 1367هـ ، (48/5/10) ، ص 07. وانظر للاستزادة محمد العيد ، فلسطين العزيزة ، الديوان ص 334.
3 - الربيع بوشامة، حي ذاك الصريع في الميدان ، البصائر، م. ن.
4 ، 5 - أحمد سحنون ، فلسطين ، الديوان ص 129 ، البصائر ع 18 ، 22 صفر 1367 ، 48/1/5.

الشعرية تبدو مفتقرة قليلا إلى التمثل والهضم والاستيعاب، ولذلك لم تتطرق إلى القضايا الحياتية للفلسطيني في ظل الكبت والحرمان والمؤامرات الدنيئة، وغابت بالفعل صورة الفلسطيني المناضل في كل موقع من القصائد التي ظهرت في مثل هذه الصور الوعظية ذات الطابع الانفعالي، والمسرفة في رقة المشاعر أحيانا.

وخلال الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى، كان الشعر يربط دوما بين الثورتين الجزائرية والفلسطينية، وظهر ذلك جليا عند مفدي الذي نجد له نتفات شعرية متفرقة في قصائده الثورية تنتقد الواقع العربي وعلاقته بالقضية الفلسطينية، والتي انتقلت عند الشعراء من موقف الاستنهاض والتحريض على الثورة والجهاد إلى موقف اليأس والتشاؤم والاحباط، فإذا الشعر يرثي الواقع العربي وينتقده، ويحمله مسؤولية التغيير هناك.

إن جرح فلسطين غائر في الصدور، ولوعتها منقوشة على قلب كل مسلم ذي حس مرهف، يشعر بدويلاته المتفرقة اللاهية بالأمور الهامشية، والمتغافلة عن نجدة إخوانها الذين يعانون ويلات الاستعمار. فالشاعر مفدي يقتله الأسى، وتسيطر على شعوره الحسرة، وهو يتعرض إلى هذا الموضوع، فيقول على لسان فلسطين في قصيدة مطولة خصصها لفلسطين .

وفرقني (الخلف) أيدي سبـــأ	وشتت في الأرض أوصاليـــه
فأصبحت أرسف في محنتي	وقومي – عن محنتي – لاهيه
وفي سكرة، ضيعـــوا عزتـــي	ولم يغن عنـــي سلطانيــــه (1)

فالأبيات قد غلفتها القافية بظلال من التشاؤم واللوعة والتأوه، وطبعتها بطابع اللهفة والتشوق.

وينتقد الشاعر بمرارة ذلك الوضع العربي المخدر الأعصاب، والنائم في عز الضحى، والراسف في أغلال الذل، والكيان الصهيوني في الدار يسرح، ويدوس الثرى المقدس دون أن يثير ذلك احساسا لدى هؤلاء، أو حتى شعورا بالحقارة، فينتفضون لرد الاعتبار، واسترداد الكرامة الضائعة، يقول الشاعر في هذا المعنى وبأسلوب ساخر يثير الشفقة.

ناموا .. وفي الدار (اسرائيل) ترصدنا	وأغمضوا دون اسرائيل أجفانا (2) .

---

1 – اللهب المقدس ، ص 341.

2 – رسالة الشعر في الدنيا مقدسة ، اللهب المقدس (1961) ص 293.

ولم يحس بعض الشعراء الجزائريين بطعم استقلال الجزائر، ولم يثر لديهم فرحة النصر لأنه منقوص، يحتاج إلى تكملة، فتتوجه فلول المجاهدين إلى تحرير بيت المقدس، وحينها تعم الفرحة الكبرى ويعلو النشيد (1).

ونخلص إلى القول أن الشعر الجزائري قد اعتبر فلسطين أرضا مقدسة مباركة، ومحنتها ليست محنة فلسطينية بل اسلامية. وإذا كان خصومنا ينطلقون من مشاعرهم الدينية الغائرة في عقولهم الباطنة، فالأولى للمسلمين أن يروا المسجد الأقصى مكملا للمسجد الحرام والمسجد النبوي، «ويرون الدفاع عنه جزءا من الايمان ويعترضون باسم الله ورسوله جهود اليهود لهدمه واقامة الهيكل فوقه ! ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الاسلام» (2)

ثم أن فلسطين تستلزم الدفاع عنها لأنها ترتبط بأحداث ومواقف، فهي مسرى الرسول (ص) ومعراجه، وفيها توجد قبور عدد من الأنبياء، وأضرحة الصحابة، وبعض المآثر التاريخية لمواقع حربية حاسمة في التاريخ الاسلامي.

لقد صور الشعر كل مظهر من مظاهر القضية، ورصد تطوراتها منذ أن تعاظم الخطر الصهيوني في العالم، ولم يكن تصويره آليا، بل عن معايشة وجدانية، ومشاركة انفعالية لتشابه الأوضاع.

وكان صدى المأساة عميقا، انعكس أثره في شعر الشعراء الذين عمقوا الاحساس بها، ودعوا إلى محو عارها، ونددوا بمرتكبيها : صهاينة وانكليزا.

ولم نجد في هذا الشعر نغمة الصراخ والعويل والبكاء والأشجان، بل وجدنا شعرا استنهاضيا يلهب الحماس، فإذا ألفاظه تنطلق كالنيران، وإذا القصائد ألسنة لهب لا باقات ورود.

وكان شعرا واقعيا يعيش واقع الأمة، ويتفاعل مع أحداثها، بعيدا عن تهويمات الرومانسية، فكان ملتزما بخندق الدفاع عن مقدسات الأمة، والذود عن حياضها والتصدي لأعدائها المتآمرين عليها.

وقد تفجرت عواطف الشعراء الدينية، واضطرمت أحاسيسهم، وألهبت مشاعرهم وهم يتصدون للمأساة، فكانت تتراوح بين اليأس والأمل، وبين الرضى والسخط. وكانت قانطة على مرتكبي جرائم الغدر والخيانة، ساخطة عليهم، وكانت راضية بمواقف أبناء فلسطين ناقمة على المجتمع الدولي، متفائلة بالغد المشرق.

1 - انظر صالح خرفي ، حب وثورة ، الشباب الجزائري ، س 3، ع 12، ماي 1962، ظهر الغلاف الأول.
2 - د. محمد الغزالي ، بيت المقدس قضية دينية ، مجلة الدوحة ، ع 89 ، رجب 1403هـ (مايو 1983) ص 08.

د - قضايا العالم الاسلامي

استحوذت قضايا العالم العربي على الشعراء الجزائريين، واهتموا بها إطارا لوحدة عربية إسلامية متكاملة، ولم ترد على أذهانهم امكانية التفريق بين جسم العروبة والاسلام، لأنه جسم متكامل لا يتجزأ في نظرهم.

وإذا كان الشعراء قد تطرقوا إلى بعض القضايا الاسلامية - ولو عرضا - فإن أول تساؤل يطرح نفسه علينا في هذا الموقف : هو علاقة الجزائريين بحركة الجامعة الاسلامية وموقفهم من الخلافة.

فإذا كانت الجامعة الاسلامية كحركة «تدعو إلى تضامن المسلمين من أجل تحقيق الوحدة والقوة بينهم في وجه التوسع الأوربي» (1)، وتعتمد «على الاصلاح الديني والاجتماعي وذلك بتمجيد العقل والعودة إلى مذهب السلف، أي العصر الذهبي للاسلام على عهد النبي محمد، وصحابته، والتابعين» (2) فكيف ظهرت في الجزائر ؟ وكيف عولجت؟ وبأي منظار ؟

لقد ظهرت هذه الحركة في المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي؛ لأن هذه المجابهة قد أنتجت عواطف حادة، وفتحت حدودا كانت مجهولة لكل من الاسلام وأوربا، وكانت أول مجابهة بين الشرق والغرب في التاريخ الحديث (3).

فالأمير عبد القادر مثلا «كان مصلحا اسلاميا في اتجاهه» (4) وقد انضم إلى جمعية العروة الوثقى.وقد اختلطت المساهمة الجزائرية في حركة الجامعة الاسلامية بالمساهمة الشرقية، ونظرا للوضعية الاستثنائية في الجزائر من قهر استعماري، وقوانين جائرة، فإن التعبير الأدبي عن هذه العاطفة كان غير مباشر في أغلبه، وظهر جليا في الشعر الشعبي على وجه الخصوص. (5)

إن الجزائر كانت حقلا لدعاية الجامعة الاسلامية منذ أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، ومع تولي عبد الحميد الثاني شؤون الدولة العثمانية تكونت جمعيات سرية لنشر فكرة الجامعة الاسلامية، انضم إليها عدد من الجزائريين وخاصة في المدينة المنورة.

وشجعت الهجرة الجزائرية إلى الشرق من قبل هؤلاء الدعاة، وانضم كثير من المهاجرين إلى لجان الجامعة الاسلامية التي انشئت لتمثيل المسلمين الذين كانوا تحت الحكم الأوربي. (6)

---

1 ، 2 - د. سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2 ، ص 113.

3 - م. ن ص 114.

4، 5 - م. ن ص 115.

6 - م. ن ص 117.

وقد خرجت الجزائر من كل ذلك بتصور واضح لأهداف الجامعة ومبادئها. كما ربطت صلات من خلال الكتب والصحف المجلوبة، وقد نقل الكتاب بعض المقالات في الصحف المحلية، وشجع بعضهم الهجرة نحو الشرق رمزا للخلاص من النفوذ الأجنبي الدخيل.

بل إن الاستعمار الفرنسي نفسه قد خلق في نفسية الجزائريين - بوسائله وسلوكاته - انحيازا واضحا إلى الخلافة الاسلامية نواة للجامعة الاسلامية المنشودة.

واكتسبت الخلافة هيبة في بداية القرن العشرين وخاصة في عهد السلطان عبد الحميد الذي حاول صيانة عقدها من الانفراط، ووقف مواقف صلبة من الاطماع الصهيونية، ونواياها الخبيثة، واتجه «إلى تقوية فكرة الجامعة الاسلامية ونشر شعاره المعروف .. يا مسلمي العالم .. إتحدوا» (1)

وظهرت أحداث على الساحة العالمية كان لها أثرها في تنمية الشعور بالرابطة الاسلامية، وتغذية الاحساس بالخطر الصليبي الذي يهددها، ويتربص بها؛ فكانت الدعوة إلى التجمع حول تركيا بوصفها أقوى الشعوب الاسلامية، وأكثرها قدرة على التصدي لمؤامرات الصليبية الاستعمارية. (2)

ولم يتخلف الشعراء عن هذه المعركة فمدحوا الخليفة التركي، وأشادوا بفضله على المسلمين، ووصفوا معاركه ضد الطامعين والمتربصين بدولة الخلافة، واعتبروه جامعا لشمل المسلمين محاربا أعداءه دفاعا عن الأسلام.

ونتيجة لكل ذلك برزت لدى الشعراء الدعوة إلى الوحدة الاسلامية، والتضامن الاسلامي بين مختلف الدويلات والشعوب، رغم أن الهمس بمثل هذه الموضوعات وتحت السيطرة الاستعمارية الرهيبة «قد يكون من قبيل المجازفة» (3) لإنها في المفهوم الاستعماري «تحريض على التمرد والانفصال وتطاول على نفوذ فرنسا وهيمنتها على الشعب الجزائري» (4).

إن هذه القيود ، والمواقف التعسفية لم تفلح في زعزعة العقيدة الوحدوية الراسخة في قلوب الجزائريين، مواطنين وشعراء «بل كانت نظرات الشوق المتحرقة تنفذ من بين الحجب الكثيفة والأسوار المضروبة، لتتعانق بنظرات الأخ هنالك، تارة على بريق الفرح أو الاستبشار، وأخرى لتتآسى على دموع الحزن والألم .. ولم تكن الزفرة يصعدها المسلم هنا توجعا على الجزائر تقل حرارة عن تلك التي تنبعث من أعماقه حزنا

1 - د. محمد محمد حسنين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة ، ط 2، 1962، ج 1، ص 19.

2 - م. ن ص 20/19.

3 ، 4 - د. ناصر، المقالة الصحفية، م 1، ص 160.

على مصير تركيا، وحرب طرابلس، وفتن أفغانستان، وثورات الحجاز، ومناورات الانجليز في مصر،واضطهاد الفرنسيين لسوريا ..» (1)

وكانوا في سبيل ذلك يهربون الصحف، ويتبادلون الكتب، وتقوم بعض الصحف باطلاع القراء على تطورات العالم الاسلامي، كما كانت تفعل مجلة الشهاب، حرصا منها على ايقاظ الاحساس الاسلامي، وربطه بأحاسيس اخوانه في بلاد المسلمين عامة.

وقد تعاطف الشاعر الاسلامي مع كل ماله صلة بالعروبة والاسلام، لأن ذلك يدخل ضمن رسالته الاصلاحية التي نهض لتأييدها؛ والمشاركة في تعميقها، وتوجيه مسارها، فعايش مختلف التطورات التي تمر بها الأمة الاسلامية في أي رقعة من رقاعها المتناثرة «متطلعا إليها بعين مولهة، وقلب كسير، لاتضيق به النظرة عند موضع الخطو، ولكنها تتعانق مع كل مسلم متجاوزة السدود والقيود.» (2).

وقد وجد الشعراء في عامل الدين عاملا من أقوى العوامل، وأشدها تأثيرا في الدعوة إلى وحدة هذه البلدان وتآزرها، لتقف صفا واحدا أمام كل كارثة تجابهها.

وكان لهذا العامل دوره في تذويب الحدود المصطنعة بين البلدان الاسلامية والتي بثها الاستعمار لعزل الاخوان عن بعضهم بعضا، وإعطاء « الأولوية للرباط الروحي والفكري رغم تباين التضاريس والمواقع ورغم اختلاف اللهجات والألوان والمشارب والمناخ.» (3)

ولم تفلح أساليب المستعمر في كم الأفواه، وتكسير الأقلام الجريئة المتوثبة، فوثب بعضها صدعا بالحق متغنيا بمعتقده الوحدوي، مستنهضا الشعوب الاسلامية إلى التكتل والتضامن، فالشاعر عمر بن قدور الجزائري (4) « تخطى الصفوف في جرأة صادقة، وصدع بمعتقده دون خوف أو وجل، وأخلص للدعوة إلى « القومية الاسلامية » الاخلاص كله، وتحمل عبأها وكرس لها مهجة نفسه» (5) ؛ فكان يحث الشعوب الاسلامية على الدفاع عن كرامتها، وتحقيق مصيرها، واثبات وجودها في معترك الحياة، ويتجلى ذلك على الخصوص من خلال قصيدته في (حرب البلقان» (6) سنة 1913، التي تؤكد تلاحم المسلمين، وتستبشر باسترجاع (أدرنة) (7) إلى حضن الهلال بعد تخليصها عنوة من براثن الأعداء.

1 – م. س. ص 381.

2 – د. ناصر ، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 117.

3 – د. نجيب الكيلاني ، الاسلامية والمذاهب الادبية، ص 64.

4 – عمر بن قدور من مواليد العاصمة (1886)، تعلم بالكتاب ثم بالمدرسة الثعالبية، أنشأ جريدة (الفاروق) وكتب في عدة صحف مشرقية كالحضارة، اللواء، المؤيد، نفي خلال الحرب العالمية الأولى إلى الأغواط، اعتزل بعدها النشاط السياسي، توفي في سنة 1932.

5 – د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1 ، ص 161.

6 – ينظر د. خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، الملحق ص 45.

7 – ادرنة : احدى الولايات العثمانية الست في أوربا.

وكان لظهور مصطفى كمال أثره الواضح في بلورة المضامين الشعرية التي راحت تقوي عزيمة المسلمين، وترى فيه الخلاص لاسترجاع المجد الاسلامي الذي خفت توهجه تحت معاول التبشير، والطرقية، وأدعياء الدين.

وكان لوضعية الجزائر تحت حكم استيطاني أجنبي، وتسلط طرقي، أثره في موقف الشعراء من حركة مصطفى كمال، فوقفوا مشيدين ببطولاته، منوهين بانتصاراته التي أعادت إلى أذهانهم بطولات القادة المسلمين الأوائل،وانتصارتهم ضد قوى الشرك والطغيان.

وكان لانتصار مصطفى كمال على اليونان في موقعة (ازمير)،واجلائهم على الأناضول في أواخر عام 1922 أثره في الشعر الجزائري الحديث، الذي اعتبر هذا الانتصار انتصارا للاسلام على المسيحية، وهو موقف يتجاوب مع مواقف مماثلة لبعض الشعراء العرب الذين هللوا لهذا الانتصار الرائع.

وقد استجابت قريحة الشاعر محمد اللقاني بن السائح لهذا الانتصار، وكانت قصيدته «النصر العزيز» ذات الجرس الموسيقي القوي، والألفاظ الجزلة، دالة على تحمس الشاعر، وبهجته، واحساسه بالقوة الاسلامية الضاربة التي استرجعت له بعضا من بصيص الأمل في استعادة المجد الاسلامي الذي يزهق الباطل، ولا يرضى الدنية في دينه. يقول الشاعر في حماس مفعم بالأمل، وبنبرة خطابية قوية :

دس بالنعال واخمصيك الأنجما	أو ما ترى ثغر النجـاح تبسمـا
قلب لحاظك وانظرن ما قد جرى	واسمع رعود النصر تخترق السما
فلقد بدا في الشرق نجم سعوده	والغرب جاء مكبـرا ومعظمـا
لله من نصر تضـوع نشـره	وعلى ربـوع المسلمين تنسمـا (1)

ويعتبر الشاعر أن هذا النصر ليس نصرا عاديا بين قوتين متحاربتين، بل بين القوة الاسلامية، وقوة الكفر والضلال، ولا غرو إذا كان هذا النصر يرتاح له قلب الرسول (ص)، وتطمئن له الملة السمحاء، وسيكون مدعاة لانتشار الفضائل الاسلامية، وازهاقا لكل ضلال وغواية. ونلمح في القصيدة ربطا بين هؤلاء المجاهدين الذين سطروا ملحمة (أزمير) وأجدادهم الذين صنعوا ملحمة (بدر) في فجر الاسلام، ويتعانق الحدثان، لينشقا عن بزوغ فجر الاسلام في ليل الجهالة المظلم.

1 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 33 – 35.

وينوه الشاعر بآل عثمان الذين رفعوا مجد الدين بعد اضمحلال، ويخص بالذكر مصطفى كمال الذي يزاحم اسمه صدور الأبيات، ويتكرر أربع مرات، تعبيرا عن اعجاب الشاعر وتقديره.

فالله نـــاصر جيشـــه و(كمالـــه) والله حافظ دينه أن يظلمـــا
يا مصطفى لك في القلوب محبة ومهابة هيهات أن يتصرمـــا
يا مصطفى لك في الجنـان حلاوة وبكم فؤادي ظل صبا مغرمـا
يا مصطفى هذي تحيـة شـــاعر في لبه أضحى الوداد مخيمـا... (1) الخ.

إن انتصار اللقاني وغيره من الشعراء (2) لمصطفى كمال، إنما هو انتصار للحق حين يعلو على الباطل، وللعدالة حين ترتفع عن الظلم، وللاسلام حين يسترجع أمجاده على أنقاض الشرك والطغيان.

ولذلك فإن الشاعر «ينتفض قصيدة اعجاب وتقدير، وبيعة ومعاهدة، وخيلاء وكبرياء» (3) وطغت عليه عاطفة اسلامية ملتهبة، واتسمت أفكاره بطابع الحماسة الممزوج بالاعجاب والتقدير.

وأمام هذا الموقف قد يطرح تساؤل وجيه مؤداه : ما هو الموقف الذي وقفه الجزائريون من مصطفى كمال بعد مواقفه من الخلافة الاسلامية، وجناياته عليها ؟

إن الموقف الجزائري كان وليد ظروف محلية، وظروف اسلامية.

فعلى المستوى المحلي كانت الجزائر تحيا حياة الاضطهاد، تحت حكم استيطاني دخيل، وجد في الطرقية ضالته المنشودة، فاستمالها إليه، وصارت هي المتحدثة باسم الإسلام، تشوه حقيقته بأفعالها، ومواقفها مما أدى بالحركة الاصلاحية أن تنقم على الاستعمار الفرنسي وأذنابه من أهل الطرقية، وبعض العلماء الجامدين.

أما على المستوى الاسلامي فإن وضعية مشابهة كان الاسلام يحياها في ديار الخلافة، جعلته أداة طيعة في أيدي رجال الدين وأدعيائه، وفي مقدمتهم خليفة المسلمين، وشيخ اسلام المسلمين، ومن معه من علماء الدين، وشيوخ الطرق المتصوفين.

وحين ألغى مصطفى كمال الخلافة اعتبر الامام ابن باديس ذلك جناية على الاسلام والمسلمين ومروقا من الدين، وراح في مقاله له (4)، يتبرأ من الكماليين، ويعدد

1 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1 ، ص 33 – 35.
2 – انظر مثلا : – ع. ح . ح. ، الغازي مصطفى كمال باشا ، الاقدام ، ليوم 1922/10/16.
– علوي ابراهيم ، مصطفى كمال ، الاقدام ، ع 77، (1922) ...
3 – د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 66.
4 – الفاجعة الكبرى، أو جنايات الكماليين على الاسلام والمسلمين، ج النجاح، س 4، ع 152، 1924/3/28، ص 1، 2.

جناياتهم على الخلافة والخليفة وآل عثمان، ويربط هذه المواقف بتفريط طائفة العلماء الجامدة المقلدة التي لا ترى دين الله إلا من مشهور مذهبها دون مذاهب سائر المسلمين.

ويرفض ابن باديس كل خليفة تشتم منه رائحة الأجنبي، طالبا الأمم الاسلامية إلى النهوض بنفسها والتعارف على الحق مع إخوانها حسب الامكان، ما دام الاسلام ديننا وهو الرابطة العظمى التي تربطنا والجامعة الكبرى التي تجمعنا. (1)

ونفس هذا الموقف يقفه أبو اليقظان حين أثارت غيظه مثل هذه المواقف التي تنحاز إلى صف الأعداء، وتضرب الاسلام في الصميم (2).

ورغم كل ذلك فإن التركيز كان واضحا على دور العلماء الجامدين، وأهل الطرق في هذا التحول الذي استحدثه مصطفى كمال، ولذلك فإن النظرة إليه لم تكن عدائية، بل إن حركته قد اعتبرت بمثابة حركة ضد الظلم، وانحراف الطرق، تعمل لإصلاح الاسلام بعد أن صدئت جواهره في أيدي أدعيائه المتخاذلين، بمعنى أنها لمست في شخصية مصطفى كمال «القائد الحازم الذي استطاع أن يجعل حدا للانحراف الديني، ويقطع دابر الطرقية التي تبارك وتؤمن للطغيان والاستبداد، فأكبرت فيه هذا الجانب.» (3)

ولقبته بمنقذ الخلافة، ولم تحتكم إلى هذه المظاهر التي غيرها مصطفى كمال في حياة الناس، لأنها أساسا كانت ناقمة على أوضاع الخليفة باعتبارها مظهرا من مظاهر الطرقية التي تعانيها والتي لها شأنها الخطير في الجزائر.

ويبدو لي أن هذا الموقف لم يكن متأنيا، ولم يتدبر عواقب ما أقدم عليه الكماليون من إلغاء الخلافة، وتبديل الحروف، وفرض الزي الأوربي، وإلغاء الحجاب، وإغلاق بعض المساجد، وإعدام بعض العلماء، وهي جنايات كان لها أثرها السلبي على الاسلام والمسلمين.

إن مصطفى كمال في نظر ابن باديس - مع نهاية الثلاثينيات - حينما ثار على الوضع في الخلافة «لم يثر على الاسلام وإنما ثار على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين، فألغى الخلافة الزائفة وقطع دابر أولئك العلماء عن الحكم، واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها.» (4)

ألا نحس بتغير اللهجة الباديسية في موقفها من مصطفى كمال ؟ إن ذلك يبدو واضحا، ففي سنة 1924، كان ابن باديس يعدد جنايات الكماليين على الاسلام، وفي سنة (1938) راح يبحث لهم عن المبررات.

1 - م. س.

2 - انظر وادي ميزاب ، ع 88 ، 3 محرم 1347هـ ، 1928/6/22.

3 - د. خرفي ، م. س. ص 63.

4 - ابن باديس ، مصطفى كمال رحمه الله ، مجلة الشهاب ، ج 9 ، مج 14، رمضان 1357هـ ، (نوفمبر 1938) ، ص 130 - 134.

ولكن هذا الموقف يكاد يكون مطابقا للأول، ذلك أن جنايات الكماليين على الاسلام لا يتحملونها وحدهم، بل يتحمل وزرها معهم العلماء الجامدون، وهو نفس المبرر تقريبا الذي ظهر به ابن باديس في الفترة الأخيرة، وإن كان أوضح منه في هذه المرة نظرا للمعاناة التي تحملها من الطرقية في الجزائر والتي كانت حجر عثرة في طريقه الاصلاحي، وأذاقته وابلا من الدسائس والمؤامرات، جعلت نقمته على كل مظاهرها أنى وجدت تزداد حدة وعنفا.

ولما كان شعراء الاصلاح جزءا متمما لرسالة الحركة الاصلاحية، بل هم حداتها، فقد نسجوا على منوال هذا الموقف، عن وعي بهذه المنطلقات والأحداث، وعن إدارك لهذه المخططات الاستعمارية والطرقية، وعن تفهم لرسالة الخلافة الاسلامية التي لم تتحرك، وجمدت في ثوب كهنوتي طرقي، لايسهم في اصلاح الأمور المتردية والمتعفنة في قصر الخليفة.

وقد أبن الشعراء الجزائريون مصطفى كمال حين وفاته، وترحموا عليه، فمحمد العيد في قصيدته «عزاء لتركيا» ينهيها بأبيات تتكرر فيها عبارة (أعزي تركيا) تأكيدا للعاطفة الجياشة وشدا للانتباه :

أعزي تركيا في مســـــتخف بالردن هازي

أعزي تركيا في قا ئد للحرب نهـــاز

أعزي تركيا فيـــه وأرثيـه بايجـــاز (1)

ويبدو لي أن حماسة الشعراء الجزائريين والمصلحين لكمال أتاتورك نابعة مما ذكرناه سابقا من تحليل، ولكن أيضا لغلبة النظرة الضيقة،لأن التتريك وما انجر عنه قد مس فكرة الوحدة الاسلامية التي نادى بها الشعراء وغيرهم، فسياسة التتريك فكرة قومية أساسا، وكان الأجدر أن يعيها الاصلاحيون والشعراء لا أن يمدحوا رجلا كان مصيبة على الاسلام وعلى الوحدة الاسلامية.

* * * * * * * * * * *

وقد تحمس الشعراء لكل ما يمس شعبا من الشعوب الاسلامية حيثما كان، وارتفعت أصواتهم في كل خطب يصيب عضوا من جسد الأمة الاسلامية، وأشادوا بكل انتصار تحققه دويلة من هذه الدويلات، كما اهتموا ببعض المناطق النائية في خارطة العالم الاسلامي المترامية الأطراف.

---

1 – م. س. ص 156 ، الديوان ص 470.

فالشاعر محمد الصالح خبشاش يشيد في قصيدته «ذكرى الشرق» (1) بمدينة بومباي (2) التي بعثت الزعماء والعلماء، والفلكيين والجغرافيين، واعتبرها مهبط العلم والوحي.

بل واهتم بالقضية الأفغانية، ونظم قصيدة حول تنازل الملك(أمان الله) على عرشه بالأفغان، ليقوم مقامه الملك(عناية الله)(3).

وما يهمنا في القصيدتين هو هذا الاهتمام بهذه الربوع الاسلامية والتجاوب معها، والتفاعل مع أحداثها، وربط الصلة بها، رغم بعد السافات، ونأي الديار، وندرة الأخبار (4). ذلك أن العواطف الاسلامية متجاوبة، والمشاركة الوجدانية متأصلة، وعلاقات الود والاخاء متلاحمة رغم أسوار الاستعمار، وحجابه الكثيف.

وحين وقعت الحبشة في يد ايطاليا، وسقطت في براثن الاستعمار، استنكر الشعراء هذا الاعتداء الصليبي، منددين بالمواقف المؤيدة لرجال الدين المسيحيين، والتي باركت الحملة، وشاركت فيها ماديا ومعنويا.

إن اهتمام الشعراء بهذا البلد، لا لكونه افريقيا، أو بلدا مستعمرا، بل مرده إلى دوره في تأصيل الدعوة الاسلامية وتجذيرها، فعلى أرضه أقام الصحابة المهاجرون الهاربون من طغيان قريش، وجبروتها. فالأحباش اخوان ناصروا الدين الاسلامي وقت الشدة، وحموا النواة البشرية الاسلامية الأولى، وردوا كيد قريش إلى نحورها. ولذلك نجد محمد العيد يقول بوحي هذه المناسبة الأليمة التي وقعت فيها الحبشة تحت قبضة الاحتلال الايطالي :

يا مهجرا كالخلد فيما مضى … لاذبه واستأمن المؤمن

هل تذكر الأصحاب تسري بهم … إلى حماك الأينق الأيمن ؟ ..

إنا مدينون لخل خلا … نحي له الذكرى ولا ندفن (5) ..

يا معشر الأحباش صبرا لما … يدمي من الجرح فما يدمن

أنتم لنا رغم النوى إخوة … فما علينا خطبكم هين. (6)

---

1 – شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2 ، ص 90.

2 – (بومباي) عاصمة ولاية (مهاراشترا) بالهند، في عام 1297 ذهب المسلمون إلى « جوجارات» شمال بومباي. وفي عام 1348 افتتح المسلمون مدينة (بومباي) وأصبحت جزءا من مملكة جوجارات. وسقطت في أيدي البرتغاليين سنة 1534، ثم تحولت بموجب معاهدة إلى بريطانيا في سنة 1661م .

3 – انظر المليكان المغصوبان، ج النجاح ، ع 692، 11 شعبان 1347هـ (29/1/21)، ص 02.

4 – ويمكن في هذا المجال الاطلاع على قصيدة محمد العلمي حول استقلال اندونيسيا ، البصائر س 2 ، ع 106 ، 50/2/6 ، ص 07.

5 – اشارة إلى النجاشي.

6 – يا شرق خذ حذرك ، البصائر، سل 1، ع 21، 8 ربيع الاول 1355هـ 36/5/22، ص 03 (الديوان ص 298/297).

واهتم الشاعر أحمد الغوالمي ببلد اسلامي بعيد هو الآخر، وهو «باكستان» في قصيدته « نبعة الشرق »، وباكستان جزء من العروبة في المفهوم الذي أشرنا إليه سابقا :

نبعة الشرق نورينا عقولا   واستجدي لنا الربى والحقولا

نبعة الشرق سدت عرضا وطو   لا بهداة حموا الحمى والعقولا

إيه «باكستان» العروبة ميسي   كعروس المنى وجرى الذيولا

فيك نور ما مثله اليوم نور   مستفيض يناصر التنزيلا (1)

إنه نور الاسلام يشع على هذه الأرض الطيبة، ينبع من القرآن الكريم، متصديا لأيادي التبشير، ولمحاولات الاستعمار المدمرة، يقول الشاعر معددا مختلف المضايقات التي يتعرض لها الاسلام هنالك :

حاربوا الضاد والكتاب سفاها   من شعوب ما بدلت تبديلا

دبروا للتبشير فيها ديارا   أنشأوها لينشروا الانجيلا

غير أن الفرقان أحلى ذواقا   من أناجيلهم وأقوم قيلا

غيروا أكثر المساجد فيها   عن هداها وحولوا تحويلا (2)

لقد استعمل الشاعر الصيغ المتقابلة، بعضها يتعلق بالاسلام مثل صيغ « الضاد، الكتاب، الفرقان، المساجد»، وبعضها الأخر يتعلق بالكفر والطغيان مثل صيغ :«حاربوا، التبشير، الانجيل، غيروا، حاولوا ... إلخ» ليدل من خلال ذلك على أن الصراع اسلامي صليبي وهو صراع مستميت، ينتظر من المسلمين الحذر، والحيطة، والاستعداد للمواجهة، حتى لا تتقلص رقعة العالم الاسلامي، بل يستمر نور الاسلام وهاجا ينتشر على ربوع الدنيا، ناشرا العدل والاخاء والمحبة والسلام.

ونخلص إلى القول : إن الشعراء الاصلاحيين الجزائريين قد انشغلوا بالحديث عن قضايا الخلافة الاسلامية، والتضامن الاسلامي دون حركة الجامعة الاسلامية. كما أن القضايا المحلية قد سيطرت على اهتماماتهم قياسا بالقضايا الاسلامية، ذلك أن الاصلاح الديني والاجتماعي قد استحوذ على أغلب مضامين القصائد.

---

1 ، 2 – البصائر ، سل 2 ، ع 194 ، 30 رمضان 1371هـ ، (52/6/23) ، ص 7.

وقد ظهرت الوحدة الموضوعية بارزة في القصائد التي دارت حول قضايا العالم الاسلامي، وهي ظاهرة تدل على اهتمام الشاعر بموضوعه، وتوفره له، دون أن يخلطه بغيره من الموضوعات المحلية.

ويبدو أن الكتابة حول القضايا الاسلامية تتطلب فرصة الاطلاع على ما كتب الغير، لتتضح المفاهيم، وتختمر الأفكار في الأذهان، كما تتطلب التحلي بالمرونة السياسية من جهة، والجرأة الأدبية من جهة أخرى. (1)

وقد أبرزت مواقف الشعراء الاصرار على تخطي الأسوار والموانع لربط الوشائج والصلات مع المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا، رغم أن الاستعمار قد حاول جاهدا قطع الحبال التي تربط الجزائريين باخوانهم، مانعا أي تجاوب مع أية قضية اسلامية، ايمانا منه أن ذلك من شأنه أن يبعد الجزائريين عن جذورهم الأصلية ويدمجهم على مر الأيام في الكيان الاستعماري الغريب.

ولكن العراقيل لا تزيد المسلم إلا اصرارا على التحدي، وثباتا على المبدأ، وبحثا عن وسائل أخرى للاتصال بالاخوان، فظهر الاهتمام بأحداث العالم الاسلامي بارزا، وسجل الشعراء انتصارات الدولة العثمانية، وأشادوا بالمواقف الاسلامية، ووقفوا إلى جانب بعض الشعوب الاسلامية التي كان الأعداء يتربصون بها، كما ساهموا في التعريف ببعض القضايا المحلية في هذا البلدان.

ولم يكن الاهتمام بهذه القضايا يخرج عن اطار النظرة الشمولية للعالم الاسلامي كلا متكاملا. ومهما يكن فإن الشعراء الاصلاحيين انفعلوا بالقضايا الوطنية والقومية والاسلامية، والانسانية، فكانوا صوت الشعب الجزائري الذي يقدس الحرية ويدافع عنها باستمرار.

---

1 – ينظر في ذلك : د. ناصر ، المقالة الصحفية ، م 1 ، ص 382 – 384.

الفصل الخامس
القضايا الفنية في الشعر الاصلاحي

- مقدمة
أولا - بنية القصيدة الاصلاحية
ثانيا - اللغة الشعرية
ثالثا - الصورة الشعرية
رابعا - التشكيل الموسيقي

مقدمة :

قبل التطرق إلى الجانب الفني وقضاياه المتعددة في الشعر الاصلاحي، نحاول استعراض حالة الشعر قبل هذه الفترة وخلالها، وموقف الشعراء من هذا الفن ونظرتهم إلى دوره في الحياة. ونشير في البداية إلى ارتباط الشعر الاسلامي بالدعوة منذ نشوئها؛ منافحا عن العقيدة، مدافعا عن رجالها، مواكبا انتصاراتها الباهرة، معترضا خصومها بالهجاء.وقد أصل الاسلام هذا النوع من الشعر واعتبره سجلا للمآثر، ووسيلة من وسائل نشر الدعوة الاسلامية، ولم يتخلف الشعرالملتزم في أية قضية اسلامية في مختلف العصور الأدبية. ذلك لأن حب الشعر راسخ في قلوب العرب، ومنهم الجزائريون الذين كان «يجري في عروقهم جريان الدم من العروق.» (1)

وقد تارجحت قيمة هذا الشعر في الجزائر بين القوة والضعف، فقد كان في بداية القرن الحالي كما يصفه ابن أبي شنب «على صورة النحول والضعف في أغراضه ومعانيه وأساليبه، إذ أغراضه كانت محصورة في تهنئة بعزيز أو ولادة مولود أو بمناسبة عيد، أو بالعكس في تعزية عن مصاب أو وفاة قريب. ففي الحالتين كانت أغراضه أغراضا تافهة لا يضطرب لها القلب ولا يطير محلقا في السماء سماء الخيال والشعور. وكانت المعاني في غالب الأحيان مبتذلة ركيكة منحطة تزحف مثل السلحفاة. والأساليب معقدة مثقلة بجميع أنواع البلاغة.» (2)

ولعلنا نضيف إلى ما سبق رأي شاعر اصلاحي، كان يعيش جو الحركة الاصلاحية بقلمه ناظما وناقدا، وهو الشاعر حمود رمضان الذي يصف الواقع الشعري في بداية العشرينيات بقوله :« إن الأدب العربي الآن، وخصوصا الغربي (الجزائر وتونس ومراكش)، مثل إناء مزركش الجوانب بديع المنظر، مملوء بماء سلسبيل، وقد مرّ على ركوده مدة غير وجيزة، فنتتنت رائحته، وفسد طعمه، وتراكم عليه الذباب، فأصبح موجودا وليس بموجود، وماء وليس بماء، وأصحابه بجانبه على ضمأ يرون الحتف بعينهم ولا يفيدهم شيئا.أليس من المعقول بل من الضروري تبديله بماء صحي نظيف زلال يبعث في جسم مجتمعنا النحيل دما غنيا بمواد الحياة والاستقلال، وأما الاناء فيترك هو هو بلا تغيير ولا تبديل، وذلك ما اقتضاه حفظ القومية والجنسية بحفظ اللغة الأصيلة لغة الآباء والأجداد» (3).

فحمود يجمع بين شعر أقطار المغرب العربي، نظرا لتشابه الأوضاع، وتقارب الثقافات، واستمدادها من منبع واحد ويظهر عليه التشاؤم من الواقع الشعري الذي

---

1 ، 2 – سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية في الجزائر، مجلة كلية الآداب (الجزائر)، س1، ع1، 1964 ، ص 59/58.

3 – بذور الحياة، ص 89 .

يعاني الركود والجمود، فيدعو إلى التحديث والعصرنة انطلاقا من المضمون مع الاحتفاظ بالجانب الشكلي.

فالشكل يبقى تقليديا موروثا، يحفظ الأصالة والتراث، إلا أنه يطعم بمضمون عصري يتماشى مع واقع الحياة التي يحياها الشعراء، وهو لعمري نفسه الموقف الذي يقفه الشابي في تونس الذي يعتبر الصياغة العروضية الخارجية ميراثا قارا ثابتا، وحليا ساحرا جميلا، نلبسه أفكارنا كلما أردنا لها ذلك، وحافظ لنا من القطيعة بين الأجيال والعصور، شأنه في استمراريته شأن الحياة التي هي سلسلة يتصل فيها الطريف بالتليد . (1)

لقد نقلنا هذين النموذجين حتى لا نظلم الشعر الاصلاحي، ولا نتسرع في توجيه الاتهامات نحوه، وحتى نؤكد أن ظهور ملامح الحركة الاصلاحية بعد الحرب الكونية الأولى قد غير النظرة إلى الشعر، فاصطبغ بالصبغة الاصلاحية، وتدثر بها، معتمدا في ايصال صوته إلى الشعب وسائل عدة أهمها : الصحافة العربية، والاجتماعات العامة في المناسبات الدينية، والندوات الثقافية، وعن طريق المدرسة التي استغلت للفكرة الاصلاحية الآجلة.

إن بزوغ النهضة الاصلاحية المتكئة على النهضة الثقافية جعلت بعض الشعراء يشعرون بهذا الدم الجديد في الحياة، « فنفضوا أيديهم من ذلك الأدب البالي المشوه بلغة التأليف، ونفذوا إلى الأدب الغض واستمدوا من شعورهم الرقيق الطاهر، وعلى أمثال هؤلاء الشباب نعلق آمالنا في تجديد الأدب الجزائري ورفع مستواه » (2) كما يقول الميلي.

واستمر الشعر الاصلاحي يقود الحركة الاصلاحية، ويكتسب طابعه الخاص، وتطور باستمرار، رغم ما قيل فيه من نقد آنئذ، بين مؤيد ومتشائم. (3)

وقد انطلق شعراء الاصلاح من موقف ديني واضح؛ على مقاييسه يكتبون، وفي ضوئه يهتدون، وبمبادئه يلتزمون، ولم يكن هذا الموقف الزاما من الحركة التي مثلتها الجمعية بعد ذلك، بل كان التزاما تلقائيا ينبع من روح الشاعر المسلم نفسه، فايمانه هو الذي يوجه شعره، وينظم حياته، ويبرز له معالم الطريق، ومن ثمة كان الشعر الاصلاحي شعرا هادفا لم يفارق روح الاسلام في موضوعاته التي كانت تنبثق من مشكاة واحدة، وتجتمع على هدف واحد وهو الاسلام في هذا الوطن المدنس برجس

1 - انظر : الطاهر الهمامي، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر، ط3، 1985، ص 26.

2 - مبارك الميلي ، الأدب الجزائري يبعث من مرقده، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص 08.

3 - انضر مثلا : - حمزة بوكوشة، هل في الجزائر شعراء، البصائر، سل 2، ع 85، 1949/7/4، ص 08.
- أحمد الغوالمي، الاتجاه في الأدب،و البصائر، سل 2، ع 112، 1950/3/20، ص 03.

الاستعمار، وخرافة الطرقيين. فكان الموقف من الاستعمار مثلا صورة من صور الالتزام الصادقة، إذ يقف الشاعر معبرا عن مشاركته الوجدانية والعملية في مقاومة الظلم الجاثم على الرقاب، ورافعا لواء المجاهدة لألوية الظلم والانحراف. كما كان الموقف من الانحراف الديني صورة هي الأخرى زاهية من صور الالتزام بالاسلام في أبهى صوره النقية بعيدا عن تدنيس الطرق والمنحرفين.

إن الالتزام يقودنا إلى أن «ندين بالولاء لفكرة واحدة، أو لحقيقة واحدة، فمن خلال هذا الولاء وحده يمكننا أن نتعلم شيئا .. أن نقترب من امكانية الرؤيا الشاملة» (1).

إن ما سبق قوله يعتبر ردا على أولئك الذين ينظرون إلى الشعر الاصلاحي بمنظار ايديولوجي، ويعتبرونه ملتزما بمؤسسة ثقافية سائدة (2)، لا بموقف اسلامي أسمى من المؤسسات ومن الأشخاص. *

فالشعر الاصلاحي كان شعرا هادفا، ملتزما بمبادئ اسلامية، يتسم بطابع الواقعية النقدية للأوضاع القائمة، مستشرفا آفاق المستقبل، ويمتلك نظرة متفائلة باعتبارها غير راضية بهذا الواقع، وتعمل جاهدة على تحسينه وتجديده بما يتلاءم وواقع الحياة المنبثقة عن التصور الاسلامي.

وسيظهر لنا هذا الموقف أكثر حين نتعرض إلى موقف الشعراء من حد الشعر ورسالته :

1 – حد الشعر :

هناك مفهومان للشعر الاصلاحي، يرتبط أولهما بالنظرة التقليدية المحافظة، ويرتبط ثانيهما بالنظرة الوجدانية، مما يتطلب منا تتبع هذا التقسيم لتسهيل الدراسة :

أ – المفهوم التقليدي المحافظ للشعر : لقد استقى الشعراء التقليديون نماذجهم الشعرية من الأدب العربي القديم، ومن مدرسة الأحياء في العصر الحديث، مما طبع شعرهم بطابع المحافظة والتقليد، وأصبحت فكرة الأحياء والرجوع إلى الماضي عندهم هي «النموذج الذي يجب أن يحتذى، والقبلة التي تجذب العقل والعاطفة معا» (3)

وكان لهذه الاتجاه عدة مبررات أهمها : الثقافة الدينية للشعراء المرتبطة بالتراث أشد الارتباط، واندماج أغلب الشعراء في الوسط التعليمي الذي يسعى إلى

1 – انظر : د. نجيب الكيلاني، الاسلامية والمذاهب الأدبية، ص 39.

2 – انها آراء للدكتور واسيني الأعرج، في محاضراته وندواته الأدبية.

3 – د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 43.

ربط الصلة بالأمجاد الغابرة واحيائها رد فعل على محاولات المسخ التي تتعرض لها الشخصية الوطنية.

وكان لهذه الثقافة أثرها في نظرة الشعراء إلى الشعر، فلم تخرج تعريفات بعضهم له عن الاطار التقليدي الذي عرفه به نقاد العرب القدامى، مثل ابن رشيق، وابن طباطبا، وابن خلدون، وقدامة بن جعفر، وغيرهم.

فهو عند أحمد الأكحل : الكلام الموزون المقفى، السهل العبارات، ذو الخيال البديع، والاستعارات البليغة الفائقة، والمعاني الرقيقة الشائعة دون الغريبة (1). وهذه العناصر السابقة ترتبط بالتراث النقدي العربي، بل إن الناقد يكاد ينقل تعريفه عن كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر . (2)

والشعر عند أبي اليقظان «وحي يوحيه الخيال على النفس فينطلق به اللسان، فينشده الدهر قرونا» (3) وهو تعريف يبدو منذ الوهلة الأولى قريبا من النظرة الوجدانية، لكن الشاعر يعود به إلى النظرة التقليدية حين يعتبر الشعر : قالبا وخزانة وميزانا وديوانا (4). وهي النظرة التي يبدو فيها تأثره واضحا بابن طباطبا في عيار الشعر .

ويتفق عدد من الشعراء في اعتبار الشعر وحيا والهاما، وهي النظرة التي تعتبر الفنان نبي عجيب، يصدر عن قوة خفية، ويفرض على المجتمع نتاجا معجزا، ولذلك فإن هذه الفكرة قد وردت عند شعراء الاصلاح بغض النظر عن كونهم تقليديين أو وجدانيين. وهي ليست وليدة العصر الحديث، بل إنها فكرة قديمة قدم التاريخ الأدبي، (5) والتي يمكن اعتبارها الحال الشعري التي تسبق الابداع مباشرة. (6)

وقد وجدنا عدة اشارات في الشعر الاصلاحي تنطلق من هذه النظرة التي تعتبر الشعر وحيا وقبسا والهاما، كالأبيات التالية :

- إذا كان وحي في البريـــة إنـــه   هو الشعر توحيه ملائكة الشعر (7)

- الشعر وحي الشعـــور الحي تحمله   رسل الحماسة والأخلاق والأدب. (8)

- أرى الشعر بعد الوحي أكرم هابط   من الملا الأعلى ليرشدنا الطرقا .(9)

---

1 - النجاح، س 10، ع 828، 1929/12/20.

2 - د. مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ش. و. ن. ت الجزائر 1979، ص 30.

3، 4 - أبو اليقظان، الديوان ص 04.

5 - فهي استعداد نفسي عند أفلاطون، واثارة مباغتة عند شوبنهاور، وبزوغا فجائيا للوعي الباطن عند اينشتين، وشهوة تعين على النظم عند العرب القدماء. انظر، د. أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس، ط2، حزيران 1980، ص 123/122.

6 - م. ن.

7 - بورورو محمد بن يوسف، الى النشئ الجديد، وادي ميزاب، س2، ع 99، 1928/9/7، ص 03.

8 - من قصيدة لمحمد بن دويدة في شعراء الجزائر، ج 2، ص 144.

9 - مفدي زكرياء، ينظر : محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر، ج1، ص 158.

ويعتبره محمد الهادي السنوسي قبسا من نور الانسانية الضئيل. (1)

وغني عن البيان في هذا الموقف «أن مفهوم الالهام هو مفهوم اسلامي» (2).

ويتضح من خلال ما سبق في المفهوم التقليدي وكأن الشعراء الاصلاحيين لم يشغلوا أنفسهم كثيرا بماهية الشعر، وكأني بهم «اكتفوا في ذلك بمقولة النقاد القدامى، وسلموا بها دون محاولة الاضافة إليها أو مناقشتها» (3) إلا أنه من ناحية ثانية فإن الموقف الاصلاحي لا يتوقف عند النماذج التي أشرنا إليها، بل يتطور مع الموقف الوجداني.

ب – <u>المفهوم الوجداني</u> : وجدنا عددا من الشعراء الاصلاحيين ينحون في تعريفاتهم للشعر منحى وجدانيا، مركزين على أن مصدر الشعر هو القلب والعاطفة والشعور، وقد برز هذا التوجه مع نهاية العشرينيات في شكل لمحات متفرقة، ليتشكل مع فترة الأربعينيات تيارا واضحا وفي هذا الصدد يمكن الاشارة إلى رأي السعيد الزاهري في رسالته للهادي السنوسي حين يقول : إن الشعر هو الشعور. ويؤكد أن مصدره القلب الذي ينفطر انفطارا، والصدر الذي يغلي هموما وأحزانا. (4)، ويقول من قصيدة «وما الناس إلا اثنان» معربا عن اتجاهه :

ولست أقول الشعر إلا أنني   أروح ما تخفي الضلوع وتحجب. (5)

وقد أبرز الشاعر بورورو محمد بن يوسف عنصري الشعور والعاطفة في مفهومه للشعر حين قال :

ألا إنما الشعر الشعور ويقظة   وعاطفة إذ غير ذا ليس بالشعر. (6)

والشعر عند محمد بن دويدة كالروح مصدره القلب :

الشعر كالروح مهما قام واثبه   في القلب حرك فيه نشوة الطرب (7).

وقد برز في هذه الفترة العشرينية الشاعر حمود رمضان بآرائه النقدية الجريئة في الشعر، وهي آراء لا تخرج عن نقد للنظرة التقليدية، ودعوة إلى التجديد الشعري.

وقد انتقد المفهوم التقليدي المحافظ للشعر من خلال هجومه على أمير الشعراء أحمد شوقي (8).

---

1 – شعراء الجزائر، ج2، ص 15.

2 – انظر : د. عبد العزيز المقالح، عمالقة عند مطلع القرن، دار الآداب، ط 1، 1984، ص 21.

3 – د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 68.

4 – انظر شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 62.

5 – م. ن. ص 90.

6 – انظر : وادي ميزاب، س2، ع 99، 1928/9/7.

7 – انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، ص 149.

8 – انظر ذلك : – د. ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، ص 55 وما بعدها.
– د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 124 وما بعدها.

ودعوته إلى مفهوم تجديدي ذي طابع وجداني للشعر تأثرا بالاتجاه الرومانسي الغربي ولا سيما الفرنسي منه، وبالاتجاه الوجداني في الشعر العربي ولا سيما عند شعراء المهجر وجماعة أبولو. لقد كانت دعوته وجدانية الطابع، تنطلق من أن الشعر ينبثق من الشعور، ويرتبط بالعاطفة

فقلت لهم لما تباهوا بقولهم ... ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر

وليس بتنسيق وتزوير عارف ... فما الشعر إلا ما يحن له الصدر (1)

ومن خلال مقالاته التي كتبها في الشهاب (2) ، أو من خلال كتابه «بذور الحياة» (3) نطلع على مدى اهتمامه ببعض القضايا التي اهتم بها النقاد الوجدانيون كالصدق الفني في التجربة الشعرية، واظهار العاطفة والضمير، وتجنب التقليد والاتباع، والتوجه بالشعر إلى الطبقة البسيطة بلغة مبسطة أيضا.

ويظهر التقارب واضحا بين حمود وجماعة الديوان مثلا في عدة نقاط أهمها : الصدق في التعبير، وفي رسالة الأديب، ودوره في القيادة والتوجيه، وفي الصياغة الأدبية، وشعر الشخصية،وفي التعريف الوجداني للشعر. ألم يكن التعريف السابق للشعر متطابقا مع قول شكري (4) :

ألا يا طائر الفردو ... س إن الشعر وجدان

وفي شدوك شعر النفـ ... ـس لا زور وبهتان

بل إن حمود رمضان كان يتنفس أحيانا في أجواء شعراء المهجر، فحين نقرأ له مثلا الأبيات التالية يتراءى إلى أذهاننا أسلوب جبران ولغته :

فهذا خرير الماء شعر مرتل ... وهذا غناء الحب ينشده الطير

وهذا زئير الأسد تحمي عرينها ... وهذا صفير الريح ينطحه الصخر

وهذا قصيف الرعد في الجو ثائر ... وهذا غراب الليل يطرده الفجر. (5)

إن الفترة العصيبة التي مرت بها الجزائر بعد الثلاثينيات أسهمت في تبلور هذه النظرة الوجدانية التي أسهم حمود في ابرازها، فتفجر الشعر الوجداني على ألسنة بعض الشعراء وإن لم يظهر جليا في شعر حمود نفسه الذي بقي يحمل بصمات الطابع التقليدي.

1- انظر : بذور الحياة ، ص 104.

2- انظر : الشهاب سنة 1927، الأعداد : 82، 85، 93، 94، 108.

3- وهو الكتاب الذي صدر عام 1928، ويمكن في هذا المجال الإطلاع على الصفحات التالية : من 104 إلى 127.

4- ينظر : يسري محمد سلامة، عبد الرحمان شكري شاعر الوجدان ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، 1966، ص 109.

5- بذور الحياة، ص 104.

وفي نفسها مرحلة حمود نجد شاعرا مثل مفدي زكرياء يركز على مصدر الشعر الذي لايخرج به عن أطار القلب والاحساس (1). أي الاحساس بالحياة وبالناس، النابع من قلب خافق بالحياة، ويبدو لنا أن تركيز الشاعر على هذه النظرة ناتج عن قراءاته الشعرية لبعض الشعراء الوجدانيين العرب، وخاصة شعراء جماعة الديوان.

ولعلنا نحس به حينما يقول :

وما الشعر إلا وحي قلب مطهـر   تنزّل يحيي في الورى القلب والشرعا (2).

يقترب من مفهوم جماعة الديوان، حين يقول شكري مثلا :

إن القلـوب خوافـق   والشعر من نبضاتها
فترى الحياة جميعهـا   منشورة بصفـاتها
والشعر مرآة الحيـاة   تطل من مرآتهـا (3).

وقد ركز شعراء اصلاحيون آخرون على العاطفة، باعتبارها الأصل في الشعر كقول ابن رحمون :

والشعر أن لم يكن في القلب مصنعه   فإنـه محض ألفـاظ وأوزان. (4)

وقد تطور المفهوم الوجداني للشعر مع تطور المجتمع الجزائري، وخاصة بعد الحرب الكونية الثانية، وبعد تبلور الأحاسيس الوطنية، وظهور بوادر الفكر الثوري، فاصبح الشعر بمثابة المداوي لجراح القلوب التي أدماها الاستعمار، والمشفي من الفجائع، والمطفئ لنيران الأرزاء التي تقض الجوانح، يقول عبد الكريم العقون :

وبالشعر تشفى غلة من فجيعة   ورزء له بين الجوانح نيـران . (5)

ومع اقتراب موعد الثورة المسلحة، صار الشعر قنبلة موارة لهبا، ومعجزة الهام، وطاقة ريحان، يقول سعد الله :

الشعر قنبـلة موارة لهبـا   إذا تفجـرت الأوزان تلقيهـا
الشعر معجزة الالهام طافحة   من النبـوغ الالهي في سواقيها

1- تنظر قصيدة : خواطر كئيب ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص 157.
2- انظر د. ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ص 71، نقلا عن جريدة المغرب، ع8، 1930/7/15.
3- انظر : د. مصايف، جماعة الديوان في النقد، مطبعة البعث ، قسنطينة، الجزائر 1974، ص 214، نقلا عن ديوان شكري، ج4، ص 335.
4- ديوان ابن رحمون ، ص 120.
5- البصائر ، سل 2، ع71 ، 14 جمادى الأولى 1368 هـ ، 1949/3/14، ص 07

الشعر طاقة ريحان تصففهــا　　　　أيدي الملائك والأحلام تهديهــا (1)

إن المفهوم الوجداني للشعر لم ينبع من موقف فلسفي بقدر ما كان صدى لآراء مشرقية متمثلة في جماعة الديوان بالخصوص، أو آراء غربية من المذهب الرومانسي. وقد اقتصر هذا الموقف على نقد الأدب التقليدي، والدعوة إلى أدب جديد يستمد من ذات الأديب، ويصف معاناته وآلامه، فيكون بمثابة الشعاع الذي يضيء ما في نفس الشاعر ويجلو ما في ذهنه.

وقد ركز الشعراء في تحديدهم للشعر على أنه شعور، واحساس، وعاطفة، وقلب، يعتمد على الأحاسيس والمشاعر لأعلى الأفكار. ويذبع من العواطف والقلوب لا من العقول.

2- <u>وظيفة الشعر</u> : نظر اليها الشعراء من زاويتين زاوية تقليدية وأخرى وجدانية.

أ - <u>الزاوية التقليدية</u> : اهتم من خلالها الشعراء بمهمة الشعر ووظيفته في الحياة من خلال النظرة التقليدية التي تنظر إلى الشاعر على أنه صاحب رسالة نضالية واقعية في المجتمع، وهي النظرة التي رافقت الشعر العربي منذ عصوره الأولى، وتجسدت بشكل جلي في الشعر الاصلاحي لعدة اعتبارات أهمها:الظروف الاستعمارية الصعبة، وجو الحياة التي يحياها الجزائري، وهو الجو الذي وجه الشعر وجهة معينة، فكان أداة من أدوات الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي، ووسيلة من وسائل التربية والتثقيف. فالشعر من الزاوية التقليدية يمثل وجها ناصعا من وجوه الحضارة العربية، بل هو عند أبي اليقظان مرآة صادقة لواقع الأمة، وترجمان لأفكارها، وسجل لمآثرها.(2) وقد ارتبط بالشخصية الوطنية معبرا عن الأحاسيس والمشاعر في مقابل اجراءات استعمارية ماكرة، وفي ~~هذا~~ الوقت نفسه نجد الشعراء قد اعتبروا أنفسهم مصلحين بالدرجة الأولى، مجندين لخدمة وطنهم، ذائدين عن حياض الدين، يقول الطرابلسي مباركا هذا النوع من الشعراء : « فلله در الشعر والشعراء المخلصين المتمسكين بعزة النفس الذائدين عن حياض الدين» (3)، فإذا وظيفة الشعر عنده محصورة في خدمة الدين والالتزام بقضايا المجتمع.

إن اعتبار الشعر في خدمة الأخلاق والعقيدة والمجتمع فكرة ترددت كثيرا في الوسط الاصلاحي، وهي نظرة تنطلق من واقع اجتماعي معين، يعتبر الشعر سلاحا من أمضى الأسلحة التي يمكن أن تشد أزر الحركة الاصلاحية، فإذا الشعر عند مفدي زكرياء

1- انظر : هزار الشعر، البصائر ، س2، ع 222، 5 رجب 1372هـ ، 1953/3/20، ص05.

2- انظر مقدمة ديوانه ، ص 04.

3- وادي ميزاب ، ع 22، 1927/3/4.

بمثابة عصا موسى يصون بها الحق ويردع الباطل، ويذوذ عن الدين، ويرد كيد الخائنين :

ولجت خضم الشعر أسبح يافعا وسقت سفيني فوق لجته سوقا
تخذت عصاه للطوارق عدة فكانت عصا موسى يصون الحقا. (1)

وهي نفسها الفكرة التي يرددها محمد العيد في سنة 1939، أي بعد أكثر من عشر سنوات على بيتي زكرياء، حين يقول :

الشعر عوني في كل حادثة وحاجة في الفؤاد أهواها
كأنه في فمي أصول به عصا ابن عمران حين ألقاها. (2)

فالصورتان متشابهتان، وتستقيان من مصدر واحد، وإن كان الموقفان مختلفين ، فإذا موقف زكرياء، تتجلى فيه الروح الثورية التي تعمل على تغيير الواقع بـ (اليد)، وإذا موقف العيد يعتمد أسلوب التربية والاصلاح لتغييير المجتمع، وينطلق من وسيلة (اللسان) أداة في العملية.وكلا الموقفين يعبران عن شخصية كل شاعر منهما، ويكشفان جوانب من مواقعهما في الاصلاح.

إن الشعر متعدد الجوانب والوظائف عند الشعراء التقليديين، يستغل في عدة ميادين تصب كلها في مجرى الوجدان الجماعي للأمة، فإذا هو داع إلى التقدم، مؤثر في النفوس، مكهرب شعور المواطن عند ابن دويدة(3)، وإذا الشاعر عند محمد الهادي السنوسي هو الذي أوقف نفسه على بني جلدته مجاهدا بفكره في سبيلهم ؛ هاديا ومعلما، ومقدما المثل والقدوة (4)، بل إنه يعتبر أن رسالة الشاعر هي الحياة حين يقول: «فلندع الشاعر لشعره، ولندعهما معا للحياة » (5)

وإذا أبو اليقظان ينتصر لمذهب الشعر الذي ينظر إليه على أنه نعمة جزيلة أسبغها الله علينا لاستعمالها في الأغراض الشريفة دون الرذيلة، وفي منفعة الناس. (6)

ويحدد الغرض الشريف بذلك الغرض الذي «ينبه الشعور والاحساس، ويوقد نار الغيرة والحماس، ويوقظ النفوس من النعاس، وينشط الأعضاء الفاترة، ويجدد النفوس الخائرة، ويحرك الأعصاب الهامدة، ويهز الأنباض الخامدة، ويلحم ما تصدع من قلوب الأضداد، ويرهم جروح المجتمعات والأفراد، وهكذا يتخذ أمثال هذه الأغراض الشريفة

1- انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1، ص 158.
2- في دار ابن الباي ، البصائر، ع 162، ربيع الأول 1358 هـ ، (1939/4/21)، ص07.
3- انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ،ج 2، ص 144.
4- م. ن، ص 10.
5- م. ن، ص 18.
6- انظر مقدمة ديوانه ، ص 08.

قبلته، لتسيير سفينته وجهه.» (1)

إن الشعر عند أبي اليقظان فطرة فطر الله الناس عليها، تستغل لاصلاح المجتمع والانسان، ولذلك يقف ضد كل شعر لا يخدم الأخلاق ولا يهذب النفوس، ولا يصلح المجتمع كشعر الغزل والمجون والهجاء والخصومات القبلية والسياسية.

وإذا كان الناقد واسيني الأعرج (2) يرفض مثل هذا الموقف لكونه يكسر الخط التطوري للحركة الشعرية من خلال استصداره مجموعة مختلفة من الضوابط، تنطلق من موقف أخلاقي، منها تحريم الكثير من الأغراض الشعرية. فإن موقفه ينطلق منطلقا فنيا، ويحكم على العمل الأدبي بمعزل عن الظروف المحيطة به، فأبو اليقظان له ما يبرر نظرته الرافضة للشعرالذي يستعمل لايقاد الفتن الساكنة، واثارة القلاقل، وتهييج الأحقاد، وتحريك أوتار العشق والغرام، والاغراق في السخف والمجون، ذلك أن الاستعمار كان يعتمد سياسة التفرقة منطلقا له لغرس بذور الطائفية والجهوية، وقد عانت (الاباضية) التي ينتمي اليها الشاعر الشيء الكثير من كيد الاستعمار، ولذلك فليس غريبا أن يقف الشاعر الموقف السابق.

ثم أن الشاعر كان من رواد الاصلاح الذين كان اهتمامهم بالشباب يحظى بالمقام الأول في المنهج الاصلاحي، وكان الشباب يتجاذبه تيار المسخ والتشويه والتغريب الذي احكمت فصوله من لدن المفكرين الاستعماريين، فكان الأولى ابعاده عن حماة الفساد في مثل هذه المرحلة بابعاده عن الشعر الذي يحرك الغرائز والشهوات، ويدفع الشباب الذي تنقصه الثقافة والوعي إلى مهاوي الرذيلة والانحراف.

فمرحلة العشرينيات والثلاثينيات كانت مرحلة التكوين والاعداد للجيل المستقبلي، وهو التكوين الذي ينطلق من الوعي بالمرحلة، والظروف المحيطة بها، والأهداف التي يمكن تحقيقها.

إن موقف أبي اليقظان لم يكن موقفا انفراديا، بل هو نموذج للموقف الاصلاحي الذي ينطلق من «أن رسالة الشعر اصلاحية، توجيهية، تعليمية. بل إن بعض النصوص تذهب إلى حد اعتبار الشاعر محاسبا على سلوكه الأخلاقي أكثر من غيره لأنه القدوة والمثال» (3) ثم إنه موقفهينطلق من نظرة جماعية لرسالة الشعر أي أن دور الشعر اهتمام بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية والسياسية دون التركيز على الجانب الفردي أو الذاتي، وبعبارة أدق دون ايلائه الاهتمام الكافي ، ومن ثم أنكروا شعر المديح

1- م. ن، ص 13/12.

2- انظر : في نقد الخطاب الشعري الحديث ، مجلة المجاهد (الجزائر)، ع 1513، 4 أوت 1989، ص 39.

3- د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 70.

والتغزل (1). حتى يترفع الأول عن الدنايا ويستعمل في منفعة الأمة، أما الغزل فإن الشاعر كان في شغل عنه لأن القضايا الدينية والاجتماعية والثقافية قد شغلت بؤرة شعوره، وملكت عليه أحاسيسه، وتغلب عليه الوازع الاجتماعي، فغابت ذاتيته واضمحلت (أناه) في مواجهة (غيره)، وان لم يلغ دور الذات الغاء تاما في العملية الابداعية كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين (2). فالشاعر الاصلاحي لم يلغ الذات أو (الأنا) بل سخرها لخدمة الجماعة التي ينتمي اليها، ففي اصلاحه للجماعة اصلاح لذاته، وكان يجد أحيانا بعض المنافذ يطل من خلالها على همومه الذاتية، ويعبر عن أحاسيسه ومشاعره الوجدانية، وهي منافذ كانت مشرعة حتى في فترة العشرينيات مع بعض القصائد لحمود رمضان ومفدي زكرياء، وغيرهما، وإن كان هذا التعبير يسمو بالنفس، وينزهها عن الخوض في الشبهات، وهي نظرة دينية واضحة، تتقي الله وتخشاه، وتربأ بالنفس أن تدنسها الأهواء والشبهات.

إن النظرة التقليدية لرسالة الشعر كانت تنطلق من موقف الفن في خدمة المجتمع، وما دام الفرد عضوا في هذا المجتمع، فإن الشعر لا يلغيه، بل يدرجه ضمن هذا السياق، وقد سئل محمد العيد عن هذه القضية فأجاب «إن الواجب يقتضي على صاحب الموهبة أن يسخرها لفائدة شعبه لا لفائدته الخاصة» (3)، بل ان شاعرا مثل رمضان حمود، رغم ما عرف عنه من نزعة وجدانية إلا أنه ينكر الانغلاق في الذات، والتغزل بمفاتن المرأة، لينطلق في رحاب أوسع، فيتغزل في وطنه الجميل. (4)

ومن جهة ثانية لاحظنا إلى جانب الدور الاجتماعي للشعر اهتمام الشعراء بالتركيز على توظيف الشعر أداة للكفاح السياسي والوطني، وذلك مع بروز الوعي القومي، واشتداد عود الحركة الاصلاحية، فكانت الدعوة إلى الشعر الجماسي (5)؛ تحريضا على النهضة، وبعثا للنخوة، واثارة للحمية :

كم كهرب الشعر مغلوبا على وطن فجرد السيف يتلو آيـــة الغلـــب . (6)

وهي الدعوة التي كانت وليدة فترة عسيرة من تاريخ الجزائر، كان الاستعمار خلالها يستعد للاحتفال بالذكرى المائوية لاحتلاله الجزائر، معتبرا ذلك جنازة رسمية للاسلام في هذه الديار، ولذلك لانستغرب إذا كان محمد الهادي السنوسي يقسم الأشعار إلى ناقص مذموم،وجيد محمود، ومن النوع الثاني ما يقف في وجه الأعداء كاشفا عيوبهم، معددا جرائمهم، محرضا الشعوب على الانتقام لكرامتها المداسة. مما يجعل

1- انظر مثلا قصيدة اللقاني بن السائح، في شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 39.

2- انظر : د. واسيني الأعرج، حدود الشعر الإصلاحي [الأثر الإيديولوجي والأثر الجمالي]، مقال مخطوط.

3- انظر : لقاء صحفي مع الشاعر، أجراه عبد العالي رزاقي ، الشعب الأسبوعي ، ع 45، 76/10/28، ص 06.

4- بذور الحياة ،ص 79.

5- انظر مثلا : بوروررو محمد بن يوسف ، إلى النشئ الجديد ، وادي ميزاب ، ع 99 ، 1928/9/7 ، ص 03.

6- انظر شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2 ، ص 144.

المستعمر يسكت مثل هذه الأشعار، ويفسح المجال إلى الأشعار التي رأينا أبا اليقظان يدعو إلى تجنبها. يقول الشاعر :

في الشعر ما فيه من سر فلا تقفوا للشعر فهو الذي للمعتدي وقفا
وإن ذممت من الأشعار ناقصها فارع الذي منه رب البغي قد رجفا (1)

ونخلص إلى القول أن النظرة التقليدية تنطلق من مفهوم قديم للشعر، ينظر إلى الشاعر على أنه صاحب رسالة نضالية اصلاحية توجيهية، وذات طابع واقعي في المجتمع، وهي النظرة التي صاحبت الشعر العربي منذ كان الشاعر منافحا عن القبيلة، ثم مدافعا عن رسالة الاسلام، ثم متابطا هموم المجتمع في العصر الحديث.

وعلى الرغم من بروز العناصر التقليدية في هذا الشعر إلا أنه لم ينفصل عن حياتنا، وأن كثيرا من الشعراء «كانوا يعدون أنفسهم مسؤولين أمام الضمير الشعبي، فهم يصدرون عنه فيما ينظمون ويكتبون ... فليس هناك أدب في عصرنا لبلد عربي يعتزل حياة أهله ويعيش وراء قضبان الحياة الفردية الذاتية الخالصة.» (2)، مما يجعلنا نطمئن إلى أن الشعر الجزائري لم يكن في هذا التوجه بدعا عن غيره من الشعر العربي.

ب - الزاوية الوجدانية : لم يختلف مفهوم الشعراء الوجدانيين للشعر كثيرا عن المفهوم التقليدي، فالوضع الثقافي والاجتماعي والسياسي، قد ولد لدى الشعراء موقفا واضحا يعتبر الشعر أداة اصلاحية متعددة الجوانب، والشاعر ربان السفينة الوطنية «لقطع بحر الاستعمار الطامي، والوصول إلى شاطئ الحرية والاستقلال» كما يقول حمود. (3)

لقد ركز حمود على دور الشاعر في المجتمع، معتبرا الشعراء الحقيقيين هم الذين ينفخون في الأمة روح الاستقلال والحياة الجديدة الحقة، ويرمون الاستبداد بألسنة حداد رغم الاضطهاد والقوة والجبروت (4).

والشاعر عند حمود، رسول للاصلاح، وروح للشعب الضعيف، ينفخ فيه الحماس، ويثير الحمية :«الشعراء روح الشعوب فإذا نصحوا لها سارت وتقدمت، وإذا خانوها فالسقوط والاضمحلال حظها» (5) ويصل به الحماس إلى حد اعتبار الشعر الذي لا يخدم المجتمع خيانة كبرى فيقول : «إن الشعر الذي لا يحرك نفوس العامة ولا يذكرها في واجبها المقدس، ووطنها المفدي فهو خيانة كبرى، وخنجر مسموم في قلب المجتمع

1- م.ن، ص 18.
2- د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي ، دار المعارف بمصر ، ط5، 1977، ص 196/197.
3، 4- بذور الحياة ، ص 117.
5- م. ن، ص 63.

البشري.» (1) وهو نفسه الموقف الذي وقفه الشابي في تونس حين وضع شعره في خدمة القضايا العادلة، فشهر بالظلم الاستعماري، وجعل من الدال الفني والمدلول الرسالي وجهين لشيء واحد هو العملية الابداعية (2).

إن مثل هذه المواقف لا تنفي الاتجاه الوجداني للشاعر، لكنه اتجاه لايتهرب من الواقع، ولا يحتمي بتناقضاته وراء أحلام الخيال أو الطبيعة، بل يتصدى لتعرية الظواهر، واستكناه الحقائق.

وقد وجدنا في فترة الثلاثينيات عدة آراء نقدية متفرقة في مجلات الجمعية، منها ما يدعو إلى التعبير عن المشاعر والأحاسيس في العمل الابداعي (3)، ومنها ما كان استمرارا لأفكار حمود، ضربا للأمثلة من المذهب الرومانسي الفرنسي عند رواده : لامرتين، فيكتورهيغو (4)، ومنها ما يدعو إلى الالتفات نحو المذاهب الجديدة في الأدب (5).

وفي الميدان الشعري اكتست دعوة بعض الشعراء الوجدانيين طابع الحث على النهضة، وتكوين الشعب، ودعم الثقة في القدرات الذاتية، كقول سحنون :

ويا شعراء الضاد حثوا شعوبكم — بشعر يداويها من الجبن والبخل

فما الشعر إلا ثورة غير أنهـــا — (تصول بلا كف وتسعى بلا رجل). (6)

أو قول الربيع بوشامة :

لا شيء أحلى من الأشعار يلهمها — مثقف من بني الانسان والضاد. (7)

إن الشعر عند هذه النظرة، محرك للشعور، مثير للعواطف، موقظ للهمم، موجه للشعوب، لأن الشاعر هو «قلب الأمة الخافق، ولسانها الناطق، وترجمانها الصادق، يحس باحساسها ويصورها في أحلى مظاهرها.» (8)

ونجد شاعرا وجدانيا مثل سعد الله يعلن هذا الموقف بوضوح حين يرد على أحد النقاد في مجلة الأداب يصور نظرته إلى وظيفة الشعر، وهي نظرة مضمونية أكثر منها

1- م. س.
2- انظر : الطاهر الهمامي، كيف نعتبر الشابي مجددا ، ص 138.
3- انظر : محمد البشير العلوي، موقع الكلام من النفوس ، الشهاب ج 10، مج 8، 1 جمادى الثانية 52 هـ ، أكتوبر 1932.
4- انظر أبو مدين الشافعي ، الادب وفوائده ، البصائر ، ع 124، 1 جمادى الثانية 1357 هـ ، 38/7/29، والعدد الموالي (أي 125).
5- انظر : أحمد رضا حوحو، ما لهم لا ينطقون، البصائر ، ع 211 ، 52/12/19.
6- انظر : البصائر ، سل2 ، ع 18، 22 صفر 1367 هـ ، 1948/1/15 ، الديوان ، ص 129.
7- انظر : البصائر ، سل2 ، ع 73 ، 28 جمادى الأولى 1368 هـ ، 1949/3/28 ، ص 07.
8- انظر مقالا في البصائر ، سل 2 ، ع 179/178 ، 9 ربيع 2 ، 1370 ، هـ ، 52/1/7.

فنية، تتطلبها طبيعة المرحلة : «إنني يا أخي - كعربي جزائري يعيش بعمق قضية وطنه - أنظم الشعر ليكون تحية لثائر، أو وصفا لموقعة، أو استلهاما لنكبة أو أسطورة، أو تمجيدا لبطل رفع الكفاح العربي الدامي على قمم الأطلس الشامخة، وبالتالي، أنظم الشعر ليكون رصاصا يخترق صدر العدو، لا لوحة فنية في دار الآثار.» (1)

ونخلص إلى القول إن النظرة الوجدانية ليست النظرة الحالمة، الفارة من ضغوط المجتمع إلى أجواء الطبيعة أو الذات، وإنما هي الوجدانية الثورية المرتبطة بالواقع وتناقضاته، الواقفة على الأرض الجزائرية الصلبة، السابحة في يم الواقع لا في سماء الخيال فإذا الشاعر يزج بفنه وسط هذه الأجواء.

وبعد هذه المقدمة ننتقل آلى تناول المباحث التي حددناها لهذا الفصل من خلال :

أولا - بنية القصيدة الإصلاحية

يمكن التطرق إلى بنية القصيدة من خلال الوحدة الموضوعية والوحدة العضوية، والنبرة الخطابية، ومن خلال كل ذلك يمكن ادراج بعض الجزئيات الهامة :

أ - الوحدة الموضوعية : يمكننا في البداية أن نتساءل : هل التزم شعراء الاصلاح ببنية القصيدة كما استقرت عليه في العصر الجاهلي ؟ وهل وجدت عندهم وحدة موضوعية ؟ وهل يمكن الادعاء أن الشاعر قد تأثر بموضوع ملك عليه زمام نفسه وجمع أحساسه في قصيدة ما، ذات موضوع معين، تتكامل عناصرها، وتترابط بقوة، ليفضي أحدها إلى الآخر في نظام محكم ؟

يمكن القول : إن للقصيدة الاصلاحية، قد تنوعت موضوعاتها، وتنافرت أغراضها، إلا أنها تجمعت حول وحدة فكرية تظهر في التلاؤم بين عناصر القصيدة، من الأفكار والصور، وانتظامها في سلك واحد هو السلك الاصلاحي التوجيهي.

وإذا نظرنا إلى الوحدة الموضوعية من زاوية الموضوع الاصلاحي قلنا إن كل القصائد تتوفر على هذه الوحدة رغم تعدد قضاياها، وتوزع عناصرها، وتفرق جوانبها. إلا أننا نؤمن أن الوحدة الموضوعية هي «الوحدة المتجانسة التي تربط بين أبيات القصيدة وتسلكها في موضوع واحد بحيث يكون عنوان القصيدة في أكثر الأحيان دالا عليها، وهو أمر لم تكن تعرفه القصيدة التقليدية» (2)، إلا نادرا.

1- انظر : تجارب في الأدب والرحلة ، م. و. ك. 1983، ص 167.

2- د. ناصر ، رمضان حمود حياته وآثاره ، ص 50.

إن القصيدة عند أبي اليقظان أو محمد العيد تمثل عدة أغراض في موضوع واحد؛ بعضها أساسي، وبعضها ثانوي له علاقة بالغرض الأصلي، وتتجمع هذه الأغراض في موضوع واحد ينتقل به الشاعر على مسمع الجمهور المحتشد الذي يهوي مثل هذا التعدد، في وحدة تسلسلية يفضي فيها غرض إلى آخر بعلاقة شكلية هي التخلص والاستطراد، وهو مفهوم قديم ظهر خاصة عند حازم القرطاجني (1).

وحتى إن كانت القصيدة ذات غرض واحد إلا أن موضوعاتها تتعدد وعناصرها تتفرق إلى جملة قضايا، ففي قصيدة «تحية ووصية» (2) لمحمد العيد على سبيل المثال، التي قالها في افتتاح مدرسة الشبيبة الاسلامية بالجزائر، نجدها تتراوح بين القضايا التالية، السلام والتحية على القوم (9 أبيات)، الاشادة بمآثر السلف دينا ومحتدا (4 أبيات)، توجيهات للمقاربة من العصر الحالي (6 أبيات)، نصائح للسعي والعلم والعمل والنهضة (11 بيتا)، الدعوة إلى الوحدة واستئصال داء الفرقة (8 أبيات)، الاشادة باهمية العلم وصيانة الفصحى (7 أبيات)، الدعوة إلى الارتباط بالشعب (3 أبيات)، البعد عن اليأس (5 أبيات) الاشادة بمحبة الوطن وفداه (4 أبيات)، مخاطبة القوم والدعاء لهم (4 أبيات).

فالشاعر لم يلتزم بوحدة معنوية للقصيدة، أو وحدة عضوية متنامية يسلم كل جزء منها إلى الذي يليه، وراح يبحث عن حسن التخلص من قضية إلى أخرى.

ولعلنا لا نمانع أن يتوسع الشاعر في عرض فكرته، وما يتصل بها عرضا مقبولا للتدليل على وجاهة مدلولاته ولكن دون أن يقطع الصلة بين الفكرة الأساسية وما يتعلق بها من الأفكار الثانوية الطارئة. فرغم كثرة الخواطر والمواقف إلا أن الشاعر ينبغي أن يجمعها، ويربط حلقاتها لتظهر القصيدة منسجمة تجمعها وحدة كاملة. (3)

فالشاعر يعنون قصيدته بعنوان ما، ثم يتخذه منطلقا لأغراض كثيرة (قد تقترب منه أو تبتعد وقد لا يكون لها صلة به تماما». (4)

وما دمنا بصدد العنوان وأثره في هذه الوحدة، فإننا نتساءل عن نوعه وشكله، ولماذا ورد على هذه الصورة دون غيرها ؟ ولماذا يعمد بعض الشعراء إلى تغييره إذا أعيد نشر القصيدة ؟ ... الخ.

ونقول في هذا الصدد : إن القصيدة التي تتوفر على وحدة الموضوع تصلح لأن يوضع لها عنوان، فامكانية العنونة بالنسبة إلى القصيدة دليل على اتصافها بهذه الوحدة، لأن الشاعر لايجد مشقة في اعطائها عنوانا مناسبا يكفي للدلالة على مضمونها.

1- انظر : د. جابر عصفور ، مفهوم الشعر ، المركز العربي للثقافة والعلوم ، 1982، ص 457.

2- انظر : ديوان محمد العيد ، ص 125 وما بعدها.

3- مثل بعض قصائد العقبي التي خصصها للهجوم على الطرقية وكشف عوراتها.

4- د. الركيبي ، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر ، ص 146.

أما القصائد التي تعددت موضوعاتها كقصائد أبي اليقظان، محمد العيد، الهادي السنوسي، العقبي، أو غيرهم، فنجد معظم عناوينها يقوم على ادراج جملة «وغالبا ما تكون هذه الجملة مصراع بيت من القصيدة نفسها، ولكن هذا المصراع كثيرا ما يكون صدرا لا عجزا» (1)

وقد استنتج الدكتور عبد المالك مرتاض في هذا المجال أن هناك عناوين ألفاظها مصراع بيت أو جزء منه في القصيدة، أو عناوين ألفاظها في نصها، أو عناوين ألفاظها خارجها من قصائدها وتفسير ذلك يعود إلى المعاناة في العثور على العنوان، وايثار المباشرة حتى يكون التوصيل أسهل وأقرب، ويجنب المتلقي مشقة التفكير العميق، وربما كانت النظرة التقليدية التي تسمي القصيدة برويها هي السمة الغالبة على هذا الموقف. (2)

ويرى الباحث أن كل العناوين تمثل قصائدها وتترجم محتواها بأمانة ومباشرة (3)، وقد لا نتفق معه في هذا الرأي لكون أغلب العناوين التقليدية لاتمثل سوى جزء من القصيدة، أو الموضوع الذي يسيطر على احساس الشاعر، أو المناسبة التي قيلت فيها القصيدة. ومن دلائل ذلك أن الشاعر قد يلجأ أحيانا إلى تغيير عنوان القصيدة عندما يعيد نشرها في صحيفة أخرى، أو حين يجمع ديوانه (4).

ومن خلال كل ذلك نرى غياب عناوين فنية للقصائد لأن التجربة الشعرية غير محددة، ولأن الموضوع متعدد الجوانب، يصعب حصره في عنوان يحيط به ويشمله، ويجعله مفتاحا له، «أو واجهة عرض مكثفة تعبأ فيها القصيدة.» (5)

إن العنوان ايحاء بمضمون القصيدة، وقد وجدنا تطورا في الشعر الوجداني انعكس على عناوين القصائد التي ارتبطت بالطبيعة وبالذات، وأصبحت دالة على موقف معين، تفسر احتماء الشاعر بالطبيعة، وامتلاء عالمه بالمعاناة الداخلية، مثل العناوين التالية لمبارك جلواح : الظل المحرق، البلبل المجندل، على مضرع الأمل، وتر الانتحار، أنة من وراء البحر. (6)

أو مثل عناوين بعض القصائد الأخرى لغيره من الشعراء، مثل : من وحي

1، 2، 3 – انظر : د. عبد الملك مرتاض ، الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث ، مجلة آمال ، س 12، ع 55، 1982، ص 29.

4 – من ذلك مثلا : قصيدة محمد العيد، ومن العلم للمواطن تاج، الشهاب ج 11، مج 11، 1936، نشرها في الديوان تحت عنوان «في أذن الشرق »، الديوان، ص 117. أو قصيدة : سر في سبيلك راشدا، البصائر، ع 189، 1952، نشرها في الديوان تحت عنوان : قدوة للشباب، الديوان، ص 406.

وقصيدة الهادي السنوسي، احساس الجزائر نحو وادي ميزاب، وادي ميزاب، س1، ع 4، 1926/10/22، أدرجها الشاعر في كتابه «شعراء الجزائر»، ج 1، ص 198، تحت عنوان هي الجنة الفيحاء.

5 – انظر : د. أنس داود، التجديد في شعر المهجر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص 152.

6 – تنظر ترجمة الشاعر وهذه القصائد في كتاب : عبد الله الركيبي، جلواح، أو في أطروحة رابح دوب، مبارك جلواح بين الأحياء والتجديد، جامعة القاهرة، 1988.

البحر (1)، سر الروح (2)، تباشير الصبح (3)، مرحبا يا ربيع (4)، موكب الربيع (5)، أنشودة المزارع والحقول. (6)

بل إن عناوين الدواوين لم تبق عامة بلفظه «ديوان»، بل أصبحت مرتبطة بهذه العوالم، مثل : دخان اليأس (7) اللهب المقدس (8)، الروابي الحمر (9)، همسات وصرخات (10)، ثائر وحب (11)، أطلس المعجزات. (12)

. أي أن الشاعر الوجداني قد اهتم كثيرا بالظلال والايحاءات التي يتركها عنوان القصيدة، ذلك أن هذه القصيدة قد ارتبطت بالتجربة الشعرية، وبموضوع واحد.

* * * * * * * * * * * *

ومن جهة ثانية لعب طول بعض القصائد الاصلاحية دورا في فقدانها الوحدة الموضوعية ذلك أن هذا الطول يخضع للتجربة الشعرية، ولكل تجربة مدى معين يتناسب مع فكرتها وموضوعها. والموضوع وطبيعة المناسبة هما اللذان يحددان طول القصيدة، ثم أن التطويل دليل على مقدرة الشاعر على الاسهاب، فنجد في ديوان محمد العيد أكثر من ثلاثين قصيدة يفوق عدد أبيات كل منها خمسين بيتا، وثلاث قصائد يفوق عدد أبيات كل منها مائة بيت (13)، وفي ديوان أبي اليقظان عشر قصائد يفوق عدد أبياتها خمسين بيتا (14)، وعند ابن رحمون ذي الطابع الوجداني نجد عشر قصائد يفوق عدد أبيات كل منها خمسين بيتا، وكلها تنحو المنحى التقليدي، وتخضع لطابع المناسبة، وقصيدة واحدة فاق عدد أبياتها المائة بيت (15).

ونلاحظ أن نسبه المطولات قليلة في الشعر الوجداني، ففي شعر حمود قصيدة واحدة تجاوزت أبياتها خمسين بيتا، (16) وفي شعر سحنون ثلاث قصائد تجاوزت العدد السابق (17).

---

1 – عبد الكريم العقون، البصائر، ع13، 1947/11/10.
2 – جلول البدوي، البصائر، ع 25، 1948/3/1.
3 – ع. ك العقون ، البصائر، ع 30، 1948/4/5.
4 – بوشامة ، البصائر، ع 278، 1954/7/9.
5 – سحنون ، البصائر، ع 220، 1953/3/6.
6 – سعد الله ، البصائر، ع 317، 1955/5/6.
7 – ديوان مبارك جلواح.
8 – ديوان لمفدي زكرياء.
9 – ديوان خباشة .
10 – ديوان للأخضر السائحي.
11 – ديوان لأبي القاسم سعد الله.
12 – ديوان لصالح خرفي.
13 – انظر ديوان محمد العيد، ص 143، 238، 265.
14 – منها واحدة بلغ عدد أبياتها (100بيت)، انظر : صحيفة ميزاب الخالدة ، الديوان ، ص 83/78.
15 – انظر : من وحي السيرة ، التي بلغ عدد أبياتها (119) بيتا، ديوان ابن رحمون ، ص 49.
16 – اليك أيها الرجل العظيم ، وادي ميزاب ، ع 9، 1926/11/26.
17 – انظر في ديوانه الصفحات التالية ، 85، 184، 222.

إن التطويل قد حدا بالشعراء إلى اختيار (الروي) المناسب الذي يملكون منه رصيدا لغويا كثيرا (1)، حتى يستطيع الشاعر مجاراة القصيدة بسهولة (2). وكان الالتزام بالروي الموحد قد وقف حاجزا دون تحقيق وحدة الموضوع في القصائد الطويلة، لأن الوحدة المعنوية أو الشعورية توشك أن تصبح مستحيلة ذلك أن «استمرار التوقيع على نمط واحد يحدث عند المنشئ والمتلقي كليهما فتورا يحتم اللجوء إلى تغيير الموضوع» (3)

إن القصائد الطويلة - بالاضافة إلى ما سبق - تقود الشاعر إلى الحشو والابتذال، كما تكشف عن تفاوت أجزاء القصيدة، فنجد مقاطع ضعيفة تقترب من النثر، وأخرى شعرية جيدة.

* * * * * * * * * * * *

ويعود تعدد الموضوعات في القصيدة الاصلاحية إلى أن النموذج القديم كان لايزال حيا في ذاكرة الشاعر الذي يعتبر (بيت القصيد) هو المحور الذي يجب أن يستقطب منه المجهود الفكري والفني.

فكان الاهتمام بوحدة البيت ظاهر في هذا الشعر، وإذا البيت هو القالب الوحيد الذي يعنيه، وهو آنيته التي يفرغ فيها أفكاره وآراءه.» (4)، فالشاعر يشحن البيت بمختلف الأحاسيس فيستقل بمعناه، ويكون له دوره المميز ضمن القصيدة، وبذلك كان «تركيزا لفكرة يريد الشاعر أن يعبر عنها أو لصورة يحاول أن يجسدها، أو لرأي في الحياة أو الناس يرغب في ابرازه والافصاح عنه في أوجز عبارة» (5)

ويظهر لنا أن وراء هذا الموقف، طبيعة الثقافة التقليدية للشعراء، ونوع القضايا المعالجة، وتلمس الشاعر للشاهد والمثال في موضوعاته، وطبيعة الذوق الشخصي، والاهتمام بفكرة المثل السائر وشوارد الأبيات التي شغف بها النقد العربي القديم.

إن سيطرة البيت على وحدة القصيدة، يجعل أمامنا امكانية تغيير البيت من مكانه تقديما وتأخيرا، دون أن يختل البناء الهرمي للقصيدة، أو حذفه دون أن يختل المعنى الكلي لها. لأن كل بيت مشحون بفكرة، ويغني عن غيره في معناه ولا يربطه سوى رابط الموضوع الاصلاحي مع غيره من الأبيات.

1 - انظر مقدمة ديوان أبي اليقظان، ص 16.

2 - لذلك التزم الشعراء الروي الشائع، فمطولات محمد العيد يتراوح رويها حسب الأولوية بين الراء والميم والدال والنون واللام، وعند أبي اليقظان : الراء، الميم، النون، اللام. وعند مفدي : الدال، الراء، الهمزة، الياء. وعند ابن رحمون : الراء، اللام، النون، الهاء، الباء، الدال. وعند سحنون : الدال، الياء، الميم أي أنهم يشتركون في الراء والدال والنون والميم.

3 - د. شكري محمد عياد، موسيقى الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص 107.

4 - د. الركيبي، الشعر الديني، ص 687.

5 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 596.

وإذا كنا أحيانا نعثر في بعض القصائد على أبيات ترتبط مع بعضها وتتعلق بأبيات سبقتها فإن ذلك لايشمل كامل القصيدة بل بعض أجزائها، وقد ينطبق على بعض القصائد دون غيرها.

إن الدارس لايحس بانجذاب الأبيات نحو بعضها في حركة متنامية، بل يحس بانفصالها عن بعضها رغم تجمعها في خيط القصيدة الواحدة. والأمثلة أكثر من أن تحصى.

وإذا كان الباحث مصطفى سويف يذكر أن الشاعر لايبدع القصيدة بيتا بيتا «بل يبدعها قسما قسما، فهو يمضي في شكل وثبات» (1)، فإ هذا الرأي لاينطبق كلية على الشعر الاصلاحي التقليدي، وذلك لغياب عنصر الكلية والتكامل في القصيدة التي تطغى عليها وحدة البيت، وليس وحدة القسم أو الجزء. وذلك أن البيت في هذا الشعر وحدة قائمة بذاتها معنى وصئياغة في كثير من القصائد.

ويعود بروز هذه الظاهرة - فيما نحسب - إلى محاكاة الأقدمين، وتنميق القصائد بالحكم والأمثال ارضاء للمتلقين، وترويجا للبضاعة الفكرية الاصلاحية، مما أفقد القصيدة أحيانا كثيرة الموقف الكلي الذي « يخدم التجربة الشعورية، ويقدم رؤية عميقة وشاملة لهذه التجربة وينير جوانبها المختلفة» (2)، كما يمكن أن نزعم أن هذا النظام (البيتي) مستمد من القرآن الكريم الذي فصلت فيه الآيات تفصيلا دقيقا فاستغنت كل واحدة في معناها دون أن تعتمد على ما يتلوها من آيات، أو ما يسبقها منها، باستثناء التي ترد في سياق بعض القصص القرآني، أو تصور مشهدا من المشاهد.

إن اعتماد الشاعر الحديث على وحدة البيت معناه - حسب تعبير الدكتور شكري محمد عياد - صب خمرة جديدة في آنية قديمة، مما حول القصيدة إلى معان جزئية تفتقر إلى الوحدة، وتتسم بالوضوح المسرف الذي يتطلبه اكتفاء البيت بنفسه. (3)

* * * * * * * * * * *

لقد ترك الشاعر الاصلاحي لنفسه حرية بناء قصيدته، وترتيب أغراضها، والانتقال من موضوع إلى آخر، وتكرار بعض الأغراض كما يلاحظ مثلا في القصائد الخيرية لمحمد العيد ويعود ذلك إلى التصور الأساسي للتجربة الشعرية نفسها، الموزعة بين أغراض متعددة تؤثر على وجدان الشاعر. ثم أن طبيعة الموضوعات الاصلاحية التي يتحكم فيها الأسلوب الوعظي والحكمي «تتطلب عادة العبارة الوجيزة، والفكرة المركزة، وإلا فقدت أهم شرط يجب توفره في شعر الحكمة، والمثل الذي يفترض فيه أن يكون جاريا على

1 - انظر : الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، ط 4، 1981، ص 266.

2 - د. ابراهيم السعافين، مدرسة الأحياء والتراث ، دار الأندلس ، لبنان، د. ت. ص 293.

3 - انظر : موسيقى الشعر العربي، ص 107.

الألسنة يسهل حفظه وروايته لا كعمل بنائي متكامل متنامي ولكن على أساس أنه أبيات مستقلة متفردة، وهذا جريا على المفهوم القديم للبيت المفرد » (1)

وكان لطابع المناسبة أثره في تشتيت الموضوع، فالشاعر وبوحي منها، وأمام الجموع المحتشدة التي تستهويها الموضوعات المتعددة، يستجيب لهذا الذوق، فيجعل من القصيدة أفكارا مشتتة تهدف إلى إثارة مشاعر الجماهير والانتقال بهم من غرض إلى غيره؛ إبعادا للملل، وضمانا للاستجابة، ورغبة في الأثر النفعي الذي تحدثه القصيدة، يقول سعد الله عن محمد العيد إنه « يحاول أن يستولي على انتباه الجمهور، ولذلك فهو يعمد إلى التنويع في الموضوعات على الطريقة الخطابية المعروفة أو الطريقة الوعظية وأكثر ما نجد هذه الطريقة عند محمد العيد في قصائد المناسبات الحامية.» (2)

وقد توفرت الوحدة الموضوعية بشكل جلي في القصائد التي استخدم فيها الحوار أو عنصر القص. فمن طبيعة هذا الأسلوب الربط بين أفكار الشاعر ومواقفه وصوره، والانتقال التدريجي فيها بما يخدم تطور القصيدة وبنيتها العامة، وتكامل أجزائها وعناصرها، ومن تلك القصائد يمكن أن ندرج العناوين التالية : (ألا هل من شباب) (3)، (الدهر وحدة كفيل بتنبيه المغرورين) (4)، (وحي الضمير) (5)، (الصراع النفسي) (6)، (الخيبة الكبرى) (7)، (زوجان يتحاكمان) (8)، (الفتاة الجزائرية المغتصبة) (9)، (مشاهدات صورتها يد الخيال) (10).

هذه عينة فقط من الشعر التقليدي لأن الأمثلة متوفرة نسبيا عند محمد العيد، وأبي اليقظان، والعقون، ومفدي زكرياء، والعقبي، وغيرهم.

إن التعرض للناحية القصصية في بعض القصائد هو تعرض جزئي، يرتبط بجزئية من جزئياتها كما هو الشأن في بعض قصائد محمد العيد، ولا يرتبط بالاطار العام للقصيدة، فحين يقول محمد العيد من قصيدته «في ظلال الخير»، ماي 1935، واصفا هذا المشهد في قصة مؤثرة :

---

1 – د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 596.

2 – انظر : شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، م. و. ك، 1984، ص 224.

3 – انظر : أبا اليقظان، وادي ميزاب، ع 17، 1927/1/21، الديوان ، ص 105.

4 – انظر : حمود رمضان ، وادي ميزاب، ع 91، 1928/7/13.

5 – انظر : حمود رمضان ، وادي ميزاب، ع 97، 1928/8/25.

6 – انظر : د، ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، ص 192، نقلا عن الفتى، ص 30.

7 – انظر : م. ن. ص 193، نقلا عن الفتى، ص 40/39.

8 – القصيدة للأمين العمودي، انظرها في شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، ص 28.

9 – القصيدة للهادي السنوسي .. انظرها : م. ن. ص 196/190.

10 – خبشاش، النجاح، س 10، ع 820، 1929/12/2.

وثاكل واصلت ندب البنين فما ... قلب لها حنّ أو طرف لها دمعا

وأم ويتامى حولها اصطرخوا ... في الليل واصطرخت من بينهم هلعا

قالوا متى الصبح إن الضر أزعجنا ... قالت وماذا يفيد الصبح إن طلعا

قالوا متى الأكل إن الجوع أحرقنا ... قالت إذا منح المعروف من منعا

قالوا وأين أبونا كيف أهملنا ... قالت به وقع الأمر الذي وقعا

الموت طاربه كالنسر مختطفا ... والموت طاح به كالسيل مقتلعا. (1)

" فإن العنصر القصصي وبما فيه من حوار قد ساعد على ترابط هذا الجزء، فهو عون كبير في ضبط تلاحم أجزاء القصيدة لقدرته على تحطيم وحدة البيت، والغاء وظيفتها، واضفاء نوع من الالتحام في بنية القصيدة، وتراصها مع أنها ذات موضوع واحد.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الترابط الذي وجدناه في الجزئية السابقة، قد ورد عفو الخاطر، دون وعي من الشاعر عمليا أو نظريا، بل كان أداة من أدوات التشويق واثارة الاستماع.

إن القصة عرضية في مثل هذه القصائد، ولم تكن اتجاها معينا يرقى بمستوى الشعر، ويمكن اعتبارها نزعة تقليدية يظهر فيها الشاعر براعته وتمسحه بالأقدمين الذين عرفوا مثل هذا النوع من الأسلوب الشعري.

ومن الأدلة النظرية على محاولة الشعراء اعتماد الوحدة الموضوعية دون العضوية، موقف أبي اليقظان الذي يرى أن الشاعر ينبغي عليه احضار كامل الموضوع، ويرسمه في مخيلته ليسكبه في قالب من القصيدة متسق بعضه آخذ برقاب بعض يتسابق إلى الذهن (2). مما يعطينا احساسا بتصوره لأهمية هذه الوحدة في العمل الأدبي. وربما كانت ~~[illegible]~~ نفسها الفكرة التي يطرحها محمد العيد حين يقول إن طريقته في نظم الشعر أن يسجل كل ما يجيش بخاطره في موضوع من الموضوعات، وربما بدأ بآخر القصيدة قبل أولها. (3) مما يفهم منه إيمانه بالوحدة الموضوعية الجزئية التي تتحقق في بعض أقسام القصيدة دون غيرها، وغياب الوحدة العضوية، لأن هذه الأخيرة تتطلب هيمنة الاحساس الواحد من أول القصيدة إلى نهايتها، مما يجعل الموقف ينمو عضويا من البداية إلى النهاية، لا أن يبدأ الشاعر القصيدة من نهايتها كما اعترف بذلك محمد العيد.

1 - ديوان محمد العيد ، ص 256.

2 - انظر : مقدمة ديوانه، ص 16/15.

3 - انظر محمد قنانش، المجاهد الأسبوعي، ع 6، 1966/2/26.

ونخلص إلى القول إن الوحدة الموضوعية قد تحققت في بعض الأعمال التقليدية (1)، وظهرت جلية في الشعر الوجداني، وساهمت عدة عوامل في بناء القصيدة الاصلاحية وافتقادها أحيانا لهذه الوحدة، ومنها طبيعة الموضوعات، والمناسبة (2)، ووحدة البيت، وتعدد الأغراض، وطول القصائد، كما أسهم عنصر القص والحوار في اضفاء هذه الوحدة على بعض القصائد والمقطوعات .

* * * * * * * *

ب - الوحدة العضوية :

توجه الشعراء بعد الحرب العالمية الثانية إلى نظام المقطوعات ذات القوافي الموحّدة أو المتغيرة، التي يتحقق فيها «قدر لا بأس به من تماسك الأبيات، ومن تلك الوحدة التي نادى بها حينذاك بعض دعاة التجديد ممن أخذوا على القصيدة تفكك أبياتها وتعدد أغراضها» (3)، وإذا كان هذا الحكم قد أطلقه الناقد عبد القادر القط على الشعر المصري بعد الحرب الكونية الثانية، فإنه يمكن أن يكون حكما صالحا على الشعر الاصلاحي أيضا.

إلا أننا نلاحظ أن بعض المقطوعات في الشعر الاصلاحي ظلت مبتورة ، ولم يتوفر فيها احساس متميز، أو شعور معين، وظل فيها الشاعر ينتقل من احساس إلى آخر، ومن مشهد إلى غيره (4). وأمثلتها كثيرة عند العيد، وحمود، وأبي اليقظان ...

ونزعم أن بعض المقطوعات والقصائد قد توفرت لها وحدة عضوية نسبية نظرا لهيمنة احساس واحد عليها، ووجود ترابط منطقي لأجزائها، يقوم الاقناع الفني فيه مقام الاقناع المنطقي، وهيمنة الصور الايحائية بدل الصور التجريدية العقلية (5)، وورودها أحيانا على شكل قصة لها بدء ووسط ونهاية ذللك أن الترابط يبدو أكثر وضوحا « إذا صيغ الفرض فيما يشبه «القالب القصصي» معززا بالسرد والحوار وبعض المواقف الدرامية.» (6)

من خلال ما سبق يمكن الادعاء أن قصيدة «الفتاة الجزائرية المغتصبة» (7) لمحمد الهادي السنوسي، قد اقتربت من الوحدة العضوية في وقت متقدم، وكذلك قصيدة

1 - مما يجعلنا لا نتفق مع أبي القاسم سعد الله حين ينفيها عن هذا الشعر، انظر : دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 50.

2 - حاول أحد الدارسين ارجاع كل تلك العوامل الى هذين العاملين دون غيرهما، انظر : عبد القادر قرش، أدب جمعية العلماء الجزائريين 1931 - 1956، ماجستير 1983، بغداد، مخطوط بمكتبة جامعة الجزائر، ص 238.

3 - د. عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ط 2، 1981، ص 113.

4 - نفسه، ص 335.

5 - انظر تفصيل ذلك : د. محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار الكاتب العربي، 1967، ص 207 - 208.

6 - د. ابراهيم السعافين ، مدرسة الاحياء والتراث، ص 301/300.

7 - انظر شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 2، ص 190.

«الحرية» (1) لحمود رمضان، وقصيدته «الغريب آية في البؤس» (2) والتي تتوفر على هذه الوحدة لكون الشاعر صبها في قالب الحكاية، «واستعان في أحداثها بأسلوب قصصي وهو أسلوب كثيرا ما أضفى على التجربة الشعرية سحرا خاصا يشد انتباه القارئ ويضمن تجاوبه.» (3)

يقول الشاعر في وصف مشهد موت الغريب :

جاءه في الصباح طفل صغير قال : «يا سيدي الزمان قصير»

قم تصلي فما يفيد الوثير كرر القول، والمقال جهور

لم يجبه، وهل يجيب السرير ؟

هاله الأمر إذ رآه طريحا جامدا صامتا وكان فصيحا

فاقع الوجه كان قبل صبيحا فرّ خوفا وصاح بالرعب صيحا

مات من كان بالأمس صحيحا.

هرع الناس للندا والطبيب وعلا فيهم الخلاف الحزيب

قائل :« غله المنون الرهيب» ثم من قال: «في الحياة يجوب»

ومقال الطبيب «مات الغريب»

تركوه على الفراش ضجيعا بعدما حققوا القضاء الفجوعا

غسلوه، وكفنوه سريعا خلف نعش الغريب، سرنا جميعا

بقلوب تكاد تفنى خشوعا. (4)

وإذا أخذنا مقطوعة محمد العيد في وداع رمضان (5)، أو مقطوعة «رمضان» (6) لأحمد سحنون؛ نلاحظ أنها قد طغى عليهما احساس أو لحظة شعورية واحدة لونت العمل كله، وحققت المقطوعتان نوعا من الانسجام والانسياب الشعوري، واقتربتا من الوحدة العضوية التي تعني «عملا فنيا ناميا يفضي كل جزء منه إلى آخره بالضرورة» (7) رغم الفرق الواضح بين لغة كل مقطوعة.

1 – وادي ميزاب، ع 93، 1928/7/27.
2 – وادي ميزاب، ع 44، 1927/8/12.
3، 4 – انظر : د. ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، ص 51.
5 – انظر : البصائر ، س1، ع 47، 1936/12/11 الديوان، ص 373.
6 – الديوان، ص 144.
7 – د. مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، ص 330.

وقد ظهرت هذه الوحدة بارزة بعد الاربعينيات في الشعر الوجداني، تأثرا بجماعة أبولو والديوان، وشعراء المهاجر الأمريكية، وانصراف الشعراء إلى نظام المقطوعات والقصائد المتغيرة القوافي ، واعتماد الأسلوب الحواري والقصصي، والاهتمام بالقضايا الذاتية الملتصقة بهموم الفرد والجماعة.

وقبل أن نختم هذا المبحث، نشير إلى أن ندرة الوحدة العضوية في القصيدة التقليدية يعود أساسا إلى الفهم العام للشعر ودوره في الحياة، وإلى الثقافة التقليدية للشعراء وتأثرهم بالنظرة التقليدية، وعدم اطلاعهم على الأفكار الجديدة، وكذا طبيعة الموضوعات الاصلاحية، وإلى أثر شعر المناسبات في تعدد الموضوعات، وإلى الاهتمام بالمضمون الخطابي المباشر.

ونركز في هذا المجال على قضية لم نولها حقها من الدراسة مثلما أولينا بقية العناصر، ونعني بها التجربة الشعرية، التي تفتقدها بعض القصائد أحيانا، فإذا هي أشبه بتجربة حياتية محدودة، يعيشها الشاعر يوميا، وينقلها من جو الحياة إلى جو الشعر، فإذا هي حدث فكري وموقف معين للشاعر من هذه التجربة التي عاشها أو عايش أحداثها، أو اكتوى بنارها، أو شارك في صنعها.

إن السرعة في التعبير عن التجربة تمنع من اختمار الفكرة وهضمها، فإذا القصيدة مجموعة من التجارب تتعدد بتعدد الموضوعات، وتنقصها الوحدة العضوية، وقد تتوفر لها الوحدة الموضوعية كما رأينا سابقا، وكما نجد ذلك في غالب قصائد العقبي، الذي سيطرت عليه تجربة واحدة هي محاربة الطرقية، فكانت تجربته كاملة، استوعبها، واستنطق عواملها، وخبر مراميها، وتأملها، وفكر فيها مليا، واتخذ قراره

بالتصدي لها، فإذا قصائده تتوفر على موضوع واحد بتفريعاته المختلفة، إلا أنها لاتخلق في الغالب حدثا متكاملا يسلمنا جزء منه إلى الذي يليه، بل نلمح تكرار بعض الأفكار، والانتقال من فكرة إلى أخرى، والطواف حول الموضوع، وعرض أفكاره كما تعرض له دون أن يتعمق فيها أو يحللها، أو يعيدها إلى كوامنها وأسبابها.

كما كان تركيزه على الأمور الكلية دون أن يهتم بالجزئيات، ويسبر أغوار القضية، ويتغلغل في عمقها، فيستنطق جزئياتها الصغيرة، ويقيم حوارا معها.

لقد كان بامكان الشاعر أن ينطلق من موقف معين مهما كان ضئيلا، ويرفعه إلى تجربة شعرية متكاملة، محمّلة بالأحاسيس والأفكار والعواطف.

إن التجربة الشعرية الاصلاحية قد تحولت عند بعض الشعراء إلى نقل أخبار أو تصوير مواقف، مما أفقد اللغة الشعرية ايحاءاتها، وتحول الشاعر إلى ناثر تقريري، فالتجربة أحيانا تكون بعيدة عن الذات، والشاعر في هذه الحالة يقف مفكرا لامبدعا، يحاول أن يربط بين العلاقات الخارجية، وفي أسلوب تقريري واضح.

وإذا كنا لم نعرض إلى آراء النقاد فيما يتصل بالوحدة العضوية أو المعنوية فإن ذلك يرجع إلى شيوعها بحيث أصبحت من الثقافة العامة التي لاتحتاج إلى بيان مفصل.

جـ - النبرة الخطابية :

إن الطابع الاصلاحي للشعر، الموجه إلى الجمهور؛ حثا واستنهاضا، وتوجيها ودعوة، من شأنه أن يطبع القصيدة بالأسلوب الخطابي الذي يعتمد أساسا «على الأدوات المستعملة في الخطب عادة؛ كأدوات الاستفهام، والأمر والنهي، والتوكيد، والنداء، والاكثار من صيغ التعجب، والانكار، والتحريض، والتحضيض، والقسم، وما إليها من الصيغ المعروفة في أساليب اللغة العربية الانشائية» (1)

إن المضمون الاصلاحي بسيط، يتوجه به الشاعر إلى جمهوره الذي طغت عليه الأمية ومحدودية الأفق، وصعب عليه متابعة القصيدة التي ترتكز على الصور الايحائية، والتحليق الخيالي، مما يحتم على الشاعر أن يقدم تجربته مباشرة، بحيث لايحتاج المتلقي إلى معاناة ليفهمها بسرعة، ولا يبحث عن أفكار الشاعر ومراميها ليستخلصها من قصيدته.

وهناك عوامل كثيرة ساعدت في اضفاء هذا الجو على القصيدة الاصلاحية منها : الواقع الثقافي الجزائري المتدني، الذي تسيطرعليه الأمية، ويطغى عليه الجهل، وثقافة الشعراء التقليدية، ووقوعهم تحت أسر النماذج القديمة، وتأثرهم بأعلام الأدب العربي القديم، والتزامهم برسالة الاصلاح في وسط يمزقه الضياع، وفي مجتمع يتطلب استنهاض الهمم لا امتاع النفوس، وشحذ العزائم لا التغني بالخلان، والاشادة بالبطل الذي يسترجع الحرية والكرامة لا التغزل بمفاتن الغيد الحسان.

وكذا اهتمامهم بالموضوع لا بالفن لأن الموقف يتطلب ذلك ولأن « ما يليق ببيئة ينعم فيها الناس بحياة الدعة والاستقرار، من ألوان الفن قد لا يليق ببيئة أخرى يغالب فيها الناس أسباب القهر والخطر.» (2)

---

1 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 611.

2 - ينظر : ابن سمينة، محمد العيد شعره الاصلاحي، رسالة ماجستير، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، 1985، ص 238.

إذا وضعنا هذه العوامل والاعتبارات في دراستنا وجدنا ما يبرر الأسلوب الذي اختاره هؤلاء الشعراء، وهو أسلوب يقوم على تحقيق الاقناع الخطابي لا الاقناع الفني، مما يفقد القصيدة أحيانا طابعها الشعري إلى طابع خطابي جماهيري.

ولم يكن هذا الأسلوب وليد فترة معينة بل كان مسايراً للنهضة الاصلاحية، يعالج قضايا تمس حياة الشعب، ويلقى في المحافل المختلفة، ويراوح فيه الشاعر - بناء على رغبة المتلقين - بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية، فالشاعر يبدو «وكأنه في عملية تعليم، من خلال صياغة مؤثرة، تحث على الفضائل الخاصة، على مستوى السلوك الفردي، كما تحث على الفضائل العامة على مستوى السلوك الجماعي، ولاسبيل إلى التعليم دون اقناع، ولا سبيل إلى حمل الجماعة على الاستجابة دون التوسل بطرائق الخطابة وأساليبها.» (1)

ولقد ساير هذا الأسلوب الشعر الاصلاحي، حيث انتقل بعد الأربعينيات إلى الدعوة النضالية، ليصل إلى مرحلة الثورة التحريرية، وفي كل الفترات كان الشاعر خطيبا يهز الجماهير، ويحثها على النهضة، ويدعوها إلى النضال، ويغرس في نفوسها القوة، ويدفعها إلى الثورة على الظلم والطغيان.

ولقد اعترف بعض الأدباء بأهمية هذا الأسلوب في الشعر فقال حمزة بوكوشة في تعريفه لدور الشعر : «الشعر صنو الخطابة في تحريك الشعور، وإثارة العواطف، وايقاظ الهمم، وتوجيه الشعوب» (2)

إن الاتكاء على الأسلوب الخطابي قد صبغ القصيدة بصبغة الخطبة التي تلقى في المحافل والنوادي وعلى منابر المساجد، ولذلك تجاوزت القصيدة الاصلاحية الأسلوب الخطابي صيغة وتعبيرا إلى العناصر التركيبية للخطبة من مقدمة وموضوع أو موضوعات وخاتمة. (3) .

ومن هذا المنطلق نحاول دراسة هذا المبحث على ضوء المحاور التالية : مطالع القصائد الاصلاحية، صلب القصائد الاصلاحية، نهايات القصائد الاصلاحية.

* * * * * * * * * * *

1/ مطالع القصائد الاصلاحية أو استهلالاتها :

اهتم النقاد والشعراء القدماء بمطالع القصائد لأن حسن الابتداءات من «دلائل

---

1 - د. جابر أحمد عصفور، مفهوم الشعر، المركز العربي للثقافة والعلوم، 1982، ص 277/276.

2 - البصائر، س 2، ع 179/178، 1952/01/7.

3 - د. صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص 343.

البيان» (1)، ولأن «الابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك فينبغي أن يكونا جميعا مونقين» (2)،. ومن جهة أخرى فإذا «كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.» (3)

ولما كان الشعر الاصلاحي شعر مضمون هادف يتوجه به الشاعر إلى جمهور المتلقين، تظهر أهمية المطلع الجيد في تنبيه السامع، وايقاظ نفسه، واثارة انفعاله بتعجيب أوتهويل أو تشويق، حتى يصغى ويستمع إلى ما بعده. إنه اعتبار نفسي محض، وهو اعتبار تقليدي يمكن استمداده من قول ابن رشيق على سبيل المثال : «والفطن الحاذق .. ينظر في أحوال المخاطبين .. ويميل إلى شهواتهم، وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه فيتجنب ذكره» (4)، وهذا القول يتناقض مع أساس الشعر الذي هو الشعور والاحساس.

ويطلب من الشاعر أن يجود ابتداء شعره «فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة» (5) ومن خلال اطلاعنا على بعض القصائد الاصلاحية، وخاصة عند أعلامها، اتضح لنا أن مطالع هذه القصائد التي تلقي عادة في المحافل والنوادي، تكون حسب نمط من الأنماط التالية :

1 – تحية الحاضرين : الذين يستمعون إلى القصيدة؛ مثالا للأدب الاسلامي الرفيع الذي يضع لكل مقام مقال، ولايهجم على جمع محتشد بأفعال الحث والتوجيه دون تحية اسلامية محترمة وقد ترد هذه التحية بلفظة «السلام» أو «تحية الاسلام» (6)، أو بفعل التحية مثل : أحيي، أهدي تحياتي، صغ التحية (7). وهي تختلف عن تلك التحية التي أرسلها جلواح إلى بوادي الجزائر وحواضرها وضفافها من قصيدته «ذكرى البلاد على فراش السهاد» (8)، إنها تحية غريب يحترق على فراش السهاد من فراق بلاده، وشوقه إليها.

2 – بداية المطلع بـ (الحمدلة) : من ذلك أن محمد العيد كرر عبارة «الحمد لله» في مطلع الأبيات الثلاث الأولى من قصيدته «في ظلال الخير» (9)، ويبدو أن في ذلك

1، 2، 3 – انظر : أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق : د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1981، ص : 489، 494، 496 على التوالي.

4 – انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، بيروت، ط 4، 1972، ص 223.

5 – م. ن، ص 218.

6 – انظر مثلا : محمد العيد، تحية ووصية، الديوان، ص 125، وقصيدة : اذا كان صوت الحق للأذن قارعا، الديوان، ص 262.

7 – انظر : – ديوان محمد العيد، 143، 231، 216، 417 ... إلخ.
– ديوان أبي اليقظان : 39، 78.
وانظر : مفدي زكرياء، نهوضا بني افريقيا من سباتكم، النور، ع (1938/8/30).
– المأدبة، النور، ع 49، 1932/9/6.

8 – تنظر في رسالة رابح دوب، م. س. ص 257.

9 – الديوان، ص 254.

تأثرا بالقرآن الكريم لأن الله عز وجل قد «جعل أكثر الابتداءات بـ (الحمد لله) لأن النفوس تتشوق للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع .. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتر» (1)

3 - الشكوي من الدهر والزمان : لطبيعة الظروف التي يحياها الشاعر، وهي ظاهرة تكثر عند الشعراء الوجدانيين الذين يبكون حظهم التعيس، ويندبون شبابهم الذي ضاع، وتختلف عن الشكوى في الشعر الاصلاحي التي تستعمل وسيلة للاشارة، وتغيير الأوضاع، بعد تلمس مظاهر الداء.

وقد وجدنا قصائد كثيرة تبتدئ بمثل هذه الصيغ : عجبا لهذا الدهر (2)، يا دهر (3)، أرى الدهر (4)، هو الدهر (5) ... إلخ.

4 - استعمال صيغ الطلب والحث والتوجيه والنداء : كأسلوب مباشر يخاطب جمهور المستمعين، ويستميلهم بمثل هذه الصيغ المباشرة : «ابن صرح المجد عن أس الضحايا» (6)، «لاتضق فالأرض رحب يا بني » (7)، «ألا يا رجال الشعب ويحكم هبوا» (8)، «يا كرام الناس قوموا» (9)

« قم هنئ العشائرا» (10)، « ألا أنعم أيها النادي» (11)، «يابنات النيل هل من نفحة» (12)، «هيا بني الضاد هيا » (13)، «أجبريل هل بآي الظفر » (14)، «الق في مسمع الزمان مقالا» (15).

وقد استمرت مثل هذه المطالع تساير الشعر الاصلاحي حتى فترة الخمسينات لارتباطها بالأسلوب الخطابي الذي ظل مهيمنا على هذا الشعر (16).

- وقد تكون بعض المطالع عارية من مثل ما أشرنا اليه، فيبدأها الشاعر بحكمة، أو برأي في الحياة والناس، أو بجملة خبرية، والأمثلة كثيرة ..

---

1 - انظر : أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 496.

2 - انظر : أبو اليقظان، رزية الاسلام العظمى، الديوان، ص 126.

3 - انظر : ديوان أبي اليقظان، ص 133، وانظر قصيدة زكرياء، الله راض، المغرب، ع 10، 1930/7/29.

4 - ديوان أبي اليقظان، ص 140.

5 - انظر مفدي زكرياء، خواطر كئيب، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ص 157.

6 - أبو اليقظان، في الجهاد الوطني، الديوان، ص 84.

7 - نفسه، ص 113.

8 - حمود رمضان ، أيها الناس اسمعوا وعوا، وادي ميزاب، ع 11، 26/12/10.

9 - حمود رمضان ، نحو الامام، شعراء الجزائر، ج 1، ص 175.

10، 11 - انظر : محمد العيد، الديوان، ص 58 و 75.

12، 13 - انظر : أحمد سحنون، الديوان ص : 45، 194.

14 - انظر : د. ناصر، مفدي زكرياء ، ص 131، نقلا عن لسان الشعب (التونسية)، ع (6 ماي 1925).

15 - نفسه، ص 169، نقلا عن الشباب (التونسية) ع (1937/3/5) و ع (37/4/7).

16 - انظر مثلا صالح خرفي، أطلس المعجزات، ش. و. ن. ت الجزائر، ط 2، 1982، ص 79، 109، ... الخ.

2/ صلب الموضوع :

لقد كان الشاعر الاصلاحي يقف خطيبا أمام الجماهير؛ يحمس ويحث، وكأنه يمثل في الحقيقة - كما يرى أحدهم - خطيبا سياسيا ، همه هو تحريك العاطفة الوطنية واثارة غريزة الدفاع في المواطنين (1).

ولقد كثرت في صلب القصائد شتى الصيغ التي وجدناها في المطالع، وهي في غالبها صيغ خطابية كحروف النداء، والاستفهام والتعجب والتكرار، وغيرها. وهي تنسجم مع المنهج الوعظي في التوجيه المباشر، يستدرج فيها الشاعر القارئ إلى المتابعة والمسايرة، وضمان الاستيعاب للفكرة التي يريد ايصالها اليه.

إن هذا الأسلوب «أداة صالحة لتوضيح الفكرة في ذهن القارئ واقتناعه بها. فإذا بها آخر الأمر باقية في ذهنه وحدها بارزة، لاتتعلق بها شائبة من هاجسة أو شك» (2).

وتتجلى هذه النزعة في كثير من شعر محمد العيد، أبي اليقظان، محمد الهادي السنوسي، وغيرهم، وقد اخترنا لهذا الأخير قصيدته «ماذا عسى تجدي الدموع» (3) التي يمكن اعتبارها نموذجا لهذا الأسلوب، يقول الشاعر :

ألا هل تخذنـــا ذروة العز منبرا   وفي مطلع العرفان للنشئ مظهرا ؟
أنبقى كما تبقى الجلاميد همـدا ؟   وكم من فتـــى سوء المغبة أنــذرا ؟
لقد سئمت هذي الجزائر أن تــرى   بنيها يحثـون المطايـــا إلى الورى
متى ترفعون النشئ للعلم رفعـة   نراه بهـا نحو الحيـــاة مشمـــرا
وتستهلون الصعب في كل غايـــة   إذا ما بلغناها حمدنا لها الســرى
ألا يا بني شعبي إلى المجد والعلى   وهيا بنا من وهدة العيش للـذرى
بلادكمـو لم يستهـل هلالهـــا   وقد كان من بين الأهلـة مقمـــرا
فهلا جمعتم من بنيكم عصــابة   وأوفدتموا منهم إلى العلم معشـرا

إن أبرز الصيغ التي استعملها الشاعر هي صيغ استفهامية تعجبية يحاول من خلالها ضمان متابعته ومسايرته من القارئ.

وسنركز في هذا المجال على عنصر نراه ظاهرة مميزة ومبثوثة في ثنايا القصائد

1- انظر : عبد الرحمن بن العقون ، مقدمة ديوانه المطبوع ، ص 13.

2- د. ناصر ، أبو اليقظان وجهاد الكلمة ، ص 168.

3- الشهاب ، ج 11 ، مج 6، رجب 1349 هـ ،ديسمبر 1930، ص 686.

الاصلاحية، ونعني به : التكرار، في الألفاظ والجمل. ويبدو أن الدافع إليـ[illegible] القصائد هو «رغبة الشاعر في توكيد المعنى الذي يريد ايصاله إلى متلقي شـ[illegible] أن هذا التكرار كثيرا ما أضفى على جو القصيدة نوعا من الرتابة المملة والجمـ[illegible] المستثقل.» (1)

والتكرار يعني من الوجهة النفسية للأدب أن الشاعر يهتم بالعبارة المكررة أكثر من اهتمامه بغيرها؛ فهو « يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو، بهذا المعنى، ذو دلالة نفسية قيمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه » (2)

ونحسب أن التكرار الذي استعمله الشاعر الاصلاحي لم يصل إلى المستوى الذي تقصده نازك الملائكة، لأنه تكرار يتناسب مع الوعظ والارشاد والتوجيه، يهدف إلى ترسيخ الفكرة واثارة الاهتمام بها، ولايحمل أية اشارة تجديدية.

فمحمد العيد تكثر عنده الظاهرة، فنجده في قصيدة « الشعر والأدب » (3) يكرر في نهاية كل بيت نفس صيغة العنوان، ولكنه تكرار ممل لا يحمل شحنة ايحائية، ولا يثير أي رد لدى المتلقي.

ونحس بالتكلف والاستثقال نفسهما في تكرار كلمة «شكرا» خمس مرات متتالية، في قصيدة «زلزال الأصنام» (4)

إن محمد العيد ينحو هذا المنحى لعدة أسباب منها : تأثره بالقرآن الكريم الذي يرد فيه التكرار كثيرا، بحيث أن المعنى الواحد يتردد بصورتين أو أكثر، كل منها غير الآخر، وثانيها ما يرجحه أحد الدارسين في كون العيد ينحو في التكرار والتجنيس منحى مدرسة البديع التي قرأ الكثير لشعرائها (5).

ونحسب أن الدور الاصلاحي للشعر كان له أثره في هذا التكرار الذي يؤدي دورا هاما في تثبيت الأفكار – لا في الايحاء بها فقط – وترسيخها في النفوس. ولعل الشاعر كان ينطلق من المثل القائل : الشيء إذا تكرر تقرر. ولم يكن هذا التكرار حكرا على

1– د. ناصر ، رمضان حمود حياته وآثاره ، ص 44.

2– نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، ط6، 1981، ص 276.

3– الديوان ص 51.

4– نفسه، ص 71، وانظر أيضا ص : 306 وما بعدها.

5– انظر: شلتاغ عبود شرّاد، أثر القرآن في شعر محمد العيد، مجلة الأصالة، ع60/61، اوت/سبتمبر 1978، ص243

محمد العيد بل هو ظاهرة مبثوثة في شعر أبي اليقظان، (1) وفي الأشعار الوجدانية عند حمود (2)، وعبد الكريم العقون (3)، ومفدي زكرياء (4) وغيرهم.

وإذا كان (العيد) لم يوفق في بعض تكراراته فإن (حمود) على سبيل المثال قد أكسب بعض تكراراته طابع التوفيق، من ذلك أنه حين كرر فعل (بكيت) 12مرة في قصيدته «دمعة على الأمة» (5) ومشتقات الفعل السابق أربع مرات، فإن لهذا التكرار دلالته النفسية عند الشاعر ولم يأت استطرادا، بل شغل حيزا في القصيدة أضفى عليها جوا من الأسى والحزن.

ولم تكن هذه الدلالة الموفقة حليفته في قصيدة «نغمة الشباب» (6) التي كرر فيها جملة «أرى الشرق» أربع مرات، أو في قصيدة «علام نلوم الدهر» (7) التي كرر فيها كلمة «قبيح» ست مرات.

إن التكرار رغم قيمته الفنية، وآثاره البارزة في تحميس المستمعين وتنبيههم إلى نقطة بعينها هي بؤرة الشعور، إلا أنه تحوّل عند بعض الشعراء إلى لفظية مبتذلة، جريا وراء التماس موسيقى معينة للقصيدة، وملأ للفراغ بتكرار بعض الصيغ.

إن بعض التكرارات في القصائد الاصلاحية، مختلة، تثقل العبارة، ولا تقدم لها شيئا، ومن ثم فلا ضرورة نفسية أو فنية يقتضيها المعنى من ورائها.

* * * * * * * * * * * * * *

3/ نهايات القصائد الاصلاحية :

إن نهاية القصيدة الحديثة كما يقول الشاعر محمد مجذوب مثل موجة اليم تماما، تتقدم في طريقها باستمرار، فتمر خلال ذلك بأطوارها المختلفة حتى تبلغ الشاطئ فتنكسر على أقدامه، وكما أن الموجة تتنوع أجزاؤها أثناء مرورها على سطح الماء بدافع التيار، كذلك موجة النفس الشاعرة، تندفع بقوة تيارها الباعث فتتابع صورها المختلفة حتى تنتهي إلى قرارها الأخير الذي يؤلف النهاية. (8)

ومن هنا فإن نهاية الموضوع لاتكون حاضرة في ذهن الشاعر منذ البدايه، وإن كان محمد العيد يعترف بأنه أحيانا يبدأ القصيدة من نهايتها، إلا أننا لانتصور ما ذهب إليه

1- انظر في ديوانه : 39، 53، 86، 87، 89، 138 ...الخ
2- انظر مثلا : - دمعة على الأمة ، شعراء الجزائر ، ج1، ص 173.
- نغمة الشباب ، وادي ميزاب ، ع 83 ، 1928/5/18.
- علام نلوم الدهر ، وادي ميزاب ، ع 100، 28/9/14.
3- انظر مثلا : صن لسان الضاد ، البصائر ، ع 159، 1951/6/11، ص 07.
4- انظر مثلا : دموع وآلام وخواطر ، الشهاب ، س 2، ع 57، 26/9/20، ص 03.
5، 6، 7- سبقت الإشارة إليها.
8- انظر د. مصطفى سويف ، الأسس النفسية للإبداع الفني ، ص 233/234.

على أنه النهاية الفعلية أو البيت الأخير، بل الموضوع الأخير الذي تتشكل منه القصيدة ضمن مجموعة موضوعات متراصة.

فليس من الضروري أن تكون النهاية معروفة لدى الشاعر يدركها ادراكا واضحا باعتبارها نهاية ، بل أن العلاقة بها علاقة دينامية، يبلغها الشاعر حين ينخفض التوتر الدافع إلى نظم القصيدة. (1)

ومن خلال اطلاعنا على بعض القصائد الاصلاحية اتضح لنا جليا ذلك الربط الواضح بين بداية القصيدة ونهايتها، بل وتشابههما أحيانا، حتى «يتم للشاعر تحقيق فعل متكامل في صميمه، ينتهي في موضع شبيه بموضع بدئه وإن لم يكن هو بالضبط، لأنه عود إلى هذا الموضع بعد رحلة أكسبت الشاعر خبرات جديدة» (2)

وقد وجدنا نهايات القصائد الاصلاحية تختتم بالدعاء أو السلام أو الحكمة على عادة القصيدة التقليدية، فبعض قصائد أبي اليقظان تنتهي على النحو التالي :

- وهي مني سلام عـــاطر   قد غدا من نشره المسك ختاما. (3)
- أحيي فيكم ودا وصدقـــا   واخلاصا أيـا خير الشمــوس (4).
- فاقبلوا مني سلاما عاطرا   هل تـردون له منكم جـواب (5).
- وسلامٌ عنك منا   يتوالى باتصال (6).

وتنتهي قصيدة «تحية الشبيبة» (7) لمحمد العيد على سبيل المثال بـ (السلام) في أبياتها الأخيرة على الصيغ التالية : (فسلام إلى سلام)، و(وسلام على السلام)، (وسلام عليكمو.) ..

ونجد مثل هذه الأبيات خواتم لبعض قصائد مفدي زكرياء :

- وحي الدنيا يربطنا   وحي الشرق والعربا. (8)
- سقياك يا ركب الحجيج منعما   ركب الحجيج تحية وسلامـا. (9)
- صرخات من شاعر وتحايـــا   مرحبا مرحبا قدوما سعيدا (10).

1- م. س. ص 234/233
2- نفسه ، ص 306.
3- صحيفة ميزاب الخالدة ، الديوان ، ص 83.
4- إلى السفر ، الديوان ، ص 100
5- ألا هل من شباب ؟ الديوان ، ص 106.
6- على جدث الوالدة ، الديوان ، ص 148.
7- الديوان ص 108.
8- المذبة ، النور ، ع 49، 1932/9/6.
9- ركب الحجيج تحية وسلاما، انظرها في : د. ناصر، مفدي .. ، ص 172، نقلا عن الأمة ، ع 117، 1937/4/13.
10- الشمال الإفريقي يتحد، م. ن. ص 175 نقلا عن (الوطن) التونسية ، ع (1937/8/5).

وكان الدعاء ظاهرة بارزة في اختتام القصائد الاصلاحية عند أبي اليقظان (1)، محمد العيد (2)، حمود (3)، مفدي (4)، أحمد سحنون (5)..

إن نهاية القصيدة هي آخر ما يبقى منها في الأسماع، ولذلك فسبيله أن يكون محكما، وأن يكون قفلا كما كان المطلع مفتاحا، كما يقول ابن رشيق (6).

ولذلك فالأحرى بالشاعر أن يبحث عن خاتمة مناسبة لعرض القصيدة، تتماشى وجوها النفسي، مما يتطلب منه - في غالب الأمر - البحث عن حكمة، أو مثل سائر، أو دعاء، أو تحية وداع للقوم المتلقين من حوله كما هو الشأن في الأدب الاسلامي.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن النبرة الخطابية لم تك حكرا على الشعراء التقليديين، بل تعدتهم إلى شعراء الوجدان الرومانسي الذين سيطرت عليهم هذه النزعة، لكونها ترمي إلى الاقناع والتأثير وتتطلب البراهين العقلية لتحقيق الغاية الأولى (الاقناع)، والانفعالات الوجدانية لتحقيق الغاية الثانية (التأثير) (7).

إن النزوع الانفعالي الذي كان يعتري الوجدانيين يعتبر من الأسباب المباشرة التي دفعت الشعراء إلى الوقوع في أسر الصيغ الخطابية، جريا وراء التعابير المعبرة عن الانفعال والمشاعر النفسية المضطربة (8).

ففي فترة الخمسينيات، وأمام طغيان النزعة الوجدانية على الشعر، لم يرق هذا الأخير إلى مستوى الايحاء والرمز، اللهم إلا في القصائد الذاتية، أما تلك التي تتعلق بالاصلاح، فكان الاهتمام فيها منصبا على المضمون استجابة لما يتطلبه الموقف من تحريض على الثورة، وتحميس للنضال وما يتطلبه ذلك من ارتكاز على المضمون واهتمام باللغة المباشرة، والصيغ الحماسية التي تثير السامع أو القارئ (9).

وخلال الثورة المسلحة تحول الشعر إلى خندق للثورة؛ رصاص بنادق، وصوت مدفع، وجمرا مشتعلا يقض مضاجع المستعمرين، ويصلي جلودهم بنار الغضب والثورة.

هل يمكن بعد كل هذا أن نلوم القصيدة الاصلاحية لأنها تتكئ على التقريرية والوضوح والمباشرة والسهولة، وتخلو من التعقيد والايحاء والرمز ؟ يبدو لنا أن

1- انظر مثلا : خطب الجزائر الأليم، الديوان ، ص 141.
2- انظر مثلا : تحية دار الحديث ، الديوان ، ص 82.
3- انظر : أهلا وسهلا بالنبي محمد ، وادي ميزاب ، ع 98، 1928/8/31، ونغمة الشباب : م. ن، ع 83، 28/5/18.
4- انظر : نهوضا بني إفريقيا من سباتكم ، النور ، ع 48، 1932/8/30.
انظر : الله راض ، د. ناصر ، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة ، ص 148 نقلا عن المغرب ، ع 10، 30/7/29.
5- انظر : إلى الأمة الجزائرية ، الديوان ص 120، و (مات ابن باديس) ، الديوان ، ص 240.
6- ابن رشيق ، العمدة ، 239/1
7- انظر : أحمد الشايب ، الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 4 ، 1956، ص 117.
8- انظر : د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث ، ص 620.
9- انظر : اعترافا للدكتور صالح خرفي ، أطلس المعجزات ، ص 04.

القصيدة التي تشرف على محفل صاخب، أو تجمع شعبي. أو تقف محمسة للنهضة، داعية إلى الثورة، مدافعة عنها، ملهبة حماس الناس، لن تكون سوى ذات نبرة خطابية متفجرة عن مكامن دينية وثورية، حتى يستطيع الجمهور صاحبُ الثقافة المحدودة متابعتها والانفعال بها. والاقتناع بمضمونها، ومن ثم تحقيق الغاية الاصلاحية الاستنهاضية منها.

إن القصيدة التي تعتمد العبارات الخطابية، تتوالى فيها عناصر الأسلوب الخطابي المتعددة، تتجه إلى فكر الآخرين، هادفة الوصول إلى غاية واضحة، عاملة على جمع شتات القصيدة لتحقيق ذلك، فالأسلوب الخطابي أسلوب محفلي، يضع السامع في المقام الأول، مما يجعل المباشرة تطغى عليه، ويسيطر عليه المضمون البسيط، ويغيب فيه جمال الشكل وروعة التعبير. ورغم «إن شعر المناسبات، والانتفاضات قد يلبي حاجة آنية فيشبع عواطفنا، أو يملؤنا بالحماسة، ولكن الفن الحقيقي - مع ذلك - هو الذي يلبي كل شيء في وقت واحد» (1)

ذلك أن الشاعر أيا كان نوع شعره «يهدف بنظم الشعر إلى اشباع الرغبة الفنية في نفسه أولا، ثم ارضاء جمهوره ونيل اعجابهم به» (2) وربما كان هذا الهدف معكوسا في النظرة الاصلاحية، حيث يأتي الهدف الفني في المقام الثاني بعد المضمون.

فالشاعر الاصلاحي في أحيان كثيرة قد يضحي بشئ من الجانب الفني للقصيدة عند ما يعيش في صميم الجماهير، مأسورا بالحدث الاصلاحي، ولكنه يبقى مطالبا بتحقيق المعادلة الصعبة بين الشكل والمضمون حتى يرقى بالناس إلى مستوى الجمال والفن من غير أن يضحي بأحد طرفي المعادلة.

1- د. ناصر ، الشعر الجزائري الحديث ، ص 625

2- د. ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ، ص 187.

ثانيا - اللغة الشعرية :

إن اللغة أهم عنصر في العمل الابداعي، إذ لاقيمة للتجربة الشعرية إذاإبقيت مبهمة غير معبّر عنها في صورة لفظية، فالحكم عليها لا يتأتى إلا باستعراض الصورة اللفظية التي وردت فيها، وبيان ما تنقله إلينا من حقائق ومشاعر. ومن هنا قيمة التعبير في العملَ الأدبي. (1)

إننا نفكر باللغة، وبها ننقل تجربتنا إلى الآخرين، وبدونها تبقى الأفكار صورا وأطيافا عاجزة (2)، واللغة كما يرى الدكتور عزالدين اسماعيل : «هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير لأنها أول شيء يصادفنا حين نتأبط القصّيدة، وهي النافذة التي مِن خلالها نطل، ونتنسم، وهي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق.» (3)

وإذا كنا فيما سبق قد ظهر لنا موقفان من الشعر أحدهما تقليدي والآخر وجداني، فقد انعكس ذلك أيضا في كل الجوانب الفنية ومنها اللغة الشعرية التي سندرسها على هذا الأساس، وإن كنا نميل إلى ما ذهب إليه الناقد عبد القادر القط في حديثه عن ظاهرة المزج في شعرنا الوجداني العربي الحديث بين الاتجاهين حسب الموقف ومناسبة القصيدة، فيقول « ومازالت آفة الصيغ الجاهزة والأنماط التعبيرية الموروثة تجني على مواهب شعرائنـا المحدثين ، وتجعل بعض أشعارهم خليطا غير متسق من القديم والجديد.» (4)

وينبغي في رأينا على الدارس للغة الشعرية الاصلاحية أن ينطلق من جملة حقائق نراها موضوعية قبل الحكم على هذه اللغة أو لها، ومنها :

1 - ادراج الأثر الأدبي ضمن مجموعة تستوعبه لأن هناك قاسما مشتركا بين جميع الآثار المنتمية إلى حقبة واحدة، فروح الكاتب صورة من روح زمنه. (5)

2 - الظروف الثقافية والاجتماعية والبيئية التي كان يعيشها الشاعر الاصلاحي، فلم يتزود إلا بزاد ضئيل من موروث الثقافة العربية، مع غياب شبه كلي للثقافة الغربية، وقد استقى ثقافته من معاهد متشابهة في برامجها سواء في الجزائر أو خارجها.

وقد عبر الجنيدي أحمد مكي على أثر هذه الظروف في تكوين الشاعر، فقال : «لو

1- انظر : سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق، ط3، 1980، ص 32.

2- انظر : أحمد يوسف داود، لغة الشعر، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، 1980، ص 107/106.

3- الشعر العربي المعاصر، ص 173.

4- الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص 394/393.

5- انظر : د. عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983، ص 48.

أن شوقي أو حافظ أو معروف الرصافي نشأوا في وطننا وتعاطوا التعليم في مدارسنا لما كانوا أشعر من أحمد الغزالي أو الأمين العمودي.» (1)

إن البيئة قد تقف عائقا في سبيل نمو شخصية الشاعر وتفتحها، وإلا لما كان هناك فرق بين شعراء الجزائر، وشعراء مصر مثلا في مثل هذه الحقبة.

3 – طبيعة الوظائف التي كان يشغلها الشعراء الاصلاحيون والتي لاتخرج في غالبها عن التعليم، والامامة، والخطابة، والصحافة، وهي وظائف جعلتهم يتعاملون مع الألفاظ المحددة الدلالة ذات الطابع التقليدي الجاف، ولا يفجرون اللغة بالرمز والايحاء.

4 – مفهومهم لحد الشعر ووظيفته كما رأيناه في المبحث السابق، والذي يتخذ الشعر وسيلة من وسائل النهضة الاصلاحية في شتى جوانبها.

إن هذه القضايا وغيرها ستكون لها دون ريب انعكاساتها على الوجهة اللغوية لشعراء الاصلاح،وستطبع الشعر بالطابع التقليدي في المرحلة الأولى، ثم ينفرج الوضع بعد الأربعينيات عن سمة أخرى تحمل بذور التجديد، وهو ما سنحاول دراسته في المباحث التالية .

* * * * * *

اللغة الشعرية التقليدية : نتساءل في البداية : لماذا كانت اللغة التقليدية هي الوجهة التي يمم الشعراء الاصلاحيون وجوههم نحوها ؟ ما هي الأسباب التي جعلتهم يركبون متنها ولايحيدون عنها إلى لغة أكثر رحابة وأوسع أجواء ؟ هل هو الوقوف ضد التجديد وخدمة تصورات الثبات وبالتالي الاقتراب من الحلم الذي يفضله الاستعمار وهو الحفاظ على الوضع كما هو كما يرى أحد النقاد ؟ (2)

يبدولي – كما ذهب إلى ذلك عدد من الدارسين – أن ننطلق في دراسة هذه اللغة وخصائصها من جملة اعتبارات انطلق منها الشعراء، وأهمها :

1– النظرة التقديسية للغة : بكونها لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ولكونها مستهدفة في كيانها من الاستعمار، فتقوقع حولها الشعراء متشبثين بها، ذائدين عن حياضها لأن «التجديد فيها أو الخروج عن مقاييس القدماء أو الثورة على قوالبها يعد خروجا على المقدسات، بل ثورة على المثل والنموذج المستوحي وعلى الأوائل الذين هم أصحاب هذه اللغة .» (3)

1– انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج1، ص 96.

2– انظر : د. واسيني الأعرج، في نقد الخطاب الشعري الحداثي ، المجاهد (الأسبوعي)، ع 1513، 14 أوت 89، ص 39.

3– د. الركيبي ، الشعر الديني الجزائري الحديث ، ص 633.

إن هذا الموقف يشفع له أنه وليد الفترة التاريخية، وكان اختيارا مقنعا سمح بالحفاظ على اللغة العربية في أوجه المسخ والتشويه التي لبست تارة لباس التجديد والتحديث وتارة أخرى لباس العامية واللهجات المحلية، وهلم جرا.

وإذا كان الدكتور الركيبي يعتبر أن هذه النظرة لم تطوع اللغة، بل بقيت بصورتها القديمة التي عرفها الشعراء في دواوين الأقدمين، فإننا نعتبر اللغة الاصلاحية ليست كذلك، إذ هي سهلة لاتتطلب رجوعا إلى المعاجم اللغوية كما هو الشأن بالنسبة للغة القديمة، وهي وأن اتصفت بصفات التسطيح والمباشرة إلا أنها تختلف عن اللغة القديمة بوضوحها وبساطتها، بحيث استطاعت أن تقلص الشقة بين لغة النظم ولغة الحديث كما سنرى ذلك في محله.

إن هذه النظرة قد حطّمت أحلام المستعمر، ولم تقف جامدة ثابتة كما يتصوره البعض، بل إنها طوعت اللغة للتكفل بقضايا المجتمع رغم أنها ورثت عن المرحلة السابقة للفترة الاصلاحية لغة أقرب منها إلى لغة الفقه والتوحيد (1)، وأغراضا وصفها ابن أبي شنب بـ (التافهة) (2). فبعثت اللغة، وأعادت الاشراقة إليها، لتترك لجيل الاصلاح القادم محاولة تجديدها، وهذا ما حدث، لأن هذا الجيل لم ينته مع ابن باديس، بل استمر يدعم الحركة الاصلاحية إلى حين توقف الجمعية سنة 1956.

2 – <u>الطابع الاصلاحي لوظيفة الشعر</u> : كما حددنا ذلك في مكانه، فاللغة التقليدية المباشرة التي تكتنفها السهولة تكون أقرب إلى النفوس الانسانية وأسرع في الوصول إلى وجداناتهم لارتباطها بقضاياهم الواقعية.

3 – <u>طبيعة المتلقين للشعر</u> : إن اللغة تحمل نبضات العصر، وتكون أقرب إلى نفوس المتلقين ولذلك فإن الشعر العربي كان يحمل في كل عصر صورة للغة الناس والحياة في هذا العصر. (3)

وقد تناسبت اللغة التقليدية مع ثقافة المتلقين، وتجاوبت مع مشاعرهم وأفكارهم؛ بسهولتها الخالية من الكلمات الغريبة والتراكيب المعقدة، وبندرة الألفاظ المشعة الموحية التي لا تملك دلالات محددة لها، فالشاعر لم يرتق بالمتلقين من مستوى اللغة العادية إلى مستوى اللغة الشعرية الموسقة الموحية التي ترفعهم من عالمهم الحسي المغرق في القضايا المعقدة إلى العالم الشعري الرحب، نظرا لادراكه أنه يخاطب جموعا تحمل أوزار عشرات السنين من التخلف والأمية والجهل والجمود الفكري، تحتاج إلى

1– انظر مقالا لمبارك الميلي في : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج2، ص 07.

2– النهضة العربية في الجزائر ، مجلة كلية الآداب ، ع 1، 1964، ص 58.

3– د. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت ، ط3، 1981.

بعث لغوي لا إلى مغامرة لغوية تشكل صدمة لهم غير قادرين على مواكبتها، لاستسلامهم لأنماط تعبير قديمة.

ومن خلال ما سبق يتضح لنا دور الجمهور في هذا التوجيه اللغوي، لأنه يتطلب الوضوح والاقناع، والطرب، والمعنى القريب.

4 – مهن الشعراء : وهي تدور في فلك التعليم والوعظ والارشاد والصحافة، مما طبع أشعارهم بالنزعة العقلية والفكرية، لتعاملهم مع الألفاظ ذات الطابع المتحجر الجاف (1)، كما أبرزت هذه القضية ما نسميه بالنمطية في اللغة المستعملة؛ رؤية وطريقة تناول وصيغا متكررة، وعبارة شعرية، وصورة وموسيقى. فأغلب القصائد التقليدية وقعت تحت هذه الوطأة مع وجود استثناءات أصيلة، تفردت بمميزات خاصة، وملكت تجربة ورؤية تختلف عن هذه النمطية.

5 – التعلق بمدرسة الاحياء : وهي مسألة ذوق تقليدي عند الشعراء والمتلقين، المتشبثين بالقديم، والمطلعين على أشعار شوقي وحافظ التي كانت المثل الذي يقلد وينسج على منواله.

وإذا كان حمود رمضان يلوم أولئك الذين يعيشون في عصرنا ويكتبون بلغة امرئ القيس وطرفة والمهلهل، فإنه لا يلوم أولئك الذين يقتبسون من المدرسة الاحيائية، وينسجون على منوالها لأنها أقرب اليهم من أية لغة كانت، ولكون الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية متشابهة آنئذ في أغلب الأوطان العربية، ولكون مناهج التعليم كانت تركز على هذه المدرسة بالخصوص، أضف إلى ذلك أن الصحافة الجزائرية قد تتبعت أخبار هذه المدرسة وروجت لها في بلادنا، ودفعت الناشئة إلى الاستلهام من ينابيعها.

ولو تتبعنا اللغة الشعرية عند فطاحل المدرسة الاحيائية لوجدناها تتسم بما اتسمت به اللغة الاصلاحية التقليدية، فهي سهلة واضحة، مباشرة، وذات طابع فكري يهتم بايصال المضمون الجماهيري قبل الاهتمام بالشكل. فكانت لغة شوقي لغة حية لم تشتمل على كلمات بائدة أو عتيقة إلا نادرا، وكانت في ~~نفس~~ الوقت نفس لغة تقريرية مباشرة تؤدي المعنى بوضوح دون مواربة (2). وعند الرصافي «كانت السهولة مظهرا من مظاهر التجديد في شعره الذي يتمثل في تناوله للأغراض الجديدة، بلفظ هو ألصق بلغة الأخبار اليومية في الصحف المحلية.» (3)، وتعمد الزهاوي أن تكون لغته «سهلة

1– انظر : د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث ، ص 291.

2– د. ع. ق القط ، الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ، ص 103.

3– السامرائي . لغة الشعر بين جيلين ،دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت) ، ص 72.

يقتنصها كيفما عرضت له . وربما جنحت هذه السهولة إلى المستوى الذي لايبعدها عن حديث الناس في تخاطبهم واجتماعهم .» (1)، وكان الرصافي والصافي النجفي مثله في سهولة لغتهما. (2)

أي أن هؤلاء الشعراء حاولوا التوفيق «بين اختيار هذه اللغة وافهام العامة، توفيقا يميل باللغة إلى السماحة والسهولة، والرشاقة واللطف، بحيث ترتفع عن السوقي الساقط، وتنحط عن الغريب الوحشي.» (3)

وقد افتقدت اللغة من جراء ذلك الأسلوب الايحائي الذي يلمح ولايصرح، وغابت اللغة ذات الطاقة التعبيرية المكثفة، كما تجلى الأثر الايحائي في تشاطير الشعراء (4)، ومعارضتهم للقصائد الاصلاحية، وفي نسجهم على منوال بعضها، وفي الموضوعات المتشابهة. (5)

* * * * * *

<u>خصائص اللغة التقليدية</u> :

يمكن استنتاج عدة خصائص لهذه اللغة نبدأها من حيث انتهينا في المبحث السابق، أي من خاصية :

1 - <u>السهولة والوضوح والبساطة</u> : لم تكن النظرة التقليدية إلى الشعر ووظيفته ولغته تلجئ الشاعر إلى التعقيد، أو ركوب متن اللغة المعجمية التي لا يفهمها المتلقي إلا بالرجوع إلى القواميس للاستنجاد بها، بل قادته إلى السهولة والوضوح والبساطة التي لاتحتاج إلى مطارق المعاجم، أو إلى عمل كد الذهن، بل تقدم العبارة نفسها مباشرة أمام المتلقي.

إن واقع الشعر الاصلاحي في مفهومه ومضامينه، تطلب من الشاعر اعتماد السهولة أسلوبا، والوضوح منهجا لتقديم رسالته الاصلاحية، وضمان وصولها إلى المتلقين باقصر طريق، وأوجز سبيل.

1- السامرائي ، لغة الشعر بين جيلين ، ص 72.

2- نفسه، ص 71، وص 85/84.

3- د. الاعرجي ،الصراع بين القديم والحديث في الشعر العربي، وزارة الثقافة والفنون، العراق، 1978، ص 186.

4- وقد تم اللجوء الى التشطير للإجادة في الفن الشعري ، وربط الصلة بالشعر العربي، وتكوين الملكة الادبية، والمشاركة في المجهود الإصلاحي، وتوجيه الانظار نحو فكرة معينة، وتوحيد صف الكلمة الشعرية ، ومن أمثلته، انظر البصائر، ع 44، 36/11/20، وديوان أبي اليقظان، ص 25/24، وديوان محمد العيد، ص 277، وديوان أحمد سحنون، ص 11، وقد أنكره بعض الشعراء وعدوه سمة من سمات فقدان الشخصية (انظر رمضان حمود بذور الحياة، ص 119).

5- انظر مثلا القصائد الخيرية لحافظ ابراهيم ، ومقارنتها بنفس القصائد عند محمد العيد.

لم يكن الشاعر الاصلاحي يهتم بتفجير اللغة، ولا بأبعادها الايحائية بقدر ما كان «يهتم بايصال المعنى لقارئه، وهو يحكي ما يريد أن يتحدث به إلى القارئ شعرا، وربما كان هذا النمط التقريري الحكائي بعد عن الفن الشعري من حيث الأداء.» (1)

وقد وجدنا في الشعر الاصلاحي بشقيه التقليدي والوجداني اتفاقا على اعتماد هذه اللغة السهلة، وخاصة في فترة العشرينيات والثلاثينيات، فحمود رمضان على سبيل المثال كان من دعاة التبسيط في الألفاظ والأساليب، وتجنب اللغة القديمة والأساليب المعقدة، ومخاطبة الناس باللغة التي يفهمونها «بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسمة» (2)

وقد شن حملة على أولئك الذين ملأوا الشعر تحسينات كاذبة، واستعارات فارغة، والتزام ما لا يلزم، وتعقيدا للعبارات ، واتيانا بالكلمات الغريبة الشبيهة بصلب الحجر (3).

كما نفى الشاعرية عن كل شاعر يميل إلى لغة التعقيد والألغاز (4)، ولم تكن دعوته تلك دعوة إلى العامية أبدا، بل إلى لغة بسيطة متماشية مع روح العصر، تحمل بصمات السهولة والوضوح ، وتنبذ التكلف والتنطع في التعبير عما في النفس من أحاسيس (5).

ولعل الشاعر الناقد يؤكد من كل ذلك على الصدق في التعبير «وهو الصدق الذي إن أخذ به الشاعر جنبه التكلف والتنطع في اللغة وجعله يعبر عن نفسه بدل أن يبقى ظلا لغيره من الأدباء.» (6)

إن البساطة عنوان الصدق في التعبير، وآية الاحساس العميق بالأشياء والناس (7)، أما التكلف والتعمل فهو جناية على الشعر، كما يقول حمود :

إن التكلف والتعمل هفوة ذهبت بروح الشعر والانشاء
لو سرحوا الأقلام تجري طليقة لأتت لنا بعجائب الأشياء (8).

وقد جنت فكرة التبسيط على الشعر الاصلاحي « فانصاع للمجتمع الذي فرض على الشعراء أن يطرقوا موضوعات معينة، فلم يخرجوا إلا نادرا عن الأشعار التوجيهية

1- السامرائي ، لغة الشعر بين جيلين ، ص 61.
2- بذور الحياة، ص 126.
3- نفسه، ص 111.
4- نفسه، ص 126.
5- الشهاب، س3، ع 108، 1927/8/4، ص 17.
6- د. مصايف، النقد الادبي الحديث في المغرب العربي، ص 153.
7- نفسه، ص 155.
8- الشهاب، س2، ع 85، 1927/2/24.

التربوية، الاجتماعية ويستخدموا بالتالي أسلوبا واضحا ولغة بسيطة سهلة،» (1)، ونزوعا إلى القوالب المألوفة والمحددة، التي تهتم بتوصيل الفكرة من المتكلم إلى السامع، «وتخضع لمدلولات الألفاظ كما تحددت لدى هذه الجماعة بحيث لايستطيع وهو يتحدث إلى أناس عاديين أن يخرج عن المصطلحات المعروفة للغة وعن مدلولاتها التي تحددت معانيها وتحجرت واصطلح عليها المجتمع.» (2)

إن مهمة الأديب ينبغي أن تتركز أيضا على تحطيم بعض هذه الارتباطات والخروج عن السياق المألوف إلى سياق لغوي مليء بالايحاءات الجديدة (3)، لأن اللغة الشعرية تختلف عن اللغة اليومية العادية، فاللغة الأخيرة تكتفي بمجرد نقل الفكرة أو الاشارة إلى الصورة المادية أو الواقعية للشيء، أما اللغة الشعرية فهي خلق فني تتحول فيه «إلى رموز تصور حالة الأديب الباطنية وتعبر عن تجربته، فهي ليست هنا وسيلة للتخاطب وعملة شائعة متداولة وانما هي لغة مشبعة بالتجربة قادرة بحكم صياغتها أن تحمل رؤية الشاعر للوجود عن طريق عمل فني متماسك موحد .» (4)، وهو مالم يتحقق في هذا الشعر التقليدي الذي حرص فيه الشعراء على أن تكون لغتهم قريبة من لغة الحياة اليومية، فاقتربوا بالتعبير الشعري من اهتمامات الانسان العادي الذي قام الاصلاح لأجل تكوينه وتوجيهه.

وقد وجدنا في هذا الشعر قصائد كثيرة لأغلب الشعراء تقترب من الصياغة النثرية وتشبه الخطب الوعظية في لغة سهلة واضحة، لاتعقيد فيها، تعالج المعنى معالجة تقربها من الافهام وتبلغ بها قلوب السامعين، خاصة وأن أغلبها كان يلقى في المحافل.

وقد كان للطابع النثري أثره في تقريرية العبارة الشعرية، وخلوها من لمحات الشعر الأصيل. فعندما يقول حمود في قصيدته (يا قلبي) :

يا قلبي لاتبك على حظك المنكود
ولكن يقولون أن البكاء ضعف في العزيمة
وأن الشجاع الصبور لايجزع عند الهزيمة
ولكن ليبعث فيك حر البكاء شدة وبأسا
ويحضك على القيام بالواجب
وإن تعددت الخطوب وتوالت المصائب (5) ... الخ.

1- د. ناصر، الشعر الجزاير الحديث، ص 289.
2- د. محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص 15.
3- نفسه، ص 16.
4- نفسه، ص 42.
5- وادي ميزاب، س2، ع 95، 22 صفر 1347هـ ، 1928/8/10، ص 03.

فرغم الطابع الذاتي للقصيدة الذي يفترض لغة ايحائية هامسة تخاطب الوجدان والعاطفة إلا أن المقطوعة لاتحمل أية سمة من سمات الشعر، وذات لغة نثرية باهتة لاحياة فيها ولا تستدعي من المتلقي أية مشاركة وجدانية بل إنها مجردُ نظم يقترب من لغة الحديث اليومي العادي. وحينما يقرظ الشاعر أحمد سحنون رسالة الشرك ومظاهره لمبارك الميلي لايخرج عن هذا الطابع التقريري الجاف الذي طغت عليه النثرية المباشرة (1).

وهذه الظاهرة واضحة في كل الشعر التقليدي، وتتفاوت بين الشعراء، بل وعند شاعر بعينه، فقد تختلف باختلاف مناسبة القصيدة، ومدى ارتباطها بالتجربة الشعرية (2). فحين يشكو أبو اليقظان نكبة الجزائر المسلمة في صحافتها الحرة، نجد ألفاظ القصيدة تصرخ بالمباشرة :

هذي (الجزائر) وهي زهرة عصرها　　فيمـا يراهـا قادة العظمـاء
ولهـا ملايين الأهـالي خمسـة　　يتكلمـون بألسن العربـاء
جعلت عروبتهـا كضيف مـاله　　حظ ولو مع سـائر النـزلاء
من أجل ذا منيت بقطع لسـانها　　في شخص نشريـاتها الوضاء. (3)

فدلالات الألفاظ تقرر حقائق موضوعية، دون أن تلبس ثوبا من الرمز أو الايحاء، أو تشع ظلالا تنقل المتلقي إلى أجواء التجربة الشعرية التي ينقلها الشاعر، فالشاعر لم ينفث في ألفاظه روحا حيّة، ولم يشحنها بالايحاء، فجاءت قاموسية تقود إلى تسطح الفكر وتخشب الحس.

وقد نلمس في قصيدته «جسر المجد والعظمة» روحا شعرية تتخللها، وتكسبها معنى جديدا، وظلالا تشع ببعض الايحاء في مثل قوله :

تبسم ثغر الكون واستبشر الدهـر　　وتاه الزمان الغض بل ضحك العصر
ومرت عيون المجد والفضل والعلى　　وغنى لسان العز والوقت مخضر ..
فضـاء جبـين الحق عن متهلّـل　　وأشرق وجه العدل بل عمه البشـر. (4)

ونخلص بعد كل ما سبق إلى أن طابع السهولة يتناسب مع التطور الاجتماعي. ويوافق الذوق العام في العصر الذي يكره التكلف والتنطع ، وهو أيضا ذو علاقة وثيقة

1- انظر الديوان ، ص 183.
2- انظر مثلا ابن رحمون ، وقارن قصيدتيه (محنة المسلمين، ص 149) ، و (على قبر عقبة، ص 43)
3- الديوان ، ص 155.
4- الديوان ، ص 57.

بالموضوعات الشعرية التي طغت على الشعراء الاصلاحيين، الذين حرصوا على أن تقترب لغتهم من لغة الحياة العادية، لانطواء موضوعات شعرهم على أهداف اصلاحية، تدعو إلى قيم دينية أو خلقية أو اجتماعية.

ولم تكن الطبقة المتلقية لهذا الشعر ذات مستوى فني رفيع يؤهلها لاستكناه اللغة الرمزية أو الموحية، فما كانت ترغب في اللغة الجزلة أو الأسلوب الرفيع بقدر رغبتها في المعنى الطريف، فكانت الصياغة من لغة الحياة اليومية ليفهمها الناس فهما مباشرا لا يحتاج إلى كد ذهن، ولذلك نلاحظ أن لغة بعض القصائد وردت قريبة من الصياغة النثرية، بل وتشبه الخطب الوعظية في المساجد.

وقد برز مظهر السهولة في كثرة الصيغ الخطابية والأساليب الانشائية من أمر ونهي وتعجب، ونداء واستفهام، وتوكيد وتكرار، وعدم العناية بالأخيلة والصور الفنية، وهي الطريقة التي تنسجم مع المنهج الاصلاحي الذي يجند الوعظ في التوجيه.

لقد كان اهتمام الشعراء منصبا على «الكلمة الطيبة دائما قبل أن تكون الكلمة الجميلة، والتعبير الصادق قبل أن يكون التعبير المزخرف.» (1)، وكانت السهولة المستعملة «من أمضى أسلحة الشعر التي يستخدمها في الوصول الى النفس الإنسانية» (2) وذلك بتبني «الكلمات والتعابير التي تمتلك حيوية خاصة لجريانها على ألسنة الناس وحضورها في وجدانهم.» (3)

2 – <u>الاستمداد من المشاعر الدينية</u> : فإذا اللغة تستمد قوتها وشحنتها من هذه المشاعر، باعتبار أن الشعراء قد حفظوا القرآن، وتمثلوا اعجازه البياني، وارتووا من منهله العذب، وراحوا يقتبسون من نوره قبسات يوشحون بها قصائدهم الاصلاحية.

إن ارتباط الشعراء بالقرآن الكريم قد هذب لغتهم، وأحكم أسلوبهم، فتخيرت معانيهم، ولم يقف هذا التأثر عند حدود المحاكاة والمشابهة بل تعداه إلى استمداد ~~تيهيل~~ نفسها الألفاظ والتراكيب، واقتباس المعاني والآيات، فحين يقول اللقاني بن السائح :

فقلت : تعالى الدين دين محمد	على ما به ألصقتم دون اسناد
ألم يكن الرحمـــان أكمل دينكم	فما بعد ذاك اليوم أحلام سهاد (4)

فالبيت الأخير اشارة إلى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا.» (5)

1– انظر مقال : د. شكري فيصل، المجاهد الثقافي، ع 12، شهر ماي 1970، ص 68.

2، 3– انظر : د. محمود الربيعي، مقدمة ديوان اغنيات نضالية للدكتور باوية ، ش. و. ن. ت الجزائر 1971، ص 09.

4– انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، ج 1، ص 47.

5– الاية (4) من سورة المائدة .

وحين يقول حمود :

لو لم يكن في الكون رب واحد   لتشاجر أو تقاتل الخصمان
لو لم يكن في الكون رب واحد   فسد النظام وكل ذا العمران. (1)

اشارة إلى قوله تعالى :«لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.» (2)

وفي دواوين محمد العيد، ومفدي زكرياء، وابن رحمون، وأبي اليقظان وغيرهم(3)، اقتباسات قرآنية كثيرة لا تخفى على كل ذي ثقافة قرآنية، ولا تكاد تخلو منها قصيدة من القصائد الاصلاحية.

فاللغة الشعرية الاصلاحية تستمد من القرآن الكريم، ثم يتعامل معها الشاعر بأسلوبه الخاص؛ ألفاظا، وتراكيب، وصورا، وقد نجد بعض الشعراء من يعتمد التركيب القرآني ولايغير منه شيئا، فمحمد العيد على سبيل المثال «في الغالب يبدأ البيت الشعري بالقرآن، ولا يغير من اللفظ القرآني إلا إذا اضطرته قوانين الوزن» (4). والأمثلة أكثر من أن تحصى. (5)

ومن آثاره هذا الاستمداد أن بعض الشعراء قد تعاملوا مع بعض الألفاظ التي وردت في القرآن، والتي هجرها الاستعمال، لكنهم آثروها على غيرها، مثل ضيزى (6)، الرين (7) ، أبابيل (8) ، حصحص الحق (9) ، عدن سجيل (10) ، العتل (11)، الصياصي(12)، الكبكبة والحافرة (13) ... الخ.

إن حفظ الشعراء للقرآن الكريم وتكرارهم المستمر له، وارتباطهم به في الحياة العملية قد جعل بعض قصائدهم تسيطر عليها الألفاظ القرآنية سيطرة واضحة (14)، وهي ألفاظ مستمدة من الذاكرة، وليست وليدة موقف شعوري، مما جعل التعامل مع الألفاظ ضئيل، فقل الايحاء والاشعاع الذي تتوهج به اللفظة الشعرية المعتمدة على الظلال، إلا أن هذا الاستمداد محاولة للتعبير عن الأفكار والافصاح عن المشاعر، وهو أن كان يحد من التجربة، ويؤثر في القيمة الفنية للنص الابداعي، إلا أنه من جهة ثانية كان وليد فترة تاريخية تعمل على اعادة لحمة التواصل مع الميراث الثقافي للأمة، ورد

1- انظر : وادي ميزاب، ع 88، 3 محرم 1347، 1928/6/22، ص03.
2- الآية 22 من سورة الأنبياء.
3- انظر ديوان محمد العيد : ص 173ب5، 125ب4، 134 البيتين الاخيرين، 149ب15، 152ب10-14.. الخ وانظر مثلا في ديوان ابن رحمون : ص : 15، 22، 23، 33، 135، 165، 180.. الخ.
4- انظر مقال شلتاغ عبود شراد، مجلة الأصالة، ع 61/60، أوت، سبتمبر 1978، ص 237
5- نظرا لكونها مبثوثة في كل قصيدة من قصائد الشاعر وهي لا تخفى على ذوي الثقافة القرآنية.
6، 7، 8، 9، 10، 13- ينظر ديوان محمد العيد على التوالي : ص 314، 39، 86، 129، 85، 251 .. الخ.
11- انظر الزاهري، ليتني ما قرأت حرفا، الشهاب، ج1، مج7، فيفري 1931 ، ص 27.
12- مفدي، اللهب المقدس، ص 32.
14- ينظر بالتفصيل في محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، المطبعة العربية، غرداية، 1992

الاعتبار للغتها العربية الموءودة في عقر دارها، والمحافظة على الشخصية العربية الاسلامية.

وليس من حقنا في هذه العجالة أن ننفي بعض سلبيات الاقتباس، ومنها لجوء الشاعر إلى ذاكرته لا إلى شعوره، واعتماده الصيغ الجاهزة عوض ايجاد عبارات ولغة شاعرية تنبع من الموقف، اضافة إلى ظاهرة التكرار في المعاني والتشابه فيها.

3 - القاموسية والجفاف : يمكن أن نشير إلى وجود لغة عادية ولغة شعرية، فاللغة العادية ذات طابع معياري برهاني، تعتمد في العلم والمنطق، يدل بها الدال على المدلول، ويتحد فيها المعنى مع الكلمة دون ايحاء أو رمز، أما اللغة الشعرية فهي التي تفجر نمطية اللغة العادية، وتحرف نظامها القديم، وتنتقل بها من لغة قاموسية إلى لغة يعاد تشكيلها من جديد، وفق رؤية الكاتب بعيدا عن التقريرية الجافة.

وقد وجدنا كثيرا من قصائد الشعر الاصلاحي في مرحلتي العشرينيات والثلاثينيات تستغل الجانب المعجمي من اللغة دون استغلال طاقاتها الجمالية وما يتولد عنها من ايقاع وصور وظلال، لأن مهمة الشعر عند الشعراء اقناع المتلقي لا امتاعه والوصول إلى عقله لا الولوج إلى قلبه.

وقد خلت لغة هذه القصائد من اللمحات التجديدية إلا ما ندر، واستمر هذا الوضع حتى بعد الأربعينيات وبنسب متفاوتة، حيث اصطبغت اللغة بصبغة المحدودية والهدف الايضاحي التفسيري الذي يبعدها عن لغة التجربة والايحاء، ويقربها من أجواء السطحية والمحدودية والدلالات المنطقية، مما جنى كثيرا على القيمة الفنية لهذا الشعر، وأصابه بالجمود والتكرار، والتشابه في اللغة والصور، وجعلت الشاعر أسير المعنى المحدود الذي يشل العاطفة ولا يرتفع بها في سماء الخيال والابداع.

وأكثر ما تظهر هذه الصفات في القصائد التي لا ترتبط ارتباطا وثيقا بتجربة أصيلة للشاعر منبعثة من ذاته، معبرة عن خلجات نفسه وأحاسيسه، بل مرتبطة بعامل خارجي منفصل عن الباحث الداخلي. ويتجلى ذلك على وجه الخصوص في بعض القصائد الاخوانية، وقصائد الرثاء، وبعض المناسبات الظرفية التي يضطر الشاعر إلى مجاراتها، والنظم في موضوعها نظما باردا مفتعلا يجنح فيه إلى هذا النوع من اللغة القاموسية (1)

فحين يقول محمد العيد من قصيدته (عزاء تركيا)

1- انظر مثلا : - مفدي زكرياء، ديوان أبي اليقظان والنور، النور، ع 18، 1932/1/19
- حمود، دمعة على الأمة، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 173.
- محمد العيد، هنيئا، الديوان، ص 398، سلبت روايتك النهى، الديوان، ص 404

أعزي تركيـا في مســـــــتخف بالردى هازي
أعزي تركيا في قـــا ند للحـرب نهـــاز
أعزي تركيـــا فيــه وأرثيه بايجــــاز
سيجزي سعيه التاريـــــــخ ما لم يجزه جـاز (1)

إن المتمعن في هذه القصيدة من خلال النموذج السابق لن يحصل سوى على معجم يتركب من مفردات قاموسية (أعزي - تركيا - الردى- هازي- قائد- الحرب- أرثي- ايجاز- السعي- التاريخ - الجزاء ... الخ) وقلما يعثر على مفردة تنبض بالحياة، أو تركيب يعطي للغة ايحاء أو ظلالا مستمدة من تجربة شعرية صادقة،لأن لغة الشعر يجب أن تكون غنية الدلالة، رهيفة التعبير، شفافة اللفظة .. حتى يمكن أن تحتضن تجربة الشاعر الراعشة النابضة التي تأبى هي بدورها القيود الصلدة المتحجرة، وتكون قادرة على ايصال التجارب الشعورية إلى المتلقي وخلق حالة من التقارب والانسجام بين الشاعر والقارئ (2)

أما اللغة الشعرية في مثل القصيدة فهي وسيلة لنقل الفكرة من الشاعر إلى المتلقي،أي أنها مجرد أداة للإبلاغ والتقرير، اعتمادا على المنطق العقلي البحث، وبعيدا عن الخلق الفني،

ويبدو أن هناك عوامل كثيرة وجهتها هذه الوجهة المعجمية، وهي النظرة الاصلاحية إلى الشعر «والنزعة الموضوعية التي كانت تدفع البعض أحيانا إلى الشرح والتفصيل» (3)، مما حدا بهذه اللغة «أن تصبح لغة نثرية مجردة من أية لمحة خيالية أورفة ابداع. وكأن المقصود من اللغة هو الدلالة المعجمية الذهنية وحدها وبذلك عجزت عن أن تتعمق عواطف وأحاسيس المتلقي خلال ذبذبات النفس والفكر.» (4)

4 - <u>المتانة والجزالة</u> : لقد ظهر تمكن الشعراء الاصلاحيين من اللغة العربية واضحا، نظرا لثقافتهم التقليدية التي تهتم بالجانب اللغوي، واطلاعهم على التراث، ولاسيما مصادره الأصلية، ولذلك لم يتساهلوا في استخدام لغة ضعيفة كما هو الشأن عند شعراء ما قبل فترة الاصلاح، أو لغة عامية مبتذلة كما اتضحت عند بعض شعراء الجيل الجديد بعد الاستقلال، وإنما ظلت اللغة عندهم «متسمة بالنصاعة والاشراق، متميزة بالجزالة والقوة» (5)

---

1 الديوان، ص 470.
2- انظر، طلال سالم الحديثي، لغة الشعر، مجلة الأقلام (العراقية)، ج5، س6، شباط 1970، ص 152.
3، 4-انظر : د ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 312.
5- نفسه، ص 294.

ولعلنا نستدل هنا بموقف أبي اليقظان (1) الذي يلح في مقدمة ديوانه على عملية اختيار الألفاظ، والبحث عن المتانة والقوة، حتى يكون الشاعر «سخيا بالألفاظ غير شحيح بها» يستطيع تغيير بعضها إذا أحس بنبوها، أو قلقها بين أقرانها «وإن أداه ذلك إلى اسقاط بيت برمته فخير له من أن يبقى هو ببيته شامة في وجه القصيدة، فإن بيتا جيدا خير من ألف رديء» (2).

إن اهتمام الشاعر الاصلاحي بموضوعه واعتماده على الأسلوب البسيط مراعاة لملابسات الموقف، وتوجيه شعره إلى الجمهور القاء في الغالب، لم يؤد به ذلك إطلاقا إلى التخلي عن الجانب اللغوي في القصيدة، فنجد محمد العيد مثلا - نموذجا للشعراء الاصلاحيين - لايستعمل في شعره «إلا الألفاظ الفصحى التي صقلها الاستعمال» (3) و«أظهر عناية فائقة في المحافظة على صحة اللغة وسلامتها وجزالتها وتماسكها» .. وسمح له في الوقت ذاته بأن يسمو بها عن مظاهر الركاكة والابتذال والعامية وما إلى ذلك مما انحدرت إليه اللغة الشعرية على أيدي بعض من جاء بعد جيل الشاعر ممن يحاول النظم في الجزائر.» (4).

ونزعم في الأخير أن اللغة هي الحياة وهي القوة، وسلامة اللغة، ودقة استعمالها شرط من شروط جمالية الشعر، ولذلك لانستغرب إذا وقف الشعراء الاصلاحيون مدافعين عن اللغة العربية في وجه تيارات المسخ والتشويه مهما كان طابعها، بل أداهم هذا الموقف إلى الارتياب والحذر من مذاهب التجديد اللغوي، لأن التساهل في ذلك يعتبر تنفيذا للدسائس الاستعمارية نحو اللسان العربي المبين. (5) وإذا كان هذا الموقف قد جنى على الناحية الجمالية للشعر فقد حقق من جهة ثانية رسالته الثقافية.

* * * * * * * *

طبيعة المعجم الشعري : نقصد بالمعجم الشعري ذلك الرصيد من الألفاظ التي يستخدمها الشعراء في قصائدهم المختلفة لتحقيق أغراض ومقاصد معينة، ذلك أن التعبير بالألفاظ هو أساس كل قصيدة. ثم أن اللفظة مجردة لاتعنينا في شيء، بل إن ما يعنينا هو تلك الطاقة التي يصبغها الشاعر عليها، فيجعلها معبرة عن حقيقة نفسه في اللحظة التي يتهيأ فيها لكتابة القصيدة. (6) ويمكن في هذا الاطار ابراز العناصر التالية (7) :

1 - استخدام الألفاظ المهذبة : لقد تيقن شعراء الاصلاح أن الشعر الهادف لايخدم بالألفاظ السافلة أو الساقطة، وإنما يخدم بالكلمات المنزهة عن الفحش. وكان لطبيعة ثقافاتهم، ووظائفهم، الأثر الكبير في البعد عن الألفاظ النابية السافلة التي تخدش

1، 2- انظر مقدمة ديوانه ، ص 18.

3- انظر : د. مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائر الحديث، ش. و. ن. ت الجزائر، ط2، 1981، ص 19.

4- ابن سمينه، محمد العيد آل خليفة شعره الإسلامي، ص 290، 291.

5- انظر : مقال أبي اليقظان، وادي ميزاب، ع 47، 1927/9/2.

6- د. محمد سعد فشوان، مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف 1982، ص 109-110.

7- وقد أغفلنا عنصر الإستمداد من المصادر التراثية الذي سبقت دراسته في هذا البحث.

الحياء، وتقتل المروءة، مما جعلهم ينزهون أنفسهم عن الخوض في غمارها.

وكان لطبيعة الالقاء الشعري أثر في هذا التوجه، إذ لا يستطيع الشاعر المصلح أن يلقي قصيدة تتوفر على ألفاظ ساقطة أمام جموع محتشدة، يلفها الاحترام، ويحيطها التقدير.

إن الرسالة الشعرية الاصلاحية كانت تنحصر في اشعار الناس جدية الحياة، وصعوبة الوضع، وفي تحفيزهم للعمل على تغيير الواقع المتعفن، فكان اللجوء إلى الألفاظ المناسبة لهذا الموقف لا إلى الفاظ العبث والاستهزاء والسخرية.

وعلى الرغم من ذلك فإننا لاننكر وجود بعض المقطوعات التي شابتها بعض الألفاظ الساقطة، وقد أشرنا إليها في حينها، وناقشناها في معرض حديثنا عن ما يشبه شعر النقائض الذي كان يدور بين شعراء الاصلاح (العقبي، محمد الهادي السنوسي، بولحبال ...) وشعراء الطرقية والزوايا، والذي تدنى أحيانا إلى حضيض الفحش والابتذال، مما جعل صحف الجمعية تحجم عن نشره، فنشر في صحف أخرى. (1)

2 – استخدام الألفاظ المعاصرة : إن الاستمداد من التراث الثقافي، لايعني أن الاصلاحيين انعزلوا انعزالا كاملا عن أحداث عصرهم الاجتماعية والسياسية، أو لم يتفاعلوا معها، بل انعكس في شعرهم اهتمامهم بأحداث العصر، ومستجداته، وكانت ألفاظهم أدل شيء على هذا الاهتمام، باعتبارها مظهرا «من مظاهر الحالة الحضارية التي يعيشها المجتمع، إذ أنها وحدة اللغة التي تكون بتآلفها مع غيرها من الألفاظ، البناء اللغوي والتعبيري الذي يدل على حالة حضارية ما.» (2)

فلو تعرضنا إلى قصيدة من قصائد محمد العيد (الخيرية) لوجدنا ألفاظها تدور حول : الصلاح، الخير، الاحسان، الانفاق، العيش، السلع، البؤس، الفقر، الساهد، الثاكل، العاطل، اليتيم، البر، الأكل، الجوع، المعروف ... الخ، وهي ألفاظ مستمدة من الواقع الاجتماعي الذي تحياه الجزائر في ظل حكم استعماري غاشم، ووضعية متدهورة اجتماعيا يسودها الفقر والبؤس، وتتطلب تضامن المجتمع وتكاتفه.

ولعل الحديث عن القضايا الثقافية التربوية أعطانا ألفاظا لها طابعها الخاص، ومرتبطة بتطور المجتمع، وهي لاتخرج عن ألفاظ : اللغة العربية، العلم، التلميذ، المعلم، الخلق، القرآن، الزاد، الذكاء، المعهد، المدرسة، الاجتهاد، الأمال، النهج، الجهل، الضاد، النور، السبيل ... الخ.

1– مثل الإصلاح (للطيب العقبي) و (البرق) لمحمد السعيد الزاهري.

2– د. ابراهيم السعافين، مدرسة الاحياء والتراث، ص 345.

وقد أعطانا الحديث عن القضايا السياسية معجما أكثر ثراء من حيث الألفاظ والتعابير وأشد ارتباطا بالمرحلة التاريخية التي تعيشها البلاد، فمحمد العيد في قصيدته : «يا فرنسا» (1) تتردد مثل هذه الألفاظ، فرنسا، الجزائر، الولاء، اليسار، الأمة، الرجاء، مؤتمر الشعب، مهرجان، الشعب، الحق، النار، الحديد، الحقوق، الأذى، الوعيد، الطغاة، الأحرار، العبيد، السلم، الهدوء، العدل، الثأر، الحاكم، البغي ... الخ.

ولعل ألفاظا مثل : الحرية، الاستقلال، العزة، السؤدد، الفجر، الحقوق، أصبحت من التعابير الشائعة في القصائد السياسية لاسيما عند مفدي زكرياء، محمد العيد، أحمد سحنون، وغيرهم، وارتبطت بتطور الفكر السياسي وتوجهه نحو المطالبة باسترجاع الاستقلال واستعادة الكرامة المهدورة.

ولكن العبرة في مثل هذا المقام ليست في استعمال المفردات المعاصرة، بل في طريقة الاستعمال التي بقيت تقليدية مباشرة، أفقدت الألفاظ جدتها وطرافتها، وإن ربطتها بواقع المرحلة، فادت الرسالة الاصلاحية المنوطة بها.

إن استخدام الشعراء للألفاظ القرآنية، وكذا الألفاظ المهذبة، بالاضافة إلى الألفاظ المستوحاة من العصر لم يمنع من وجود بعض الألفاظ المستمدة من الأدب العربي القديم، ومرد ذلك إلى معايشة الأجواء التراثية في المناهج الدراسية، وحفظ الشعراء لعيون الشعر القديم، واحتذائهم نماذجه.

ومما يلاحظ أن هذا التأثر نادر في الشعر الاصلاحي، بحيث أن الألفاظ القديمة في شعرحمود مثلا قليلة جدا، وكانت أوضح في شعره المبكر (2)، وربما لاتتعدى الألفاظ التالية : دارة الحمل (3)، ليث الغاب والأسل (4)، فوق الطروس (5)، الوهل (6).

كما أن بعض الألفاظ متناثرة في بعض القصائد الاصلاحية الأخرى (7) وهي ليست بالشكل الذي تحتاج فيه إلى دراسة مفصلة.

ونخلص إلى القول أن اللغة الشعرية التقليدية قد استغلت الجانب المعجمي من اللغة دون استغلال الطاقات الجمالية، وما يتولد عنها من ايقاع وصور وظلال، فكثرت التقريرية المباشرة، ونقص الايحاء، واقترب الشعر من النثرية لأنه كان في غالبه تعبيرا عن حقائق فكرية تولدت عن عدة اعتبارات أهمها: النظرة التقديسية للغة

1- الديوان، ص 294.

2- انظر : د. ناصر، رمضان حمود حياته وأثاره، ص 53/52.

3- انظر : الرجل بنفسه، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 172.

4- انظر : إليك أيها الرجل العظيم، وادي ميزاب، ع9، 26/1/26.

5، 6- م. ن.

7- انظر مثلا استخدام الأمين العمودي للغضنفر والسرحان (شعراء الجزائر، ج2، ص 23)، وكذا استخدامه للهبرزي (م. ن. ص 25)
أو استخدام السعيد الزاهري للخنديس (النجاح، ع215، 1925/7/3).

وطبيعة المتلقين للشعر، ومهن الشعراء، والتعلق بالتراث الأدبي مما طبع هذه اللغة بطابع السهولة والوضوح، والمتانة والجزالة، والتعامل مع الألفاظ دون نقلها من مدلولها المعجمي كما سبق القول وقد استخدم الشعراء في معجمهم لغة مستمدة من المشاعر الدينية، ومن الواقع المعاصر، ويغلب عليها طابع التهذيب والبعد عن الألفاظ النابية، وقد غلب النظم على الخلق والابداع في أغلب القصائد فنقص الايحاء والاشعاع والتكثيف.

* * * * * * * * * * *

2- اللغة الشعرية الوجدانية : إنها لغة الأحاسيس والعواطف أسهمت في اثراء المعجم الشعري الاصلاحي، وأدخلت فيه ألفاظا موحية نفضت عن نفسها رداء المعجمية والجفاف، وقد مال اليها الشعراء بحكم اطلاعهم على المذهب الرومانسي في الأدب الفرنسي خاصة، والمذهب الوجداني كما ظهر عند الشعراء المهجريين، وجماعة الديوان، وأبولو، وعند الشابي خاصة الذي ظهر تأثيره على حمود والعقون وبوشامة واضحا.

كما أن واقع المجتمع الجزائري المرير الذي يرزخ تحت وطأة الاحتلال الفرنسي قد ساعد على هذا التوجه و«طبع شعر هذه الفترة - يقصد العشرينيات - بالشكوى المستمرة ولوّنه بمسحة من الحزن قاتمة.» (1)، لينحو بعد الأربعينيات إلى التجارب الذاتية والعواطف الانسانية، وإلى الطبيعة، على أيدي شعراء كثيرين مثل : أحمد سحنون، ابن رحمون، عبد الكريم العقون، الربيع بوشامة، السائحي، سعد الله ... ومن خلال الاطلاع على بعض النماذج الشعرية الاصلاحية يمكن تسجيل بعض خصائص هذه اللغة :

1 - البساطة : في الألفاظ والأساليب، والبعد عن اللغة المعقدة، وهي خاصية - كما سبق وأن أشرنا - تشترك مع الشعر التقليدي، وتنم أساسا على عدم التكلف في التعبير عن خوالج النفس، وما يعتلج فيها من أحاسيس ومشاعر. أي الاتجاه نحو مذهب الصدق في التعبير عن التجربة الشعرية التي يعيشها الشاعر، بحيث لايلفق في عواطفه، ولا يربطك بمفردات القدماء التي فقدت تأثيرها من كثرة التكرار، ولا يحيلك دوما إلى قواميس اللغة بحثا عن معنى للفظ أو تركيب.

إن بساطة لغة هؤلاء الشعراء «تدل على أن الشاعر اهتم بعواطفه وأحاسيسه أكثر مما اهتم باللغة ، وعلى أنه لم يكن يريد أن يضع حائلا بين نفسه وبين نفوس الآخرين» (2)

1- د. ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، ص 48.

2- د. مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص 154.

2 - <u>الشكوى والألم</u> : في الفترة الأولى ترسبت لغة تعتمد الشكوى والالم والبكاء، وذلك من جراء واقع اجتماعي وسياسي وثقافي، يحياه المجتمع، ويصطلي بجحيمه. وهي ليست شكوى سلبية تنفر من مجابهة الوضع، بل إنها تتطلع إلى تغييره بمختلف الأساليب، وتبحث له عن البدائل.

وقد وجدنا في هذه الفترة أمثال العناوين التالية التي تجسد قصائدها بحق هذا المنحى الوجداني : دمعة على الأمة (1)، شعبي الكئيب (2)، موت الغريب آية في البؤس (3)، دموع وآلام وخواطر (4)، زفرات كئيب (5)، خفقة فؤاد (6)، وماذا عسى تجدي الدموع (7)، الجراد (8)، قلب يئن وروح تئن (9).

إن القصائد السابقة وغيرها مما لم نذكر «تألم شاعر لمأساة شعب، وبكاء فرد من شقاء مجموع، ومن ثم فهي لا تتصف بالهروب، ولا بالأنانية ... إنها اتجاه فني نابع عن واقع معيش، هذا الاتجاه الذي يرى بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا صادقا عن احساس الانسان وعواطفه، ولا يرى عيبا في أن يعبر الشاعر عن آلامه الذاتية إن كان صدق الاحساس وعمق الانفعال هو الذي يدفعه إلى ذلك.» (10)

3 - <u>التمرد على القيود والقواعد والدلالات العقلية</u> : المحددة، والنأي عن الألفاظ والتراكيب ذات المعاني الذهنية الجامدة، واللجوء إلى الألفاظ الموحية التي «تستطيع أن تشيع حولها ظلا ونغما وتضفي على القصيدة جوا أشبه ما يكون بذلك الجو الذي تضفيه اللوحة الزيتية الرائعة.» (11)

فحين يقول ابن رحمون على سبيل المثال من قصيدته «من وحي السيرة» (12) 1949،

غـــادة المجد عـانقتني فأحيــت   بشذاهـا منـي فؤاد عليــلا
فتعللت من جمـــال محيــــا   ها وبادلت ثغرها التقبيـلا
لذت بالشعر من هواهـا فغنيـــــت مع الطير بكرة وأصيلا
وتعلقت بالجمال عسى في الحســـن أن أجلب العزاء الجميـلا
ما اتخذت الجمال لولا هوى المجــــد نجيا ولا الغـرام خليـلا

1، 2- انظر رمضان حمود، في شعراء الجزائر، ج1، ص 173-172 على التوالي

3- انظر حمود، وادي ميزاب، ع 44، 1927/8/12.

4، 5، 6- مفدي، في الشهاب ع57، 26/9/20، شعراء الجزائر، ج1، ص153، المغرب ع13، 30/8/20 على التوالي.

7- محمد الهادي السنوسي، الشهاب، ج11، مج6، ديسمبر 1930، ص 686.

8- خبشاش، النجاح، س9، ع733، 1929/5/3.

9- جلواح، البصائر ، ع124، 1938/7/29، ص7.

10- د. ناصر ، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ص 16.

11- د. ناصر ، الشعر الجزائري الحديث، ص 315.

12- ديوان ابن رحمون، ص 6-7.

نلاحظ في مثل هذه الأبيات تلك الانسيابية والتدفق النابعين من احساس مرهف، يختلج بهذه المعاني في وحي المناسبة الدينية. وهي المناسبة التي تمنع الشاعر من استعمال ألفاظ جريئة ذات ارتباطات عاطفية وجنسية مثل : عانقتني، التقبيل، الغرام، الخليل. إن مثل هذه الألفاظ لم يكن الشعراء التقليديون باستطاعتهم استعمالها لعدة اعتبارات، أما الشاعر الوجداني فلم يعد يجد حرجا في استخدام مثل هذه الألفاظ وغيرها (1)، لأنه أصبح أحيانا كثيرة لايهتم إلا بالجانب الفني، ويكتب بوحي من العاطفة والشعور، دون الخضغ للقيود العقلية.

وبمعنى أخر فقد تحرر الشاعر الوجداني من أسر الألفاظ المعجمية الدلالة، ذات الطابع الجاف، المرتبطة بالدال والمدلول، وتوسعت مجازاته لتشمل ألفاظا ثرية بالايحاءات والدلالات تشيع على القصيدة جوا وجدانيا جديدا يرفعها إلى مستوى فني أرقى.

4 - الهمس : لقد استخدم الشاعر الوجداني الألفاظ الرقيقة والرشيقة في عبارات بسيطة زاخرة بالدلالات الشعورية والجمالية، لأنه لم يعد يهتم بجمهور المتلقين الذين تسايرهم المفردة الصاخبة ذات الطابع الخطابي، وإنما أصبح يبحث عن المفردة التي تعبر عن أحاسيسه المتدفقة المنسجمة مع تجربته الشعورية، التي ترتبط أكثر بالمواقف الذاتية.

وقد ظهرت هذه اللغة حتى في المواقف التي تتطلب جلجلة وصراخا وصخبا، فمفدي زكرياء الذي عرف في قصائده الثورية بالألفاظ القوية الجزلة التي تهز الوجدان وتحرك المشاعر نراه في بعض المواقف يستخدم لغة هامسة تتهادى برفق وانسياب، ففي قصيدة «الذبيح الصاعد» (2) الثورية تتراءى لنا هذه الخاصية مجسدة بوضوح، يستخدم فيها الشاعر «لغة هامسة تتصعد في نغم هادئ حزين، يهز الأعصاب فتبلغ هذه الألفاظ المنسابة في هدوء، ما لا تبلغه الألفاظ المتشنجة الصارخة» (3)

يحس الدارس للقصيدة أنه لايقف في مواجهة المقصلة التي تفوح منها رائحة الدم والموت، وانما يقف وسط الطبيعة الحالمة الهادئة، وهو يستمع إلى ألفاظ ترتبط بتلك الأجواء مثل : يتهادى، نشوان، باسم، الملائك، الطفل، الصباح الجديد، زغردت من لحنها، الفضاء البعيد، تسامى الروح، كلمات الهدى ... الخ، فاستخدام الشاعر لهذه اللغة استخدام لعالم وجداني رحب وواسع. وهذه الخاصية لا ينفرد بها مفدي، بل هي متناثرة في أشعار العقون، وابن رحمون، وأحمد سحنون، وبوشامة، وسعد الله وغيرهم؛ وهي

1- انظر مثلا : مفدي زكرياء، من يشتري الخلدان الله باشعه، اللهب المقدس، ص 263 وما بعدها.

2- اللهب المقدس، ص 09.

3- د. ناصر : الشعر الجزائري الحديث ، ص 322، 323.

علامة قوة لا ضعف، ذلك أن «الشاعر القوي هو الذي يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه في نغمات حارة، ولكنه غير الخطابة التي تغلب على شعرنا فتفسده.» (1)

* * * * * *

تطور المعجم الشعري : لقد تطور المعجم الاصلاحي بمفردات جديدة ذات طابع وجداني ايحائي، فتخلص من أسر الألفاظ الاصلاحية المحددة الدلالة، وانطلق في عوالم الذات والطبيعة، فظهرت ألفاظ كثيرة مرتبطة بالطبيعة، والأمثلة أكثر من أن تحصى (2). أي أنه منذ «أن بدأ الشعراء يتجهون إلى التجربة الذاتية ويهتمون بتصوير المشاعر والانفعالات ويلتفتون إلى مشاهد الطبيعة ويربطون بينها وبين وجدانهم، أخذت طائفة كبيرة من الألفاظ المحملة بالدلالات الشعورية والجمالية تتردد في عباراتهم وصورهم، ممتزجة أحيانا بألفاظ تقليدية، وخالصة أحيانا لطبيعة التجربة الوجدانية الجديدة .» (3) فإذا الشعر على سبيل المثال لم يعد عند (العقون) الديوان والرسالة والوسيلة والمرآة والسجل، بل أصبح ابن الليالي وابن الطبيعة، والجداول والربيع .

يا شعر! يا بن الليالي ... يجلو دجاها العتيا
يا بن الطبيعة يبدي ... منها الخبيء الخفيا
يا بن الجداول يحدو ... خريرها السحريا
يا بن الجمال غدونا ... له نسخر جثيا
يا بن الربيع المفدى ... ينساب عذبا شهيا
يا بن الخيال يناغي ... نشيده العبقريا . (4)

إنها ألفاظ تسبح في فضاء المفردة الوجدانية، وتستمد ظلالها من الطبيعة لا من الذاكرة.

وقد يتبين للدارس على سبيل المثال أن (النور) ومشتقاته ومرادفاته يتجسد في كثير من هذه القصائد، مما يعطيها أبعادا من الايحاء بمعان روحية ونفسية عديدة كالشعاع والسنى، والألق والاشراق، والاضاءة .. من ذلك أن قصيدة ابن رحمون «من وحي الهجرة» (5) 1948، تغمرها المفردات التالية : ساطعة، سناها، الشمس، والقمر، باهرة، لألاء، اشراق، نور، تبلج الفجر، تضيء، الزهراء، شمس الهدى، كوكب، مؤتلق .. بل وتكررت فيها لفظة (سنى) خمس مرات، ونجد في قصيدة عبد الكريم العقون حول

1- د. محمد مندور، في الميزان الجديد، مؤسسات ع. بن عبد الله، تونس ط1، 1988، ص77.

2- انظر مثلا : أحمد سحنون، مناجاة البحر، الديوان ، ص 32.

خبشاش، يا طائرا ، شعراء الجزائر، ج2، ص 87

خبشاش ، مشاهدات صورتها يد الخيال، النجاح، ع 820، 29/12/2، ص 03.

3- د. عبد القادر القط ، الإتجاه الوجداني، ص 350.

4- العقون، يا شعر، البصائر ، سل2، ع 230، 9 رمضان 1372 هـ ، 22/5/1953.

5- ديوان ابن رحمون ، ص 17.

مولد النبي (1) مثل المفردات السابقة : نجم، مشرق، النور، انجلى الفجر، وضيء، سنى الفجر، تفجر النور، ... الخ. وأول ارتسام نخرج به من خلال ذلك هو الحساسية الغنائية تتدفق في أشعار هؤلاء الشعراء الوجدانيين، والتفاتهم إلى الألفاظ الموحية التي تحمل في أجوائها الأثر المؤنس للقلب المتشوق إلى الأجواء المفعمة بالنور، والضياء، والحرية.

ونخلص إلى القول أن اللغة الوجدانية المنبثقة من المشاعر والأحاسيس قد بدأت تتسرب إلى القصيدة الاصلاحية في البداية على شكل ألفاظ الشكوى والأنين والتفجع والحزن على قتامة الوضع الذي تحياه الجزائر، ثم بدأ استخدام ألفاظ تقترب من عوالم الشعراء الذاتية، ومن أجواء الطبيعة ومشاهدها.

وقد تطور المعجم الاصلاحي بمفردات جديدة ذات طابع ايحائي، بعيدا عن الخطابية والتقريرية التي بقيت ممتزجة مع هذا التطور في بعض القصائد، ومال الشعراء إلى اللغة الشعرية الهامسة المرتبطة بالذات، وابتعدوا عن الخطابية المباشرة ملتفتين إلى الألفاظ الموحية التي تشع حشدا هائلا من المشاعر والأحاسيس،وأصبحت بعض القصائد والمقطوعات تسبح في هذه الأجواء المفعمة بالألفاظ الموحية، والمشحونة بطاقات تصويرية لم تكن موجودة في القصائد التقليدية.

ومن خلال ما سبق يمكننا أن نلاحظ بعض التطور في هذا المجال على الرغم من التفاوت الواضح بين الشعراء أنفسهم.

---

1 - العقون ، في ربيع الجمال شعْ ربيع النور، البصائر، سل2، ع24، 1948/2/23، ص7.

ثالثا - الصورة الشعرية

تشكل الصورة أهم عنصر في الشعر، لأنه يقوم أساسا عليها، وهي ليست بدعا فيه، أو مستحدثا جدّ على بنائه، بل هي جزء من مبنى القصيدة، تدرس مع بقية الأجزاء التي تتشكل منها.

إن أهمية الصورة تظهر بشكل جلي كأحد اللبنات الأساس للقصيدة الشعرية، ترتبط ارتباطا وثيقا بالتجربة الشعرية، وتساير انفعال الشاعر وفكرته، بعيدا عن المنطق العقلي الذي يجمدها ويحجرها، وبعيدا عن التهويمات الخيالية التي تلقي بها في مهاوي الخيال.

ويصطدم الدارس بعدة تعريفات للصورة الشعرية، تستقي في غالبها من الدراسات الأدبية الغربية، ذلك أن الاهتمام بمثل هذه الدراسات التي تركز على الصورة وليدة عهد الدراسات الغربية، ولم تكن واضحة في الدراسات النقدية العربية القديمة. (1)

ويمكن اعتبارها الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة. (2)

أو هي كما يقول أزرا باوند : «تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن.» (3)

ومهما يكن من كثرة التعريفات وتنوعها (4)، إلا أن الصورة قديمة قدم الشعر، وهي تمثل جوهرهُ، وتبرز محك قدرة الشاعر الفنية، لأن «الشاعر يفكر بالصور، والتعبير بالصورة هو لغة الشاعر التلقائية التي لايتعلمها ولايحتاج إلى الاعتذار عنها.» (5)، مما يؤدي في النهاية إلى القول : أن كل قصيدة شعرية إنما هي في ذاتها صورة، أو مجموعة من الصور الشعرية، لأن التعبير بالصورة خاصية شعرية (6)، ولكنها ليست حكرا عليه وحده.

إن الصورة باعتبارها جميع الأشكال المجازية، إنما هي وليدة عمل القوة الخالقة، ولذلك فإن الاتجاه الى دراستها يعني الاتجاه إلى روح الشعر. (7)

1 - أشار بعضها إلى المجال التصويري كالمرزوقي في حديثه عن عمود الشعر، وابن خلدون في اهتمامه بعنصر الخيال عند تعريفه للشعر، والجرجاني وتركيزه على التخيل وعنصر التصوير ... وغيرهم.

2 - د. عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني، ص 391.

3 - انظر : د. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 134 نقلا عن W. Hally (G) : Poetic process, P.76.

4 - انظر مثلا : د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 422، نقلا عن : Bernard Grasset, La presse d'aujourd'hui, P. 213.

5 - د. محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعري، دار المعارف بمصر، ط 1، 1981، ص 43.

6 - نفسه ، ص 16.

7 - د. احسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط 6، 1979، ص 238.

إن الحديث عن الصورة في الشعر الاصلاحي، يرتبط أساسا بما سبق قوله عن اللغة الشعرية، وبناء العبارة، لأنه لا يمكن الفصل بين الشكل والصورة، فالصورة والمضمون كل متكامل، والفصل بينهما فصل تعسفي، وقد يتخذ وسيلة للدراسة لاغير، لأن الصورة في بعدها تحوى كلا من الشكل والمضمون في ترابط وانسجام وامتزاج.

* * * * * * * * * * * *

خصائص الصورة الشعرية الاصلاحية

إن الصورة الشعرية الاصلاحية يمكن ادراجها ضمن نوعين من الصور : صور تقليدية، وصور وجدانية.

1 - خصائص الصور التقليدية : سنحاول التركيز على بعض الخصائص دون أن ندعي أننا سنلم بها كلها، ومن هذه الخصائص يمكن أن نذكر :

أ - التقليد لصور قديمة : إن أغلب الصور الشعرية الاصلاحية منتزعة من ثقافة الشعراء الدينية والأدبية، سواء أكانت صورا قرآنية أم صورا منبثقة عن الحديث النبوي الشريف، أم صورا إشارية من الأدب العربي القديم أم الاحيائي، وقد طغى عليها طابع التكرار الذي يقضي على روح التجديد، ويقف حائلا دون خلق صور جديدة، إذ أن الصورة الشعرية الجديدة «خلق جديد لعلاقات جديدة في طريقة جديدة من التعبير.» (1) وهو ما لم يتوفر في الشعر الاصلاحي.

وقد أفقد الصورة هذا التوهج اعتمادها على الذاكرة التي تحتزن بعض الصور والقوالب من التراث الديني والأدبي، مما وسمها بسمة الوضوح والابتذال باعتبارها صورا مطروقة، لاتثير في المتلقي أية دهشة لطابعها الذهني المجرد، ولتكرارها بنفس الأدوات وإن اختلفت الطريقة.

ومع ايماننا بأن الصورة محاولة جديدة متأصلة وليست «مجرد شكل مختزن في ذاكرة الشاعر، أو نمط من العلاقات اللغوية التقليدية التي يستدعي بعضها بعضا.» (2)، فإن الشاعر الاصلاحي قد لجأ إلى ذلك الأسلوب تحت تأثير الفترة التاريخية المعيشة آنئذ: وعيا حضاريا متشبثا بالأصالة وبالتراث، ورد فعل على من ينكر أصالة الأدب العربي، ويريد أن ينفي جاهدا كل صلة للجزائر بهذا التراث.

إن ما ننكره على هذه الصور المتناثرة في هذا الشعر ليس هو اعتمادها على الذاكرة، لأن الخيال نفسه عمل من أعمال الذاكرة. (3) وليس هو المشاركة الذهنية

1 - د. احسان عباس، فن الشعر، ص 260.

2 - د. محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، ص 28.

3 - انظر : د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس (بيروت)، ط 3، 1983، ص 31.

السابقة، بل هو كيفية الاستدعاء والتذكر، إنه النقل الحرفي للتجربة السابقة أحيانا، والتقليد الببغائي للصور السابقة دون ربطها بتجربة الشاعر الحياتية.

فصور محمد العيد مثلا مستمدة غالبيتها من البيئة الصحراوية، رغم أنه عاش في جو المدن خاصة في أوج عطائه الشعري، فإذا صوره ذات طابع صحراوي، وترتكز على التشبيه أداة لها؛ تشبيه المواقف والناس والاستعمار بصفات مطروقة للحيوانات والطيور مستمدة من هذه البيئة. (1)

لنأخذ على سبيل المثال قصيدته «استوح شعرك»، ولنستمع إليه في هذا المقطع الذي يقول فيه :

والقوم كالأسد الروابض جثم	من حولهم أو كالنسور الوقع
قل للجزائر وهي أم مرضع	مثل اللبوة أي أم مرضع !!
أبناؤك الأشبال فيك تزاوروا	وتزاءروا في الغيل منك بمسمع
إن الجزائر مرتع معشوشب	مغدودق ما مثله من مرتع
قل للنزيل بها سلام طيب	متضوع كأريجها المتضوع. (2)

فعلى الرغم من أن الموضوع يتعلق بوصف اجتماع لجميعة العلماء، إلا أن الشاعر راح يتنفس في جو صحراوي، فلم يجد أفضل من تشبيه العلماء بالأسود والأشبال والنسور الوقع، وراح يصف الجزائر باللبوة، وهي تشبيهات تستدعي في ذهن المتلقي الشجاعة والجرأة والاقدام، وتقع على النقيض من التشبيهات التي يستخدمها في تجسيد معاني الخسة والنذالة والظلم التي اتصف بها الاستعمار، وقد استحضر لها الشاعر صور الذئب والغراب والثعلب في غير هذه الأبيات. (3) ويستخدم الشاعر دوما في هذه الصور البلاغية القائمة على التشبيه والاستعارة في غالبها، أدوات التشبيه المعروفة : الكاف، كأن، مثل، ... الخ (4)، ويرى الناقد عبد القادر القط في دراسته للاتجاه التقليدي في الشعر العربي، أن هذه التشبيهات كثيرا ما تضعف «قدرة الشاعر على الابتكار، أو رغبته فيه، أو تصيب صوره وعباراته المبتكرة بشيء من الاختلاط والاضطراب.» (5)

إن صورا مثل هذا النوع الذي رأيناه عند محمد العيد، تعتبر صورا مستهلكة

1 – انظر . ديوان محمد العيد، صفحات : 71، 90، 100، 143 ، 146، 175، 177، 190 ، 215 ، 219 ، 221، 289، 290، 316، 329، 337 ... الخ.

2 – الديوان، ص 143.

3 – ينظر الديوان ص : 90 ، 100، 177، 289، 316، 329، على سبيل المثال لا الحصر.

4 – انظر مثلا قصيدته : تحية العلماء، الديوان ص 247، 248، ففيها استخدامات كثيرة لهذه الأدوات.

5 – الاتجاه الوجداني ، ص 393.

مبتذلة مطروقة عند الناس لأن الشاعر آثر فيها استعمال أدوات التشبيه كأدوات ربط تساعد على تقريب الصورة إلى ذهن المتلقي، (1) كما آثر فيها الوضوح بالتعبير المجرد الذي يخضع لسيطرة المضمون العقلي، لا للخيال المجنح، وبالتالي فهو يمتع العقل أكثر مما يمتع الخيال.

إن الشاعر الاصلاحي في المرحلة التقليدية - شأنه شأن الشعر الاحيائي العربي - لايحفل غالبا بالمجاز، وضروب التزويق، وأنما يعمل على النفاذ إلى قلوب السامعين ليوصل إليهم رسالته الاصلاحية على أية صورة كانت وفي أي ثوب يكون، (2) باعتبار الصور (ثوبا) وشكلا خارجيا لتمرير المضمون الاصلاحي، حتى ولو كان هذا الثوب جاهزا سلفا، مستمدا من بيئة غير بيئة الشاعر، «فالشاعر لايعني نفسه في صورة وخيال، فضلا على أن يجد في غموض لذاذة، بل يعني نفسه غالبا - ليكون خطيبا مفصحا، يتحدث إلى سامعين، ويحفل بمطالب المتعة الجماعية، كان التعبير المجرد أمرا سائغا في حدود الوظيفة التي ينهض بها الشاعر.» (3)

وقد تولد عن التقليد ظاهرة التضمين التي تؤدي إلى استعارة تجربة الآخرين، والاقتباس من المخزون التراثي لمجرد الرغبة في مجاراة الآخرين في أغراضهم ومحاكاتهم في طرائق تعبيرهم والتفوق عليهم في هذه الأغراض والأساليب.» (4)

وقد يسمو التضمين إلى اثارة الدلالات والصور، مرتبطا بالنسيج الكلي للعمل الشعري، وقد يكون في بعض الأحيان «مظنة انزلاق إلى هوة التقليد والاتباع» (5) وهو ما وجدناه في الشعر الاصلاحي، وينطبق هذا كله على ظاهرة الاقتباس أيضا. (6)

ب - <u>استقلالية الصور وتفككها</u> : ليست الصورة التقليدية نسيجا موحدا، بل هي عبارة عن خيوط متوازية قد لا تصل في كثير من الأحيان إلى تشكيل انطباع في ذهن السامع عن صورة معينة، وتأثير موحد للقصيدة، ذلك أن وحدة البيت في القصيدة التقليدية تمنع من بلوغ ذلك التأثير المرجو.بمعنى أن الشاعر الاصلاحي - تبعا لتعدد الموضوعات التي يتطرق إليها في قصيدته - يستغل بعض الصور للتأثير في النفوس، وتمكين

---

1 - ولم تكن الصورة التشبيه حكرا على الاتجاه التقليدي، بل كان شاعرا وجدانيا مثل جلواح يتنفس في أجواء هذه الأدوات، من ذلك أنه في ديوانه «دخان البأس» الذي يضم ألفين وأربعمائة وخمسين أبيات، استعمل «الكاف» مائة وخمس مرات، كما استعمل غيرها من أدوات التشبيه لتقريب الصورة إلى ذهن المتلقي، ينظر : رابح دوب، مبارك جلواح، ص 94 بتصرف.

2 - د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، 190.

3 - نفسه ، ص 191/190.

4 - محمد مصطفى الغماري، الصورة الشعرية في شعر شوقي، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الآداب، جامعة الجزائر 1984، ص 166.

5 - م. س. ص 166.

6 - انظر على سبيل المثال : - مفدي زكرياء، لك الحياة - الاسلام يتكلم ، شعراء الجزائر، ج 1، ص 153/152.
- حمود ، اليك أيها الرجل العظيم ، وادي ميزاب ، ع 9، 26/11/26.
- العقبي ، قصيدة نونية ، سعراء الجزائر ، ج 2، ص 132 ... الخ.

المعنى في ذهن القارئ أو السامع، لكنها صور ليست مترابطة في أغلبها، بل هي أجزاء متناثرة ومتمايزة، لايمكن في نهاية القصيدة ادراكها ادراكا كليا، أو تجسيدها في صورة موحدة شاملة.

إن أغلب الصور الاصلاحية عند أبي اليقظان ومحمد العيد، ومحمد الهادي السنوسي، وغيرهم هي صور جزئية ومفككة لاتتعلق بموضوع القصيدة كاملا، فتنمو نموا عضويا، بل تتجزأ وتتفكك باعتبار أن السيطرة في القصيدة لوحدة البيت لا للوحدة العضوية. وقد جنت هذه الوحدة على الشعر الاصلاحي أن جعلت صوره تتحرك في حدود معلومة من جمال شكلي، وليست متصلة مع غيرها لتشكل مع الصور المتلاحقة صورة كلية.

والأمثلة في هذا المجال أكثر من أن تحصى، فأغلب القصائد الاصلاحية الطويلة تنحو هذا المنحى؛ من ذلك على سبيل المثال قصيدة السعيد الزاهري "ليتني ما قرأت حرفا" شملت جملة من الصور للعالم المحروم، وللجاهل المهيمن، وللأمة الشقية، وللصوفي المبجل، وللمصلح المهمش. وحين نقرأ قوله في وصف الجهول الأثيم :

هو في الجهل كالحمار ولكن　　　هو في المكر كالمريد الرجيم

يسمع الحق واضحا مستبينا　　　فيعيه وعي العتل الزنيم (1)

يتضح لنا في البيت الأول صورة هذا الجاهل في شكل حمار ينم عن بلادة الفهم، وفي شكل مريد رجيم ينم عن المكر والاحتيال، وفي البيت الثاني تتجسد لنا صورة ثالثة مستمدة من القرآن الكريم (2) في وصف الهمازين المشائين بالنميمة والغيبة، وتستحضر كل هذه الصور جو السخط وعدم الرضى والمقت والكراهية لهذا النوع من الناس، وهي صور سطحية مباشرة مفككة لاتنمو نموا عضويا في القصيدة.

جـ - الطابع الايضاحي للصور : إن وظيفة الشاعر الاصلاحية، قد قضت على التعمق عنده، وحولته إلى خطيب أحيانا، وفي مضمون سطحي، يؤدي إلى استغلال صور لايضاح هذا المضمون، وتأكيد ما سبقه وتقريره، فالصور تكاد تكون منفصلة عن الفكرة، مضافة إليها، غير مرتبطة ببنية العمل، وغير ملتحمة به أو مترابطة بعناصره الأخرى، فحين يقول حمود في وصف الصحافة : (3)

1 - انظر : الشهاب، ج 1، مج 7، رمضان 1349هـ ، فيفري 1931، ص 24.

2 - انظر الآيات من 10 - 13، سورة القلم.

3 - انظر : اليك أيها الرجل العظيم، وادي ميزاب ، ع 9، 1926/11/26، ص 03.

إن الصحافة نور للبلاد إذا ... سارت موفقة في أحسن السبل

هي الفؤاد لشعب قد غدا سكنا ... هي الحسام طويل الحول والحيل

هي اللسان لها حكم وسيطرة ... هي الرسول لذي الأجناس والدول

هي الطبيب يداوي من به مرض ... من الجهالة، أو ميل إلى الزلل

تهذب القوم، للاصلاح ترشدهم ... وتدفع الجور، كالارهاق والختل.

فالصور السابقة للصحافة، صور متتابعة وعديدة، إلا أنها صور ايضاحية لم تدهشنا بجديتها وعفويتها، بل نزلت علينا جافة مبتذلة، لأنها اعتمدت على صور واقعية لاتعني برسم المشهد من خلال التجربة الشعرية، بل تعتمد الاشارة القريبة السطحية، مما طبع مثل هذا الشعر بالمباشرة الصارخة، وبالوضوح وقرب المأخذ، وهذا شأن شعر المناسبات بشكل عام.

وحين يقول محمد العيد في «يا معشر الطلاب».

فالقلب مثل الأرض أو كناسها ... والوعظ مثل القطر أو كغمامه (1)...

لاتهملوا هذا اللسان ففقدكم ... في فقده ودوامكم بدوامه

فكأنما هو عقد در فائق ... رصفا وعلم النحو سلك نظامه. (2)

فتشبيه القلب مثل الأرض أو أناسها، وتشبيه الوعظ بالقطر أو غمامه، وتشبيه اللغة بعقد الدر، تشبيهات حسية مأخوذة من الطبيعة، باعتبارها صورا جاهزة دخلت بوصفها وحدات قائمة بنفسها، ولم تدخل عن طريق التداعي، بل جلبت من الخارج، واستعملت لغرض التاثير، وترجمة الفكرة وتوضيحها.

إن مثل هذه الصور الايضاحية التفسيرية تنتشل المعنى من تدفقه وتسطحه، وتحيله إلى ظلال من الصور الباهتة التي لا أثر فيها للايحاء أو الرمز، ولا تعتبر بالتالي جزءا ناميا من البناء العام للقصيدة، يتماشى مع الاحساس العام لجوها؛ مما يحدث خلخلة في الجو النفسي للقصيدة.

ولعلنا لا ننتقد الشاعر في استخدامه مثل هذه الصور الطبيعية التي ترتبط

1، 2 - الديوان، ص 89، 91 على التوالي.

ببئته الخارجية، لأنه يختار ما يرتبط بنفسه من الأشياء أو ما كان مترسبا في لاشعوره، سواء من تجربته في الحياة، أو من خلال قراءاته للتراث الشعري.

لكننا نؤكد أن الشاعر ينبغي أن يسعى إلى ادهاشنا بصور شعرية جديدة، مرتبطة بتجربته الشعورية، غير نابية عن جو القصيدة، لأن الصورة الشعرية الناجحة هي التي يسعى الشاعر لأن يكون فيها دمه،. ونبضه، وبصماته، وبذلك تكون كشفا لشيء جديد، وليست مزيدا لمعرفة المعروف». (1)

إن الصور الايضاحية خاضعة بالدرجة الأولى إلى سيطرة المضمون العقلي، وتستغل اطارا لتوضيح فكرة ما، أو الوصول إلى حقيقة معينة، فتخلو من الايحاء، وتتسم بالتصريح بدل التلميح. (2)

د - حسية الصورة : إنها تلك التي تصف الأشياء وصفا حسيا خارجيا من حيث لونه، شكله، حجمه، وتؤكد التعامل الظاهري مع التجربة أو الموقف، فحين يقول حمود من «جمال الكون وبدائعه» (3)

انظر إلى قمر السماء متلألئا	فكأنه تـاج من التيجـــان
أو قبـــة من لؤلؤ قد أنشئت	من كيس قارون، ومن دهقـان
أو روضة بين الجبال، غديرها	مازال يشفي غلـة الظمـــآن
والقبة الزرقـاء تحسب أنهـا	بحـــر خضم واســع الأركـان
فيها النجوم تفتقت أكمامهـا	كالورد أو كالزهر في البستان
فكأنها والليل مقلـــة نـــاقم	مملوءة حنقـا على الانســـان

نجد الأبيات السابقة تقف عند السطح الخارجي للشيء المرئي، فهي صور ناتجة عن رؤية بصرية للشيء، (تكرار كلمة انظر ثلاث مرات في القصيدة)، ولم تكن تفكيرا حسيا موغلا في صميم الأشياء، أي أنها نقل أمين لصورة الشيء كما تقع عليه الحواس، مما يطبع الصورة بطابع الجمود، وعدم الاثارة، ولا يتغلغل بها الشاعر إلى الحركة الداخلية.

إن أبيات حمود تتجلى فيها الحسية واضحة،«وتفصح عن رغبة الشاعر في أن يستقصي بنظرته كل مظاهر الطبيعة.» (4).

---

1 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 432.

2 - انظر للاستزادة على سبيل المثال : محمد العيد، الاشادة بكتاب نهضة الأدب في ميزان أشعار العرب، الاصلاح، س 03، ع 13، 1930/2/27، ص 03.

3 - وادي ميزاب، ع 88، 3 محرم 1347 هـ ، 1928/6/22، ص 03.

4 - د. ناصر، م. س، ص 447.

واستمر مثل هذا الأسلوب حتى الأربعينيات، فابن رحمون يقول عن «فجيعة الشرق» في مرثية بطل العروبة والاسلام، شكيب أرسلان :

يذكر الليث غاضبا فنرى شخصك يختال في اسمه وصفاته

ونرى الغيث مغدقا فضلك يزهى بمزنه ونباته

ونرى البدر بازغا فنرى سعيك يختال في جمال آياته

ونرى الطود راسيا فنرى مبدأ الحق ماثلا في ثباته (1)

فالأبيات حشد لصور متتابعة ذات طابع حسي، وهي انعكاس لواقع خارجي، وأداة لتجسيد شعور، مما كان لها أثرها السلبي في تشكيل القصيدة، ولم تتحول مثل هذه الصورة عند الشاعر إلى تفكير بالصور، فهو وإن تعامل مع الطبيعة باعتباره شاعرا وجدانيا إلا أنه لا يتابع حركة الحياة، فيتنوع احساسه بل يجهد نفسه في رسم صور شكلية مفعمة بذكر التشبيهات الضرورية وغير الضرورية، ناقلا عن الطبيعة صورا وصفية عن مشاهدها (الغيث، البدر، الطود ... الخ)، دون أن يتأمل ذلك ويندمج فيه، ويسبر أغواره. فالحسية لاتعني الجمود والاكتفاء بحدود الحواس الظاهرة - انظر كيف كرر فعل نرى سبع مرات في أربع أبيات - بل ينبغي أن ترتبط بالشعور والوجدان، بمعنى آخر ينبغي ألا تلغي دور العاطفة والانفعال في تكييفها حتى لا تتحول القصيدة إلى شكل بدون روح، أو إلى نظم عادي لا يرقى إلى مستوى الفن الشعري.

ك - عقلانية الصورة : إن الصور الشعرية التقليدية قد طغى فيها جانب التفكير على التصوير والشعور، ومن مظاهر ذلك اللجوء إلى الحكمة عند ما يستنفذ الشاعر ما لديه من جوانب الشعور.

والحكمة في القصائد الاصلاحية لاتنبع من نظرة خاصة، أو موقف معين، أو دلالة ما، ولكنها في الغالب حكما معروفة لدى الناس، وشائعة مضامينها بينهم. ويعتمد الشاعر في ابرازها على مخزونه الثقافي عن شعراء الحكمة في العصور الأدبية العربية.

إن الحكمة خلاصة تجربة، قد ترتبط بأحاسيس الشاعر وبذاتيته، وهي غالبا ما يحشرها الشاعر حشرا في ثنايا القصيدة دون أن تحمل خصوصية فنية معينة.

---

1 - الديوان، ص 61/60.

وقد كثرت الحكمة في شعر العيد (1) وسحنون (2) وغيرهما نتيجة لتقليد القدماء، وجريا وراء فكرة هادفة أوبيت مفرد يتناقله الناس أو يتعظون به، وفتحا للأذهان لتأمل واقع معين. (3)

وهنالك قصائد برمتها خصصت للحكمة مثل قصيدة :«الشكر للنعمى يوفرها» (4) للزاهري، و«التذكير والاعتبار» (5) للطيب العقبي، و«ايراد وتصدير» (6) لمحمد العيد، و«مالي وللأذى» (7) له أيضا، وغيرها.. مما يطبع بعض القصائد الاصلاحية بهذه السمة التي تقل بشكل واضح في القصائد الوجدانية.

وأخيرا يبدولنا أن الشاعر كان واعيا بمنهجه الذي اختاره لادراكه أن لكل بيئة وسائلها الفنية الملائمة لأهدافها، ولذلك فإن خسر الفن أحيانا فإنه لم يخسر الرسالة الاصلاحية نحو المجتمع، ولذلك فإن الناقد الذي يحكم على هذا الشعر ينبغي أن ينطلق من هذا الواقع الاجتماعي الذي فرض على الشاعر الاعتماد على صور قريبة المأخذ.

وبعد هذه الخصائص وغيرها مما لم نذكر تتجلى لنا عدة عوامل ساهمت في تشكيل الصورة على هذا الأساس ومنها :

1 - إن اللغة الشعرية الاصلاحية : المتسمة أحيانا بالجفاف والقاموسية، والخلو من عنصر التصوير والايحاء، تجعلنا نؤكد أنها تؤثر على وجود الصورة وبروزها، وتسم الشعر الاصلاحي بضعف عنصر التصوير فيه.

2 - تأثير الطابع التقليدي لعمود الشعر كما حدده الأقدمون والذي لايخرج عن تعريف المرزوقي؛ اصابة في الوصف، ومقاربة في التشبيه، ومناسبة المستعار منه للمستعار له.

3 - الوظيفة الاصلاحية للشعر، حيث طغت النظرة الموضوعية تدفعها الظروف المختلفة في تسخير الشعر لغاية الاصلاح فكان الاهتمام بالجوانب الموضوعية يسيطر على الشعراء أكثر من اهتمامهم بالجوانب الفنية.

4 - افتقاد حركة نقدية : تساهم في بلورة اتجاه أدبي يمد هؤلاء الشعراء بفيض من الآراء النقدية عن الصورة وغيرها، لان النصوص النقدية آنذاك كانت تسهم في بلورة

---

1 - انظر في ديوانه الصفحات التالية ; 30، 67، 98، 121، 139، 143، 146، 147، 155، 164، 180، 253، 261، 264 ... الخ.

2 - انظر في ديوانه الصفحات التالية ; 13، 14، 22، 26، 108، 117، 118، 187 ... الخ.

3 - انظر : د. الركيبي ، الشعر الديني، ص 702/703.

4 - شعراء الجزائر، ج 2، ص 22/23.

5 - الاصلاح، س 3، ع 7، 6 جمادى الثانية 1348هـ ، 7/11/29، ص 03.

6 - الديوان، ص 361.

7 - م.ن، ص 372.

اتجاه يعتمد المضمون الاصلاحي أساسا له، ويهتم بالجانب اللغوي والعروضي في القصيدة الشعرية دون غيره.

5 – أثر الثقافات التقليدية للشعراء : وعدم اطلاعهم على الدراسات الأجنبية في هذا المجال، وهي الدراسات التي شكلت أساسا لمثل هذا النوع من الموضوعات.

6 – أثر البيئة الصحراوية، والطبيعة الجغرافية في الصورة الشعرية عند شعراء الاصلاح، «صورهم أشبه بنفوسهم الواضحة البسيطة، التي تكره الغموض، والالتواء والتعقيد.» (1).

7 – دور الوظيفة لاجتماعية : في ضعف التصوير، فالشعراء كان أغلبهم معلمين، ووعاظا، ومرشدين، وخطباء، يصلحون بالكلمة ما فسد من أمور الدين، «وهي كلها وظائف تسجن الخيال وتحاصره، وتحد من انطلاقه وابداعه.» (2)، وتحيل الشاعر إلى مجاهد يستل سيف المضمون، ولا يهتم بالجانب الفني إلا قليلا.

إن هذه الوظيفة قد كانت لها عدة تأثيرات بالاضافة إلى ما سبقت الاشارة إليه، فقد كيفت الصور ووجهت الشعراء إلى مخاطبين، وسطحت المضمون، وقضت على التعمق لأن المقام يقتضي اجمالا « أن تكون الصور ذات طابع ايضاحي تؤكد ما سبقها وتقرره.» (3)، والتمست معان تلبس أثوابا من التصوير ...

8 – عدم استغلال القدرة التعبيرية للصورة الشعرية للميل إلى التقليد، والخوف من الاقتراب من العوالم الشعرية غير المألوفة. ذلك أن النظرة إلى التجديد كانت ترتبط بالتجديد الغربي الذي كانت الحركة الاصلاحية تعتبره تهديدا للتراث الأدبي العربي.

* * * * *

مصادر الصورة الشعرية التقليدية

يعتمد الشاعر في تأليف صوره على الخيال الذي هو «ذاك الالهام الذي يعتبر نضجا مفاجئا غير متوقع لكل ما قام به الشاعر من قراءات ومشاهدات وتأملات، أو لما عاناه من تحصيل وتفكير.» (4)

1 – د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 467.
2 – م. ن ، ص 469.
3 – د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، 243.
4 – د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، 12.

وبناء على هذا القول فإن قراءات الشعراء الاصلاحيين لم تخرج عن اطار الثقافة السلفية ذات المصادر المعروفة: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والأدب العربي القديم، والتاريخ الاسلامي ...

أ - فكان القرآن الكريم معينا لا ينضب للثقافة والتربية والتوجيه،استغله الشعراء الاصلاحيون لغة،وتصويرا، فبرز هذا التأثر واضحا عند محمد العيد، وأبي اليقظان، ومفدي زكرياء، وإن لم يظهر بالقدر نفسه عند الشعراء الوجدانيين : أحمد سحنون، العقون، بوشامة ...

وكان محمد العيد مثلا شديد الارتباط بالقرآن الكريم، يستلهم منه اللغة والتصوير، ويستمد منه المعاني، «ولا يعترف بسوى «كتاب الله» مصدرا يستمد منه المعرفة ويستوحي منه أغراضه الشعرية وقوته الروحي» (1)، وذلك في قوله من مقطوعة : «يقولون .. فقلت» :

يقولون هل نقبت في الكتب باحثا	فقلت لهم لم أقف آثـــار كاتب
وعفت، فلم أشرب من الكاس فضلة	يزاحمني في رشفها ألف شارب
ومن كان للأسفار في العلم راغبــا	فإني للأسفـــار لست بـــراغب
فحولي (كتب الله) من كل شـــارق	تزودني علما، ومن كل غـــارب
غنيت بهـــا عن كل درس معـــذب	وعن كل بحث في المراجع ناصب. (2)

ومحمد العيد يعني بكتب الله هنا، كتاب الطبيعة المفتوح، أو هو الكون الفسيح المترامي الأطراف الذي يبرز عظمة الخالق سبحانه وتعالى، والذي بثت عظمته من خلال أيات القرآن الكريم.

إن الأثر القرآني بارز في شعر محمد العيد، ولا تكاد تخلو قصيدة من هذا التأثير، الذي استغله تعبيرا وتصويرا.

ولسنا هنا في مقام استعراض الصور المستمدة من القرآن، بل يمكن الرجوع إلى بعض المراجع التي تطرقت إلى هذا الموضوع باسهاب. (3)، وانما نحن في مقام الاشارة إلي الاستفادة من هذا المصدر الواسع الثراء، الذي كان ينبوع الهام للشعراء: استيحاء

---

1 - د. أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ، ص 92.

2 - البصائر، ع 101، 24 ذح 1356هـ ، 1938/2/25، ص 7.

3 - انظر مثلا : - د. ناصر، مفدي زكرياء ، شاعر النضال والثورة، الفصل الخامس بشعره وعلاقته بالتراث.
- محمد ناصر بو حجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، المطبعة العربية، غرداية، 1992.
- شلتاغ عبود شراد ، أثر القرآن في شعر محمد العيد، مجلة الأصالة، ع 61/60، أوت، سبتمبر 78.
- ابن سمينة، محمد العيد ، شعره الاسلامي ...

للمعاني والأساليب، واستمدادا للصور المؤثرة في وجدانات المتلقين المرتبطة أيما ارتباط بالعاطفة الدينية.

فنجد على سبيل المثال بعض الصور تستخدم مفردة أو جملة قرآنية وتوظفها في سياق المعنى (1)، أو تستمد صورا متعددة مستقاة من احدى السور القرآنية (2)، أو تستوحي من المشاهد، والقصص القرآنية، كاستيحاء قصة سيدنا موسى (3)، وسيدنا يوسف (4)، وغيرهما، أو توظف بعض الرموز الدينية لما تتصف به من صفات معينة يمكن أن تكون قدوة للأجيال الحاضرة، فهي عند سيدنا موسى ثبات على الحق وجرأة في المجابهة، وهي عند سيدنا يوسف نموذج للعفة والطهارة، وهي عند سيدنا ابراهيم الخليل مثال للفداء والتضحية. (5)

هل يمكن الادعاء أن لجوء الشاعر إلى الاستمداد من مثل هذا المصدر تقليل من قدرته الفنية (6) ؟، لانظن ذلك لأن الدافع لم يكن يرتكز على مجرد «حدود الرغبة في المحاكاة والافادة الحرفية من النصوص القرآنية دونما مطمع آخر (7).»، إذ أن الشاعر الاصلاحي كان يهدف إلى «أن يثير في نفوس جمهوره بعض ما توحي به صور القرآن ورموزه من أجواء نفسيه» (8)، تربط صلتهم بماضيهم وتقدم لهم الأسوة الحسنة للاقتداء بسلوك الأنبياء والرسل والصحابة، ومحاولة تغيير الواقع الآسن كما غيرته هذه النماذج في عهودها، ومع قوم طغاة لايقلون ضراوة عن الاستعمار الفرنسي.

ويظهر لنا كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين في الحكم على شعر محمد العيد، أن شعراء الاصلاح لم يفيدوا افادة كبيرة من الطاقات التعبيرية والشحنات التصويرية للقرآن، نظرا لعوامل البيئة، والمنهج الفني، والغرض الاصلاحي للشعر (9).

ب - <u>التأثر بالحديث النبوي الشريف</u> : شكل الحديث النبوي الشريف منبعا ثريا لاستلهام الشعراء والاستفادة ببيانه الفصيح، وصوره التعبيرية الأخاذة، إلا أن هذه الاستفادة لم تكن ذات بال، نظرا لسيطرة الروح القرآني على الشعراء، وقلة الاهتمام بالحديث النبوي في البيئات الثقافية آنذاك مقارنة مع القرآن الكريم.

1 - انظر مثلا ديوان محمد العيد، ص 384 (البيت السادس)، والآيات 38 - 40 من سورة الذاريات.
والديوان، ص 86، (البيت ما قبل الأخير)، مع سورة الفيل.
2 - ومنها على سبيل المثال : استمداد أجواء سورة (الزلزالة) في زلزال الأصنام، انظر : اللهب، 273، وديوان العيدد، 72/68.
3 - التي تكررت في شعر مفدي في أكثر من ثلاثين موضعا، انظر : اللهب المقدس، 300، 306، 344 ... الخ، وتحت ظلال الزيتون، 80.
4 - تكررت قصته كثيرا في شعر محمد العيد، انظر الديوان، ص 393/392، 11، 22، 250، 432، 502.
5 - انظر : د. ناصر، مفدي زكرياء، شاعر النضال والثورة، ص 85، 86.
وانظر بعض النماذج والرمز الأخرى في ديوان محمد العيد : ابراهيم (434)، نوح (432)، عاد وثمود (432) سليمان والهدهد (423)، موسى (217)، عيسى (502)، يونس (425) ... الخ.
6 - انظر : د، أحمد شرفي، الشعر الوطني الجزائري، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1978، 1979.
7، 8 - انظر : ابن سمينة، محمد العيد، شعره الاسلامي، ص 430/429.
09 - م. ن، ص 430.

وأكثر ما كان الشعراء يستلهمونه هو أحاديث الوحدة والاعتصام بحبل الله للوقوف في وجه الاستعمار، فكان حديث رسول الله (ص) : عن أبي موسى (رض)، قال : قال رسول الله (ص) : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه.» (1) متفق عليه، والحديث : عن النعمان بن بشير (رضي) قال : قال رسول الله (ص) : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.» (2) متفق عليه.

كان الحديثان مجالا لعدة استخدامات وصور اشارية في الشعر الاصلاحي، من ذلك يقول حمود (3) :

فإن بنينا فلذة من قلوبنا   إذا ما شكى بعض تداعى له الند.

ويشير الشاعر «حسن بو لحبال» إلي الحديث الثاني اشارة واضحة نصا وروحا في قوله (4) :

أما جـاء أن المؤمـنين ودادهم   ورحمتهم والعطف جسم مجسم

إذا ما اشتكى عضو تداعى جميعه   ويصهر بـاقيه بضر ويـحمم

والحديث نفسه تضمنه البيت الثاني لعيد الكريم العقون في قوله عن أواصر المودة بين الاخوة العرب :

كذا العرب جسم واحد إن يذق أذى   تداعت له الأعضاء بالسهد والضر. (5)

وهناك أحاديث كثيرة غير هذين الحديثين؛ من ذلك أن محمد العيد يقف من الوحدة العربية موقفا واضحا؛ تأييدا ومساندة، ويبررها بقوله (6) :

والشاة للذئب سهم   إن فرطت في القطيع

وهو الموقف نفسه الذي يستلهمه مفدي زكرياء في قوله (7) :

(محمد) أبقى لنا عبرة   من الذئب والغنم القاصية

والبيتان استيحاء من قوله (ص) ... فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم

---

1 – د. صبحي الصالح ، منهل الواردين ، دار العلم للملايين، د. ت ، ج 1، ص 204.

2 – نفسه ، ص 205/204.

3 – د. ناصر ، رمضان حمود، ص 191، نقلا عن (الفتى)، ص 12.

4 – الرشاد ، ع 42، 1939.

5 – البصائر ، سل 2، ع 7، 4 ذي القعدة 1366هـ ، 1947/9/19، ص 06.

6 – الديوان ، ص 175. (1939).

7 – اللهب المقدس ، ص 349، (1961).

القاصية (1)» وهي دعوة إلى الاتحاد، ونبذ التفرقة، والوقوف صفا واحدا في وجه أعداء الأمة.

جـ - التأثر بالأدب العربي : ارتبط الشعراء الاصلاحيون بتراثهم الأدبي، فكان شعرهم انبثاقا من الماضي، وتجذرا بالحاضر، وتعلقا بالمستقبل، لأن «حركة الابداع واحدة في كل زمان ومكان ومن رحم واحد» (2)، وقد كان هؤلاء الشعراء يدعون دوما إلى التشبث بهذا التراث، وتشربه حتى تتمكن منه النفوس، فتنطلق من أرضية صلبة، وفي هذا الصدد يقول محمد الهادي السنوسي داعيا إلى استقصاء منظوم ومنثور هذا الأدب حتى نترقى في أساليبنا العربية : "فهلا رجعنا إلى أشعارهم الخالدة لنأخذ منها زادا لأقلامنا، منه عند الحاجة اليه، فترقي برقي لغتنا الخالدة، لغة الضمير والطبيعة الساحرة، لغة عدنان وقحطان، لغة عبد الحميد الكاتب، وابن العميد، ولغة الجاحظ والحريري، لغة البحتري، وأبي تمام والمتنبي» (3)

إن هذا التأثر قد جعل الشاعر الاصلاحي أقرب إلى هذا الشعر من الروح الشعرية المعاصرة، مما وسم شعره بالجزالة والقوة والمتانة، وربط صوره الشعرية بصور قديمة. (4)

ولهذا فإن الاشارات الأدبية التي نجدها مبثوثة في الشعر الاصلاحي لا تخرج عن اطار الشعر الجاهلي، أو الأموي، أو العباسي، أو الشعر الاحيائي، كما عرف عند شوقي وحافظ والرصافي.

وقد استغل الشعراء ما يعرف بالصورة الاشارية كأن يورد الشاعر سطرا أو مقطعا لشاعر سابق بين ثنايا قصيدته، أو يستخدم لغته وايقاعه في تضاعيف لغته وايقاعه ... فالشاعر عندما يستخدم ذلك يريد أن يحضر إلى الأذهان مضمون العمل السابق أو روحه أو موقفه، ويريدُ في الوقت نفسه أن يقيم بينه وبين صاحب النص - الشاعر القديم - حوارا أو حديثا متبادلا. (5)

فهناك قصائد كثيرة للشاعر حمود تسبح في أجواء قصائد قديمة، بل وتستخدم

---

1 - د. صبحي الصالح ، م. س، ج 2، ص 630/629.

2 - د. عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، لبنان، ط 1، 1980، ص 65.

3 - انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، هامش رقم 1، ص 128.

4 - انظر موقف الابراهيمي وهو يقدم محمد العيد في افتتاح مدرسة بسكرة حين قال يفتخر بانتماء شعره إلى العصور الأدبية المختلفة « ولعلكم في هذا المجلس سترتفعون بالذكريات إلى الماضي المجيد، حين تسمعون من الشعر ما يمثل لكم زهيرا والنابغة في الأولين، وأبا العتاهية والمتنبي في المحدثين ...» انظر مقدمة قصيدة (إلى العلم)، الديوان، ص 202 (1954).

5 - انظر : د. نعيم اليافي، الصورة الاشارية في القصيدة الشعرية، الشعب الأسبوعي، ع 36، مارس 1976، ص 18.

ايقاعاتها وموسيقاها، وتقترب من لغتها، فبعضها متأثر بلامية الطغرائي (1)، أوبعينيه لقيط بن يعمر الايادي (2)، أو ببائية أبي تمام (3).

وكانت هذه (البائية) مثارا لاستلهام بعض القصائد، وخاصة عند مفدي زكرياء (4)، وصالح خرفي (5).

وحين يقف مفدي زكرياء موقف الاستنكار من قوم (لندن) الأبالسة لم يجد أفضل من هذا البيت :

ما أنت بالحكم الترضي حكومته   أعد به نظرا قد كان مقتضبا (6).

وفي البيت صورة اشارية مأخوذة بنصّها عن بيت للفرزدق، يقول فيه هاجيا رجلا من بني عذرة :

ما أنت بالحكم الترضي حكومته   ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل.

وحين حاول التعبير عن حالة اليأس والاحباط من الوضع، ومن سلوك الناس قال :

وكرهني في الناس غدر وخدعة   وزور وتمويه، وظلم ذوي القربى (7).

والبيت كما يلاحظ الدارس استلهام لبيت قديم، للشاعر طرفة بن العبد، يقول في الموقف نفسه :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند (8).

وبشأن الوعود التي لا تتحقق من المستعمر، أما لكونها سرابية، أو لأن ارادة الشعب تعمل على اجهاضها نجد شاعرين مثل : محمد العيد، ومفدي، يستلهمان بيت جرير الذي يقول فيه :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يا مربع

يتخذه الأول وسيلة للرد على الوعود الاستعمارية حين يقول :

1 - ومطلعها : أصالة الرأي صانتني عن الخطل، وقد عارضها الشاعر بقصيدة : الرجل بنفسه، شعراء الجزائر، ج 1، ص17، وبقصيدة ثانية : اليك أيها الرجل العظيم .... وادي ميزاب، ع 9، 26/11/26.

2 - التي مطلعها : أبلغ إيادا وحلل في سراتهم   إني أرى الرأي - إن لم أعص - قد نصعا.، وذلك في قصيدته « أيها الناس اسمعوا وعوا » ، وادي ميزاب، ع 11، 26/12/10.

3 - والتي مطلعها : الله أكبر كم في الفتح من عجب، عارضها الشاعر بقصيدة من نفس روحها وإن اختلف رويها، فكان (عينا) انظر ، الله أكبر نجم العرب قد سطعا، وادي ميزاب، ع 89، 1928/6/29.

4 - انظر : وتعطلت لغة الكلام، (1957)، اللهب المقدس، ص 43.

5 - انظر : أنت ليلاي، ش. و. ن. ت الجزائر 1974، ص 64.

6 - انظر : ته يا عمان بنصر الله ، وادي ميزاب، ع 12، 1926/12/17.

7 - انظر : دموع وألام وخواطر، الشهاب، ع 57، 1926/9/20.

8 - انظر : شرح المعلقات للزوزني، دار بيروت، 1980، ص 65.

وبشر أخا يخشى الوعيد بمابه علمنا (جريرا) قبل بشر (مربعا» (1).

ويتخذه الثاني أداة للاستهزاء بوعيد الاستعمار :

فابشرن بالسلامة الدهر (ياوا دي) ميزاب الفتى وصل في النوادي (2).

وفي مجال الإستهزاء والسخرية المريرة بالمستعمر، وتصويره بصورة منبثقة من التاريخ الأدبي العربي نجد شاعرا مثل خبشاش يستحضر بيتا من القصيدة الفاضحة -كما سمتها العرب - لجرير، والتي هجا فيها الفرزدق وقبيلته بني نمير، فإذا الأرض الجزائرية أرضا يعيث فيها بنو نمير فسادا مع ما يرتبط في ذهن المتلقي من أوصاف ذميمة لهذه القبيلة من وحي القصيدة السابقة، يقول الشاعر :

ومن سوء الحظوظ أنْ اجتمعنا ولم أقدر أشاكيك الأنينا

لأن الأرض أرض بني نمير وتلك قبيلة عنها رضينا (3).

ونهاية البيت تعريض بالاستعمار، وتهكم على أعماله العدوانية، وصورة البيتين مستمدة من قول جرير :

فغض الطرف انك من نمير فلاكعبا بلغت ولا كلابا.

وهناك اشارات كثيرة مستمدة من الأدب العربي ومتناثرة في قصائد الشعراء، كالنسج على منوال نونية ابن زيدون عند الطيب العقبي (4)، ومفدي زكرياء (5)، أو على منوال قصيدة أبي تمام في فتح عمورية (6).

ويستمد مفدي زكرياء صورة الذود عن الحياض من القصيدة الميمية لزهير (7)، أما محمد السعيد الزاهري فيستمد مكانة العالم في الجزائر من صور في قصيدة للمتنبي. (8)

ويبدو تأثر صالح خرفي بالمتنبي واضحا، وخاصة في قصيدته «العيد والجزائر الدامية» (9).

---

1 - انظر : الديوان، ص 188.

2 - انظر : وادي ميزاب، ع 62، 1927/12/23.

3 - النجاح ، س 9، ع 642، 1928/9/23.

4 - انظر : رد التحية فرض، شعراء الجزائر، ج 1.

5 - انظر : رسالة الشعر، 1961، اللهب المقدس، ص 287.

6 - انظر مثلا : - مفدي زكرياء، وتعطلت لغة الكلام (1957)، اللهب المقدس، ص 43.

- صالح خرفي، أنت ليلاي، ص 64.

7 - انظر : د. ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة ، قصيدة خفقة فؤاد ، ص 150، نقلا عن المغرب ، ع 13، 30/8/20.

8 - انظر:قصيدته الشهاب، ج 9، مج 10، أوت 1934، وانظر قصيدة له دالية في سجل المؤتمر، ص 267.

9 - اطلس المعجزات ، ش. و. ن. ت الجزائر، ط 2، 1982، ص 33.

إن هذا التأثر سواء بالمعارضة والاقتباس، أو بالأجواء اللغوية والموسيقية يعطي أحيانا للقصيدة ظلالا باهتة لأن الشاعر لن يكون خاضعا لتجربته الشعرية بقدر ما يكون خاضعا لذاكرته التي تمده ببعض هذه الصور الجاهزة، مما يجعله ظلا لغيره.

د - الأمثال : استغل الشعراء الاصلاحيون ما للأمثال من ثراء وتنوع، فأدخلوها في استعاراتهم، وكناياتهم صورا اشارية تستحضر إلى الأذهان مضمون المثل أو روحه أو موقفه قصد التركيز والايحاء واثراء المضمون.

ونجد الاهتمام بمثل هذه الثقافة التراثية في أبهى صورها، وأجلى معانيها عند أبي اليقظان، ومحمد العيد وخبشاش، ومفدي زكرياء، وخرفي، وغيرهم .

فالمثل العربي المشهور «قطعت جهيزة قول كل خطيب» (1) والذي يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه. قد استغله أبو اليقظان في الحديث عن معجزات النبي (ص)، ورسالته الخالدة التي قطعت ألسن المعارضين، وردت كيدهم إلى نحورهم، فيقول :

وأيده بآيات كبار　　　وبالقرآن سفرا لعالمينا

به قطعت جهيزة كل قوم　　　ألداء النفوس معارضينا. (2)

كما استغله خبشاش للتدليل على أهمية الرزانة والهدوء والحكمة في طلب الحقوق، حين قال :

وإذا تطلبت الحقوق بحكمة　　　(هبطت إليك من المحل الأرفع)

إن الرزانة في المواقف كلها　　　قطعت جهيزة كل شهم مصقع. (3)

وحين عاد الوفد الجزائري المنبثق عن المؤتمر الاسلامي الجزائري من فرنسا يجر رداء الخيبة، خاطب الشاعر محمد العيد سلطات الاستعمار الغاشمة بقوله :

فكم أماني ظمأى　　　أتتك تطلب وردا

أو ردتها مثل (سعد)　　　لا بل تجاوزت سعدا (4)

وفي البيت الثاني اشارة إلى المثل العربي المشهور المستمد من بيئة لشاعر قديم، يقول فيه :

---

1 - انظر الميداني، مجمع الأمثال ، مطبعة السعادة بمصر، ط 2، 1959 (1379هـ) ، ج 2، ص 91.

2 - الديوان ، ص 23.

3 - النجاح، ع 1995، 1937/5/16.

4 - الديوان ، ص 300/299.

أوردها سعد، وسعد مشتمل   ما هكذا يا سعد تورد الإبل (1).

ويضرب المثل لمن قصر في الأمر، أو حاول أن يدرك المراد بلا تعب، وبدون استعداد.

وقدْ استغل محمد العيد المثل القائل «مرعى وليس كالسعدان» (2) في معارضته للمظاهر التغريبية التي يدعي أصحابها التقدم والمدنية. (3)

ولصالح خرفي استخدامات كثيرة، منها استيحاؤه من المثل «هو الفحل لايقدح أنفه» (4)، في الافتخار ببطولة الجزائريين واصرارهم على التحدي (5). واستيحاؤه من المثل «أندم من الكسعي» (6) ليحث على الوحدة في مواجهة التفرقة التي تشتت صفوف الأمة، وتضعف جانبها (7).

إن الأمثال رغم ما تقدمه من ثراء للقصائد الشعرية وما تتركه في نفس المتلقي من أجواء تراثية، وأبعاد حضارية تربطه بماضيه الأدبي،فإنها أحيانا كثيرة تكون بمثابة صور باهتة جامدة مقتطعة اقتطاعا، وغير موظفة بدقة في سياق القصيدة، مما يفقدها طابع الحيوية والحركة، وتبقى محتفظة بالوظيفة التفسيرية (8) التي تفقد بها قيمتها التعبيرية.

هـ - المادة التاريخية : شكلت المادة التاريخية جانبا آخر من اهتمامات الشعراء، ولاسيما ما يرتبط منها بالتاريخ العربي الاسلامي في عصوره المزدهرة والمظلمة على السواء. ذلك أن التاريخ يشكل أحد روافد الثقافة العربية، وعلى الرغم من ذلك فإن الاستفادة منه كانت استفادة محدودة، لأنها لم تخترق جدار السطحية وأسلوب المقارنة إلى رحابة التعمق والتوظيف الايحائي.

وكان محمد العيد مغرما بالمادة التاريخية في صور شعرية كثيرة، إلا أنها تشبيهية مسطحة، لأنه «لا يعتمد في بناء صوره على جوانب التاريخ الاسلامي بوقائعه وأحداثه، وتطوراته، ليبني منها صورا متكاملة، وإنما يستمدها من تاريخ بعض الشخصيات الشهيرة في عالم الأدب والفكر والشريعة وما إليها». (9)

وكان الشاعر واقعا تحت نظرة نفعية، باعتبار أن الشخصيات التاريخية تشكل

---

1 - انظر : الميداني ، مجمع الأمثال ، ج 2، ص 364.

2 - نفسه، ص 276/275.

3 - الديوان ، ص 269، البيت السادس عشر.

4 - انظر : الميداني، م. س ، ص 395.

5 - اطلس المعجزات ، ص 72، البيت الخامس.

6 - انظر : الميداني، م. س، ص 348.

7 - اطلس المعجزات ، ص 58 ، البيت الثالث.

8 - انظر على سبيل المثال استخدام صورة التشتت والتفرق في قصيدة مفدي، فلسطين على الصليب واستيحاؤه من قصة (سبأ) بعد خراب سد مأرب المشهور، والتي لم تخرج عن الاطار التفسيري ، انظر اللهب المقدس ، ص 341.

9 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 497.

قدوة وثروة، بل ورموزا للاعتبار والاقتداء لدى الشبيبة الناهضة، وكانت بالتالي بمثابة خلفيات للوحاته التعبيرية.

وقد وجد كغيره من شعراء الاصلاح حافزا يدفعه إلى تصوير هذه الشخصيات والاشادة بها؛ وسيلة للرد على محاولات المسخ والتشويه، ومتنفسا عما أصاب النفوس من حنق، وأسلوبا لغرس هذه البطولات الاسلامية في نفوس الناشئة.

وقد وظف محمد العيد رموز القصص القرآني وخاصة رموز الأنبياء والرسل فساق لكل موقف من المواقف النفسية أو الشعورية ما يشبهه من مواقف، كما حكاها القرآن الكريم، فجاءت في صوره الشعرية أغلب قصص الأنبياء؛ ابراهيم، نوح عاد وثمود، سليمان والهدهد، موسى، عيسى، يعقوب، ويوسف، يونس ... الخ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

كما وظف من جهة ثانية صورا لشخصيات اسلامية مشهورة في التاريخ، وكان التوظيف ذا طابع مضموني أخلاقي، يهدف إلى الرد على الأعداء الذين يهونون من شأن المسلمين، ومحاولة رد الاعتبار، ومضاعفة الثقة في النفس للشباب المسلم، لاستلهام الدروس من التاريخ المجيد، يقول الشاعر مفتخرا باعتزاز :

ألسنا من الأجناس أفصحهم فما ... وأسمحهم دينا وأصلحهم أبا

بنا درت الدنيا عليهم بخيرها ... وأخصب منها كل ما كان أجدبا (1)

ويحشد جملة من الأسماء مثل : علي، خالد، عمر، معن، ابن قيس، مصعب، الغزالي، ابن خلدون، ابن حيان ... الخ. والشاعر بهذا الحشد من الأسماء يستنجد بالتاريخ الاسلامي في ظل الغلبة الاستعمارية، فكان التذكير محاولة منه في بعث نوع من التحدي للاستعمار، واستنهاض الهمم للاعتبار بالقوة الاسلامية السابقة، وامكانية احيائها في النفوس، وتمثلها في السلوك.

وقد استحضر في قصيدته «ختمت كتاب الله» عدة صور تاريخية منها : نهج البلاغة وحيدر، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والمعز بن باديس، والأزهر المعمور، وغيرها. (2)

ومثل هذا الحشد نجده في قصيدة أحمد سحنون «ذكريات المجد» (3) التي كتبها

1 - الترحيب بالحجاج، الديوان ، ص 195.

2 - م. ن. ص 156.

3 - احمد سحنون، ص 201/200.

خلال الثورة المسلحة، غير أنه لم يوفق فيها كثيرا لأن حشد الأسماء في حد ذاته لايؤثر في المتلقي إذا لم يكن موظفا توظيفا فنيا، منسجما مع التجربة الشعورية، ومع الحدث الذي يركز عليه الشاعر فطغى عليها طابع الخطابية والتقريرية، لأن حشد أسماء مثل : ابن الوليد، ابن عوف، ابن عفان، أبي بكر، علي، صلاح الدين، الرشيد ... لايشكل في حد ذاته صورة من شأنها التحريض على الثورة، والانتفاضة على العدو. بل كان بامكان الشاعر أن يستنطق الأحداث ويوظفها توظيفا يجعل منها - وبصورة تلميحية غير مباشرة - محرضة على المجابهة مستمدة من هذه الشخصيات مكامن القوة والعزة والتمكن.

ولعل مفدي زكرياء كان أكثر من غيره ولوعا بالمادة التاريخية ذات الطابع الثوري (1)، ومن النادر أن نجد عنده «قصيدة خالية من هذه الصور الاشارية التي تتخذ من الأمجاد التاريخية مادة للتصوير» (2) مما يدل على اطلاعه الواسع على التاريخ الاسلامي وتشربه لأحداثه، وخاصة ما تعلق منها بالمغرب العربي. فيوظف بعض الأحداث التاريخية القريبة أو البعيدة توظيفا فنيا، يستثير لدى المتلقي صورة ما من التاريخ لها علاقة بالأحداث المعيشة، من ذلك أنه حين حاول تصوير الموقف الجزائري من الاستعمار الفرنسي لم يجد أروع من صورة (دار لقمان) التي سجن فيها القائد الفرنسي «سان لويس» في محاولته احتلال مصر، فقال رابطا بين الواقعتين، مخاطبا ديغول الذي يجسد في الجزائر سان لويس في مصر :

وتحفر يا ديغول قبرا بأرضنا   لمن جهلت أحفادهم دار لقمان. (3)

فالشاعر يوحي لديغول أن مصيره ومصير جده سيان؛ سجن أحدهما بدار لقمان، وسيقبر الثاني في جبال الأوراس أو الونشريس، أو الأطلس، تحت ضربات الثوار المغاوير. فكان التوظيف ذكيا، وكان الاستمداد من التاريخ موفقا، فإذا الصورة معبرة بحق، وفي اشارة عابرة إلى الواقع الاستعماري ومآله في كل زمان ومكان.

إن توظيف المادة التاريخية عند الشعراء الاصلاحيين كان بمثابة حلقة ربط بين الأحداث المعيشة وواقع المسلمين في عصورهم المزدهرة، ولم يكن غالبا في صور اشارية معبرة، بل كان في أسلوب مقارنة وتشبيه دون الولوج في رحاب التعمق والتركيز. فالتوظيف لم يكن فنيا، بل مضمونيا، يحقق الاعتبار والقدوة في وقت أمست فيه الحاجة ملحة إلى مثل هذه المواقف التاريخية لتغيير الأوضاع التي أفسدها الاستعمار.

* * * * *

1 - من ذلك أننا نجد في شعره ورود اسماء القادة العرب الابطال مثل سعد بن أبي وقاص، خالد بن الوليد، عقبة ابن نافع، صلاح الدين الأيوبي، موسى بن نصير ... الخ، واسماء بعض الوقائع الكبرى، مثل : حطين، بدر، القادسية ... الخ.

2 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 495.

3 - انظر : اللهب المقدس، ص 327، ونجد الصورة نفسها في قصيدة «الذبيح الصاعد» م. ن. ص 18.

2 – الصور الوجدانية

لقد تطور الشعر الاصلاحي على أيدي بعض الشعراء الذين غلب على شعرهم الطابع الوجداني، كما هو الشأن عند : جلواح، خبشاش، بوشامة، سحنون، ابن رحمون، زكرياء، عبد الكريم العقون، سعد الله ... الخ، فظهرت في أشعارهم الانفعالات متوحدة أحيانا مع الصورة التي اتسمت بالصدق، وأصبحت جزءا من ذاتية الشاعر ترتبط بشخصيته وشعوره. ولم تبق ناقلا خارجيا للموقف.

وطغى الخيال على القصيدة بدل المنطق، وظهر الاختلاف في القصائد عند شاعر ما بعينه، بحيث تختلف صوره تبعا لاختلاف مضمون القصيدة؛ فقد تكون صورة تقليدية إذا تعلق المضمون بالجانب الاصلاحي المباشر الذي يتجه فيه الشاعر إلى المتلقين، وقد تكون صوره نابعة من صميم التجربة، ممتزجة بأحاسيسه حين يكون مضمون القصيدة ذا طابع ذاتي مقترن بالفكرة الاصلاحية أو غير مقترن بها.

بمعنى أن الشعر الاصلاحي قد طغى عليه الخلط في التصوير، فإذا الشاعر تقليدي أحيانا، ومجدد أحيانا أخرى؛ تجد عنده صورا تقليدية تعتبر استمرارا لأجواء القصيدة الجاهلية، تطغى عليها الصيغ المختزنة في الذاكرة، وتجد عنده صورا وجدانية متأثرة بالمدارس الأدبية الحديثة.

لم يكن التجديد ظاهرة مميزة لهؤلاء الشعراء، ولذلك كان شعرهم يتراوح بين التقليد والتجديد دون تطور كبير يذكر، فلم يكن التقليد سابقا للتجديد، ولم يكن التجديد وحده في الميدان الابداعي، بل كانت الصورتان تسيران معا، وفي منحنيات متفاوتة ومتباينة أحيانا، فمبارك جلواح باعتباره شاعرا وجدانيا رقيقا كما وصفه الابراهيمي (1)، نجد عنده هذا الخلط بين صوره التقليدية وصوره الوجدانية.

فلديه صور تقليدية بلاغية، تقوم على التشبيه والاستعارة، ثم نجد لديه قصائد كثيرة تعبر عن حالاته النفسية المضطربة، وتطغى عليها الصورة الرمز بالدرجة الأولى، إذ أصبحت الصورة لديه «ليست امتدادا للواقع وعلاقاته الطبيعية ولكنها تشكيل جديد له، وصياغة ذاتية لعناصره الحسية والمعنوية» (2)

ومما سبق يمكننا القول أنه بعد الحرب الكونية الثانية اطلع الشعراء على الأدب

---

1 – الشهاب ، ج 4، جوان / جويلية 1938، ص 255.

2 – رابح دوب ، م. س. ص 110.

الرومانسي العربي ممثلا في شعر الشابي، وجماعة أبولو، وشعر المهاجر الأمريكية، وتفطنوا إلى عنصر التصوير في العمل الشعري، فامتازت عندهم القصيدة بجملة من الخصائص.

خصائص الصور الوجدانية في الشعر الاصلاحي :

يمكن التركيز على بعضها، ومنها :

1 - الطابع الذاتي : الذي يقابل الطابع الغيري في الصور التقليدية، ذلك أن الصورة الوجدانية لم تعد خارجية عن تجربة الشاعر تنقل إليه بواسطة الغير، بل امتزجت بأحاسيسه، وارتبطت بمشاعره وانبثقت عن ذاتيته، فإذا هي صورة لنفسه المتلونة بشتى الأحاسيس والمتموجة بشتى المشاعر.

فعلى سبيل المثال نجد الشاعر جلواح يلون صوره بأحاسيسه القلقة إلى حد الاضطراب.

لقد كانت صوره في واقع الأمر تعبيرا عن الحالات النفسية التي تنتابه وهو في الغربة بعيدا عن أهله وخلانه ووطنه، ولذلك طغت عليها صور العدم والشقاء في رموز الصحراء، والليل، والظلام.(1)

لم يهتم الشاعر بالموصوفات باعتبارها أشكالا قائمة في حد ذاتها، فينظر إليها من الخارج، بل كان يهتم بما تثيره هذه الموصوفات عندما تقع في نفسه، ذلك أن الصورة هنا إنما يراد بها التعبير عن موقع الأشياء من الوجدان، أو كما يقول العقاد :« إنما هي قدرة الشاعر التي تصرفنا عن ظواهر الموصوفات إلى وقع الموصوفات في النفس والخاطر. لأن شعوره يصدر من داخل نفسه وخاطره ويمتلئ به وعيه ولا يصدر من تلفيقات الظواهر والأشكال.» (2)

فإذا كان الشعراء يتغنون بجمال الشمس وضيائها، وما ترمز إليه من نصاعة، وما تبعثه في النفس من اشراق، فإن الشاعر قد نظر إلى الشمس نظرة نابعة من نفسه المتشائمة القلقة حين قال :

إنها الشمس وأقمار السما ... جدوات في الدياجي سابحات
ترشد العين وما أخذل من ... يرتجي الرشد بضوء الجذوات
إنما هي ظلام أبيض ... تتقيه دامسات السّدفات
كل ذا الكون دياجي بعضها ... سادة للبعض والبعض هداه
كل ذا العالم ليل مسدل ... ستره بين الغيوب القدسيات. (3)

---

1 - تنظر قصائده : مارج اليأس، محيط الليالي، ليل الوجود، محيط العدم، رداء النوى، صحراء الوجود، ... الخ، تنظر في ملحق رسالة الباحث رابح دوب.

2 - شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، ط 2، 1950، ص 74.

3 - تنظر قصيدة : ليل الوجود، م. س ، أو في ملحق دراسة : د. الله الركيبي، عن الشاعر جلواح ...

وهكذا تتحول الشمس إلى ظلام أبيض، ويتحول الكون إلى دياجي، والعالم إلى ليل مسدل،لأن هذه الموصوفات قد وقعت على نفس مضطربة فحولتها إلى هذه الصور الذاتية.

وحين يقوم مفدي زكرياء بوصف معاناته في زنزانة العذاب؛ إنما يتذكر بعض جوانب حياته الذاتية، وينطلق في آفاق رحبة ترتبط بالأنا وبالطبيعة في مظاهرها المختلفة:من شمس، وموج، وشفق، ونجم، وليل :

نسابق الشمس، نغزوها بزورقنـا   فيسخر الموج منـا كيف نلتحق
وتغرب الشمس، تطوى في ملاءتها   سرين، أشفق أن يفشيهما الشفق
وكم سهرنا، وعين النجم تحرسنـا   إذ نلتقي كالرؤى، حينا، ونفترق
والليل يكتم في ظلمائه شبحـا   يأوى إلى شبح، ضاقت به الطرق
ياليل، كم لك في الاطواء من عجب   يا ليل ! حالك حالي، أمرنـا نسق. (1)

2 – استخدام المجاز : وتمثل ذلك في استخدام الاستعارة بدل التشبيه؛ ذلك أن صور التشبيه محدودة ومسطحة. بينما الصور الاستعارية أكثر ايغالا في الخيال، كما أن «فلسفة الاستعارة قائمة في قدرتها على توحيد أكثر من عنصر من عناصر الطبيعة في بناء صورة واحدة، وهي هنا كالطبيعة نفسها التي تمتص اختلاط الاستعارات.» (2)

والاستعارة تعتمد على ما في الكلمة من حمل أو خصب كامن، وبعبارة أخرى حين تستخدم الكلمة استخداما مجازيا تكتسب قوة لم يكن لنا بهما عهد قريب. (3)

فابن رحمون في وصفه لهجرة المصطفى (ص)، يعبر عن خوالجه في دفقات شعورية تسبح في ملكوت الحدث، وتنقله النشوة إلى وحي الهجرة فينقل أحاسيسه نغما عذبا يتجلى في الأبيات التالية :

يـا هجرة لا تـزال الدهر زاخرة   لكنه اسرارها الأحقاب والعصر
الحق يسكب عن لألائهـا نغمـا   عذبا تردده الأخبـار والسير
والدهر يكتب عنها للورى صحفا   تزهى بترتيلها الأسحار والبكر
على أريكتها يعلو الهدى ملـكا   خلاله بجـلال النصـر يعتجر (4)

1 – اللهب المقدس ، ص 25/24.
2 – د. محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، ص 154.
3 – د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية ، ص 125.
4 – ديوان ابن رحمون ، ص 18.

فعبارات مثل : يسكب الحق نغما عذبا، ويكتب الدهر عنها للورى صحفا، وعلى أريكتها يعلو الهدي ملكا؛ عبارات تعتمد على ما في الكلمة الاستعارية من خصب كامن، ولا تتوقف عند مفهومها المعجمي المسطح الذي لا يثير فينا الدهشة، ولا ينقلنا إلى أجواء فيها عمق الخيال، وسعة العاطفة.

والقصائد الإصلاحية التي تنحو هذا المنحى كثيرة (1)، تعتمد على الصيغ المحملة بالدلالات الايحائية،إلتي تثير في نفس المتلقين مشاعر وأحاسيس لا تثيرها الكلمة القاموسية الدلالة.

3 - التشخيص والتجسيم : إنهما يتعمقان بناء اللغة وضمائرها وأفعالها وصفاتها التي ترد علينا ورودا طبيعيا لاشية فيها من صنعة أو أناقة. (2)

إن التشخيص وليد الصورة الاستعارة حيث تبعث الحركة في الجوامد وفي الأشياء المجردة، وله قدرة على التكثيف والاقتصاد والايجاز، وعلى الرغم من ارتباطه مع الطبيعة ارتباطا وثيقا، إلا أنه لايمكننا أن نزعم أنه هو وحده كل شيء في الصورة الأدبية، ذلك أنه يتكامل مع اللون والضوء، وغيرهما من العوامل التي تشكل الصورة.

وأحسن من يمثل هذه الخاصية في الشعر الاصلاحي هو الشاعر جلواح الذي امتاز «بمخيلة مبتكرة مؤلفة للأجزاء بغرض خلق الصورة الفنية الجميلة المعبرة عن هدفه من ابتكارها.» (3)

فالشاعر من خلال قصيدته «في السجن» مثلا نجده يناجي السجن بعتاب كمن يعاتب رفيقا خان المحبة والمودة :

ألا أيها السجن الذي بظلالـــه — أكابد نـــارا فوق نـــــار جهنم

فما لك مهما ألتمسْ منك رأفة — وبعض ضيـــاء تقس عني وتظلم

ألم تعلمن أني غريب وليس لي — حبيب إذا استرحمته اليوم يرحم (4)

وفي مناجاته لليل الوجود يقول مشكلا هذه الصورة الرائعة :

فذر الصباح يقم وراني مأتما — ويطف بنعشي إن عراه رحيل. (5)

---

1 - انظر مثلا : - ابن رحمون ، المسكين مع شبح الجوع ، الديوان، ص 107/106.
- أحمد سحنون ، موكب الربيع، الديوان، ص 48.
- عبد الكريم العقون ، مولد النبي، البصائر، ع 24، 1948/2/23.
- جلواح ، ذكرى البلاد على فراش السهاد، تنظر في : رابح دوب، مبارك جلواح، الملحق.

2 - د. مصطفى ناصف، م. س. ص 135.

3 - د. عبد الله الركيبي، الشاعر جلواح، ص 306.

4 - البصائر، سل 1، ع 150، 6 ذح 1357هـ ، 1939/1/27، ص 7.

5 - تنظر قصيدة : المسلم الافريقي في باريس، البصائر ، سل 1، ع 139، 18 رمضان 1357هـ ، 1938/11/11، ص 7.

لقد جسد في هذه الصورة الصباح، وشخصه، وبعث فيه الحركة، وأضفى عليه صفة انسانية فإذا هو كفيل باقامة مأتم على الغريب، والطواف بنعشه بعد أن يرحل عن هذه الدنيا.

ونلمس صورة من صوره الكثيرة في قصيدته «ليلة على شاطئ لاسين» حين يخاطب النهر بقوله :

أم هل لموجك رقصة تلهى بها   عن قلبي العاني يد الأسقام. (1)

فإذا الصورة متحركة، تدب الحياة في النهر، وتتحول موجاته إلى شخوص ترقص، فيتلهى الشاعر بمناظرها،وصور الأسقام عبارة عن انسان لكنه حذفه وأبقى على شيء من لوازمه وهي اليد.

إن هذا النوع من الصور المبتكرة نجدها مبثوثة في مجمل قصائد الشاعر، وهي وسائل للتعبير عن حالاته النفسية المضطربة التي كان يعيشها في المهجر.

وقد حاول الشاعر أحمد سحنون في بعض قصائده الاستفادة من هذا التطور لمفهوم الصورة الوجدانية،فنجده مثلا في"مناجاة البحر"(2)، يشخصه فإذا هو صامت يتكلم، وضاحك يتألم، وخطيب بليغ، وراض مطمئن، وساخط متبرم، وشاك يتظلم .. بحيث لم يكرر الصور التقليدية بل ابتكر صورا مؤلفة من أشياء كثيرة بواسطة الخيال.

4 - الخلط بين وظائف الحواس المختلفة : وهو ما يسميه البعض بتراسل الحواس،أي وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات حاسة أخرى، كما هو الشأن عند الرمزيين، وعند الشاعر أدغار آلان بو الذي كان يدعو إلى الخلط بين وظائف الحواس، فنجده في بعض قصائده (يسمع) قدوم الظلام .. ولذلك كان أول ما يبشر به الرمزيون اجراء الفوضى في مدركات الحواس المختلفة ومحاولة الوصول بالشعر إلى اللا محدودية التي وصلها الفن الموسيقي. (3)

فحين يقول محمد السعيد الزاهري يصف أثر حديث مفتي الجزائر في نفوس سامعيه :

وحديث ألذ من خند ريس   كان أشفى لنا من الترياق. (4)

---

1 - البصائر، س1، ع 100، 17 ذح 1356، 1938/2/18، ص 7.

2 - ديوان أحمد سحنون، ص 34.

3 - ينظر : د. احسان عباس ، فن الشعر، ص 65.

4 - النجاح، ع 215، 1925/7/3، ص 03.

فالحديث الذي يعبر عنه بالممتع والمفيد، استعار له الشاعر وصف (اللذة) الذي يعبّر به عادة عن الطعام.

وحين يقول السانحي من قصيدته : معهد عبد الحميد :

هو المعهد المعمـور سـار حديثه — بكل مـكان - في المهـابة - يخطر
تنقل في الأفواه - كالمسك - طيبا — وكالعطر -في الأذواق- أو هو أعطر
وطاف بأرجـاء البـلاد محبّبـا — يرافقـه التوفيـق حيث يعسـكر (1)

نجده في البيت الثاني يخلط بين مدركات الحواس عن وعي وعن قصد لخلق تأثير معين لدى المتلقي، فإذا صيت المعهد قد تنقل في الأفواه كالمسك طيبا، وكالعطر في الأذواق، مع أن المسك والعطر يتنقلان عن طريق حاسة الشم.

ونجد الموقف نفسه في قصيدة له موالية (2)، وإن كان الأسلوب فيها يميل إلى الوصف والتشبيه وتطغى عليه العلاقة المنطقية.

على أن الحديث عن الصورة الفنية في الشعر الوجداني لايكتمل إلا بالحديث عن مصادر الصورة في هذا الاتجاه.

* * * * *

مصادر الصورة الشعرية الوجدانية : تستمد الصورة الوجدانية مصادرها من مصادر الصورة التقليدية،إلا أنها في الغالب تركز على مصدر آخر وهو الطبيعة بمشاهدها وألوانها. فالشعراء الوجدانيون يتصورون الطبيعة كائنا حيا، يحس بمثل أحاسيسهم، ويشعر بمثل مشاعرهم، فأضفوا عليها بعض جوانب الحياة، وبثوها آلامهم وآمالهم، وشكوها معاناتهم.

وغالبا ما يلجأون إلى الطبيعة ينشدون فيها السلوان، ويبثونها أحزانهم، ويقارنون بين مشاعرهم ومناظرها المختلفة، وذلك لدقة مشاعرهم ورهافة أحاسيسهم.

وفي هذا المجال «لايختلي الرومانتيكيون في الطبيعة ليفكروا ويستخلصوا الحجج، أو يحلوا مشكلات، كلا ! ولكن ليحلموا ويستسلموا لمشاعرهم.» (3)، مما يجعل الشاعر الاصلاحي الوجداني يفترق عنهم، لأن طابعه الوجداني لا يسلخه عن واقعه، ولا يرميه في رحاب الحلم، والاستسلام للمشاعر، بل يرفعه إلى التفكير في مشاكل أمته، وما يعتورها

1 - البصائر ، سل 2، ع 169، 1951/9/10، ص 5.
2 - تنظر قصيدة : يوم اللقاء ، البصائر ، سل 2، ع 171، 1951/9/27، ص 5.
3 - د. غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، دار العودة ، بيروت ، ط 6، 1981 ، ص 178.

من ضعف، وما تتعرض له من تنكيل وضغط فإذا الطبيعة تفجر في نفس الشاعر حشدا هائلا من الأفكار والمشاعر والتأملات.

«فالشعراء اصلاحيون وهمهم ليس وصف الطبيعة وحدها أو الهروب إليها. ولكن الشكوى لها مما يقاسي وطنهم، فالرؤية هنا ليست رومانسية بحتة وإنما تختلط بالواقع بل وتنطلق منه.» (1)

ويتباين الشعراء في مقدار تأثرهم بالطبيعة، بل وفي ملكتهم المعبرة عما يجيش في صدورهم؛ فمنهم من يقف عند حدود الرؤية البصرية، فينقل إلينا ما في الطبيعة ولكنه ملون تلوينا خفيفا بشعوره، ومرتبط ارتباطا بسيطا بأحاسيسه. (2) ومنهم من يندمج فيها ومعها على نحو رفيع، كما فعل خبشاش في قصيدته «يا طائرا» (3) التي كانت تصويرا للواقع من خلال مناجاة هذا الطائر، وربطا بين حزن الشاعر وحزن الطائر. فتصبح الطبيعة وما فيها عبارة عن ايقاع واحد يتجاوب مع الشاعر وأحاسيسه ونظراته، فالطائر هنا يفهم ويفكر مثل الشاعر تماما، كما أن الشاعر يتغلغل من خلال أحاسيسه في هذا المشهد أو هذه الحركة من الطائر لأنها تترجم تفكيره.

وإذا كان خبشاش قد استمد من الطبيعة طائرها، فإن (جلواح) قد سخر الطبيعة : صحراء، وأنهارا، وليلا، وظلاما، وبحرا، للتعبير عن خلجات نفسه القلقة وما تعانيه من اضطراب وأسى، ونلمح في شعره أمثال هذه العناوين لقصائده : الظل المحرق، ليل الوجود، صحراء الوجود، أنة من وراء البحر، ليلة على شاطئ لاسين، وغيرها (4)، وهي عناوين تعبر عن احتماء الشاعر بالطبيعة لا لوصفها، وانما للتعبير عن موقعها من وجدانه.

ونجد أحمد سحنون، قد وقف وقفة خاشع أمام البحر، فأضفى عليه الحياة، وأضاف إليه من احساسه الشيء الكثير، بل وأخضع البحر للتشكيل الحسي ولفكرته، فإذا هو صورة لفكرته وليس صورة لذاته، حتى «أن المرء ليقول إن الشاعر من خلال مخاطبته البحر إنما يخاطب نفسه، وذلك نوع من الاسقاط الذي عرفه الوجدانيون.» (5) حيث وظفوا الطبيعة للتعبير عن موقعها من وجداناتهم ومشاعرهم.

إن القصائد المرتبطة بالطبيعة تعتبر لونا من التعبير «أوجدته ظروف أحاطت بالشعراء وبيئتهم وعصرهم » (6) فلم ينغمسوا في الأحلام والخيالات، بل وظفوا الطبيعة لخدمة أفكارهم الاصلاحية في غالب الأحيان.

---

1 - د. الركيبي ، الشعر الديني، ص 664.
2 - انظر مثلا : أحمد سحنون، وقفة على بحر الجزائر، الشهاب، ج 7، مج 6، أوت 1930، الديوان، ص 17.
عبد الكريم العقون، من وحي الجزائر، البصائر ، سل 2، ع 13، 47/11/10 ، ص 7.
3 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، ص 87، 88.
4 - تنظر في ديوانه : دخان اليأس، ملحق دراسة : د. الركيبي، أو ملحق رسالة رابح دوب م. س.
5 - د. ناصر ، الشعر الجزائر الحديث، ص 518.
6 - د. الركيبي، الشعر الديني، ص 668.

ونخلص إلى القول إن الصورة الوجدانية قد اختلفت عن الص
فأصبحت أحيانا تعبر عن الحالات الشعورية في صورة منسجمة غير م
استخدام المجاز المبني على الاستعارة عوضا عن المجاز المبني على التشبيه، على أساس تآلف مدركات الحواس، وارتبطت بمجالات الطبيعة ومشاهدها وكائناتها.

وقد وجدنا أن الشاعر الوجداني ينتقل بين التقليد والتجديد، وهو تجديد لم يصل إلى مستوى النماذج العربية أو الأوربية، وانما تجاوز كثيرا خصائص التقليد، ومرحلة الصور الحسية المجردة من مشاعر الشاعر.

وما يمكن قوله في نهاية هذا المبحث الخاص بالصورة الشعرية هو أن الشعر التقليدي كان محدود الخيال، سطحي الصور، مرتبطا بصور مطروقة، بل ومستمدة من الذاكرة نتيجة الثقافة التراثية، فجاءت الصور التقليدية متسمة بالسطحية والجمود، وبالاستقلالية والتفكك، وبالطابع الايضاحي التفسيري، وبالحسية التي تصف الأشياء وصفا خارجيا، وبالطابع العقلاني الذي يطغى فيه جانب التفكير على التصوير والشعور.

واستمدت مصادرها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والأدب العربي القديم، والأمثال، والمادة التاريخية في أزهى عصورها.

أما الشعر الوجداني فاهتم بالتصوير، وحاول فيه الشاعر مزج مشاعره الذاتية بالصورة الشعرية مما أعطى القصيدة ايحاء وحيوية، وأبعدها عن السطحية والرتابة، وقد ساعد ذلك اعتماد الشعراء على الذات والطبيعة في نسج صورهم وبنائها، فجاءت منسوجة بهذه المشاعر الفياضة المتدفقة،متداخلة في نفس الوقت مع الأفكار الاصلاحية التي توفر لها الشاعر باعتبارها رسالته في الحياة.

رابعا - التشكيل الموسيقي

لقد ظل الشعر الاصلاحي يؤدي رسالته بأنماطه القوية دون أن يتنكر الذوق العام لما يسمع منه، نظرا لما تشحنه القصيدة من معان سامية، لم يقف الوزن القديم عائقا دون وصولها إلى ذهن المستمع، ولم يضق بها، لأنها مشكلة في وجدانه، مترسبة في أعماقه، ألفها منذ قرون.

وقد فرضت البيئة الاصلاحية على الشعراء التزام نسق معين في موسيقى الشعر، هو النسق التقليدي الذي ينظر إلي الشعر على أنه كلام موزون مقفى، وبالتالي المحافظة على القصيدة العمودية، والالتزام بالايقاع المعتمد على الوزن الرتيب، والقافية المطردة؛ ذلك أن هذه البيئة قد ألفت هذا النمط،و«الجمهور من حيث الوزن يتوقع طريقا مرسوما قد ألفه وتعود سماعه. فإذا أخل به الشاعر أو تصرف فيه أو اخترع وزنا جديدا لم يجد الناس يقبلون بحماس على هذا الجديد.» (1).

وقد ارتبط الشعر بالموسيقى منذ القديم، فالعلاقة بينهما علاقة وطيدة، مما أفاد الشعر كثيرا من أصول فن الموسيقى، سواء في التكرار، أو التوازن، أو التناسق، وتفاوت الأهمية بين أجزاء القطعة الموسيقية. (2)

والشاعر الاصلاحي محمد العيد يعترف بأهمية الموسيقى في الشعر حيث يقول «الشعر الذي يعدم الموسيقى لا أعتبره شعرا، وإنما يمكن اعتباره نثرا. لكن الموسيقى ليست في أوزان الخليل فقط بل هي تحدث نتيجة قوة العاطفة، وإذا أردت أن تتحقق من الشعر فانظر إذا كان محتوى الكلام فيه صدق العاطفة أو الشاعرية فهو شعر، لأن الشعر مشتق من الشعور، وكل كلام لا يوجد فيه أثر للعاطفة ليس شعرا.» (3).

* * * * *

إن الشعر الاصلاحي كان وظيفيا، يحمل رسالة الاصلاح، ومنهج الحياة، يتوجه به الشاعر إلى الجماهير الشعبية بطابع خطابي مباشر في الغالب، ومهما حاول بعض الدارسين التنقيص من قيمته - وهو ما سنتطرق إليه في نهاية المبحث الخاص بالجانب الفني - فإن طابعه المحافظ لم يكن وليد نزوة عابرة، أو ثقافة دينية سلفية، بقدر ما كان رد فعل على دعاة المسخ والادماج، وتذويب الشخصية العربية الاسلامية في كيان غريب.

---

1 - د. ابراهيم انيس، موسيقى الشعر، ص 188.

2 - انظر : مصطفى عبد اللطيف السحرتي ، النقد الأدبي من خلال تجاربي - معهد الدراسات العربية ، 1962 ، ص 135 ، 136.

3 - انظر اللقاء الذي اجراه عبد العالي رزاقي مع الشاعر، الشعب الأسبوعي، ع 45، 1974/10/28، ص 07.

ولما كان التجديد الشعري قد ارتبط بالتأثير الغربي، فقد تبرأ منه الشاعر الاصلاحي حفاظا على مقوماته الشخصية العربية الاسلامية؛ ذلك أن المحافظة على عمود الشعر والبعد عن التجديد معناه الانغلاق على التراث، والتشبث بالأصالة، وسد المنافذ أمام التيارات الوافدة حفاظا على الأصالة في وجه حملات التشويه.

وقد قامت الحركة الاصلاحية بدور لايستهان به في تجسيد هذا الموقف، بطرق متعددة، سواء بنشر قصائد لكبار الشعراء الاحيائيين في الصحف الجزائرية، أو دفع الشباب إلى المشاركة في تشطير بعض المقطوعات، أو دفعهم إلى التباري في المعارضات، ايمانا منها بأن ذلك من شأنه أن يدفع بالفن الشعري إلى المستوى الفني الراقي الذي بلغه كبار الشعراء، وهي الطريقة التي استخدمها رواد الاحياء في مصر الذين خبروا كل «الوسائل الفنية الحرفية التي تمثلت في شعر الأقدمين ومهروافيها، وبلغت هذه الوسائل في أيديهم مبلغا من النضج والاستواء.» (1)

إن التشكيل الموسيقي ينبع أساسا من : موسيقى خارجية مؤلفة من أوزان شعرية، وقافية، وروي، وموسيقى داخلية تتمثل في ذلك النمط النغمي الذي «يجمع بين الألفاظ والصورة، بين وقع الكلام والحالة النفسية للشاعر، إنها مزاوجة تامة بين المعنى والشكل، بين الشاعر والمتلقي.» (2)

* * * * *

أ- <u>فالموسيقى الخارجية</u> : عند الاتجاه التقليدي تعتمد على الوزن الخليلي، إذ القصيدة تبدأ بنمط وزني معين، وتستمر على هذا النغم في طول القصيدة، فإذا الأبيات ايقاعات منتظمة، تتساوى في جميع ايقاعاتها كما تتساوى في نهاياتها عن طريق القافية الموحدة، «فهي الضربة الأخيرة التي تثبت عندها كل لحظة موسيقية.» (3)

إن الاهتمام بتوفير الوزن الكامل والصحيح للقصيدة كان مظهرا من مظاهر الحفاظ على مقوم أساسي من مقومات التراث الأدبي.

كما كان الالحاح واضحا على سلامة القافية باعتبار اطرادها عنصرا من عناصر النجاح، ومظهرا من مظاهر استقامة الشعر.

ولقد سيطرت النظرة المحافظة على الشعراء وهي النظرة التي تخصص لكل بحر

---

1 – عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر، ص 43.

2 – عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ص 354.

3 – شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ص 102.

من بحور الشعر ما يناسبه من أغراض وموضوعات، فإذا الانفعال يؤدي بصاحبه إلى اختيار بحر معين، فالشاعر «في حالة اليأس والجزع، يتخير عادة وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفّس عنه حزنه وجزعه» (1)، وإذا قيل الشعر وقت المصيبة أو الفاجعة «تأثر بالانفعال النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس وازدياد النبضات القلبية.» (2).

فأبو اليقظان حين وقف على جدث الوالدة (3)، وهو في حالة من الانفعال النفسي، مال إلى تخير بحر مجزوء، فقال قصيدة من مجزوء الرمل بدأها بقوله :

يا غراب البين حلق	فوق أطلال خوال
واحشدن حولك جيشا	من نحوس باهتبال
وارفعن صوتك وانعق	منذرا غير مبال
قائلا هذا أوان	جاءكم بالانفصال

« فالشاعر حين يعبر عن نفسه من خلال الوزن المعين إنما يختار لنفسه أكثر الأشكال الطبيعية تناسبا مع حالته، وعندئذ يمكن أن يقال إن الوزن - رغم أنه صورة مجردة - يحمل دلالة شعرية عامة مبهمة، ويترك للكلمات بعد ذلك تحديد هذه الدلالة ». (4)

إلا أن أغلب الدارسين يذهبون إلى القول أن العلاقة بين الوزن والحالة النفسية للشاعر لاتؤخذ على علاتها، ولا يمكن الاطمئنان إليها كلية، لأنه من السهولة بمكان التعبير عن الحزن أو السرور في الوزن نفسه. فأبو اليقظان مثلا يستعمل الوزن السابق نفسه في موقف مغاير، أي في قصيدة سمر وطرب تحت عنوان "مبادلة كؤوس الأدب" (5)، يبدأها بقوله :

طلع البشر ولاح وبدت أي المراح.

ولم يجد الشاعر حرجا في استعمال الوزن نفسه للدلالة على حالتين انفعاليتين مختلفتين.

* * * * *

1 - د. ابراهيم انيس، موسيقى الشعر، ص 177.
2 - م. ن. ص 178/177.
3 - الديوان ، ص 145.
4 - عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر، ص 54.
5 - الديوان ، ص 94.

القافية : لقد خصصنا لها هذا المبحث باعتبارها جزءا من الموسيقى الخارجية للقصيدة التقليدية، التي يحاول بعض الشعراء الوجدانيين التخفيف من ضغطها على القصيدة كما سنرى في مظاهر التجديد.والقافية مجموعة أصوات تتكرر باطراد في أواخر الأبيات من القصيدة أو هي «مالزم الشاعر تكراره في آخر كل بيت» (1)، مشكلة جزءا هاما من الموسيقى الشعرية.

ولقد كان الشعر الاصلاحي محافظا على سلامة القافية، يكررها باطراد في القصيدة ذات الروي الواحد،أو المقطوعات التي يتعدد رويها،لأن المستوى الثقافي للمتلقين، وسيطرة الثقافة التقليدية المتوارثة قد جعلت الأذن والذوق كلاهما يعتاد على الشعر المقفى الذي ينتهي مع كل بيت بنغمة متوازنة تحدث هزة في نفس المتلقي، وكان من الصعب التجديد في مثل هذا الجو اللهم إلا في بعض القضايا البسيطة كتجربة شعر المقطوعات، أو تغيير الوزن على شكل الموشحات، أو تنويع القافية.

ولم يكن الشعراء الاصلاحيون بدعا وقتها في هذا المجال، فكان الزهاوي يرى أن الذوق يستقبح تعطيل أرجل غانية الشعر من خلاخيل القافية، وقد ألفها أكثر من ألف وخمسمائة سنة. (2)

وكان العقاد يرى انتظامها متعة موسيقية تخف اليها الآذان، وإن انقطاعها شذوذ يؤثر في السمع (3).

بل يمكن القول:إن بعض القصائد الاصلاحية لن تجدلها رابطا أفضل من القافية الموحدة «لأن هذه القافية تصبح أشبه بسياج متين يشد الأبيات المفككة في داخله، والقافية الموحدة عظيمة القوة في القصيدة فهي تلمها وتمنعها من الانفلات منعا صارما.» (4).

ويمكن أن نزعم أن الشعراء الاصلاحيين في استخدامهم للقافية الموحدة كانوا متأثرين بالفاصلة القرآنية، وبالموسيقى القرآنية، فمحمد العيد على سبيل المثال يبدو ذلك بارزا لديه، حين يورد بعض الأشكال الموزونة في أبياته كما وردت في القرآن الكريم، كقوله : .

من يقل لا تأمنوا الغدر قلنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) (5)

---

1 - د. شكري محمد عياد، موسيقى الشعر العربي ، ص 90 ، وينظر للاستزادة أيضا ، التنوخي ، كتاب القوافي ، تحقيق : د. عوني عبد الرؤوف ، مكتبة الخانجي بمصر، ط2، 1978، ص 59-68.

2 - انظر : س. مورية، حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث، ترجمة سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة ، ط 1، 1969 ، هامش ص 51.

3 - انظر : د. بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار الثقافة، بيروت، 1985، ص 222.

4 - نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص 244.

5 - الديوان ، ص 131.

فالعجز من البحر المديد، ومأخوذ نصا من قوله تعالى :«وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» (1)

وقد يلجأ إلى نمط معين من الوزن مع احداث تغيير بسيط في الألفاظ كقوله :

اعلنوا البشرى فرادى وثبين   جاء نصر الله والفتح المبين. (2)

فأضاف في العجز كلمة (المبين) إلى الجملة القرآنية، ونحن لانشك في أن محمد العيد كان يستنجد في البحث عن القوافي بكتاب الله، خاصة وأن نهايات الفواصل القرآنية يمكنها أن تغني حاجته.

ونلمح ذلك واضحا في قصيدته «هذه خطوة» (3) التي خصصها لتقريظ كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الذي أعاد الاعتبار إلى الأدب الجزائري بعد أن لم يكن شيئا، وقد تمثل محمد العيد ذلك في صورة مريم مع عيسى عليهما السلام في البر والمعروف، والخلق من العدم، فاستوحى من ذلك قصيدته اليائية التي تستلهم من سورة مريم وفواصلها القرآنية التي تنتهي بالياء الممدودة.

وينطبق الكلام نفسه على قافية قصيدته في زلزال الأصنام (4)، التي كان فيها واقعا تحت تأثير سورة الزلزلة وفاصلتها التي تنتهي بالهاء الممدودة.

واضافة إلى ذلك استرعى انتباهنا ورود التصريع بكثرة في القصائد الاصلاحية، لكونه يمثل جانبا موسيقيا يفاجأ به المتلقي في مطلع القصيدة وفي البيت الأول على الخصوص، ويقدم للقافية التي ستطرد عليها القصيدة، وقد وجدنا في شعر محمد العيد وجلواح أن التصريع هو القاعدة في قصائدهما (5)، كما وجدناه يتكرر في شعر سحنون (6)، وزكرياء (7) وغيرهما، وغني عن القول أنه مظهر من المظاهر التقليدية للقصيدة.

* * * * * * * * * * * *

بعض مظاهر الخروج على النظام التقليدي

يمكن ادراج بعض هذه المظاهر في القضايا التالية :

1 - تحطيم أغلال القافية : لقد اعتبر بعض الشعراء أن القافية تشكل قيدا حديديا يكبل تقدم الشعر، فخرجوا إلى ايقاع موسيقي جديد تخلصوا فيه من قيود القافية، ومن قيود

1 - الآية 173 من سورة آل عمران.

2 - الديوان، ص 169.

3 - نفسه، ص 14.

4 - نفسه، ص 42، ويمكن الاطلاع على مقال شلتاغ، أثر القرآن في شعر محمد العيد، مجلة الأصالة ع 61/60، 1978.

5 - انظر مثلا في ديوانه:ص7/10، 12،14، 20، 23، 24، 26، 41، 43، 45، 49، 58، 63، 68، 75، 79، 83، 85، 87، 89، 92، 94، 96، 99، 102، 105، 108، 112، 115، 117 ... الخ.

6 - انظر مثلا في ديوانه:ص12، 14، 16، 18، 23، 25، 28، 30، 32، 36، 39، 42، 52، 64، 66، 74، 75، 76 ... الخ.

7 - انظر مثلا في اللهب المقدس :ص9، 20، 42، 57، 71، 100، 120، 130، 140، 146، 152، 166، 171 ... الخ.

الوزن أحيانا كما حددها الخليل في نظامها المحكم، قضاء على الرتابة والملل، ومسايرة للأجواء الوجدانية التي لم تعد مقيدة بمثل هذه الأغلال.

فكتب الشاعر حمود على سبيل المثال قصيدة «ياقلبي» (1) الخالية من الوزن حينا، والموزونة في بعض أجزائها حينا آخر، ولكن طابعها النثري الجاف جعلها أقرب إلى الخاطرة منها إلى الشعر، رغم أن الشاعر حاول تجزئتها إلى أسطر شعرية تنتهي أحيانا بقوافي متراوجة، ولم تتكرر لديه هذه التجربة الفاشلة في تصوره للشعر الحر.

ثم عمد إلى تغيير موسيقي آخر حين راح يراوح بين قوافيه، فبدل الالتزام بقافية مطردة في طول القصيدة - كما هو شأن التقليديين - قسم قصيدته «دمعة على الأمة» (2) المتكونة من ثلاثين بيتا إلى ما يشبه المقاطع العشرة، وكل مقطوعة يتراوح رويها بين الحروف : اللام، الميم، الباء على التوالي، وتتكرر على كامل أبيات القصيدة على النحو التالي : أ ب جـ، أ ب جـ، أ ب جـ

بكيت ومثلي لا يحق له البكا	على أمــة مخــلوقة للنــوازل
بكيت عليها رحمة وصبــابة	وإني على ذاك البـكا غير نــادم
ذرفت عليها أدمعا من نواظر	تساهر طول الليل ضوء الكواكب

فالشاعر كسر الرتابة التي تتركها عملية تكرار الروي بعد كل بيت، فجعل ثلاثة أحرف تتكرر على التوالي، ونحسب أن هذه المحاولة رغم مظهرها التجديدي إلا أن لها شبيها في الشعر العربي القديم، فقد وجدنا مقطوعة (3) للعجير السلولي (ت :5 هـ) يتراوح رويها بين اللام، الميم، الراء، الباء مما يجعلها قريبة الشبه جدا بقصيدة حمود.

ولم تتطور هذه التجربة، ولم يكررها الشاعر (4)، مما يدل على أنها محاولة غير جادة عاد بعدها إلى الصورة التقليدية للقصيدة.

ذلك أن (حمود) كان أكثر ميلا لتطبيق آرائه النقدية منه نزوعا إلى التجديد الشعري، وقد لجأ الشاعر إلى تكسير رتابة الروي، ففي قصيدته «فحياة العز بالعلم الثمين» (5) حاول أن يجعل قوافيها متقابلة بالتخالف، فالشاعر قابل بين قافيتي

---

1 - انظر : وادي ميزاب، ع 95 ، 1928/8/10.

2 - انظر : شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ص 173.

3 - يقول فيها : - الا قدر أرى إن لم تكن أم مالك بملك يدي أن البقاء قليل

رأى من رفيقيه جفــاء وبيعة	إذ قام يبتاع القلاص ذميم
فقال لخليه ارحلا الرحل إنني	بمهلكة والعاقبــات تــدور
فبيناه يشري رحله قال قائل	لمن جمل رخوا الملاط نجيب

انظر : د. محمد عوني عبد الرؤوف، القافية والأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي، مصر، 1977، ص 172/171.

4 - اللهم إلا في تكرار قصيدة : في سبيل الحق، وهي ثنائية الروي (لام/ميم)، وادي ميزاب، ع 87، 28/6/15، ص 03.

5 - انظر : وادي ميزاب، ع 36 ، 1927/6/18.

الصدرين في البيتين الأول والثاني، وبين قافيتي العجزين أيضا على شكل أب، أب ... الخ. ثم يورد بيتا على شكل لازمة بين كل بيتين، يتكرر رويه باستمرار، مستعملا في الشطر حرف (الدال) وفي العجز حرف (الراء)، على النحو التالي، حيث يقول :

لن ينال العز شعب كالجماد فاقد الاحساس خال من شعور

لن ينال المجد شعب بالرقاد يترك اللب ويعنى بالقشور

إنما المجد قرين بالجهاد ووئام وثبات في الطهور ... إلخ.

وفي مقطوعته «نحو الامام» (1) يحاول أن يقابل بين صدري كل بيتين وعجزيهما ويبدو أثر ذلك من اطلاعه على الشعر المهجري، وشعر جماعة أبولو، ودراسته لشعر الشابي..

وقد وجدنا عند اللقاني بن السائح محاولة تجديدية مسبوقا إليها من شعراء الموشحات والمهجريين، وجماعة الديوان، فقد عمد إلى تغيير الاطار الموسيقي التقليدي للقصيدة بتقسيم البيت إلى وحدات على النحو التالي :

أنا أهواك ومثلي في الهوى لا يبالي

صار جسمي من تباريخ الجوى كالخلال

إلى أن يقول :

يا ذوي الألباب يا أهل الحجى والصلاح

وطنوا النفس لأسباب العلا والنجاح

وارفعوا الوطن المفدي المجتبي بالجناح

فحياة الوطن تعلي شانكم في النواح

واطلبوا ما ضاع حق طالبوه في اعتدال (2)

فالقصيدة من بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن)، استخدم فيها الشاعر شطرا وأضاف إليه تفعيلة في العجز. «وهذه المحاولة لاتعدو أن تكون اضافة لقيد جديد لاتخففا من القيود القديمة، لأنها أضافت لازمة جديدة هي تلك القافية الداخلية في البيت» (3)

---

1 - انظر شعراء الجزائر، ج 1، ص 175.

2 - انظر شعراء الجزائر، ج 1، ص 56 - 61.

3 - د. ع. د. اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 57.

وهي محاولة لها شبيه عند العقاد في قصيدته «يا عام»، وعند أحد أقطاب المهجريين وهو الشاعر الياس فرحات. (1)

إن هذه المحاولة سطحية لتشكيل موسيقى البيت، ولم تكن جوهرية تعيد بناء هذا التشكيل، وهي ليست تجديدا لأن الشاعر يتحرك داخل اطار البحر العروضي، ويجتهد في ظل القواعد الخليلية،ولم يظهر في قصيدته سوى تغيير في ايقاع البيت (وحدة النغمة المتكررة) وهو تغيير كمي لا كيفي، أي في عدد التفعيلات، فبدلا من أن ترد ست تفعيلات، استغل منها الشاعر أربعا فقط وبذلك فإن التغيير لم يشمل سوى عدد ورود التفعيلة في الشطر لا في نوع التفعيلة وذاتها.

2 - لزوم ما لا يلزم : يبدو أن محمد العيد يكاد يكون الشاعر الوحيد من شعراء الاصلاح الذي اهتم باللزوميّات محاكاة لأبي العلاء المعري في لزومياته، مع أن مثل هذه القضية الشكلية قد لا تشكل في العصر الحديث أي أثر فني.

ونزعم أن محمد العيد قد لجأ إلى مثل هذا الأسلوب لتقارب نمط حياته مع حياة المعري؛ حبا للعزلة، ويأسا من الحياة، وتبرما من الناس، وسخطا على أخلاق المجتمع، وكان ذلك الأسلوب نتيجة تأمل في الحياة، وفي السلوك الانساني.

إن محمد العيد كان يحس بغربة نفسية وسط المجتمع، وخلود إلى العزلة والتصوف كما عرف عنه، وقد عبر عنه شعرا (2). كما حاول في عزلته أن يتسلى بمثل هذا النظم الذي لا يرقى إلى مستوى الشعر. فالتزم في الغالب حرفا بذاته قبل الروي المعروف في مقطوعات وقصائد كثيرة، مما أضفى عليها قيودا اضافية كبلت انطلاقتها وأرهقت سيولتها.

«إن هذه القيود الثقيلة قد حدت من نشاط الذهن وشلت عاطفة الشاعر عن الحركة والاندفاع» (3)

ويبدو من خلال هذا المنحى أن محمد العيد كان يحاول إدخال نوع من الغنى والثرى على هذا النغم الرتيب الذي يطغى على نهايات القصائد، فكان له أثره السيء في تقييد حرية الشاعر، وتوجيه اهتمامه إلى القافية مع نسيان ما عداها. وأدى به هذا الوضع إلى استخدام ألفاظ مفروضة وليست مطواعة وهذه من شأنها «أن تقف التدفق الموسيقي أو تعطله تعطيلا» (4).

---

1 - م. س.

2 - انظر مثلا : بين الشك والتشكي (الديوان، ص 20)، ويخلد الاسلام (ص 178)، منظر تاعس ناعس (ص 30 وما بعدها).

3 - د. سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، ط 3، 1984، ص 229.

4 - د. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ص 104.

ويدور موضوع هذه اللزوميات كما ظهر عند المعري في الحكمة، والشكوى من الناس والزمان، والعزلة، والأمور الغيبية، وغيرها. (1)

3 - <u>استخدام المسرحية الشعرية</u> : إن محمد العيد وإن فشل في لزومياته، فقد اعتبر من رواد فن المسرح الشعري في الشعر الاصلاحي، بمسرحيته المتميزة : (بلال) التي كتبها في 1938/9/2(2)، ويبدو أن الدافع اليها :

1 - تأثره بما قدمته بعض الفرق المسرحية العربية التي زارت الجزائر، وفي مقدمتها فرقة يوسف وهبي، وفرقة الممثلة فاطمة رشدي (3)، والتي كانت عادة ما تقدم مسرحيتي شوقي : كليو باترا، ومجنون ليلى، وقد أعجب بهما الشاعر، واستجاب لنداء الاعجاب، فأسرع يطالع ما كتب شوقي من مسرحيات بلهفة وشوق.

2 - تأثره بمدرسة الاحياء العربية وعلى رأسها شوقي، الذي كانت له صولات في هذا الميدان.

3 - اطلاعه على شعر المهجر الذي عرف هو الآخر باهتمامه بهذا النوع من الشعر.

ولما كان الشعر هو وسيلته إلى المسرح، فقد نظم هذه المحاولة التي لم يردفها بغيرها، وهي مستوحاة من التاريخ العربي الاسلامي؛ أي أن تاريخ الدعوة الاسلامية هو اطار موضوعها وأحداثها وأشخاصها.. فجاءت مسرحية دينية سياسية تتعلق بأحد الصحابة الذين أبلوا في سبيل الاسلام بلاء حسنا، وكان لهم موقف عظيم أمام المشركين.

ويظهر أن فكرة هذا الموضوع التي شغلت ذهن محمد العيد، لم يستطع التعبير عنها بقصيدة مطردة الوزن والقافية. فكان الاتكاء على عمل متكامل في شكل مسرحية، امتزجت فيها الفكرة التاريخية الدينية بالواقع المعاصر تلميحا لا تصريحا.

ولم ترق هذه المسرحية مثلا إلى مستوى مسرحية «مقتل سيدنا عثمان» لمحمد فريد أبو حديد، التي نشرت عام 1927، والتي لا نشك في اطلاع محمد العيد عليها، وهي أول مسرحية عربية كتبت بالشعر المرسل، تلك التي سمح الشاعر فيها لنفسه أحيانا أن يستخدم عددا غير منتظم من التفعيلات في نظمه غير المقفى، واستخدم فيها تقنيات جديدة، فتخلى عن قسمة البيت إلى شطرين، وضمن الأبيات، وتصرف في عدد التفعيلات ... الخ (4).

---

1 - انظر مثلا القصائد التالية : ص 361، 362، 363، 364، 368، 369، 371، 372 ... الخ.

2 - مسرحية بلال بن رباح، المطبعة العربية بالجزائر، 1938.

3 - وقد كتب بعض الشعراء قصائد اعجاب بالفرقتين، ينظر : الهادي السنوسي، تحية فرقة يوسف وهبي، البصائر، س 2، ع 113، 1950/3/13، ص 7، وخبشاش، الجزائر تحي مصر في شخص الست فاطمة رشدي، النجاح، ع 1304، 1932/5/13، ص 3.

4 - انظر : س. مورية، حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث، ص 40.

وقد استخدم أحمد شوقي النهج نفسه من تغيير البحور والقوافي خلال أداء بعض الشخصيات لجانب من الحوار في الموقف نفسه (1).

ولو عدنا إلى محمد العيد لوجدناه قد قسم مسرحيته إلى فصلين، في الفصل الأول ثمانية مشاهد وفي الفصل الثاني تسعة. ولو أخذنا على سبيل المثال أحد هذه المشاهد لنلاحظ الشكل الفني المتبع، وليكن المشهد الخامس من الفصل الأول، يقول فيه الشاعر :
- ولما كانت بداية المشهد لها علاقة بنهاية المشهد الرابع، نبدأ من المتحدث الثاني الذي يدور حديثه عن بلال -

أمية : وماذا كان منه فليس عهدي   به إلا بصيرا بالصواب

عقبة : يزور محمدا سرا !

أمية :   أحقا ؟

عقبة :   أجل وينال منه بالسباب

أمية : أأنت رأيت ذاك ؟

عقبة :   نعم مرارا

وإن حذق التنكر في الثياب.

أمية : إذن هو بي حفي في حضوري   وخصم لي مبين في غيابي

لأنتقمن منه

عتبة :   تأنّ

عقبة :   خذه

عتبة :   تأن ولا تعجل بالعقاب

وسله فإن أقر فعظه قولا

عقبة :   وصب عليه أسواط العذاب (2) .... إلخ.

فهذا المشهد اختار له الشاعر بحرا معينا هو البحر الوافر (3)، وتوزيعه العروضي

---

1 - م. س. ص 98.

2 - مسرحية بلال، ص 10.

3 - وقد أشار الدكتور ناصر في كتابه : الشعر الجزائري الحديث .. سهوا أن بحر المشهد هو البحر الطويل . انظر ص 208.

يتم على النحو التالي :

أمية : مفاعلْتن مفاعلتن فعولن مفاعلْتن مفاعلتن فعولن

عقبة مفاعلتن مفاعلتن

أمية : فعولن

عقبة : مفاعلتن مفاعلْتن فعولن

أمية : مفاعلتن مفاع

عقبة : لتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

أمية : مفاعلتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاع

عتبة : .... لتن ف

عقبة : عولن

عتبة : مفاعلتن مفاعلْتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

عقبة : مفاعلتن مفاعلْتن فعولن

ونلاحظ من خلال ما سبق :

- استخدام بحر واحد على كامل المشهد.

- الاحتفاظ بعدد التفعيلات المعروفة للبحر الذي يستخدمه في كل بيت، فلم يعتمد التفعيلة وحدة قائمة بذاتها، بل وحدة ضمن اطار البيت الواحد، ولذلك نجد الشخصية تنطق بجزء من البيت، وتكمل الأخرى جزءا منه حتى تكتمل تفعيلات البيت، فقد يشترك في النطق بالبيت ثلاثة أشخاص أو أكثر أو أقل.

وكأني بالشاعر ينشئ هذه المقطوعات ثم يوزعها على شخوص المسرحية فيأتي الحوار بعديا لاحقا طارئا غير مسهم في تطوير أحداث المسرحية.

فإعادة للمشهد السابق يمكن كتابته على الشكل التالي :

وماذا كان منه فليس عهدي	به إلا بصيرا بالصواب
يزور محمدا سرا. أحقا !	أجل وينال منه بالسباب
أأنت رأيت ذاك ؟ نعم مرارا	وإن حذق التنكر في الثياب
إذن هو بي حفي في حضوري	وخصم لي مبين في غيابي
لأنتقمن منه. تأن. خذه	تأن ولا تعجل بالعقاب
وسله، فإن أقر فعظه قولا	وصب عليه، أسواط العذاب

إن محمد العيد « قد تبنى هذا المنهج احساسا منه بأن الأصل في الحوار المسرحي هو المعنى، والموقف، وليس هو المحافظة على القافية وعدد التفعيلات على حساب الفن. إن الحكاية ،والشخصيات والأفكار، والمناظر تتطلب ذلك بل لأن رتابة البحر والقافية قد تصرفان انتباه المشاهدين عن الحكاية والشخصيات » (1).

وإن كنا نتفق مع الدكتور ناصر فيما ذهب إليه، إلا أننا نجد محمد العيد يضع في حسابه دائما أهمية القافية والبحر في لم شتات الحوار في النهاية وهو ما أشرنا إليه في الشكل السابق، مما يضعف رسم شخصيات المسرحية، وتوزيع الحوار وتلوينه، وندرة الاستفادة من الحيل المسرحية، وغيرها.

ويبدو أن محمد العيد كان بامكانه المزج بين البحور في مثل هذا المشهد، تبعا لما تمليه الفكرة، ويطرحه الانفعال النفسي، وكذا الموقف والدور الذي تلعبه الشخصية.

وكان بالامكان تغيير البحر والقافية خلال الحوار الذي تؤديه الشخصية في المشهد نفسه، تبعا لتغير الموقف نفسه، فشخصية (أمية) المتعجرف الناقم على (بلال) تقتضي موقفا حادا عصيبا، ولا يمكن مقارنتها بموقف (عتبة) الذي يحاول تهدئته، ولا بموقف (عقبة) الذي يقوم بدور الواشي.

إن المسرحية تمثل على الخشبة، وتتعدد نغمات الممثلين، وتتطور الحكاية، وتتبدل

1 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 210.

المشاهد ويتعدد الحوار، وتتغير الأدوار فتتغير معها النغمات مما يؤدي إلى تغيير البحور المستعملة. (1)

وقد حاول محمد العيد أن يغيرها بين مشهد وآخر لا في نفس المشهد. وهو لم يلجأ إلى ذلك عجزا أو قصورا بل عن اقتناع تام بما يفعل؛ ايمانا منه بأن «رتابة البحر والقافية (في كل المشاهد) قد تصرف الانتباه عن الحكاية والشخصيات» (2)

ومهما يمكن قوله عن هذه التجربة إلا أنها «تعد تطورا بالنسبة إلى شعر العيد، وسبقا في هذا الميدان بالنسبة إلى الشعر الجزائري الحديث.» (3).

4 - استخدام القصة الشعرية : عرف التراث الشعري العربي هذا النوع من القصص الشعري منذ القديم، مع أمرئ القيس، والمنخل اليشكري، وعمر بن أبي ربيعة، وغيرهم، ويغلب عليها عادة الطابع الغزلي.

ويمكن اعتبار هذا النوع من فن الحديث المنظوم، وليس من فن القصة. ولقد عرف تطورا في العصر الحديث، ولا سيما على أيدي شعراء المهجر.

ومن خلال القصة يحاول الشاعر بث أفكاره الاصلاحية، وآرائه، ومواقفه من القضايا لأن القصة تساعده على توصيل هذه الأفكار بأسلوبها الجذاب، ومتابعة المتلقي لها بعرضها المشوق.

وفي الشعر الاصلاحي يمكن ملاحظة أنواع من القصص الشعري :

1 - القصص الواقعي : الذي يستمد عناصره من الواقع الجزائري المعيش شخوصا وأحداثا وأماكن، ويعرض مشكلة أثرت في الشاعر فصاغها شعرا، مثل قصيدة «الفتاة الجزائرية المغتصبة» (4) لمحمد الهادي السنوسي ذات المغزى الاجتماعي، والتي يبدأها بنبذة مختصرة «لتفهم هذه الدمعة المنسكبة من مهجة ابن وطنك.» (5).

2 - القصص الخيالي : التي يبتكرها الشاعر لتحقيق غرض معين، من مثل قصيدة «مشاهدات صورتها يد الخيال» (6) لخبشاش، وهي ذات طابع اجتماعي. أو القصيدة التي كتبها السنوسي لجمعية مكارم الأخلاق تحت عنوان : كأس الراح. (7)

---

1 - وإن كان بعض النقاد كالنويهي اعتبر القصيدة التي تتغير فيها البحور ما هي إلا أصوات تشبه صراخ المجانين في مستشفى الأمراض العقلية، كل منهم يصرخ بنغمة مخالفة تبعا لمرضه العقلي.» قضية الشعر الجديد، القاهرة، 1964، ص 101.

2 - س. مورية، م. س. ص101.

3 - د، ناصر، م. س. ص 210.

4 - شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 2، ص 190 وما بعدها.

5 - م. ن. ص 190.

6 - جريدة النجاح، س 10، ع 820، 1929/12/02، ص 03.

7 - انظر : السنوسي، الأدب العربي إلتفاتة إلى الماضي، م هنا الجزائر، ع 44، مارس 1956، ص 03.

والملاحظ أن الشاعر يتدخل في نهاية القصة مبرزا الغرض منها، مشبعا اياها حكما ونصائح، مما يبعدها في الواقع عن استكمال المقومات التي يقوم عليها الفن القصصي.

فالتعقيب على القصة في ذاته «الصاق مذيلة بجسم القصة غريبة عنه .. فعلى الراوي أن يترك قصته تتجاوب بأصدائها في نفس القارئ، ويتأمل بنفسه مراميها، ويستخرج العبرة منها .. أما تدخل الراوي وشرحه لما يريد في القصة ففضول لا يسوغه الفن القصصي» (1)، حتى وإن كان هذا الفن يتدثر برداء الشعر.

3 - <u>القصص الحواري</u> : أو الحوار القصصي والذي هو ليس من فن القصة، ولكنه من سمات التجديد يطبع القصيدة بتموجات، تنقل اهتمامات القارئ بين قضايا متعددة، وتستمع إلى أصوات متعددة (صوت الشاعر وغيره)، وهو نوع فني يكسر الرتابة، ويقضي على الملل في القصيدة التقليدية، ويشيع فيها التنوع والاختلاف، ويضفي عليها الحركة والتشويق اللذين يحفزان المتلقي على الاصغاء أو المتابعة.

ويكثر عادة في القصائد التي تحتوي على ألفاظ القول، ونجد هذه الظاهرة عند شعراء كثيرين مثل : محمد العيد، أبو لحبال (2)، وغيرهما.

ويمكن التمييز بين أنواع من أساليب القص :

1 - أسلوب نجد فيه ألفاظ القول كما أسلفنا، في مقطوعات كثيرة، أو في أبيات من قصائد.

2 - أسلوب أكثر ايحاء، يعتمد على حادثة معينة، يتتبعها واصفا، وناقلا جزئياتها مثل قصيدة الفتاة الجزائرية التي سجلها الشاعر «في أسلوب قصصي ينضح بالثورة والسخط» (3)، وراح يغير في القصيدة والوزن والقافية حتى يلائم المقام، فينتقل من البحر القصير إلى البحر الطويل ذلك أن الأول «يناسب السطو والسرقة» (4) والثاني «يناسب الختل والحيلة والمكر» (5)

لكن القصيدة لا تستمر على هذا المنوال حتى النهاية. إذ ان الشاعر باعتباره مصلحا، ينهيها باستنهاض الهمم، واثارة النخوة، وايقاظ النفوس الجامدة، وتحريك الضمائر الميتة انتقاما للشرف المداس، فالهدف ليس القص، بل الموعظة.

5 - <u>استغلال نظام المقطوعات</u> : ويبدو أن الشعراء الاصلاحيين قد ظنوا كما ظن غيرهم

---

1 - د. أنس داود، التجديد في شعر المهجر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص 389.

2 - انظر : محمد العيد، في ظلال الخير، ص 256.

و : حسن بولحبال، الاصلاح، س 3، ع 6، 1929/10/24، ص 03.

3 - د. الركيبي، الشعر الديني، ص 692.

4، 5 - م. ن. ص 292.

من الشعراء العرب المحدثين أن «المهارة والبراعة في نظم الشعر، إنما تكون بالاكثار من الأبيات التي تبنى على قافية واحدة، فانصرفوا عن التجديد في نظام القوافي، وقنعوا بالنظام المألوف المعهود الذي روى لنا منه معظم الشعر العربي في كل عصور الأدب.» (1)، ورغم ذلك حاول بعضهم استخدام نظام المقطوعات، وهو شكل يتكون من عدد منتظم أو غير منتظم من الأبيات مع تغيير القافية بعد كل مجموعة من الأبيات محددة العدد.

وبهذا النظام نوّع الشعراء النغم، والتزموا القافية في مقطوعات متساوية مع اتحاد الوزن في القصيدة كلية، تطويعا منهم للقصيدة حتى تعبر عن هذه الأجواء المشحونة التي يعيشها الشاعر الاصلاحي، والانفعالات اليومية التي يتعرض لها، لأن ذلك لا يتطلب قصائد مطولة على نسق واحد، بل يتطلب مقطوعات يتنوع فيها النغم، مثلما تتنوع عاطفة الشاعر من رضى إلى سخط، إلى شعور باليأس، إلى تفاؤل، إنه الوجدان المضطرب الذي تتغير فيه خوالج النفس باستمرار، فإذا هي حية نابضة لا تهدأ ولا تريم، وإنما تتأرجح بين الشك واليقين، بين اليأس والأمل.

وقد ظهرت مثل هذه المقطوعات المتأثرة بالشعر المهجري عند الشعراء الوجدانيين وخاصة عند أحمد سحنون (2)، والسائحي (3)، وغيرهما.

6 - <u>مظاهر فنية أخرى</u> :

- مثل تلك المحاولات التي قام بها مفدي زكرياء باعتبارها مذهبا رصينا في الشعر الجديد حسب زعمه،و مفدي زكرياء من أشد الشعراء تمسكا بأهداب القصيدة التقليدية، وكان يقف ضد الشعر الحديث، وأشكاله المتعددة، فحين سئل عن موقفه من الشعر الجديد، قال : «لا يوجد في اعتقادي وفي مفهوم عقلاء بني آدم شعر قديم أو جديد، فأما شعر وأما لا شعر وكفى، وأنا أؤمن بالأصالة وبصلة الرحم بين المعاني والكلمات، وبالنبض الموسيقي المتجاوب مع نبضات القلب، وما عدا ذلك فسموه إن شئتم نثرا مجنحا، وإن خلا من البيان وأصالة الكلمة فسموه رطانة ولغوا وهراء.» (4) وقد التزم الشاعر في قصائده القافية المطردة طوال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، باستثناء الاناشيد التي تتطلب نسقا معينا، وحاول في نهاية الخمسينيات تجديد موسيقى بعض القصائد باعتبارها عينة من مذهبه الرصين في الشعر الجديد. (5)

فتقوم قصيدته «أنا ثائر»(6) التي نسجها على منوال بعض التجارب المهجرية

---

1 - د. ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 310.

2 - انظر مثلا ديوانه الصفحات التالية : 71، 154، 241، 309، 310، 311، 319، 320، 365 ... الخ.

3 - انظر مثلا ديوانه : همسات وصرخات، الذي يشمل حوالي نصف قصائده غير خاضعة لنظام القافية المطردة.

4 - انظر : المقابلة التي أجراها معه أبو القاسم بن عبد الله، الشعب الثقافي، ع 4، 5 أوت 1972.

5 - انظر مقدمة قصيدته : أنا ثائر، (1959)، اللهب المقدس، ص 124.

6 - م. ن

والمشرقية على المحافظة على الايقاع بين تفعيلاتها وأبياتها، ويلتزم بأحداث نوع من التقابل الموسيقي بين مقاطعها. (1)

يقول الشاعر :

في الحنايا (فاعلاتن)

وسواد الليل قاتم (فعلاتن فاعلاتن)

ما لت الأكوان سكرى (فاعلاتن فاعلاتن)

ثملات (فعلاتن)

أودعتها، مهْجةُ الأقدار سرا (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن)

في الزوايا .. (فاعلاتن)

ويظهر من خلال هذا المقطع أنه تجديد سطحي، مقتبس من تجارب سابقة، وأن الشاعر رغم علاقته بالشعر الوجداني في موسيقاه ولغته، إلا أنه ظل متمسكا بأهداب القافية المطردة، والقصيدة التقليدية.

ويمكن اعتبارمثل هذه المحاولة تمرسا بالصورة التقليدية، ومحاولة تلوينها بموسيقى جديدة، بتوزيع القافية والأشطر، غير أن الشاعر مازال مرتبطا بترتيب معين لبعض القوافي المتكررة وما تزال القصيدة مجموعة شطرات مقتبسة وزنا ومتساوية في كل مقطوعة على نظام معين.

- هذا بالاضافة إلى أن الشعراء قد اعتمدوا عدة أساليب أخرى، مثل المسمطات، والتنويع في المقاطع، والأبيات المزدوجة، وغيرها من مظاهر التغيير الشكلي التي لاتعطي للقصيدة الاصلاحية نكهة خاصة لكون هذه المظاهر مطروقة في التراث الشعري العربي قديما وحديثا، ولكنها تؤكد من جهة ثانية احساس الشعراء بوطأة التشكيل الموسيقي للقصيدة الشعرية القديمة التي تقف حائلا دون البوح بمشاعرهم ووجداناتهم، لأنها تقيدها بسلسلة من الأوامر،وفي بحور عروضية واضحة، وأحسّوا كغيرهم من الاحيائيين أنهم في حاجة وكيما يعبروا عن الموسيقى التي تنغمها مشاعرهم المختلفة، إلى شيء من التعديل في الفلسفة الجمالية التي تسند تلك القوالب الموسيقية القديمة. غير أن استقرار تلك الفلسفة الجمالية في ضمائر الشعراء لكثرة ما قرأوا من الشعر

1 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث. ص 211.

التقليدي وما نظموا على نسقه حالت دون الخروج الحقيقي على تلك القوالب، الخروج الذي يفلسف موسيقى الشعر فلسفة تأخذ في الاعتبار الأول قيمة الايقاع النفسي للنسق الكلامي لا صورة الوزن العروضي للبيت الشعري» (1).

أنها محاولات جزئية خاضعة «في صميمها للاطار التقليدي المستقر في ضمائر الشعراء والناس على السواء» (2)، وهي رغم كل شيئ تؤكد أن الشعر الاصلاحي لم يبق جامدا على الشكل العمودي الصارم طوال فترة ما قبل الخمسينيات، وإن كانت روح القصيدة القديمة بتقاليدها الفنية هي المسيطرة، رغم الخروج إلى المقطعات أو الرباعيات أو ما إلى ذلك من صور التقسيم التي أمكن ادخالها على القصيدة تخفيفا من حدة الأوزان أو رتابة القوافي (3)، ورغم الاتجاه نحو الشعر الحر كما عرف عند رواده في المشرق من قبل سعد الله (4)، وباوية وغيرهم، أي على يد الجيل الذي نشأ في حضن الجمعية ثم واصل دراسته في جامعات المشرق واطلع على بوادر التجديد هناك.

* * * * * * * * * * *

<u>البحور المستعملة في الشعر الاصلاحي</u> : لقد كان الشعر الاصلاحي أسير الأوزان العروضية، لأن سلطان القديم يسيطر على الشعراء وعلى المجتمع، ويشكل الذوق العام، ومهما حاول الشعراء الخروج على جوهر التراث الشعري؛ تغييرا للموضوعات، وتلاعبا بالأوزان، وتبديلا للقوافي، إلا أن العمود الشعري ظل مسيطرا على القصيدة،

وسنحاول في هذه العُجَالة أن نتعرض إلى البحور المستعملة في هذا الشعر، التي لاتخرج عن البحور الخليلية يستقون منها أوزانا لقصائدهم.

وكان الشعراء الاصلاحيون يميلون إلى البحور الطويلة : الكامل، الخفيف، الرمل البسيط، الطويل، المتقارب، الوافر .. لأن «أسلوب الانشاء يتطلب منهم نفسا طويلا واطنابا وموسيقى منسابة، لذلك نجد الشعراء يقلدون القصائد القديمة التي شاعت في الأدب العربي وينسجون على غرارها.» (5).

ولعل الاهتمام ببحور الشعرالمستعملة ليست حكرا على الشعر الجزائري، بل هي ظاهرة على مستوى الشعر العربي، تقع تبعتها على شعراء النهضة الأوائل مثل شوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي الذين لم يستعملوا غير البحور المعروفة، ومن ثم فقد سار الشاعر المعاصر في طريقهم، وصنع صنيعهم (6).

واتضح من خلال بعض الدراسات (7) أن البحر الكامل هو المسيطر على شعر

1 – د. عزالدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 61.

2 – م. ن. ص 62.

3 – نفسه، ص 45.

4 – ينظر موقف الشاعر نفسه من هذا التجديد في : دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 51 – 53.

5 – د. الركيبي، الشعر الديني، 708/707.

6 – انظر : نازك الملائكة، شعر علي محمود طه، معهد الدراسات العربية، 1964، ص 192.

7 – خاصة تلك التي تضمنها كتاب : الشعر الجزائري الحديث للدكتور ناصر، التي استيقنا منها بعض الاحصائيات.

الأحياء والثورة بنسبة 70.96٪، ذلك أنه البحر المنافس للطويل، ويمتاز بايقاعه الموسيقي الهادئ والرصين، وملاءمته للموضوعات الجادة وهي التي عرف بها الشعر الاصلاحي، وكذا ملاءمته للانشاد أمام الجمهور، وهو «البحر الذي يستمتع به جمهور السامعين من محبي الشعر» (1) لموسيقاه المنسابة وتفعيلاته الصافية.

بلغت نسبته عند أبي اليقظان في ديوانه المطبوع 49.25٪، وبلغت نسبته في ديوان ابن رحمون 28٪، وفي ديوان سحنون 14.92٪، وفي ديوان محمد العيد 16.46٪ (2)، وفي ديوان جلواح 15.85٪ (3).

إن هذا التوجه نحو البحر الكامل كان وليد التأثر بمدرسة الاحياء العربية التي اعتنت كثيرا بهذا البحر وجعلته في الريادة من اهتماماتها (4). وقد سلك شعراؤنا هذا الاتجاه كما سلكه غيرهم من الشعراء المحدثين في الوطن العربي، لأن هذا البحر أصبح بحق في عصرنا الحديث «معبود الشعراء» (5) و«يمكننا الآن ونحن مطمئنون أن نصف الكامل بأنه مطية شعرائنا المحدثين.» (6)

- وقد ظهر الاقبال أيضا على البحر «الخفيف» الذي «بدأت تعلوا أسهمه في سوق الشعر» (7)، وفي الشعر الاحيائي على وجه الخصوص (8).

واهتم به الشعراء الاصلاحيون، فاحتل المرتبة الأولى في شعر العيد بنسبة 19.85٪، والثانية عند ابن رحمون بنسبة 24.5٪، والثالثة عند خمود بنسبة 15.82٪، ونفسها عند زكرياء بنسبة 12.19٪، وأكثر من نصف شعر عبد الكريم العقون قد نظم على هذا البحر، مما يدل على أن الشعراء الوجدانيين اهتموا به وصاغوا منه قصائدهم، لميلهم إلى الايقاع الموسيقي الخفيف الهامس. (9) والخفيف أخف البحور على الطبع، وأطلاها للسمع؛ يتناسب مع المشاعر الحزينة، والذكريات،ويمكن التصرف فيه بجميع المعاني، استغله التقليديون والوجدانيون وإن كان عند الأخيرين أوضح، ولذلك نجد مثلا أبا اليقظان لم يهتم به ولم ينظم فيه سوى قصيدة واحدة قي ديوانه المطبوع (10). ويرجع ذلك إما لكونه لايتناسب مع مظاهر الجدة والرصانة التي طبع بها الشاعر،

---

1 - د. ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 208.

2 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 270، 271.

3 - على اساس أنه في ديوانه "دخان الياس" هناك 10 قصائد من مجموع 62 قصيدة ومقطوعة واحدة.

4 - من ذلك أن هذا البحر يحتل المرتبة الأولى في شعر حافظ بنسبة 18٪، والاولى في شعر شوقي بنسبة 27٪. (انظر : د. ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 201/200).

5، 6 - نفسه ، ص 208.

7 - نفسه ، ص 200.

8 - من ذلك أنه يحتل المرتبة الثانية في شعر حافظ بنسبة 15٪، ونفس المرتبة في شعر شوقي بنسبة 11٪ ، انظر : م. ن

9 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 255/254.

10 - وهي قصيدة «في القلم»، انظرها في الديوان، ص 115/114، وبذلك لم تتعد نسبة النظم في هذا البحر عنده 2.41٪ من شعره.

أولكون الاهتمام به قد ظهر متأخرا أي بعد الأربعينيات، رديوان أبي اليقظان نشر في بداية الثلاثينيات، بالاضافة إلى كون هذا البحر يتماشى «مع الطبع الرومانسي المتميز بحساسيته الغنائية وشعوره المرهف.» (1)، وهو يتنافى مع ما عرف عن شعر أبي اليقظان ذي الطابع التقليدي الذي يميل إلى الكامل أكثر من غيره.

- وقد ظهر الاهتمام ببحر «الرمل» واضحا في الشعر العربي الحديث بعد أن كان خاملا في أشعار القدماء، وأوشك أن ينزل المنزلة الثانية في أوزان الشعر (2)، فزادت نسبته عند حافظ وشوقي (3)، وبلغت عند أحمد سحنون نسبة 22.70٪، وعند حمود 23.89٪، وعند السائحي الكبير 27.71٪ (4)، وهؤلاء الشعراء يتجهون في أشعارهم وجهة وجدانية، مما يدل على أن هذا البحر يتلاءم مع الانفعالات السعيدة أو الحزينة، ومع الهموم الفردية والجماعية «أكثر مما يتناسب مع التأملات الفلسفية أو المواقف التحليلية التي يتغلب فيها الموضوع على الذات» (5)، ولذلك نجد نسبته تتدنى في شعر محمد العيد إلى 3.23٪ مثلما تتدنى في شعر ابن رحمون إلى نسبة 7.21٪. (6)

وفي ديوان أبي اليقظان بلغت نسبته 13.43٪، وقد ارتبط عنده بوصف المناسبات والفخر والحماسة والرثاء. وقد ارتبط هذا الوزن خلال الثورة المسلحة بالأناشيد التي يتغنى بها الشعراء، لأنه يساعد بايقاعه الراقص على التلحين والغناء، ولما كانت آذاننا تألفه، وتستريح إليه وجده الموسيقيون والملحنون أطوع في الغناء وأقبل للتلحين. (7)

- وقد بدأ الاهتمام ببحر «الطويل» ينحسر مع بداية النهضة الحديثة، فتقلص في شعر شوقي، وحافظ، وبلغت نسبته عند أبي اليقظان في ديوانه المطبوع 16.41٪.

واحتل المرتبة الثالثة في شعر محمد العيد بنسبة 15.58٪، والمرتبة الرابعة في شعر حمود بنسبة 12.65٪، والمرتبة الثانية في شعر مفدي بنسبة 14٪ (8)، والمرتبة الأولى في شعر جلواح بنسبة 26.98٪، مما يؤكد على أنه لم يتقلص في الشعر الاصلاحي، بل بقيت له قيمته التي اكتسبها أساسا من ثقافة الشعراء التقليدية، ومن كونه يصلح أكثر من غيره لمعالجة الأغراض الجدية، ذات الشأن والأهمية، وما أكثرها في الشعر الاصلاحي.

وقد انحسرت نسبة الاهتمام به بعد الأربعينيات وخاصة في الشعر الوجداني، فلم

1 - انظر : د. ناصر، م. س. ص 255.

2 - انظر : د. ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص 200.

3 - احتل عندهما المرتبة الخامسة بنسبة 7٪ في شعر شوقي، و8٪ في شعر حافظ.

4 - انظر : د. ناصر، م. ض. ص 257.

5 - نفسه ، ص 259.

6 - نفسه ، ص 257.

7 - د. ابراهيم أنيس، م. ض. ص 202.

8 - د. ناصر، م. ض. ص 270.

تتعد نسبة 6.30٪ عند سحنون، ونسبة 2.3٪ عند ابن رحمون، ونسبة 2.63٪ عند الأخضر السائحي، وفي شعر الثورة أيضا (1)، نظرا لصعوبة النظم على وزنه، باعتباره بحرا غير صاف، وتوجه الشعراء إلى البحور الهامسة ذات الايقاعات السهلة التي تتناسب مع أجواء الانفعالات والمشاعر.

واهتم شعراء الاصلاح بالبحر البسيط، الذي احتل المرتبة الأولى في شعر حمود رمضان بنسبة 32.70٪، والمرتبة الثالثة في شعر ابن رحمون بنسبة 20.20٪، والمرتبة الرابعة في ديوان محمد العيد بنسبة 14.72٪. وقد ارتبط «بالموضوعات الجليلة التي تتطلب الموقف الجاد، والنظرة الصارمة .. ومواقف استنهاض الهمم وتحفيزها إلى العمل الوطني أو القومي ..» (2)، ففي ديوان أبي اليقظان على سبيل المثال نجد (03) قصائد على هذا البحر، كلها تنحو هذا المنحى، وهي :«الشعب يستغيث» (3)، «في اصلاحات دار التلاميذ بالقرارة» (4)"دمعة سخينة على العلم والدين» (5).

وفي ديوان ابن رحمون نجد (09) قصائد على وزن هذا البحر، كان فيها الشاعر متأملا هادئا، و رزينا مفكرا، ومتوثبا لاستنهاض قومه، واثارة نخوتهم (6).

وقد نظم الشعراء أيضا على الأوزان المجزوءة، القليلة المقاطع، في حين أن القدماء «كانوا يميلون إلى الأوزان الكثيرة المقاطع ويؤثرونها على المجزوءات، وأن العناية بالمجزوءات والنظم منها صفة من صفات العصور المتأخرة» (7)

ولقد تزايد الاقبال على المجزوءات في الشعر الجزائري، ففي شعراء الجزائر في العصر الحاضر بجزءيه لانجد سوى (10) قصائد مجزوءة، أما في ديوان محمد العيد فنجد (27) قصيدة، وتطور هذا الاهتمام عند الوجدانين؛ فأحمد سحنون على سبيل المثال، نجد في ديوانه (12) قصيدة مجزوءة، وفي همسات السائحي (16) قصيدة من أصل (46) قصيدة (8).

ثم تطور الأمر أكثر خلال الثورة المسلحة، حيث نظمت منها الأناشيد التي تحمس الفعل الثوري، وتحث الشباب، وتوجه الأمة، خاصة وأن «النظم حين يتم في ساعة الانفعال النفساني يميل عادة إلى تخير البحور القصيرة وإلى التقليل من الأبيات.» (9).

1 – د. ناصر، م. س. ص 270.
2 – د. ناصر، م. ن. ص 262.
3 – الديوان (المطبوع)، ص 96.
4 – م. ن، ص 118.
5 – م. ن،، ص 143.
6 – منها : ريحانة الجزائر (ص 75)، من وحي الهجرة (ص 17) ... الخ.
7 – د. ابراهيم أنيس، م. س. ص 192.
8 – د. ناصر، م. س. ص 270.
9 – د. ابراهيم أنيس، م. س. ص 179.

ب- الموسيقى الداخلية :

هل يمكن أن نحصر الشعر في موسيقاه الخارجية دون غيرها ؟ وهل يسمى الشعر شعرا إذا اكتفى بهذه الموسيقى ولم يثرها بموسيقى داخلية ؟ لانعدم الصواب إذا قلنا أن اعتماد الشعر على الموسيقى الخارجية دون غيرها يعتبر مجرد نظم لا يرقى إلى مستوى الشعر. لأن موسيقى الشعر الخارجية ممثلة في علمي العروض والقوافي لاتضبط إلا ظاهر الشعر، و«وراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء.» (1).

وهل يمكن القول - كما ذهب إلى ذلك الدكتور الركيبي - بأن موسيقى الشعر الاصلاحي في جملتها ظاهرية تعتمد على الوزن العربي المحفوظ، ولا تهتم بالموسيقى الداخلية التي تعبر عن معايشة للموضوع واندماج فيه ؟ (2)

يظهر لنا أن الشعر الاصلاحي قد اهتم - حقيقة - بالموسيقى الخارجية بحورا وقوافي، ولكنه لم يركن إلى ذلك فقط، بل راعى أغلب الشعراء في قصائدهم الموسيقى الداخلية، وما يتعلق بجرس الألفاظ وايقاعها، أو «النغم الذي يجمع بين الألفاظ والصورة، بين وقع الكلام والحالة النفسية للشاعر» (3) وبعبارة أخرى «المزاوجة التامة بين المعنى والشكل، بين الشاعر والمتلقي.» (4).

ويمكن اعتبار هذه الموسيقى نوعا من الايقاع الداخلي للكلمات «أي ايقاع الحركات والسكنات بما فيها من قوة أولين، ومن طول أو قصر، ومن همس أو جهر.» (5).

إن الشعر الاصلاحي وخاصة في القصائد التقليدية المحافظة قد اعتنى عناية واضحة بالموسيقى الداخلية «الناتجة عن مخارج الحروف، وتآلف الألفاظ والكلمات» (6)، ومهما حاولنا أن ننكر ذلك فإننا نؤكد كما ذهب إلى ذلك الدكتور ناصر، أن هذا الجانب من الصياغة الموسيقية مما تمتاز به القصيدة في هذا الاتجاه.» (7)، خاصة عند شعراء بارزين مثل : أبي اليقظان، محمد العيد، ابن رحمون، مفدي زكرياء، الهادي السنوسي، وغيرهم.

إن هؤلاء الشعراء قد اعتنوا بنظم قصائدهم؛ واختيار ألفاظهم وكلماتهم، وتنويع

1 - شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ص 97.
2 - د. الركيبي، الشعر الديني، ص 689.
3، 4 - عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ص 354.
5 - د. عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 53.
6، 7 - د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص194.

أصواتها حتى تناسب الموقف النفسي، ذلك أن «النظم هو التعبير الخارجي لحالة داخلية» (1).

فنجد عند أبي اليقظان مثلا – كما أشار إلى ذلك الدكتور ناصر – ولعا خاصا وميلا واضحا إلى الكلمات المشتملة على حروف الصفير كالصاد والسين. وهي الحروف التي تشيع جوا رموسيقيا مطربا، يملأ النفس غبطة، وخاصة في المناسبات السعيدة، كقوله من قصيدته : إلذهب الخالص :

إن صفقت «مصر» به طربا — وسحبت ذيل الهوى عجبا

فطر «مزاب» تانها طربـا — ومد به كالمنـائس الرقص. (2)

ففي بيتين فقط توالت الصادات والسينات، مشعة حولها جوا من الطرب، ابتهاجا بكتاب الشيخ ابراهيم اطفيش الذي طبعه بالقاهرة، وعنونه بعنوان القصيدة.

أو قوله من قصيدة :«أنس الاخوة» حيث تتوارد السينات تباعا لتعبر عن جو الفرحة الذي يحياه الشاعر، حيث يقول :

وعشية فيها السرور تألقـا — والحسن نـاغى بالمحـاسن والكرم

يا حبذا هذا المقـام وأهلـه — لهم المقام وأهلـه بيض الشيـم

غرسوا الميامن في رياض معزة — فهم البحـور وسـادة خير الأمم

يارب فابق ضياءهم متجليـا — يجري على القرطاس اسنان القلم. (3)

ونجد بعض الأمثلة عند الشاعر محمد العيد حيث تبدو الموسيقى الداخلية مسيطرة على جو القصيدة، فقصيدته «بني التاميز» (4) على سبيل المثال، اعتمد فيها الراء المضمومة رويا وهي ذات جرس قوي، تؤثر في النفس. وتحمل نفسا شديدا في صلابتها وشدة وقعها، وقد استعمل اضافة إلى ذلك حرف الجيم بشكل ملفت للنظر (24 مرة في 12 بيتا) بمعدل (جيمين) في كل بيت، ولما كان حرف الجيم من الأصوات المجهورة، فقد أحدث شبه دوي في موسيقى البيت، لأن الموضوع يتطلب الصرامة والأنفة والجد، ولأن هذا الحرف يتناسب مع اللهجة الحاسمة التي لا ترتضي الذل، بل تقف هادرة في

1 – أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط 4، 1967، ص 75.

2 – الديوان، ص 98.

3 – م. ن ، ص 34.

4 – ديوان محمد العيد ، ص 374.

وجه الظلم، فنحس من خلال جرس الألفاظ المشتملة على حرفي الجيم والراء بمعاني القوة والعظمة والكبرياء في مثل الكلمات التالية : جرتم /جور/ ازدجار/ التجار/ انسجرت/ انسجار/ تشاجرت/الشجار/ الحجار/ نجار/ العجار/ انحجار/ الفجار/ انفجار ...

وقد نجد استغلال (الراء) رويا في القصائد الاصلاحية الثورية ظاهرة بارزة في شعر مفدي زكرياء،فقد استغلها مرفوعةومكسورة، وممدودة (1)، وكلها «تشيع في أعماق النفس ظلالا نفسية هي الشعور بالفخر والاعتزاز» (2).

وابن رحمون الشاعر الرقيق، ذوالحس المرهف، تكثر لديه الألفاظ ذات الجرس الموسيقي الهامس، فنجد عنده على سبيل المثال ورود حرف الحاء بكثرة، وما يحمله من جرس مملوء رحمة وتعاطفا وأخوة ومحبة، استمع إليه وهو يقول في هذا الموقف العصيب، برنة أسى، وشدة حزن :

لو صيغ لي من وحي أحمد ريشة	ورزقت من نور البيان مدادا
وأتت تصافحني عواطف حافظ	إذ يندب الزعماء والأمجادا
وشوارد الأمثال حوالي كالدمى	ألبسن من حلل النهى أبرادا
ومنحت أسلوب الوليد ووصفه	ما نلت من أزكى الرثاء مرادا
لكنه حزن عليك يحثني	والحزن يلهم أهله الانشادا (3)

لقد كانت كلماته معبرة عما يكابده من أحزان، وما يتجرعه من آلام، وما يعانيه من خطب جلل، ومصيبة فادحة أثر الخطب الذي ألم بالجزائر في فقدها ابنها البار عبد الحميد بن باديس.

ولا ريب أن هذه الميزة التي يتميز بها الشعر الاصلاحي تعود أساسا إلى «معرفة دقيقة بخصائص اللغة العربية، وتذوق لموسيقى الكلمات والحروف.» (4).

كما تعود إلى تشبع الشعراء بالقرآن الكريم، وما تطرحه آياته من مزايا صوتية وموسيقية في هذا المجال تتماشى مع الحالة النفسية والشعورية للشاعر.

وتعود من جهة أخرى إلى تشبع الشعراء الاصلاحيين بالشعر العربي القديم في

1 – انظر اللهب المقدس : 113، 133، 140، 152، 278، 305 ... الخ.

2 – د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 196.

3 – ديوان ابن رحمون ، ص 52/51.

4 – د. ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 197.

عصوره الذهبية؛ سواء في العصر العباسي، أو في العصر الحديث وخاصة عند مدرسة الاحياء.

وقد استغل الشعراء ماللغة العربية من ثراء موسيقى وتناسب بين أجراس الحروف، والملاءمة بين طبيعة المعنى المقصود وطبيعة الصوت الذي يؤديه، ذلك أن اللغة العربية «ذات طابع موسيقي تحاكي فيه الألفاظ صور المعاني، وتوحي بها من خلال موسيقى الحروف والبنية، وكثير من الألفاظ القرآنية جاء معبرا عن المعنى من خلال الصياغة، وإن لم يكن ذلك مطردا في الألفاظ كافة» (1)

فحين يقول الشاعر محمد العيد مثلا في قصيدته «أيها الرافعون القصور» :

ألا تذكرون حفاة عراة	أصابهم الفقر بالفاقرة
ألا تكرمون ألا تنقذون	وجوها تكبكب في الحافرة. (2)

فلفظة «تكبكب» ذات موسيقى موحية بمعناها، بل هي صورة حركية للمعنى، وقد جاءت في القرآن الكريم تجسد موقفا^المشركين^ وهم يساقون إلى النار «وكبكبوا فيها هم والغاوون» (3)، إلا أن الشاعر استعمل اللفظة في تصوير مشهد حياتي للفقراء، وهم يترنحون تحت شعور الذلة والاحتقار، ويعانون شظف العيش، ومصغبة الحياة، والأمثلة من هذا النوع كثيرة في الشعر الاصلاحي.

ونخلص إلى القول : إن الشعر الاصلاحي قد ظلت روح القصيدة القديمة بتقاليدها الفنية هي المسيطرة عليه، ولم يكن الشعراء أمناء لقواعد الخليل الموسيقية بالقدر الذي اتهمهم به أحد الدارسين (4). صحيح أن الشكل موروث، ولو كان ذلك يعوق الابداع لحذفنا من ديوان الشعر العربي كل ما قيل من شعر بعد العصر الجاهلي لأنه شكل موروث عنه، ثم أن «التزام الشاعر بالرنين الشعري للقدماء ليس في حد ذاته عيبا وليس جريمة يؤاخذ عليها» (5)، و«من مقدور الشاعر المحافظ على اشكال شعرية قديمة أن يفجر من خلالها الطاقة ويحررها ويضيئها، بل يمكن أن يحقق دنياه الفريدة والمبتدعة.» (6) لأن المحافظة على تقليد ما لشكل القصيدة أو حتى موضوعاتها لا يعني بالضرورة البقاء في أسرالتقليد والصنعة، فالشاعر المبدع يمكنه أن يظل مبدعا مع محافظته على الشكل القديم (7). أضف إلى ذلك أن طبيعة القضايا المعالجة تحتم مثل هذه الأشكال، وهذا الموقف ليس خاصا بالشعر الجزائري بل «انك تجد في شعر السياب

1 – شلتاغ عبود شراد ، أثر القرآن في شعر محمد العيد، مجلة الأصالة، ع 61/60، أوت/سبتمبر 1978.
2 – الشهاب، ج5 ، مج 11 ، أفريل 1934، الديوان، ص 251.
3 – الاية 94 . من سورة الشعراء.
4 – انظر : أزراج عمر ، الحضور، م. و. ك. الجزائر، 1983 ، ص 16 على سبيل المثال.
5 ، 6 ، 7 – انظر : محمد زكي العشماوي الرؤية المعاصرة في النقد والأدب ، دار النهضة العربية ، بيروت 1983 ، ص 26/25.

وغيره من شعراء المذاهب الجديدة التزاما بالوزن والقافية أو ما يسمى بـ«الشعر العمودي» إن كان الموضوع متصلا بمناسبة وطنية أو غيرها» (1) وكأن الشعر الحر لا يمكن أن يكون الأداة الصالحة للاعراب عن تلك الدواعي والمناسبات الوطنية وغيرها (2).

وقد سيطرت البحور التالية على الشعر الاصلاحي حسب الترتيب : الكامل والخفيف، والرمل، والبسيط، والطويل، كما اهتم الشعراء بالبحور المجزوءة التي تتناسب مع نظم الأناشيد الحماسية، وتتلاءم مع الانفعال النفساني.

وكان الاهتمام واضحا بالموسيقى الداخلية، فكانت بعض الكلمات موحية، تنقل إليك نقلا أمينا كل شحنة من تلك الشحنات الانفعالية المصبوبة في قوالب التجربة حتى لتستطيع أن تميز كل لحظة زمنية عاشها الشاعر وتركت ظلها في نفسه.

إن التجديد هو التفاعل مع الجديد دون الانقطاع عن الجذور المحلية، حتى لايكون الشعر نسخا مشوهة من تجارب الآخرين. والشعر الاصلاحي رغم كل ما قيل فيه يبقى وليد مرحلة تاريخية معينة وعاها الشعراء واختاروا لها - عن وعي - أسلوبها الفني الذي يقربها من افهام الناس، ويربطها باهتماماتهم وقضاياهم.

1، 2 - انظر : السامرائي ، لغة الشعر بين جيلين ، ص 233/232.

نحاول اجمال ما فصلنا القول فيه في الفصول السابقة ، لنؤكد أن هناك عوامل ومؤثرات أسهمت في تشكيل الشعر الاصلاحي، وتوجيهه نحو الوجهة الاصلاحية، وأهمها المؤسسات التربوية والثقافية المحلية والعربية التي هيأت خلفية ثقافية للشعراء، وربطتهم بالمدرسة الاحيائية، وبأزهى العصور الأدبية العربية.

واتضح لنا من خلال الفصل الأول الذي خصصناه للقضايا الدينية أن شعراء الاصلاح قد تربوا في أحضان القرآن الكريم، وتشربوا مبادئه؛ فرفعوا لواء الدفاع عن الاسلام، واستنهضوا الشعب للتمسك به امعانا في التصدي لمظاهر الانحراف والاحتواء والادماج.

واتسم موقفهم بسمتين بارزتين : سمة الحث على التمسك بالاسلام، وسمة التفنيد لادعاءات الكائدين، والرد على مطاعنهم في الاسلام.

ومرت النظرة إلى حالة الدين في الجزائر بعدة مراحل؛فكان في العشرينيات بحاجة، إلى اسعافه بالوسائل اللازمة من علم وثقافة، فتطغت النبرة التفاؤلية تارة، والتشاؤمية تارة أخرى.

واعتبر في الثلاثينيات وسيلة لتغيير النفوس، وبعد الحرب الكونية الثانية، وأحداث الثامن ماي، أصبح في نظر الشعراء عرينا لليوث، وملجأ للأساوش، وتغلف بمعان جديدة أكثر ثورية وأبعد نظرا.

ومن خلال تتبعنا لموقف الشعر الاصلاحي من الطرقية، لاحظنا أنه قد هاجمها، كاشفا عن اعتقاداتها الخاطئة، مبرزا آثارها السيئة على المجتمع. مستخدما في ذلك عدة أساليب :

- أسلوب اللين والحوار الهادئ المتعقل عند محمد العيد.
- أسلوب النفس الطويل عند العقبي .
- أسلوب القسوة والجرأة والتهكم عند السعيد الزاهري.

ووظف الشعر المناسبات الدينية في الأغراض الاصلاحية؛ فلم تكن المناسبة ظاهرة عادية تتكرر كل مدة من الزمن، بل كانت وسيلة اصلاحية تستحضر فيها الأمجاد، ويقارن فيها الحاضر الشقي بالماضي السعيد، وبالمستقبل المرتقب، فيكون الجو ملائما لتحفيز الهمم، وبعث النخوة في النفوس.

لقد كان التغني ببداية العام الهجري رمزا للكفاح العملي ضد الظلم، وكان تمجيد ذكرى بدر باعتبارها نقطة التحول من الكتمان إلى الظهور، ومن الضعف إلى القوة.

وكان الاهتمام بعيدي الفطر والأضحى، ورمضان المعظم، والمولد النبوي، استمدادا لمعاني الفداء والتضحية والثبات والصمود.

وفي تناولنا للقضايا الثقافية والتربوية في الفصل الثاني حاولنا معرفة مواقف الشعراء من العلم نورا للمعرفة، والجهل ظلاما للأمة.

ورأينا في بعض الأشعار تردد صيحات الحث والاستنهاض لتعليم الشباب، وقد ارتبطت تلك الدعوة بالحث على تأسيس المدارس شمسا للعلوم، ووسائل للاصلاح.

وكانت الاشادة بارزة بِكُلّ جهد فكري يدفع عجلة الاصلاح؛ سواء أكان جهدا فرديا أم جماعيا.

ووقف الشعراء موقفا واضحا من اللغة العربية التي تعرضت للأذى، واعتبرت لغة أجنبية، فكان الموقف عند بعضهم ترديدا لصدى دعوات مشرقية يعوزه صدق الاحساس، وعمق التجربة، وتغلب عليه المباشرة والسطحية.

وكان عند بعضهم الآخر وليد الظروف الاستثنائية المتولدة عن القرارات الجائرة التي كان الاستعمار يصدرها سدا للمنافذ أمام اللغة العربية وتنكيلا بمناصريها.

وكانت المواقف كلها تصدر من وجهة دينية تعتبر اللغة أداة الشخصية العربية الاسلامية في مواجهة محاولات المسخ والتشويه.

وقد تغنى الشعراء بالوسائل الثقافية مهما كان نوعها؛ مدرسة،أو ناديا،أو كُتّابا،أو جمعية،أو مطبعة، أوْ صحيفة،أو كِتابا، باعتبارها نوافذ مشرعة في وجه النور والضياء ليغمر ليل الجزائر الحالك بسواد الجهل.

وكانت دعوة الشعراء واضحة إلى تعليم الناشئة وتربيتها على أسس من الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن لمواجهة طوفان المسخ والتشويه الاستعماريين.

* * * * *

ورأينا في الفصل الثالث الذي خصصناه للقضايا الاجتماعية، نظرة الشعراء إلى البؤس بمختلف مظاهره، وبروز اتجاهين في هذا المجال :

اتجاه تقليدي ينظر إلى الواقع نظرة مسطحة غير متعمقة فيها كثير من التشاؤم والسخط.ذلك أن الشاعر التقليدي – على الرغم من نقمته على الأوضاع – نجد قصائده يغلب عليها الدفاع عن الاصلاح ومناصرة الجمعيات الخيرية؛ ولكنها دعوة على شدتها أحيانا تؤمن بواقع الحال فلا تطالب بثورة أو انقلاب.

أما الاتجاه الوجداني فنجد عنده القصائد مغلفة بأجواء من الحزن، وظلال من التعابير الموحية التي تصيب القلوب، فتثير فيها المواجد، وتجعل المستمع يشارك وجدانيا.

لقد حاول الشعراء الوجدانيون الاندماج مع الطبيعة، وتفسير أجوائها المضطربة بضيق الحياة البائسة للفقراء، وركزوا على وصف المعاناة النفسية للفقير، كما شنوا حملة شعواء على المفاسد الاجتماعية.

إن شعر هذا النوع في غالبه هو شعر مضمون لافن، إنه وسيلة إلى الجمهور، مما طبعه بطابع الخطب النثرية التي تحفل بالقوالب المباشرة؛ من موعظة خالية من الشاعرية، ومن روح تقريرية طاغية،تجعل العمل الفني يضمحل ويتقلص أمام طغيان الجانب المضموني.

وأخذت قضية المرأة حظها من قصائد الشعراء، وانطلقت المعالجة من موقف اسلامي يقف ضد السفور والتبرج، ويدعو إلى تهذيب المرأة وتعليمها ما ينفعها لأداء مهمتها.

وتطورت هذه النظرة إلى المرأة خلال الثورة المسلحة، فكانت دعوة الشعراء إلى مساهمتها في المجهود الثوري.

وقد غلب على القصائد الطابع الاصلاحي واعتماد الأدوات الجمالية المؤثرة في متلقي ذي مرجعية فنية متواضعة، فتوسلت الأسلوب الخطابي المباشر، وطغت عليها التقريرية، وهيمنت عليها القيمة الأخلاقية على القيمة الفنية.

ولم نجد في الشعر الاصلاحي قصائد يظهر فيها الصوت النسوي المعبر عن المشاكل الذاتية، والأماني المطروحة، وحرمنا من مقارنة بين نظرتين لقضية واحدة؛ نظرة رجالية تناقش القضية بنوع من الأبوة والوصاية، ونظرة نسوية تحوم في الصدور على شكل همهات ولكنها مبهمة لا تفصح ولا تبين، ولم تصلنا أصداؤها، فقد تكون موجودة؛

وقد يعثر غيرنا من الدارسين على قصائد في هذا المجال، وقد تكون مسجونة عند صاحباتها في ادراج بعض المكتبات الخاصة.

* * * * *

وعالجنا في الفصل الرابع القضايا السياسية، حيث اتضح لنا أن الحركة الاصلاحية لم تتقوقع حول جوانب التربية والتوجيه، ومعالجة القضايا الاجتماعية، بل كان لها موقفها من السياسة تفاعلا مع الأحداث داخليا وخارجيا.

كان الشعر الاصلاحي حاضرا في كل الأحداث السياسية التي تعاقبت على الجزائر، فشارك الشعب آلامه وآماله وعبر عن مآسيه، ووقف يستنهضه للدفاع عن حقوقه.

وكان موقفه واضحا من ذكرى الاحتفال الفرنسي بمرور قرن على الاحتلال، ومن المؤتمر الاسلامي، ومن حوادث الثامن من شهر ماي، ومن التمثيل النيابي وما يرتبط به من انتخابات ونواب.

وقد تصدى للسياسة الاستعمارية وعرى زيفها، وفضح مواقفها، وأبان عن همجيتها.

وكان شعرا ثوريا بعد اندلاع الثورة: سجل وحشية الاستعمار، وأشاد بالمواقف البطولية للشعب الصامد في وجه أداة القمع الجهنمية، وببعض الأحداث المتعاقبة على الثورة في نموها وتطورها، ممجدا بطولات جيش التحرير الوطني، مستبشرا بطرد الغزاة، واسترجاع العزة والاستقلال.

أما في مجال السياسة الخارجية، فقد تجسدت الوحدة المغربية في أشعار الشعراء ومواقفهم، فنجدها مبثوثة في شعر محمد العيد، وأحمد سحنون، وأبي اليقظان، والهادي السنوسي، ومفدي زكرياء وقد تفوق هذا الأخير على الجميع تكرارا والحاحا، ومستوى فنيا لايمانه بهذه الوحدة التي صارت عنده بمثابة العقيدة.

وكان التجاوب مع القضايا العربية،وعلى الرغم من طابع المناسبة التي تكتب القصائد بوحيها والتي من الممكن أن تجعلها خالية من صدق العاطفة وسمو الخيال، إلا أنه على العكس من ذلك نلمح حرارة الانفعال وصدق التجاوب، وسمو الشعور.

ونظر الشعر الاصلاحي إلى فلسطين نظرة اسلامية باعتبارها أرضا مقدسة ترعى

القدس الشريف، فصور كل مظهر من مظاهر قضيتها،ورصد تطوراتها منذ أن تعاظم الخطر الصهيوني، ولم يكن تصوير الشعراء آليا بل عن معايشة وجدانية ومشاركة انفعالية لتشابه الأوضاع.

ولم نجد في هذا الشعر نغمة الصراخ والعويل والبكاء، بل وجدنا شعرا استنهاضيا يلهب الحماس ويقوي الشعور بالعزة والكرامة.

ولم يهمل الشعر الاصلاحي قضايا العالم الاسلامي، فكان الاصرار على تخطي الأسوار والموانع لربط الوشائج والصلات مع الاخوان، فسجل انتصارات الدولة العثمانية، ووقف إلى جانب بعض الشعوب الاسلامية التي كان الأعداء يتربصون بها، مسهما في التعريف ببعض القضايا المحلية في هذه البلدان.

* * * * *

وقد عالجنا في الفصل الأخير القضايا الفنية ضمن محاور أربعة:

ركزنا في المحور الأول على بنية القصيدة الاصلاحية: من خلال نظرة الشعراء إلى حد الشعر، ووظيفته، وموقفهم من الوحدة الموضوعية، والوحدة العضوية، ولاحظنا وجود موقفين : موقف تقليدي يكتفي بمقولة النقاد القدامى في ماهية الشعر، وينظر إلى الشاعر على أنه صاحب رسالة نضالية في المجتمع، وتبرز في بعض قصائده الوحدة الموضوعية، دون العضوية.

وموقف وجداني يربط الشعر بالشعور والاحساس والعاطفة، وبرزت في بعض قصائده الوحدة الموضوعية، إلى جانب الوحدة العضوية لعدة اعتبارات: كالتأثر بالشعراء المشارقة المجددين، وبالشعر المهجري.

وكانت النبرة الخطابية بارزة في القصيدة الاصلاحية: في مطالعها: تحية للحاضرين، وشكوى من الدهر والزمان،واستعمالا لصيغ الطلب والحث والتوجيه، وفي صلب موضوعها: صيغا خطابية، وتكرارا في الألفاظ والجمل. وفي نهايتها: اختتاما بالدعاء أو السلام، أو الحكمة على عادة القصيدة التقليدية.

إن الشاعر الاصلاحي قد ضحى بشيء من الجانب الفني للقصيدة لأنه كان يعيش في صميم الجماهير مأسورا بالحدث الاصلاحي.

وتناولنا في المحور الثاني اللغة الشعرية، التي وجدناها تتوزع إلى تقليدية ووجدانية.

استغلت اللغة الشعرية التقليدية الجانب المعجمي من اللغة من دون استغلال الطاقات الجمالية لها، فكثرت التقريرية والمباشرة، ونقص الايحاء، واقترب الشعر من النثرية لعدة اعتبارات أملتها ظروف الشاعر وبيئته.

وتميزت بالسهولة والوضوح، والمتانة والجزالة، وبالدلالة القاموسية للألفاظ في غالب الأحيان، واستمدت من المشاعر الدينية، ومن الواقع المعاصر، وغلب عليها طابع التهذيب.

أما اللغة الوجدانية فقد انبثقت من المشاعر والأحاسيس، وتسربت إلى القصيدة في البداية على شكل ألفاظ الشكوى والأنين والحزن، ثم تطور المعجم إلى مفردات ايحائية. ومال الشعراء إلى اللغة الهامسة، فحققوا تطورا على تفاوت واضح بين الشعراء أنفسهم.

وخصصنا المحور الثالث للصورة الشعرية، ورأينا من خلاله أن الشعر التقليدي كان محدود الخيال، سطحي الصور، مرتبطا بصور مطروقة، ومستمدة من الذاكرة، فجاءت متسمة بالسطحية والجمود، والاستقلالية والتفكك، وبالطابع التفسيري، وبالحسية التي تصف الأشياء وصفا خارجيا، وبالعقلانية التي يطغى فيها جانب التفكير على التصوير.

واستمدت مصادرها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ومن الأدب العربي القديم، والأمثال، والمادة التاريخية.

أما الشاعر الوجداني فقد اهتم بالتصوير، ومزج ذاته بصوره الشعرية، فأعطى القصيدة ايحاء وحيوية، وأبعدها عن السطحية والرتابة، وجاءت صوره منسوجة بمشاعره الفياضة، مستمدة مصادرها من ذاته، ومن الطبيعة.

وتناولنا في المحور الأخير التشكيل الموسيقي للقصيدة الاصلاحية، ولاحظنا أن روح القصيدة القديمة ظلت مسيطرة في الغالب مع بعض الجوانب التجديدية، كما رأينا سيطرة بحور الكامل والخفيف والرمل والبسيط والطويل على القصائد، مع الاهتمام بالبحور المجزوءة التي تتناسب مع نظم الأناشيد الحماسية.

وكان الاهتمام واضحا بالموسيقى الداخلية، فكانت بعض الكلمات موحية تحس فيها بتلك الشحنات الانفعالية المصبوبة في قوالب التجربة الشعرية، وقد استغل الشعراء ما للغة العربية من ثراء موسيقي، وتناسب بين أجراس الحروف، والملاءمة بين طبيعة المعنى المقصود وطبيعة الصوت الذي يؤديه.

ومهما يكن من أمر، فإن الشاعر الاصلاحي كان صاحب رسالة نضالية وكان الشعر أداتها،مما جعل عنايته بالناحية الفنية أقل حظا منها في الناحية الموضوعية، ونعتقد أن ذلك من وحي التاثر بالنظرة الاسلامية للشعر التي لاترى الشعر تنفسا فنيا مجردا من كل غاية، بل هو تنفس له غاياته التي يجب أن ينطوي فيها. ثم أن العمل الأدبي هو أولا وقبل كل شيء وليد بيئة معينة، بكل ما ترتبط به من ظروف تاريخية وحضارية، ولن نستطيع الحكم عليه أوله إلا من خلال عصره وظروفه.

ونعتبر الشعر الاصلاحي بعثا للشعر العربي لا تجديدا له، وأن حقق بعض مظاهر التجديد في لغته وصوره الشعرية في مراحله الأخيرة.

وإذا كان بعض النقاد ينظرون إلى هذا الشعر على أنه لا يمثل الاجادة الفنية،فإننا نتساءل : ماذا فعل الشعراء غير الاصلاحيين في هذه الناحية في الجزائر أو في بلدان المغرب العربي باستثناء الشابي ؟ ثم ماذا كان حظ الشعر العربي خلال هذه الفترة - أي النصف الأول من القرن العشرين ؟.

ونعتقد أن الشعر الاصلاحي قد انتصر للمضمون في بداية أمره على حساب الفن، لأن الانتصار للمضمون يظهر بصورة بارزة خلال فترات التحول في المجتمعات البشرية والاستعداد للانتقال إلى مراحل أخرى، ومن وضعية قديمة إلى وضعية جديدة لم تتحدد أبعادها ومواصفاتها بصورة جلية.

إن شعراء الاصلاح قد احتسب لهم الزمن موقفهم من ربط القصيدة بينابيعها الشعرية الصافية،واتصالها بجذورها الباسقة، لتفسح المجال بعد ذلك إلى جيل الخمسينيات لينطلق في سماء التجديد، ويفجر بنية القصيدة التقليدية، ويدخل فيها كثيرا من التنوع شكلا ومضمونا.

وقد تطور الشعر الاصلاحي عن الشعر الذي سبقه، وكانت له خصوصياته مع الأدب الذي عاصره مغربا ومشرقا، وقد استطاع مواكبة الحركة الاصلاحية في كل مراحلها،

ملتزما بقضايا الأمة، مفسحا المجال أمام طاقات أخرى تعتمد هذه الأرضية منطلقا للابداع والتجديد،سواء أكان ذلك من داخل صفوف الحركة أم من خارجها.

ونعتقد في الأخير أن هناك جوانب كثيرة من هذا الشعر تحتاج إلى تعمق أكبر من قبل الدارسين.

اضافة إلى أن أشعارا كثيرة ما تزال مغمورة في شكل مخطوطات على مستوى بعض المكتبات الخاصة تنتظر من يزيل عنها غبار السنين، وقد صدق محمد العيد حين قال في وصف الأمجاد الجزائرية -وهو قول ينطبق على المرحلة الأدبية التي تولينا دراستها- :

في حياة الماضين سفر عظات ... فادرسوه بالبحث سطرا فسطرا
إن قوما من الجزائر كانوا ... يملكون الجهات برا وبحرا
ولهم في الهدى وفي العلم شأن ... جاء قوم فأوجسوا منهم نكرا
فرموهم بالشائنات وقالوا ... ما وجدنا لهم من السعي أمرا
وجلا البحث في الثرى عن تراث ... ستروه عن أعين الناس سترا
ويحهم يغمطون آثار شعب ... كان كالنجم مشرقا مشمخرا (1)

1- الديوان، ص 452

المصادر والمراجع

أولا - المصادر

1- آل خليفة، محمد العيد ، ديوان محمد العيد ، محمد علي خليفة، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1979

- مسرحية بلال بن رباح، المطبعة العربية، الجزائر، 1938.

2- آل الشيخ، مفدي زكرياء ، اللهب المقدس، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط3، 1983.

- تحت ظلال الزيتون، دار النشر التونسية، 1965.

3- ابن رحمون، مصطفى ، ديوان ابن رحمون، ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1980.

4- ابن العقون، عبد الرحمن ، ديوان ابن العقون (أطوار) ، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1980

5- أبو اليقظان، ابراهيم بن عيسى ، ديوان ابي اليقظان، المطبعة العربية ، الجزائر، ط1، 1350هـ

- ديوان أبي اليقظان، ج1، ج2، نشر جمعية التراث، غرداية، 1989.

6- باوية، محمد الصالح ، أغنيات نضالية ، ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1971

7- خباشة، صالح ، الروابي الحمر ، ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1971

8- خرفي، د. صالح ، أطلس المعجزات ، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط2 ، 1982

9- خمار، أبو القاسم ، ظلال وأصداء ، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط2 ، 1982

10- الزاهري، محمد الهادي السنوسي ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية، تونس ، 1926

- شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، مطبعة النهضة، تونس ، 1927

11- السائحي، محمد الأخضر ، همسات وصرخات، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط2 ، 1981

12- سحنون، أحمد ، ديوان أحمد سحنون، ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1977

13- مؤيد، صلاح ، الثورة في الأدب الجزائري ، مكتبة النهضة المصرية، 1963

ثانيا : المراجع بالعربية (مؤلفة أو مترجمة)

- الإبراهيمي، محمد البشير ، عيون البصائر ، ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1971، ج2، وسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتاب ، الجزائر ، 1982.

- ابن رشيق، الحسن القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، دار الجيل، بيروت، ط4، 1981.

- ابن كثير ، تفسير ابن كثير، نشر دار القرآن الكريم، بيروت، ط7، 1981.

- ابن منظور ، لسان العرب.

- ابن نبي، مالك ، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط3، 1969.

- أزراج ، عمر ، الحضور، م.و.ك ، الجزائر، 1983.

- اسماعيل، د. عزالدين ، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط3، 1981.

- الأعرجي ، د. محمد حسين ، الصراع بين القديم والحديث في الشعر العربي، وزارة الثقافة والفنون، العراق، 1978

- أمين، أحمد ، النقد الأدبي ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ط4، 1967

- أمين قاسم ، تحرير المرأة، موفم للنشر ، الجزائر ، 1990

- بوحجام ، محمد ناصر، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، المطبعة العربية ، غرداية (الجزائر)، 1992

- تركي ، د. رابح ، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ش. و. ن. ت. الجزائر، ط2، 1981.

الجابري ، محمد صالح ، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ليبيا ، 1983 .

- الجلالي ، محمد بن العابد ، تقويم الأخلاق ، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، يناير 1927.

- جوليان ، شارل أندري ، افريقيا الشمالية تسير ، مترجم ، الدار التونسية للنشر، ش. و. ن. ت. الجزائر ، 1976

- جيدة ، د. عبد الحميد ، الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، لبنان ، ط1، 1980.

- الجيزاوي، د. سعد الدين محمد ، العامل الديني في الشعر المصري الحديث، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة، 1964.

- الحاجري ، د. محمد طه ، جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1968.

- حافظ، ابراهيم، ديوان حافظ ابراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، 1937.
- حسنين، د. محمد محمد، الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، ط2، 1962.
- الحوفي، أحمد محمد، التراث الروحي والشعر الحديث، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1965.
- خرفي، د. صالح، - الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
- شعراء من الجزائر، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1969
- صفحات من الجزائر، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1973
- الخطيب، أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، م. و. ك. الجزائر، 1985
- داود، أحمد يوسف، لغة الشعر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980.
داود، د. أنس، التجديد في شعر المهجر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967
- دبوز، محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1978.
- نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة العربية، الجزائر، 1971
- ركيبي، د. عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، ش. و. ن. ت. الجزائر، ط1، 1981
- الشاعر جلواح من التمرد الى الإنتحار، م. و. ك. الجزائر، 1986
- القصة الجزائرية القصيرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط3، 1977.
- قضايا عربية في الشعر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط3، 1977.
- رمضان، حمود، بذور الحياة، تونس، 1928.
الزاهري، محمد السعيد، الإسلام في حاجة الى دعاية وتبشير، دار الكتب، الجزائر، 1983.
- زكي، أحمد كمال، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس، ط2، حزيران، 1980.
- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، شرح المعلقات، دار بيروت، 1980.
- السامرائي، د. ابراهيم، لغة الشعر بين جيلين، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
- السحرتي، مصطفى عبد اللطيف، النقد الأدبي من خلال تجاربي، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1962.
- السعافين، د. ابراهيم، مدرسة الأحياء والتراث، دار الأندلس، لبنان، د. ت.

- سعد الله ، د. أبو القاسم ، شاعر الجزائر محمد العيد ، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، 1984.

- الحركة الوطنية الجزائرية ، ج2، ش. و. ن. ت. الجزائر ، ط2، 1983.

- الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، 1986.

- دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الآداب، بيروت، ط2، 1977.

- تجارب في الأدب والرحلة ، م. و. ك. الجزائر، 1983.

- سلامة، يسري محمد ، عبد الرحمان شكري شاعر الوجدان ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، مصر، 1966.

- سلمان، د. نور ، الأدب الجزائر في رحاب الرفض والتحرير ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1، 1981

- السوافيري ، د. كامل ، الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، ط1، 1964.

- سويف ، د. مصطفى ، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4، 1981.

- الشايب ، أحمد ، الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط4 ، 1956.

- الصالح ، د. صبحي ، منهل الواردين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، د. ت.

- ضيف، د. شوقي ، في النقد الأدبي ، دار المعارف بمصر ، ط5، 1977.

- طبانة ، د. بدوي ، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1985

- عباس ، د. احسان ، فن الشعر ، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1979.

- عباس، فرحات ، ليل الإستعمار، ت. أبوبكر رحال مطبعة فضالة، المغرب، د.ت.

- عبد الله، د. محمد حسن ، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1981.

- العسكري، أبو هلال ، كتاب الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981.

- العشماوي، د. محمد زكي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار الكاتب العربي، 1967.

- الرؤيا المعاصرة في النقد والأدب، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.

- عصفور، د. جابر، مفهوم الشعر، المركز العربي للثقافة والعلوم، مصر ، 1982.

- العقاد ، محمود عباس ، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1950.

- العقون، عبد الرحمان، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج2، م.و.ك، 1984.

- عوني، د. محمد عبد الرؤوف، القافية والأصوات اللغوية ، مكتبة الخانجي، مصر، 1977.

- عياد، د. محمد شكري ، موسيقى الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، 1968.

- فشوان، د. محمد سعيد ، مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1982.

- فريد ، محمد ، من مصر الى مصر، مطبعة الموسوعات ، مصر، 1319هـ القسم الأول والثاني.

- القسطلاني ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، دار صادر، 1305هـ.

- قطب ، سيد ، النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت، ط3، 1980.

- القط، د. محمد عبد القادر ، الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1981.

- قميحة ، د . مفيد ، الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1981.

- قنانش ، محمد ، الحركة الإستقلالية في الجزائر بين الحربين، 1919-1945، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1982

- المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية في فجر النهضة الحديثة، ش. و. ن. ت. الجزائر، د. ت.

- الكيلاني، د. نجيب ، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1981.

- المدني، أحمد توفيق ، كتاب الجزائر، دار الكتاب، الجزائر، ط2، 1963.

- هذه هي الجزائر، دار النهضة المصرية، 1956.

- حياة كفاح، القسم الثاني، ش.و.ن.ت، الجزائر 1977.

- المسدي، عبد السلام ، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983.

- مصايف، د. محمد، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1979.

- جماعة الديوان في النقد، مطبعة البعث، قسنطينة (الجزائر) 1974

- فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، ش.و. ن. ت، الجزائر، ط2، 1981.

- المقالح، د. عبد العزيز، عمالقة عند مطلع القرن، دار الأداب، بيروت، ط1، 1984.

- المقدسي ، د. أنيس ، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، ط 7، 1981.

- الملائكة ، نازك ، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين. بيروت، ط6، 1981.

- شعر علي محمود طه ، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1964.

- مندور، محمد ، في الميزان الجديد، مؤسسات ع. بن عبد الله، تونس، ط 1، 1988.

- مورية ، س ، حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث ، ترجمة سعد مصلوح ، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1969.

- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، مطبعة السعادة بمصر، ط 2، 1959.

- الميلي، مبارك ، رسالة الشرك ومظاهره، مكتبة النهضة الجزائرية، ط 2، 1966.

- ناصر، د. محمد ، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ش. و. ن. ت. الجزائر 1980.

- رمضان حمود، حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، 1985.

- الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1، 1985.

- المقالة الصحفية الجزائرية، ش. و. ن. ت. الجزائر 1978.

- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، المطبعة العربية، غرداية (الجزائر)، 1984.

- الصحف العربية الجزائرية، من 1849 إلى 1939، ش. و. ن. ت. الجزائر 1980.

- ناصف، علي النجدي ، الدين والأخلاق في شعر شوقي، مكتبة نهضة مصر، ط 2، 1964.

- ناصف، د. مصطفى، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط 3، 1983.

- النويهي، د، محمد، قضية الشعر الجديد، القاهرة، 1964.

- هلال، د، محمد غنيمي، الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، ط 6، 1981.

- الهمامي الطاهر، كيف نعتبر الشابي مجددا، الدار التونسية للنشر، ط 3، 1985.

ثالثا : الرسائل الجامعية (مخطوطة)

1 - ابن سمينة، محمد ، محمد العيد، شعره الاسلامي، رسالة ماجيستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1985.

2 - ابن غلاب، مبروك، الصورة الشعرية عند محمد العيد آل خليفة، رسالة ماجيستير مخطوطة، جامعة القاهرة، 1988.

3 - بوطارن ، محمد الهادي ، رمضان حمود، وحياته الأدبية، رسالة ماجيستير (مخطوطة) ، جامعة الاسكندرية، 1988.

4 - دوب، رابح ، مبارك جلواح بين الأحياء والتجديد، رسالة ماجسيتير (مخطوطة) جامعة القاهرة، 1988.

5 - سلام ، سعيد ، أثر جمعية العلماء الجزائريين في الحركة الأدبية في الجزائر، رسالة ماجيستير (مخطوطة) جامعة عين شمس، 1979.

6 - شرفي، أحمد ، الشعر الوطني الجزائري، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر 1979/1978.

7 - عجالي ، كمال، ديوان أبي بكر مصطفى بن رحمون توثيق ودراسة، رسالة ماجيستير، مخطوطة، جامعة باتنة، 1985.

8 - الغماري، مصطفى ، الصورة الشعرية في شعر شوقي، رسالة ماجيستير (مخطوطة)، جامعة الجزائر، 1984.

9 - غنام، عبد الحميد ، محمد الهادي السنوسي الزاهري، حياته وشعره ، دبلوم الدراسات المعمقة جامعة الجزائر، 1986.

10 - فروجي، رابح ، أدب محمد السعيد الزاهري، رسالة ماجستير (مخطوطة)، جامعة عين شمس، 1989.

11 - قرش، عبد القادر، أدب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، 1931 - 1956، رسالة ماجيستير، جامعة بغداد، 1983.

12 - مربيعي الشريف، عبد الكريم العقون شاعرا، رسالة ماجيستير (مخطوطة)، كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1988.

رابعا : الدوريات (جرائد ومجلات)

أ - الدوريات الجزائرية :

1 - مجلة آمال : ع : 37(1977)، ع : 55 (1982).

2 - مجلة الأصالة : (وزارة الشؤون الدينية)

ع 33 (ماي 1976) ع : 61/60، أوت، سبتمبر 1978 ع : 62، مارس، أفريل، 1981

ع 84/83 (ماي 1980) ع : 90/89، جانفي، فيفري 1981.

3 - مجلة الاصلاح : (لصاحبها الطيب العقبي)

ع 2، 1929/9/5 ع 3، 1929/9/19 ع 4، 1929/10/3 ع 6، 1929/10/24

ع 7، 1929/11/7 ع 10، 1930/1/2 ع 12، 1930/2/1 ع 13، 1930/2/27.

ع 55، 1947/5/11 ع 62، 47/12/23

4 - جريدة البرق (للسعيد الزاهري) :

ع 2، 1927/3/24 ع 12، 1927/5/23 ع 18، 1928/7/11

ع 19، 1927/7/17 ع 20، 1927/7/24 ع 23، 1928/8/15

5 – جريدة البصائر (السلسلة الأولى) :

ع 1، 35/12/27	ع 9، 1936/2/28	ع 21، 36/5/22	ع 24، 36/6/19
ع 30، 36/7/31	ع 31، 36/8/7	ع 32، 36/8/28	ع 35، 36/9/18
ع 38، 36/10/9	ع 44، 36/11/29	ع 47، 36/12/11	ع 49، 37/1/1
ع 69، 37/5/28	ع 78، 37/8/13	ع 79، 37/8/20	ع 83، 37/9/30
ع 87، 37/11/19	ع 95، 38/11/14	ع 100، 38/2/18	ع 101، 38/2/25
ع 103، 38/3/11	ع 108، 38/4/15	ع 124، 38/7/29	ع 139، 38/11/11
ع 150، 39/1/27	ع 151، 39/2/4	ع 157، 39/3/17	ع 162، 39/4/21

6 – جريدة البصائر (السلسلة الثانية) :

– ع 1، 47/7/25	– ع 7، 47/9/19	– ع 8، 47/9/26	– ع 13، 47/11/10
– ع 14، 47/11/17	– ع 16، 47/12/22	– ع 18، 48/1/15	– ع 20، 48/1/19
ع 22، 48/2/9	– ع 23، 48/2/16	– ع 24، 48/2/23	– ع 25، 48/3/1
– ع 26، 48/3/8	– ع 30، 48/4/5	– ع 33، 48/4/26	– ع 40، 48/6/21
– ع 43، 48/7/12	– ع 44، 48/7/26	– ع 49، 48/9/13	– ع 51، 48/9/27
– ع 53، 48/10/18	– ع 55، 48/11/1	– ع 71، 49/3/14	– ع 73، 49/3/28
– ع 75، 49/4/11	– ع 79، 49/5/9	– ع 85، 49/7/4	– ع 90، 49/9/9
– ع 93، 49/10/31	– ع 94، 49/11/7	– ع 99، 49/12/19	– ع 106، 50/2/6
– ع 108، 50/2/20	– ع 112، 50/3/20	– ع 113، 50/3/27	– ع 114، 50/4/3
– ع 119، 50/5/15	– ع 138، 51/1/15	– ع 140، 51/2/5	– ع 145، 51/3/5
– ع 147، 51/3/19	– ع 154، 51/5/7	– ع 155، 51/5/14	– ع 158، 51/6/4
– ع 159، 51/6/11	– ع 169، 51/9/10	– ع 171، 51/9/27	– ع 175، 51/11/26
– ع 178، 52/1/7	– ع 181، 52/2/21	– ع 183، 52/2/18	– ع 189، 52/5/12
– ع 194، 52/6/23	– ع 211، 52/12/19	– ع 220، 53/3/6	– ع 222، 53/3/20
– ع 230، 53/5/22	– ع 231، 53/5/29	– ع 244، 53/10/23	– ع 248، 53/4/20
– ع 250، 53/2/11	– ع 256، 54/1/29	– ع 259، 54/2/19	– ع 261، 54/3/5
– ع 274، 54/6/11	– ع 278، 54/7/9	– ع 285، 54/9/17	– ع 296، 54/12/10

- ع 312، 55/4/1 - ع 317، 55/5/6 - ع 319، 55/5/20 - ع 331، 55/9/2
- ع 346، 55/12/23 - ع 351، 56/1/27 - ع 355، 56/2/24 - ع 358، 56/3/16

7 - مجلة الثقافة (وزارة الثقافة الجزائرية) :

- ع 7، مارس 1972 - ع 14، أفريل، ماي 73 - ع 23، أكتوبر، نوفمبر 73
- ع 24، جانفي 75 - ع 30، ديسمبر، جانفي 76 - ع 37، فيفري، مارس 77
- ع 42، ديسمبر 77 - ع 63، يونيو 1981 - ع 66، نوفمبر، ديسمبر 81
- ع 79، يناير، فبراير 84

8 - مجلة الرؤيا (اتحاد الكتاب الجزائريين) :

ع 2، صيف، خريف 1981

9 - الشباب الجزائري : ع 12، ماي 1966

10 جريدة الشعب :

- ع 3535، 75/4/22 - ع 5265، 80/10/16 - ع 7290، 87/3/24
- ع 8046، 89/9/13 - ع 8047، 89/9/14

11 - الشعب الأسبوعي : - ع 36، مارس 76، - ع 45، 76/10/28

12 - الشعب الثقافي : - ع 4، 1972/8/5

13 - جريدة الشهاب (لعبد الحميد بن باديس) :

ع 6، 25/12/17 - ع 8، ديسمبر 25 - ع 13، 26/2/4 - ع 34، جانفي 26
ع 53، 26/9/6. - ع 57، 26/9/20 - ع 66، 26/11/7 - ع 78، 27/1/6.
ع 76، 27/1/13. - ع 81، 27/1/27 - ع 83، 27/2/10 - ع 85، 27/2/24
ع 86، 27/3/3 - ع 101، 27/6/16 - ع 108، 27/8/4 - ع 158، أوت 28

14 - مجلة الشهاب :

- ج 10، مج 5، نوفمبر 29 - ج 12، مج 5، جانفي 1930 - ج 1، مج 6، فيفري 1930
- ج 7، مج 6، أوت 30 - ج 11، مج 6، ديسمبر 30 - ج 1، مج 7، فيفري 1931
- ج 10، مج 7، أكتوبر 31 - ج 7، مج 8، جويلية 32 - ج 10، مج 8، أكتوبر 32
- ج 5، مج 10، أفريل 34 - ج 9، مج 10، أوت 34 - ج 1، مج 11، أفريل 35

ـ ج 5، مج 11، أوت 35 ـ ج 11، مج 11، فيفري 36 ـ ج 4، مج 12، جويلية 36
ـ ج 6، مج 12، أوت 36 ـ ج 9، مج 12، ديسمبر 36 ـ ج 10، مج 12، جانفي 37
ـ ج 1، مج 13، مارس 37 ـ ج 3، مج 13، ماي 37 ـ ج 4، مج 13، جوان 37
ـ ج 5، مج 13، جويلية 37 ـ ج 6، مج 13، أوت 37 ـ ج 7، مج 13، سبتمبر 37
ـ ج 8، مج 13، أكتوبر 37 ـ ج 10، مج 13، ديسمبر 37 ـ ج 11، مج 13، جانفي 38
ج 1، مج 14، مارس 38 ـ ج 4، مج 14، جوان 38 ـ ج 7، مج 14، سبتمبر 38
ـ ج 9، مج 14، نوفمبر 38 ـ ج 3، مج 15، أفريل 39 ـ ج 7، مج 15، أوت 39

15 صدى الصحراء : - ع 11، 26/3/1 ، - ع 13، 26/3/29

16 - الصديق : - ع 36، 21/5/30 ، - ع 37، 21/6/6

17 - مجلة كلية الآداب : - ع 1، 1964.

18 - لسان الدين : - ع 5، 23/1/20، - ع 11، 23/3/13

19 - الليالي : - ع 15، 37/1/10

20 - المجاهد الأسبوعي : - ع 6، 66/2/26 ، - ع 1513، 89/8/4

21 - المجاهد الثقافي :
ع 11، 1970، - ع 12، ماي 1970 ، - ع 16، 1970، - ع 17، 1971:

22 - المرصاد : - ع 1، 1931/12/27

23 - جريدة المساء : - ع 198، 1986/5/20

24 - جريدة المنار :
س 1، ع 9، 1951/10/5 - س 2، ع 4، 52/5/27 - س 3، ع 4، 53/5/8

25 - جريدة المنتقد : ع 1، 1925/7/2 - ع 8، 1925/8/20 - ع 15، 25/10/8

26 - جريدة النجاح :

ع 152، 84/3/8	ع 154، 24/4/11	ع 170، 24/8/15	ع 214، 25/6/26
ع 215، 25/7/3	ع 299، 26/5/21	ع 498، 27/9/30	ع 642، 28/9/23
ع 691، 29/1/18	ع 692، 29/1/21	ع 726، 29/4/17	ع 733، 29/5/3
ع 782، 29/9/4	ع 820، 29/12/2	ع 828، 29/12/20	ع 1304، 32/5/13
ع 1975، 37/3/31	ع 1977، 37/4/7	ع 1979، 37/4/8	ع 1985، 37/4/23
ع 2057، 37/10/16			

27 جريدة النصر : ع 2712، 1980/10/19

28 - جريدة النور :

ع 18، 32/1/19	ع 19، 32/1/26	ع 20، 32/2/2
ع 24، 32/3/8	ع 28، 32/4/5	ع 29، 32/4/12
ع 34، 32/5/24	ع 35، 32/5/31	ع 43، 32/7/26
ع 48، 32/8/30	ع 49، 32/9/6	

29 - مجلة هنا الجزائر

ع 5، سبتمبر 52	ع 8 ، ديسمبر 52	ع 9، جانفي 53
ع 16، أوت 53	ع 26، جويلية 54	ع 32، فيفري 55
ع 34، أفريل 55	ع 36، جوان 55	ع 44، مارس 56
ع 45، أفريل 56	ع 47، جوان 56	ع 54، مارس، أفريل 56
ع 79، أوت 59		

30 - جريدة وادي ميزاب :

ع 1، 26/10/1	ع 4، 26/10/22	ع 9، 26/11/26	ع 11، 26/12/10
ع 12، 26/12/17	ع 17، 27/1/21	ع 22، 27/3/4	ع 25، 27/3/25
ع 36، 27/6/18	ع 44، 27/8/12	ع 47، 27/9/2	ع 62، 27/12/23
ع 70، 28/2/17	ع 78، 28/4/6	ع 83، 28/5/18	ع 87، 28/6/15
ع 88، 28/6/22	ع 89، 28/6/29	ع 90، 28/7/10	ع 91، 28/7/13
ع 92، 28/7/21	ع 93، 28/7/27	ع 95، 28/9/10	ع 97، 28/8/25
ع 98، 28/8/31	ع 99، 28/9/7	ع 100، 28/9/14	ع 102، 28/9/28

ب - الدوريات العربية :

1 - الأقلام (العراقية) ج 5، س6، شباط،1970.

2 - الدوحة (القطرية) : ع 89، ماي 1983.

3 - الرسالة (المصرية) : س4، ع 135، 1936/2/3.

خامسا : المراجع الأجنبية

-Julien, Charles - André, Histoire de l'afrique contemporaire, 2 éme edition.

P.U.F. Paris, 1979.

-Merad, Ali, Le reformisme musulman en Algerie de 1925 - 1940

Mouton et Cou, Paris, 1967.

-Jean, Déjeux, La poesie Algerienne de 1830 à nos jours, 2 éme edition, edition publi-sud, Paris, 1982.

فهرس الأعلام

-أ-

- ب -

-ن-

-هـ-

-و-

-ي-

فهرس الموضوعات